بلزاك

الملهاة الانسانية



العازبون

الرواية الثالثة

المتصيِّدة

دراسات طبائع

مشاهد من حياة المقاطعات

ترجمة

ميشيل خوري

روايات بلزاك . ٣



بلزاك

الملهاة الإنسانية

العازبون

الرّواية الثّالثة

المتصيِّدَة

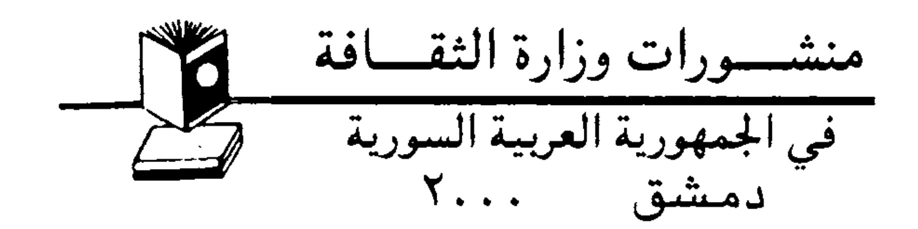
نوسيك

دراسات طبائع

مشاهد من حياة المقاطعات

ترجمة

ميشيل خوري



منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ٢٠٠٠

العنوان الأصلي للكتاب

BALZAC

La Comédie humaine

LES CÉLIBATAIRES

LA RABOUILLEUSE

Etudes de Moeurs

Scènes de la vie de Province

الملهـاة الإنسـانيـة = La Comédie humaine/ بلزاك؛ ترجـمـة مـيـشـيل خـوري. - دمشق: وزارة الثقافة، ٢٠٠٠. - [٣ج]؛ ٢٤ سم. - (روايات بلزاك؛ ٢٨-٣٠).

المحتـوى: العـازبون. - الرواية الأولى: بيـريت، الرواية الثـانيـة: كـاهن تور، الرواية الثالثة: المتصيدة.

١- ٨٤٣ ف ب ل ز م ٢- العنوان الأول ٣- العنوان الموازي

٤- العنوان الثاني ٥- العنوان الثالث ٦- العنوان الرابع

٧- العنوان الخامس ٨- بلزاك ٩- خوري

١٠- السلسلة مكتبـة الأسـد

الايداع القانوني: ع - ١٤٠٤/ ٨/ ٢٠٠٠

روايات بلزاك

« ٣٠ »

الإهداء

إلى السيد شارل نوديه

عضو الأكاديمية الفرنسية،
القيّـم في مكتبة الأرسنال

هوذا يا عزيزي نوديه[1] مؤلف مليء بهذه الوقائع التي لم تطلها سلطة القوانين لاحتجابها ضمن الأسرار العائلية، لكن حيث إصبع الله المسماة غالباً المصادفة تقوم مقام العدالة البشرية[2]؛ وحيث مبادئ الأخلاق، رغم أنها قيلت من قبل شخص ساخر لم تكن أقل تثقيفاً وتأثيراً؛ مما ينتج عنه في رأيي إرشادات قيّمة للعائلة وللأمومة. قد نلاحظ متأخرين الآثار الناتجة عن تناقص السلطةالأبوية. هذه السلطة التي لم تكن تتوقف سابقاً إلا بموت الأب، وكانت تشكل المحكمة البشرية الوحيدة التي تدين الجرائم العائلية، وفي الظروف الكبرى،

---

(١) شارل نوديه: (١٧٨٠-١٨٤٤): أديب فرنسي له روايات سوداء، وخارقة، مهدت السبيل أمام السوريالية كانت تضم أمسياته في مكتبة الأرسنال الكتاب الرومنسيين. قدم له بلزاك هذا الإهداء في أواخر العام ١٨٤٢ وانتقده الفرد آسلين بشدة A.Asseline في مقال ظهر في مجلة باريس (كانون الثاني ١٨٤٣).

(٢) إصبع الله: أشار بلزاك إلى هذه الفكرة عدةمرات في مؤلفاته، وخاصة في **امرأة في الثلاثين**.

تسـاندها الملكيـة في تنفـيـذ قـراراتهـا . والأم، أياً كـان حنانـهـا وطيبتها، لا تحل محل هذه الملكية الأبوية، كما أن الملكة لا تحل محل الملك على العرش، وإن حدث مثل هذا الاستثناء نتج كائن مشوَّه.

ربما لم أرسم لوحة تبرز أكثر من هذه اللوحة مدى ضرورة الزواج غير المنفصم العرا للمجتمعات الأوروبية، ومدى تعاسات الضعف الأنثوي والأخطار المترتبة على المصلحة الشخصية حين تكون دون كوابح. فليرتعش المجتمع القائم فقط على قدرة المال بملاحظته عجز العدالة أمام تركيبات نظام يؤله النجاح بتبرير جميع الوسائل المؤدية إليه! فليهرع هذا المجتمع سريعاً إلى الكاثوليكية لتطهير الجماهير بالعاطفة الدينية، وبثقافة مختلفة عن ثقافة الجامعة العلمانية[١]. كفانا طباعاً جميلة، وكفى ماسيتجلى من تضحيات كبيرة ونبيلة في **مشاهد من الحياة العسكرية** ليسمح لي بالإشارة هنا إلى مدى ماتسببه ضرورات الحرب من فساد في بعض النفوس، التي تجرؤ في الحياة الخاصة أن تتصرف كما في ميدان القتال.

ألقيت على عصرنا نظرة ثاقبة تكشف فلسفتها عن نفسها بأكثر من فكرة مريرة تبرز عبر صفحاتك الأنيقة، وقدرت أكثر من أي إنسان الأضرار التي ألحقتها بروح وطننا أربعة أنظمة سياسية مختلفة. وهكذا لن يمكنني أن أضع هذه الرواية تحت حماية سلطة أكثر كفاءة، ورربّما يحمي اسمك هذا المؤلف من اتهامات لن تنقصه[٢]: فأين هو

---

(١) يلاحظ ب. سيترون P.Citron أن مثل هذا الإيمان لايظهر في الرواية؛ لكن هذا النص المعاصر عملياً لمقدمة الملهاة الإنسانية التي طرحت الأفكار ذاتها هو إتخاذ موقف مناسب للترشيح للأكاديمية.

(٢) الواقع أن ألفريد آسلين هاجم بصورة خاصة هذه العبارة في مقاله عندما قال: «بالتأكيد ما من شيء يمكن أن يدافع عن مثل هذا المؤلف حتى ولاسمعة نقية شهيرة. فأسلوب بلزاك يدعو للرثاء، فهو ثقيل ومتحيز، وغير مفهوم غالباً.»

المريض الذي سيبقى صامتاً عندما يرفع الطبيب الجراح الضمادة عن جراحه الأكثر نزفاً؟ .

مع الغبطة في إهدائك هذا المشهد يقترن الاعتزاز بحسن رعايتك[1] لمن يعتبر نفسه هنا .

أحد أخلص المعجبين بك

دي بلزاك[2].

(١) في ١٠ تشرين ثاني ١٨٤٢ استقبل نوديه الأكاديمي بالترحيب ترشيح بلزاك للأكاديمية .

(٢) في الواقع أن بلزاك فكر بإهداء هذا المؤلف أولاً إلى جان مارغون . لكنه أحس بما في هذا الإهداء من التباس لعشيق أمه ووالد أخيه هنري غير الشرعي . ثم فكر بالإهداء إلى أوجين دلاكروا . وأخيراً اقتضت الظروف اهداءه إلى نوديه خاصةعندما دعم ترشيحه للأكاديمية .

رواية المتصيدة

في العام ١٧٩٢ ، حظيت بورجوازية مدينة إيسودون[1] بطبيب يسمى روجه أعتبر من الرجال الأكثر مكراً، ووفقاً لما تجرأ بعض الأشخاص على قوله، كان مصدر تعاسة لزوجته بالرغم من أنها أجمل امرأة في المدينة. لكن ربما اتصفت ببعض الحمق. ورغم تحقيق الأصدقاء وثرثرة الحياديين، واغتياب الحساد، فإن حياة هذه العائلة الخاصة كانت مشوبة بالغموض. فالدكتور روجه هو أحد هؤلاء الأشخاص ممن ينطبق عليه القول دون تكلف: «إنه ليس هيّناً» لهذا كانوا يتجنبون الحديث عنه ويواجهونه بشكل عادي. أما تلك المرأة وهي من عائلة دكوان فقد كانت نحيفة قبل زواجها (وقيل إن هذا أحد الأسباب التي دفعت الطبيب إلى الزواج منها) ورزقت أولاً صبياً، ثم ابنة، شاءت الصدف أن تولد بعد عشر سنوات من ولادة أخيها، ولم يكن الدكتور، على ما تردد عنه دائماً، يتوقع هذه الولادة رغم أنه طبيب. وسميت هذه الإبنة التي جاءت متأخرة أغات. هذه الوقائع الصغيرة البسيطة، العادية، حتى ليبدو أن لاشيء يبرز لمؤرخ أن يضعها في مطلع قصة، لكن إن لم تعرف فإن رجلاً من معدن الدكتور روجه سيحكم عليه كوحش، أو كأب قاس، في حين أنه يستجيب صراحة إلى نوازع سيئة يخفيها كثير من الأشخاص، وراء تلك البديهية الرهيبة: «على الرجل أن يكون صلباً!» هذه الحكمة الذكورية سببت التعاسة لكثير من النساء. وكان آل دكوان، حمو الطبيب وحماته، سماسرة صوف، يقومون ببيع جزز صوف منطقةبري وشرائها للتجار، ويتقاضون من الجهتين حقوق السمسرة، واكسبتهم هذه المهنة ثروة، وميزتهم بالبخل: وهي صفة كثير من الكائنات. ولم ترق مدينة ايسودون لدكوان الابن، الأخ الأصغر للسيدة روجه. فذهب يسعى للثروة في باريس؛ وفتح بقالية في شارع سان - أونوره.

---

(١) ايسودون: إحدى مدن مقاطعة الإندر في وسط فرنسة إلى الجنوب من باريس.

وكان في ذلك ضياعه. لكن ما العمل؟ إن البقال ينجذب نحو تجارته بقوة آسرة تعادل قوة النبذ التي تبعدالفنانين عنها. لم تتم بما فيه الكفاية دراسة القوى الاجتماعية التي تشكل مختلف الميول المهنية. ومما يثير الفضول معرفة ما يدفع رجلاً إلى القرطاسية بدلاً من الخبازة، في زمن لم يعد فيه لزاماً على الأبناء بالضرورة العمل في مهنة آبائهم كقدماء المصريين. ودعّم الحب الميل المهني لدى دكوان. فقال في نفسه: وأنا أيضاً سأكون بقالاً! يقول هذا وهو يفكر بشيء آخر إذ يرى سيدته، المخلوقة الساحرة الجمال التي أغرم بها بشغف. ودون أي عون إلا الصبر، والقليل من المال الذي أرسله له أبوه وأمه، تزوج أرملة السيد بيكسيو سلفه. وفي العام ١٧٩٢ اعتبر دكوان الابن رجلاً مؤهلاً لأعمال تجارية فائقة. وكان العجوزان دكوان آنذاك على قيد الحياة، وتركا تجارة الصوف ليستغلا أموالهما في شراء سندات على الحكومة: وهو مجال آخر لجني الذهب! وكان صهرهما واثقاً تقريباً من أنه سيفقد قريباً زوجته، فأرسل ابنته إلى خالها في باريس، تدفعه فكرة ثاقبة تعادل رغبته في أن ترى ابنته العاصمة. فدكوان ليس لديه أولاد، والسيدة دكوان تكبر زوجها باثني عشر عاماً، ممرعة صحة وعافية، لكنها امتلأت شحماً كسمُّنة بعد القطاف، وروجه الماكر يعرف من الطب مايكفي ليتوقع للسيد والسيدة دكوان، خلافاً لما تقول به حكايات الجن، العيش السعيد إنما دون أن يرزقا أولاداً. هذان الزوجان يمكن أن يتعلقا بشغف بأغات، والواقع أن الدكتوو روجه كان راغباً في تجريد ابنته من ميراثها، وأمل الوصول إلى هدفه بتغريبها. وكانت هذه الشابة قد غدت أجمل فتاة في إيسودون، ولاتشبه أباها أو أمها. وسببت ولادتها خلافاً دائماً بين الدكتور روجه وصديقه الحميم السيد لوستو؛ الوكيل الموفد(١) الذي غادر إيسودون. عندما تهاجر عائلة فإن سكان البلاد المقيمين، المفعمين بالإغراء الذي تثيره فيهم مدينة كإيسودون، لهم الحق في تقصي أسباب تصرف بمثل هذه الغرابة. ووفقاً لقول بعض الألسنة الذربة، فإن السيد روجه

(١) الوكيل الموفد: هو موظف في الإدارة الملكية القديمة يقوم في المدن الثانوية في المناطق بدور مدير المنطقة ويتبع معتمد المقاطعة.

الرجل الحقود، هتف بأن لوستو لن يموت إلا بيده. هذه الكلمة يطلقها طبيب لها وقع كرة مدفع. وعندما ألغت الجمعية الوطنية وظيفة الوكيل الموفد، غادر لوستو إيسودون نهائياً. ومنذ رحيل تلك العائلة، أخذت السيدة روجة تقضي كل وقتها لدى أخت الوكيل الموفد السابق، السيدة هوشون، عرّابة ابنتها، ، وهي الشخص الوحيد الذي تفضي له بهمومها. وهكذا فإن القليل الذي عرفته مدينة إيسودون عن السيدة روجه الفاتنة قيل من قبل تلك السيدة، ودائماً بعد وفاة الطبيب.

كانت أول كلمة نطقت بها السيدة روجه عندما حدثها زوجها عن إرسال أغات إلى باريس: «لن أرى بعد اليوم ابنتي!».

كانت السيدة المحترمة هوشون تقول عندئذ: «وللأسف كانت على حق».

غدت الأم المسكينة شاحبة كسفرجلة، ولم تكذب حالتها أبداً أقاويل من يدعون أن روجه يقتلها ببطء. وساهمت تصرفات ابنها، ببلادته الكبرى في إتعاس هذه الأم المتهمة ظلماً؛ فهذا الفتى الأحمق كلياً، القليل الإحتراس، ربما بتشجيع أبيه، لم يكن يظهر الرعاية، أو الاحترام الواجب على الابن لأمه. فجان جاك روجه يشبه أباه إنما في السوء، والطبيب لم يكن جيداً أخلاقياً أو جسدياً.

لم يحمل وصول الظريفة أغات روجه أبداً حظاً طيباً لخالها دكوان. ففي الأسبوع الأول أو بالأحرى في الأيام العشرة الأولى من وصولها (كانت الجمورية قد أعلنت) اعتقل دكوان بكلمة من روبسبيير لفوكيه ـ تينفيل. فقد دفعه التهور للاعتقاد بأن الجوع السائد متكلف، وتملكته الحماقة فصرح برأيه للزبائن والزبونات وهو يؤمن لهم مطالبهم (فكر أن الآراء غدت حرة). وكانت المواطنة دولاي زوجة النجار الذي يقيم لديه روبسبيير، والتي تقوم بتنظيف مكان إقامة هذا المواطن الكبير تشرِّف، لسوء حظ دكوان، مخزن هذا الوافد من بري، زبونة له. ورأت هذه المواطنة في تصريح البقال إهانة لمكسميليان الأول[1]. ولم تكن كثيرة الرضى عن تصرفات الزوجين دكوان؛ فهذه الحباكة الشهيرة في نادي اليعاقبة كانت تعتبر

(١) سخرية من روبسبيير، فاسمه (مكسميليان دي روبسبيير). (ملاحظة المترجم).

جمال المواطنة دكوان نوعاً من الارستقراطية وسممت أحاديث آل دكوان وهي ترددها على مسامع سيدها الطيب الناعم.

أوقف البقال بتهمة **الاحتكار** المبتذلة؛ وأودع السجن وتحركت امرأته لتحريره. لكن مساعيها كانت جد طائشة، حتى أن الملاحظ الذي يستمع إليها تتحدث إلى الوسطاء عن ذلك المصير يميل إلى الاعتقاد بأنها تريد التخلص بشرف من زوجها. وكانت السيدة دكوان تعرف بريدو، أحد سكرتارية رولان، وزير الداخلية، والذراع الأيمن لجميع من تتابعوا على تلك الوزارة. وجندت بريدو لإنقاذ البقال. واحترس رئيس المكتب النزيه جداً، أحد أفاضل هؤلاء المغفلين الذين يقابلون بكثير من الإعجاب لشدة تجردهم، من أن يعكر على أولئك الذين يتعلق بهم مصير دكوان: فجرب أن ينورهم، وتنوير شخصيات ذلك الزمن أهون منه الطلب إليهم إعادة سلطة البوربونيين. وكان الوزير الجيروندي[1] في صراع آنذاك مع روبسبيير فقال لبريدو: «بماذا تتدخل؟» وكل من راجعهم هذا السكرتير الشريف رددوا له هذه العبارة القاسية: «بماذا تتدخل؟» ونصح بريدو بتعقل السيدة دكوان أن تلزم الهدوء. لكنها بدلاً من أن تسعى لكسب ود المرأة خادمة روبسبيير أثارت الدنيا على هذه الواشية، وذهبت لرؤية أحد أعضاء الجمعية التأسيسية الذي ارتعش خوفاً على نفسه، وقال لها «سأحدث روبسبيير في الموضوع». واطمأنت البقالة الجميلة لهذه العبارة، وبالطبع فإن هذا الوسيط المدعي لم يجسر بأن يحرك ساكناً.

لو أن هذه الزوجة قدمت للمواطنة دوبلاي بضع قوالب سكر، أو زجاجات مشروب كحولي جيد لأنقذت دكوان. هذا الحادث الصغير يبرهن على أن من الخطر في الثورة الاعتماد في الخلاص من مأزق سواء على الشرفاء أو على الأنذال؛

---

(١) جان ماري رولان لابلاتيير: (١٧٣٤-١٧٩٣): كان وزيراً للداخلية في ١٧٩٢ واستقال في ٢٢ كانون الثاني ١٧٩٣. تم توقيف دكوان «في الرواية» بين أيار وحزيران ١٧٩٣ فهناك إذاً بعض المفارقة التاريخية.

انتحر هذا الوزير عندما علم بإعدام زوجته السيدة رولان (١٧٤٥-١٧٩٣) وكانت صاحبة صالون يؤمه الجيرونديون.

بل يجب الاعتماد على النفس فقط . ولئن هلك دكوان ، فإنه نال على الأقل شرف السير إلى المقصلة برفقة آندريه دي شنيه[1] وهناك على الأرجح تعانقت البقالة مع الشاعرية للمرة الأولى شخصياً ، فما كان بينهما سابقاً وماسيبقى لاحقاً باستمرار هو علاقات خفية . وكان موت دكوان في حينها أشد تأثيراً من موت اندره دي شنيه إذ وجب الانتظار ثلاثين عاماً للاعتراف بأن خسارة فرنسة بموت دي شنيه كانت أكبر منها بموت دكوان . وربما تُذْكر في السياسة . كانت بقالية دكوان على بعد مئة متر من مسكن روبسبيير . ولم يوفق خلف البقال في تجارته ، وحل محله سيزار بيروتو ، العطار الشهير في تلك الساحة[2] ؛ التي بدا وكأن المقصلة وضعت فيها عدوى المصيبة المتعذر شرحها ، إذ أن مبتكر معجونة السلطانة المضاعفة ، والماء الطارد للأرياح قد أفلس ، وحلّ هذه المشكلة يتعلق بعلوم السمر والتنجيم .

خلال بعض الزيارات التي قام بها بريدو ، رئيس المكتب لزوجة دكوان التعس ، أثار انتباهه الجمال الهادئ ، البارد ، البري ، لأغات روجه ، وقد حضر لتعزية الأرملة التي بلغ من شدة حزنها أنها هجرت التجارة بعد موت زوجها الثاني ، وانتهى بريدو إلى الزواج من تلك الفتاة الظريفة خلال الأيام العشرة من وصول الأب بعد وفاة نسيبه ، وعجل الطبيب بالحضور ، وهو مغتبط لرؤيته

(١) آندره دي شنيه (١٧٦٢-١٧٩٤) شاعر فرنسي ولد في استنبول . كان من معتدلي الثورة الفرنسية أعدم في عهد الإرهاب بتاريخ ٢٥ تموز ١٧٩٤ . لكن بلزاك يؤرخ زواج أغات وبريدو في ١٧٩٣ عقب موت دكوان مما يعني أنه يعتبر موت شنيه أيضاً في العام ١٧٩٣ ، مفارقة اقتضاهاالنص الروائي . لم يعرف نتاج شنيه الشعري والأدبي - رغم أنه عمل في الصحافة أيام الثورة - إلا بعد أن بدأ بنشره هـ. لاتوش في العام ١٨١٩ .

(٢) المقصود بذلك ساحة ڤندوم ، وشارع سان أونوره قربها ، وفيه كانت منجرة دوبلاي ، حيث أقام روبسبيير ، وبلزاك هنا يخضع للنزعة التي تملكته في ربط مؤلفاته فيما بينها . لكنه يرتكب خطأ في التأريخ فإذا كان سيزار قد حضر إلى باريس في العام ١٧٩٣ ، فإنه لم ينقل معطرته (ملكة الورود) إلى شارع سان أونوره إلا في العام ١٨٠٠ فهو لم يكن إذاً خليفة دكوان . كما أن بلزاك لم يتطرق في رواية سيزار بيروتو إلى أي سبب خفي في إفلاس العطّار .

تتابع الوقائع بأكثر مما يشتهي، فزوجته غدت الوارثة الوحيدة لآل دكوان، وهرع إلى باريس تدفعه الرغبات، أقلها لحضور قران ابنته، ومعظمها لإعداد العقد كما يريد، وأفسح ترفُّع المواطن بريدو وحبه المفرط المجال لمكر الطبيب الذي استثمر عدم تبصر صهره كما ستبين هذه القصة. وهكذا ورثت السيدة روجه، أو على الأصح الطبيب جميع أملاك وأثاث وأبنية السيد والسيدة دكوان، الأب والأم، اللذين توفيا خلال سنتين الواحدبعد الآخر، ثم انتهى روجه إلى قهر امرأته التي توفيت في بداية العام ١٧٩٩، وتملك الكروم، واشترى المزارع، وأسس المسابك، وحصل على كميات أصواف للبيع. ولم يكن ابنه المحبوب مؤهلا لأي عمل، فوجهه ليدرك وضعه كمالك، ودفعه للإيمان بالثروة والحمق؛ متأكداً أن هذا الولد سيعرف دائماً كأحسن العارفين كيف يتركه يحيا ويموت. ومنذ العام ١٧٩٩ قدر مهرة المقدرين في إيسودون الدخل السنوي للأب روجه بثلاثين ألف فرنك. وانصرف الطبيب بعد موت زوجته إلى حياة داعرة، لكنه نظمها إن صح القول، بحيث تتم خفية، وفي منزله. وتوفي هذا الطبيب المتميز الطبع في العام ١٨٠٥. والله يعلم عندئذ كم نسب بورجوازيو إيسودون من فضائح لهذا الرجل، وكم من الطرف رويت حول حياته الخاصة الماجنة. وكان جاك روجه، الذي عامله أبوه بقسوة لإدراكه ماهو عليه من حمق، قد بقي عازباً لأسباب خطيرة يشكل شرحها قسماً هاماً من هذه الرواية. وعزوبيته تعود في قسم منها إلى خطأ الطبيب كما سنرى لاحقاً.

من الضروري الآن أن نتحرى تأثيرات الانتقام الذي مارسه الأب على ابنة لم يعتبرها من صلبه، وهي بكل تأكيد ابنته شرعاً. مامن انسان في إيسودون لاحظ أحد هذه الطوارئ الغريبة التي تجعل من الذرية لجة يحار فيها العلم. فأغات تشبه والدة الدكتور روجه. وكما أن النقرس، وفقاً لملاحظات مألوفة، يقفز متخطياً أحد

الأجيال وينتقل من جد إلى حفيد، كذلك ليس نادراً أن يتصرف التشابه في الملامح تصرف داء النقرس[١].

وهكذا فإن بكر أولاد أغات، المشابه لأمه جسدياً، ورث طباع الدكتور روجه، جده معنوياً. فلنترك حل هذه المشكلة الأخرى للقرن العشرين مع تسمية جميلة للدويبات المجهرية وسيكتب أحفاد أخوتنا[٢] على الأرجح حماقات لاتقل عدداً عما كتبته حتى الآن هيئاتنا العلمية حول هذه القضية الغامضة[٣].

كان وجه أغات روجه يثير الإعجاب العام إذ قُدِّر له شبه بوجه مريم، أم مخلصنا، بمظهر براءة العذراء على الدوام حتى بعدالزواج. وصورتها التي ماتزال موجودة في محترف بريدو تظهر استدارة وجه بيضوية تماماً، وبياضاً ناصعاً لايفسده أي نمش رغم شقرة شعرها الذهبي. وبملاحظة هذا الجبين النقي، والفم المحتشم، والأنف الدقيق، والأذنين الجميلتين، والأهداب الطويلة، والعينين بزرقة غامقة تشع رقة لامتناهية، أخيراً هذا الوجه الموسوم بالدعة، سأل حالياً أكثر من فنان رسامنا الكبير: «أهذه نسخة لأحد رؤوس رسمها رفاييل؟». ما من رجل كان أكثر إلهاماً من رئيس المكتب لزواجه بتلك الشابة فأغات تحقق النموذج المثالي لربة

(١) في ذات الحقبة من الزمن تقريباً، عبر بلزاك في قصة ألبر سافاروس عندما الفكرة نفسها عندما كتب: «الفيزيولوجيون وملاحظو الطبيعة البشرية المتعمقون سيقولون لكم، ومع دهشتكم الكبيرة على الأرجح، أن الأمزجة والطبائع، والنباهة، والعبقرية تظهر في مدد كبرى متقطعة، تماماً كما الأمراض الوراثية، وهكذا فالموهبة تماماً كالنقرس تقفز أحياناً جيلين». وهذا ما أغرى بعض الدارسين في رؤية بلزاك مبشراً بزولا. لكن م. لي ياونك لاحظ أن مثل «هذه الأفكار» التي أتى بها بلزاك تستند إلى مفاهيم غدت بمجملها مألوفة في العام ١٨٤٠.

(٢) لعل بلزاك وقد بلغ الرابعةوالأربعين من العمر عند كتابة هذه الرواية، وهو عازب، ولايفكر بالزواج إلا من السيدة هانسكا وهي مثله متقدمة في العمر لم يعد يأمل بإولاد وأحفاد له، فذكر أحفاد أخوته.

(٣) صدق حدس بلزاك فبعد نحو قرن وفي العام ١٩٤٤ يكتشف العلماء الأمريكيون إفرى ومكلود وماكرتي «الدنا DNA كحامل للمجموعة الوراثية، وفي الخمسينيات تكتشف برباره مارك كلينتوك الجينات القفازة في الوراثة ويكتب «أحفاد الأخوة حقائق لاحماقات عن الهندسة الوراثية غدت أبرز سمات القرن العشرين (ملاحظة٢و٣ من المترجم)».

البيت التي نشأت في المقاطعات، إلى جانب أمها على الدوام؛ ورعة دون تزمت، لم تحظ بأية ثقافة إلا ما منحته الكنيسةللنساء، وهكذا اعتبرت زوجة مكمَّلة كاملة بالمعنى الشائع، لكن جهلها لأمور الحياة سبب أكثر من بلية. ويمكن القول إن شاهدة قبر إحدى السيدات الرومانيات: كانت تطرز البسط وتلزم البيت[1] تعبر بشكل رائع عن تلك الحياة النقية والبسيطة والهادئة. ومنذ العهد القنصلي، ارتبط بريدو بحماس بنابليون، ورفع إلى رئيس قسم في العام ١٨٠٤ براتب اثني عشر ألف فرنك سنوياً مع مكافآت أخرى مجزية وذلك قبل عام وفاة حميه روجه، فلم يكترث مطلقاً بنتائج تصفيةالميراث المخجلة في إيسودون حيث لم تنل أغات شيئاً. فالأب روجه قبل وفاته بستة أشهر باع لابنه قسماً من أملاكه، وخص جان جاك بالباقي سواء كهبة مفضلة، أو كوارث. ولم يترك لأغات إلا سلفة مئةألف فرنك سجلت لها في عقد زواجها كإرث من أبيها وأمها.

أولع بريدو بالامبراطور فأخلص بتفان للتصورات الجبارة لهذا النصف ـ إله حديث، الذي وجد كل شيء مدمراً في فرنسة، فأراد إجراء تنظيم شامل. ولم يقل بريدو رئيس القسم مرة: «كفى»، بل كان يقبل تحمل أثقل المهام: مشاريع، مذكرات، تقارير، دراسات، وكان سعيداً لاعتباره من مساعدي الامبراطور، فهو يحبه كرجل، ويعبده كحاكم، ولايتصور أي نقد لتصرفاته أو لمشاريعه. ومن العام ١٨٠٤ إلى العام ١٨٠٨ سكن رئيس القسم في شقة جميلة وواسعة على ضفة فولتير قريباً من وزارته ومن قصر التويلري؛ وكانت طاهية ووصيف يشكلان كامل خدم العائلة في زمن أبهة السيدة بريدو. وكانت أغات تنهض دائماً مبكرة، فتذهب إلى الهال ترافقها طاهيتها، وبينما يقوم الخادم بترتيب الشقة تشرف على تحضير وجبة الإفطار. ولم يكن بريدو يتوجه أبداً إلى الوزارة قبل الساعةالحادية عشرة؛ وكانت زوجته منذ قرانهما تجد لذة فائقة في أن تحضر له وجبة إفطار شهية، وهي الوجبة الوحيدة التي يتناولها بمتعة. وفي كل الفصول وأياً كانت الأحوال الجوية، تقف أغات قرب النافذة ترقب زوجها بعد مغادرته متوجهاً إلى الوزارة، ولاترتد عنها إلا

(١) هي شاهدة قبر امرأة رومانية اسمها كلوديا أوردها إرنو في «نصوص قديمة».

بعد أن يغيب في عطفة شارع باك[1]، فتلتفت حينذاك لنفسها، وتلقي نظرة شاملة على ترتيب الشقة وترتدي ثيابها، وتلعب مع أولادها وتنزههم أو تستقبل بعض الزوار منتظرة عودة بريدو؛ فإن عاد رئيس القسم يحمل معه إلى المنزل بعض القضايا العاجلة، تجلس قرب منضدة عمله في مكتبه، صامتة كأنها تمثال، وهي تحبك الصوف، تتأمله في عمله، وتسهر مادام ساهراً، ولاتنام إلا قبل نومه بفترة وجيزة. كان الزوجان يذهبان أحياناً إلى المسرح، يجلسان في إحدى المقاصير المخصصة للوزارة، وفي مثل تلك الأيام يتناول الزوجان عشاءهما في أحد المطاعم، وكانت هذه المناسبات مصدر متعة كبرى للسيدة بريدو كمتعة أولئك الذين لم يشهدوا باريس سابقاً. وهي تلتزم غالباً بقبول تلك الدعوات الرسمية لمآدب تقام على شرف رئيس القسم الذي يشغل مسؤولية كبرى في وزارة الداخلية يملؤها بريدو بكل كفاءة. فتحرص آغات آنذاك على أبهة الزينة، لكن ما أن تعود إلى المنزل حتى تتخلى بسرور عن هذه المظاهر المترفة، وتعود إلى بساطتها الريفية. وكان بريدو يستقبل أصدقاءه يوم الخميس من كل أسبوع. أخيراً كان يقيم حفلة رقص في ثلاثاء المرافع.

بهذه الكلمات القليلة يلخص كل تاريخ تلك الحياة الزوجية التي لم يتخللها إلا ثلاثة أحداث كبيرة: ولادة ابنين بفارق ثلاث سنوات بين الواحد والآخر، وموت بريدو الذي قضى في العام ١٨٠٨ مرهقاً بسهراته[2] في فترة أزمع الامبراطور فيها على تسميته مديراً عاماً، ومنحه لقب كونت ومستشار دولة. في ذلك الوقت كان نابوليون منصرفاً بصورة خاصة إلى القضايا الداخلية؛ فأرهق

---

(١) كذلك كانت كارولين في رواية «عائلة مضاعفة» تتابع روجه بعينيهاوهي واقفة قرب النافذة عندما كان يغادر المنزل.

(٢) فكرة أثيرة على بلزاك تطرق إليها مراراً في مؤلفاته، وهي أن زيادة التفكير وكثرة العمل تقصر العمر وتؤدي في النهاية إلى وفاة مبكرة، ومنذ العام ١٨٣٧ خشي على نفسه فكتب للسيدة هانسكا عقب مرض ألم به: «هذه الأعمال المفرطة التي انصرفت إليها أدت إلى مرضي، وستقضي عليّ في النهاية. وفي العام ١٨٤٩ نَسب المرض الذي ألم به في روسية واستمر بعد ذلك في فرنسة إلى أن قضى عليه في ١٨٥٠ (لخمسةعشر عاماً من عمل مرهق)».

بريدو بالاعمال وأتم تدمير صحة هذا البيروقراطي العنيد الذي لم يطلب يوماً منه أي شيء. وتحرى نابوليون عن طبائعه، وعن ثروته، وعندما علم أن هذا الرجل المخلص لايملك شيئاً إلا عائدات منصبه، عرف فيه أحد هذه النفوس الكبيرة العفيفة التي تعلي وتصلح إدارته؛ وأراد أن يفاجئ بريدو بمكافآت باهرة؛ لكن الرغبة في أن ينهي مهمة كبيرة قبل سفر الامبراطور إلى إسبانية قتلت رئيس القسم الذي توفي نتيجة إصابته بحمى التهابية. وعندما عاد الامبراطور ليحضر في بضعة أيام في باريس حملة العام ١٨٠٩ قال عند معرفته بهذه الخسارة: «هناك رجال لايعوضون أبداً!». وقرر وقدأذهلته الشهادات اللامعة عن تفاني العسكريين أن يُحدث وساماً يكافأ به المدنيون بسخاء شأنه شأن وسام جوقة الشرف للعسكريين؛ فالانطباع الذي ولده في نفسه موت بريدو دفعه إلى تصور وسام «الألفة» لكن لم يتسن له الوقت لهذا الإبداع الارستقراطي الذي زالت ذكراه حقاً حتى أن معظم القراء سيتساءلون عن شارته: كان يحمل مع شريط أزرق؛ وأطلق الامبراطور على هذا الوسام تسمية «الألفة» بغرض الخلط بين وسام الجزة الذهبية العائد للبلاط الاسباني ووسام الجزة الذهبية في بلاط النمسة[1]. لكن شاءت العناية الإلهية، كما قال أحد الدبلوماسيين البروسيين، أن تمنع هذا الاستهتار بالحرمات. وقدر الامبراطور الوضع المادي للسيدة بريدو، فأعطي الولدان منحة كاملة في الكلية الامبراطورية، وأحيلت جميع نفقات دراستهما على الخزينة الامبراطورية. كما مُنحت السيدة بريدو تقاعداً سنوياً بقدر أربعة آلاف فرنك، على أن ينظر لاحقاً في تأمَين مركز لائق لكل من الولدين.

منذ زواج السيدة بريدو وحتى وفاة زوجها، لم يتسن لها أيّة زيارة لإيسودون، فقد كانت في شهر ولادتها لابنها الثاني عند وفاة والدتها. وعند وفاة والدها، وهو القليل الود لها، كان موعد تتويج الامبراطور، وزوجها غارق في مهام كثيرة لم تشأ أن تبتعد عنه خلالها. كما أن أخاها جان جاك روجه لم يكتب لها كلمة منذ مغادرتها إيسودون. ومع أسفها لهذه القطيعة الضمنية، انتهت أغات إلى

(١) وسام الألفة أو التجمع: أحدث في العام ١٨١١ بعد ثلاث سنوات من موت بريدو، وسمي بهذا الاسم لأنه حل مكان وسام «الوحدة» الذي أحدثه الملك لويس (أخو نابليون) المملك على هولندة، في العام ١٨٠٧ وقد استمر الوسام هولندياً حتى العام ١٨١٥ عندما ألغاه غليوم الأول ملك البلاد الواطئة.

عدم التفكير إلا نادراً بمن لايفكرون بها أبداً. وكانت تتلقى في كل سنة رسالة من عرابتها السيدة هوشون تجيب عليها بشكل عادي دون إمعان فكر في الآراء التي كانت تبديها لها تلك السيدة الطيّبة والورعة بكلمات مبطنة؛ فقد كتبت السيدة هوشون لابنتها بالمعمودية، قبل بعض الوقت من وفاة الدكتور روجه، بأنها لن تحصل على شيء من والدها إذا لم ترسل وكالة إلى السيد هوشون. وكرهت أغات أن تسبب إزعاجاً لأخيها، سواء لأن بريدو أدرك أن النهب يتوافق مع الحق والعرف السائدين في بري، أو أن هذا الرجل المستقيم، العادل يشارك إمرأته في سمو نفسها ولامبالاتها بالأمور المادية، ولم يرد أبداً الاستماع إلى نصائح روغن[1] كاتب العدل الذي يتعامل معه، الذي نصحه أن يستفيد من مركزه ليعترض على الإجراءات التي تمكن بها والدها من حرمانهامن نصيبها الشرعي، ووافق الزوجان على ماتم ترتيبه في إيسودون. لكن روغن في تلك الظروف دفع رئيس القسم إلى التفكير بمصالح زوجته المجازف بها، و فكر هذا الرجل السامي أنه في حال وفاته لن تجد أغات ثروة. فأراد أن يتحقق من حال أعماله، فوجد أنّه بين ١٧٩٣ و١٨٠٥ اضطر مع امرأته إلى سحب ثلاثين ألف فرنك من الخمسين ألفاً النقدية التي منحها روجه الكهل لابنته، ووضع العشرين ألف الباقية في السجل الكبير[2]، وكان الأساس آنذاك بأربعين مما يؤمن لأغات دخل ألفي فرنك من الدولة سنوياً، وهكذا أمكن للسيدة بريدو وقد ترملت أن تعيش بشكل لائق بدخل ستة آلاف فرنك[3]. وبقيت وفية لوضعها كامرأة من المقاطعات، فأرادت صرف خادم بريدو، والاقتصار على الطاهية وتغيير الشقة، لكن صديقتها الحميمة التي استمرت تعتبر نفسها امرأة خالها، السيدة دكوان، باعت أثاثها وتركت منزلها وجاءت تسكن مع أغات بعد أن حولّت مكتب المتوفى بريدو إلى غرفة نوم. ووحَّدت هاتان الأرملتان دخلهما، ووجدتا في متناولهما اثني عشر ألف فرنك سنوياً[4]، وبدا لهما هذا السلوك بسيطاً

(١) كان روغن أيضاً كاتب عدل سيزار بيروتو.
(٢) السجل الكبير هو الكاتالوغ الموضح لأوضاع جميع دائني الدولة. وقد أنشئ في العام ١٧٩٣.
(٣) أي أربعة آلاف فرنك من التقاعد يضاف إليها ألفي فرنك من إيداع السجل.
(٤) كلمة ليرة وفرنك تعنيان ذات القيمة النقدية، ولايمكن استنتاج الأسباب التي تدفع بلزاك إلى استخدام هذين التعبيرين. ويبدو أنه يلجأ إلى كلمة ليرة عندما يكون الحدث في زمن ساد فيه استعمال تلك الكلمة، ثم يغلب عليه استخدام كلمة فرنك المستخدمة في الفترة التي يكتب فيها.

وطبيعياً. لكن لاشيء في الحياة يتطلب انتباهاً أكثر من الأشياء التي تبدو طبيعية. نبدي على الدوام حذراً كافياً من الأشياء الخارقة للعادة، هكذا نرى رجال الخبرة من المحامين والقضاة، والأطباء، والكهنة يبدون اهتماماً كبيراً بالقضايا البسيطة: فنجدهم كثيري التدقيق في التفاصيل. إن الأفعى القابعة تحت الأزهار هي إحدى أجمل الأساطير التي تركها لنا العصر القديم والمتعلقة بإدارة أعمالنا، وكم من مرة هتف الحمقى ليعتذروا تجاه أنفسهم أو أمم الاخرين: «إن هذا من البساطة بحيث يمكن أن يقع الجميع في شركه!».

في العام ١٨٠٩، كانت السيدة دكوان، التي لاتصرح أبداً عن عمرها، في الخامسة والستين، ولقبت في عصرها البقالة الفاتنة، وهي إحدى أولئك النسوة النادرات اللواتي يحترمهن الزمن، ومتعتها بنيتها الفائقة بحظوة الاحتفاظ بجمال لم يكن يحتمل مع ذلك امتحاناً جاداً. متوسطة القامة، بدينة، نضرة، لها كتفان جميلان، وبشرة مائلة قليلاً إلى اللون الوردي، وشعر أشقر يتموج كستنائياً ولم يتغير لونه رغم الكارثة التي حلت بدكوان. كانت شرهة بإفراط[١]، تحب أن تصنع لنفسها أطباقاً صغيرة شهية، لكن بالرغم من أنها تبدو كثيرة التفكير بالطعام، فإنها مغرمة أيضاً بالمسرح. وتعنى بإشباع عيب تحيطه بأعمق قدر من السرية، شراء أوراق اليانصيب! أليست هذه هي الهوة التي رمزت إليها الأسطورة ببرميل دنابيد[٢]. وربما كانت السيدة دكوان، هذا هو الاسم الذي كان يجب أن يطلق على سيدة تمارس لعبة اليانصيب، تنفق أكثر مما يجب على زينتها كجميع النساء اللواتي أسعدهن الحظ وبقين شابات زمناً طويلاً، لكن ما عدا هذه العيوب الخفيفة فقد

(١) هذا الوصف للسيدة دكوان يستند إلى «فيزيولوجية الذوق» لمؤلفه بريا۔سافارن ونقرأ فيه هذا الوصف «للمهيئين للشراهة»: (هم بصورة عامة ذوو قامة متوسطة، ووجه مستدير، وعينين براقتين، وجبين ضيق، وأنف قصير، وشفتين مكتنزتين، وذقن مستديرة. والنساء ممتلئات أميل إلى الحسن منهن إلى الجمال وينزعن إلى البدانة. ويؤكد بريا سافاترن أنه مع تساوي الشروط فإن الشرهين أطول عمراً من غيرهم. كما أن نحول زوجة الدكتور روجه هيأها لموت مبكر).

(٢) برميل دنابيد: برميل في الأساطير اليونانية، دون قعر حكم على فتيات دنابيد اللواتي قتلن أزواجهن بملئه ماءً.

كانت المرأة الألطف معاشرة، لأنها توافق جميع الناس على آرائهم، ولاتعارض أحداً، كانت تسحر بمرحها الناعم المفرح للآخرين. تمتلك الخاصة الباريسية التي تغري الوكلاء المتقاعدين والتجار العجائز: كونها تتحمل المزاح!... وإذا كانت لم تتزوج للمرة الثالثة فالخطأ دون شك يعود على العصر. فخلال حروب الامبراطورية، كان الرجال المؤهلون يجدون بكل سهولة شابات غنيات وجميلات بحيث ما من مبرر يدفعهم للاهتمام بنساء في الستين من العمر. وأرادت السيدة دكوان أن ترفه عن السيدة بريدو، فتشجعها على الذهاب معها إلى المسارح وفي التنزه بالعربة، وتعد لها وجبات عشاء صغيرة، حتى أنها جربت أن تقنعها بالزواج من ابنها بيكسيو. وللأسف! فإنها صرحت لها بالسر الرهيب الذي حافظت عليه بعمق، مع المرحوم دكوان، ومع موثقها. فدكوان الأنيقة، التي تعطي لنفسها ستة وثلاثين عاماً، لها ابن في الخامسة والثلاثين اسمه بيكسيو، وهو أرمل بهذا العمر، وضابط في الفرقة الخامسة والعشرين، هلك وهو برتبة عقيد في درسدن، تاركاً وراءه ابناً وحيداً. ولم تكن السيدة دكوان ترى حفيدها بيكيسو إلا نادراً مدعية أنه ابن زوجها السابق من امرأة أخرى. وكان بوحها من باب الحيطة؛ فابن العقيد الذي ترعرع في الكلية الامبراطورية مع ابني بريدو، حصل فيها على نصف منحة. حظي هذا الفتى النبيه والماكر في الكلية، فيما بعد بشهرة كبيرة كرسام ورجل سريع البديهة حاضر الفكاهة.

لم تعد أغات تحب شيئاً في الدنيا إلا ولديها، ولم تعد تريد العيش إلا من أجلهما، ورفضت زواجاً ثانياً عن تعقل وعن إخلاص لهما، لكن من الأسهل على المرأة أن تكون زوجة صالحة من أن تكون أماً ناجحة. فعلى الأرملة واجبان يتعارضان: هي أم ويجب أن تمارس السلطة الأبوية. وقلائل هن النساء اللواتي تتوفر لهن القوة الكافية لفهم ولعب هذا الدور المضاعف[1]. وهكذا فإن أغات المسكينة، رغم فضائلها كانت سبباً بريئاً لعدد من المصائب. فنظراً لقلة فطنتها والثقة التي تعتاد عليها النفوس الطيبة، كانت ضحية السيدة دكوان التي أغرقتها في مصيبة

---

(١) يعبر الإهداء الموجه من بلزاك إلى شارل نوديه عن الفكرة نفسها.

مروعة، فالسيدة دكوان مساهمة في ثلاثة أرقام من اليانصيب[1]. ولم تكن إدارة اليانصيب تقرض مساهميها. وبإدارتها لشؤون المنزل أمكنها أن تستخدم في رهاناتها النقود المخصصة للنفقات المنزلية، فأثقلت بالديون على أمل أن تغني حفيدها بيكسيو وعزيزتها أغات والصغيرين ولدي بريدو. وعندما وصلت الديون إلى عشرة آلاف فرنك؛ راحت تضاعف الرهان مؤملة أن أرقامها المفضلة التي لم تخرج منذتسع سنوات ستردم هوة العجز، ومنذ ذلك الوقت تصاعدت الديون بسرعة؛ وعندما وصل الرقم إلى عشرين ألف فرنك، فقدت تلك المرأة صوابها ولم تربح. وأرادت عندئذ أن ترهن أملاكها لتعوض على ابنة أخت زوجها. لكن موثقهاأبلغها استحالة هذا الغرض الشريف، فالمرحوم روجه عندوفاة نسيبه دكوان أخذالميرات بتعويض السيدة دكوان بحق انتفاع يُحمّل على أملاك السيد جان جاك روجه. وما من مرابٍ يرغب بإقراض عشرين ألف فرنك لامرأة في السابعة والستين من العمر على حق انتفاع أربعة آلاف فرنك تقريباً في زمن كثر فيه توظيف الأموال بفائدة عشرة في المئة. وذات صباح ألقت السيدة دكوان بنفسها على قدمي ابنة أخت زوجها منتحبة واعترفت بالوضع الذي وصلت إليه الأمور، لم توجه إليها السيدة بريدو أي لوم، صرفت الخادم والطاهية، وباعت الفائض من أثاثها وثلاثة أرباع تسجيلها في السجل الكبير، وسددت جميع الديون، وأخلت شقتها.

إن إحدى أقبح الزوايا في باريس هي بالتأكيد القسم من شارع مازارين، بدءاً من شارع غينيغو حتى مكان لقائه مع شارع السين خلف قصر المجمع، فالأسوار الرمادية العالية المحيطة بالكلية، وبالمكتبة التي قدّمها الكردينال مازارن لمدينة باريس والتي غدت فيما بعد مقراً للأكاديمية الفرنسية، تلقي بظلال جليدية على هذا الركن من الشارع؛ فالشمس لاتدخله إلا نادراً، وريح الشمال تعصف فيه. والأرملة المسكينة التي حل بها الدمار جاءت تسكن في الطابق الثالث من أحد هذه البيوت الواقعة في هذا الركن الرطب، والأسود، والبارد.

(١) في اليانصيب الملكي يوضع ٩٠ رقماً في صندوق، ويسحب في كل مرة خمسة أرقام. والثلاثية هي المراهنة على خروج ثلاثة أرقام، يدفع للمراهن في حال فوزه قيمة رهان مضروباً بـ ٥٥٠٠. وتغذية ثلاثية تعني تجديد المراهنة على ذات الأرقام بعد كل سحب.

أمام ذلك المنزل ترتفع أبنية المجمع حيث كانت آنذاك مقاصير الحيوانات الضارية الذين عرفوا باسم الفنانين في الوسط البورجوازي. وباسم تلامذة الرسم في المحترفات. يدخلون إلى هنا رسامين تلامذة ويمكنهم الخروج موفدين إلى روما. ولاتتم هذه العملية دون صخب غريب يتم على مدار السنة التي يحشر فيها المتنافسون في هذه المقاصير، ولكي يكون الداخل من المرشحين لمنحة، عليه في وقت محدد، إن كان مثالاً أن يصنع من عجينة الغضار تمثالاً، وإن كان رساماً أن يعد لوحة يمكن أن تعرض في مدرسة الفنون الجميلة أو موسيقياً، أن يضع لحناً يغنى. أو مهندساً معمارياً أن يصمم صرح نُصب. في فترة كتابة هذه الأسطر كان هذا المعرض الوحشي قد نقل من تلك الأبنية القاتمة والباردة إلى قصر الفنون الجميلة الأنيق على بعد خطوات من ذلك المكان[١]. ومن نوافذ السيدة بريدو كانت العين تغرق في هذه المقاصير المشبكة، على منظر كئيب جداً. فمن الشمال تقوم قبة المجمع، وبالتوجه إلى صعدة الشارع لاتسنح الفرصة للأعين إلا لرؤية رتل من العربات تقف في أعلى شارع مازارين؛ وهكذا انتهت الأرملة إلى وضع ثلاثة صناديق ملأى بالتراب على نوافذها حيث يمكن أن تعنى بإحدى هذه الحدائق الهوائية التي تهددها تعليمات الشرطة، وتقلل نباتاتها من دخول الشمس وتجدد الهواء. هذا المنزل المستند إلى آخر يطل على شارع السين، هو بالضرورة قليل الاتساع، والسلم يدور حول نفسه، والطابق الثالث هو الأخير فيه. نوافذ ثلاثة لثلاث غرف: قاعة الطعام، وصالة صغيرة، وغرفة نوم يقابلها من الناحية الأخرى للسلم مطبخ صغير وفوقه غرفتا أولاد، وسقيفة واسعة لامنفذ لها. اختارت السيدة بريدو هذا المنزل لثلاثة أسباب: ضآلة أجرته فهي أربعمئة فرنك سنوياً، وعقد لمدة تسع سنوات، وقربه من الكلية فهو لايبعد إلا قليلاً عن الكلية الامبراطورية[٢]؛ أخيراً فإنها تبقى ضمن الحي الذي اعتادت عليه. ورتب داخل المنزل في تناسق مع خارجه: فقاعة الطعام بورق جدران صفراء ذات أزهار خضراء، وبلاطها الأحمر

---

(١) بدئ ببناء مدرسة الفنون الجميلة في العام ١٨٢٠ في مكانها الحالي في شارع بونابرت.

(٢) هي كلية لويس الكبير حالياً

محافظ على لونه دون حتّ، وقد وضع فيها الأثاث الضروري مائدة وخزانتان وست كراس أتي بها كلها من المنزل المتروك. وزينت الصالة بسجادة من الأوبيسون وهبت لبريدو عند تجديد أثاث الوزارة. ووضعت الأرملة إحدى هذه الأرائك العامة من الأكاجو ذات رؤوس مصرية، اشتهر جاكوب دمالتر[1] بصنعها بالجملة في العام ١٨٠٦ . وهي مزينة بقماش حريري أخضر ذي وريدات بيضاء. وعلى الحائط فوق الأريكة صورة لبريدو رسمت بالباستل بيد صديقة تلفت الأنظار سريعاً. وبالرغم من أن الفن يستطيع أن يجد الكثير مما يعبر عنه، تبدو جيداً على الجبين هيبة هذا المواطن الكبير الغامض، وصفاء عينيه وقد تجلت فيهما جيداً نظرية عذوبة واعتزاز؛ والبسمة الصريحة على شفتيه المحترستين تشهد على الفطنة. وتمكن الفن أن يلتقط إن لم يكن بموهبة، فعلى الأقل بصدق ماقال الامبراطور عن هذا الرجل: «عادل، حازم»[2] فبملاحظة هذه اللوحة نرى أن الرجل قام دائماً بواجبه؛ فقسماته تعبر عن تلك النزاهة التي عرف بها العديد من الرجال المستخدمين في العهد الجمهوري.

في صدر الصالة وفوق طاولة لعب، كانت تلتمع لوحة بالألوان للامبراطور من إعداد ڤرنه[3] يبدو فيها نابوليون منطلقاً سريعاً فوق حصانه يتبعه حرسه.

سمحت أغات لنفسها بقفصين كبيرين من العصافير الأول مليء بالكناري، والآخر بطيور الهند الملونة. وقد انصرفت إلى هذه المتعة الطفولية منذ الخسارة الفادحة التي لاتعوض بالنسبة لها، كما بالنسبة لكثير من الناس. أما غرفة الأرملة فقد غدت في ثلاثة أشهر ماوجب أن تبقى عليه حتى اليوم المشؤوم الذي وجب

---

(١) جاكوب دمالتر: نجار أثاث مبتكر للطراز الامبراطوري، يذكره بلزاك أيضاً في روايتيه: النسيبة بت والنسيب پونس.

(٢) عبارة باللاتينية Justum et tenaceum لهوراس (٦٥-٨ ق.م) من النشيد الثالث ٣ .

(٣) ڤرنه(كارل) (١٧٥٨-١٨٣٥): اشتهر بلوحة «عرض في ساحة كاروسل». وهو سليل عائلة من الفنانين. فوالده جوزيف (١٧١٤-١٧٨٩) اشتهر بلوحات المناظر وخاصة البحرية منها. وابنه هوراس (١٧٨٩-١٨٦٣) كان رسام معارك.

عليها فيه أن تتركها: ركاماً لايمكن أن ينتظم فيها أي وصف. فالقطط أخذت أماكن إقامة لها على الأرائك، والكناري التي يُطلق سراحها أحياناً تترك على الأثاث زرقها كالضمّات؛ والأرملة الطيبة المسكينة تضع لها حبوب الدخن واللبين في أماكن عدة؛ والقطط تجد أطعمتها المناسبة في صحون مكسرة؛ والأسمال مبعثرة في كل مكان. هذه الغرفة تشعر بالريف وبالوفاء، فكل مايعود للمرحوم بريدو حفظ فيها بعناية؛ فأدوات مكتبه حظيت بالرعاية والاهتمام اللذين سبق لأرملة أحد الفرسان المغامرين أن آحاطت بهما أسلحة زوجها؛ وكل انسان يدرك الإجلال المؤثر الذي أبدته أغات بذكر تفصيل واحد من تصرفاتها؛ فقد غلفت وختمت ريشة وكتبت على الغلاف هذه العبارة: «آخر ريشة استخدمها زوجي العزيز». ووضعت الكأس الذي شرب به آخر جرعة ماء في قفص من زجاج فوق حافة المدفأة. وطاقية الليل والشعر المستعار توجت فيما بعد على حوامل تحت أجراس زجاجية تغطي هذه الذخائر الثمينة. ومنذ موت بريدو لم يبد على تلك الأرملة الشابة، ابنة الخامسة والثلاثين من العمر أي أثر لتأنق أو زينة، فبعد أن غاب عنها الرجل الوحيد الذي عرفته، وقدرته، وأحبته، الرجل الذي لم يسبب لها يوماً أي حزن؛ لم تعد تشعر أنها امرأة، غدت لامبالية بكل شيء، لاتهتم بما تلبس، لاشيء بدا أكثر بساطة واكتمالاً من تخليها عن كل تأنق بعد فقدان سعادتها الزوجية. إن بعض الكائنات تستمد من الحب القدرة على انصهار الأنا في الآخر، فإن انتزع هذا الآخر لم تعد حياتهم ممكنة. وأغات التي لم تعد توجد إلا لولديها أحست بحزن لانهاية له وهي ترى مدى ماسيعانيان من حرمان بسبب افتقارها. فمنذ انتقالها إلى شارع مازارين بدت على سحنتها مسحةمن الكآبة مثيرة للشفقة؛ إذ لايمكنها أن تعتمد أكثر مما اعتمدت على سخاء الامبراطور فصندوق ماله يقدم عدا عن المنحة الكاملة ستمئة فرنك سنوياً لكل ولد.

أما دكوان المتأنقة فقد شغلت في الطابق الثاني شقة مماثلة لشقة ابنة أخت زوجها، وأعطت السيدة بريدو وكالة لتقبض ألف إكو سنوياً من حق انتفاعها. وقام كاتب العدل روغن بتنظيمها لأغات وفق الأصول، لكن هذا الترتيب يعني أنها لن

تستوفي دينها إلا خلال سبع سنوات، كما اهتم روغن بتعزيز دخل المبلغ الباقي في سجل الدين العام وإيصاله إلى ألف وخمسمئة فرنك؛ بينما اضطرت السيدة دكوان التي تقلصت مواردها إلى ألف ومئتي فرنك سنوياً أن تعيش بتواضع إلى جانب نسيبتها. هاتان المخلوقتان الشريفتان بل الضعيفتان اعتمدتا على خادمة تأتي صباحاً فقط، بينما تعد السيدة دكوان المحبة للطهي وجبةالعشاء. وفي المساء فإن بعض الأصدقاء من مستخدمي الوزارة، ممن وظفهم بريدو سابقاً، يأتون لتمضية السهرة مع الأرملتين. واستمرت دكوان في تغذية ثلاثية يانصيبها، التي عنّدت وفق قولها، في عدم الخروج، وكانت تأمل في أن تسدد دفعة واحدة مااستدانته قسراًمن نسيبة زوجها، وأبدت من الحب لصغيري بريدو أكثر مما أبدته لحفيدها بيكسيو لشدة تأثرها بماسببته لهما من ضرر، ولإعجابها بطيبة والدتهما. التي لم توجه لها في آلامها الكبيرة أي عبارة لوم، وحظي جوزيف وفيليب بتدليل السيدة دكوان لهما، فمساهمة اليانصيب الامبراطوري العتيقة، كأي شخص يحس بذنب يريد الصفح عنه، راحت تعد لهما الحلويات الشهية، وأمكن فيما بعد لجوزيف وفيليب أن يستخلصا من جيبها بسهولة كبيرة بعض دريهمات ينفقها الصغير على شراء أقلام فحمية، وأقلام رصاص، وأوراق رسم، ومواد تظليل رسوم. بينما يبذرها الابن البكر على فطائر مربى التفاح، والدحل، والخيوط، والسكاكين، ودفع هوس اليانصيب السيدة العجوز للاكتفاء بانفاق خمسين فرنك شهرياً لتتمكن من إشباع هوايتها بما تبقى.

وكانت السيدة بريدو، من جهتها، وحباً بالتوفير لولديها لاتسمح لنفسها بصرف نفقات زائدة، ومن أجل معاقبة تلك النفس على ما أبدته من ثقة حرمتها بكل جرأة من متعها الصغيرة وكما يحدث مع كثير من الأشخاص الخجولين ذوي الذكاء المحدود، يوقظ الإحساس المستثار احتراساً يأخذقوام الفضيلة فيضخم الخطأ. قالت في نفسها: يمكن للامبراطور أن ينساهم، يمكن أن يهلك في إحدى المعارك، كما أن تقاعدها ينتهي بوفاتها، فكانت ترتعش لتخيلها أن ولديها سيبقيان دون أي مورد في الحياة. وهي غير قادرة على فهم حسابات روغن عندما يجرّب أن

يشرح كيف أن انقطاع ثلاثة آلاف فرنك من حق انتفاع امرأة خالها سيفي خلال سبع سنوات دينها على السيدة دكوان ويعيد لها الدخل الذي فقدته ببيع بعض تسجيلاتها في السجل الكبير. لم تعد تؤمن بكاتب العدل، أو بامرأة خالها، أو بالدولة. لم تعد تعتمد إلا على نفسها وعلى حرمانها فإذا أمكنها أن توفر كل سنة ألف إكو من تقاعدها، فسيكون لها خلال عشر سنوات ثلاثون ألف فرنك يمكنها بواسطتها أن تؤمن دخل ألف وخمسمئة فرنك سنوياً لأحد ولديها. ولها الحق وهي في السادسة والثلاثين من عمرها الآن أن تعتقد أن بإمكانها أن تعيش عشرين سنة أخرى. وباتباع هذا النظام، يمكنها أن تؤمّن لكل منهما الحد الضروري لعيشه. وهكذا انتقلت هاتان الأرملتان من رخاء مزيف إلى شقاء إرادي، الأولى بتأثير عادة سيئة، والثانية تحت تأثير الفضيلة الأكثر نقاء. ما من أمر من هذه الأمور على دقتها دون فائدة للعبرة العميقة التي ستنتج عن هذه القصة المستمدة من الاهتمامات الأكثر وروداً في الحياة؛ لكن مداها سيكون على الأرجح أكثر اتساعاً. فمنظر المقاصير، وحركة طلاب الفنون في الشارع، وضرورةرؤية السماء للتأسي من الاحتمالات المربعة التي تطوق هذه الزاوية الرطبة[1] على الدوام؛ ومنظر صورة الأب المليئة بالروح والكبر رغم تكلف الرسام الهاوي، ومشاهد الألوان الغنية والمتناسقة إنما القديمة لداخل هذا المنزل المريح الهادئ؛ ونباتات صناديق النوافذ، وفقر هذه العائلة، وتفضيل الأم لابنها البكر، ومعارضتها لميول ابنها الأصغر. أخيراً مجموع الوقائع والظروف المستخدمة كاستهلال لهذه الزاوية تتضمن على الأرجح الأسباب الخلاقة لإبداع جوزيف بريدو أحد أكبر رسامي المدرسةالفرنسية الحالية.

كان فيليب، بكر ولدي بريدو يشبه بشكل ملفت للنظر أمه. وبالرغم من أنه فتى أشقر بعينين زرقاوين، فهو ذومظهر كثير الجلبة، يحظى بالتقدير لحيويته، وجرأته. مما يدفع العجوز كلاباورن الذي دخل الوزارة في ذات الوقت مع بريدو وأحد الأصدقاء المخلصين الذين يأتون لقضاء السهرة مع الأرملتين، للقول مرتين أو

(١) في قصة ماري دزانج المخطط لها في العام ١٨٣٥، قال بلزاك عن هذا القسم من شارع مازارين: «إنه أحد هذه الأماكن التي يخرج منها بعض الناس بالضرورة مجانين أو مجرمين».

ثلاثاً في الشهر لفيليب وهو يربت على وجنته: «هوذا فتى قوي جسور لابرود في عينيه». ويزدهي الفتى بهذا التشجيع وينقلب زهوه إلى إقدام يتجذّر في طبعه، فيغذو ماهراً في جميع التمارين الجسدية ولكثرة مشاجراته في الكلية، يكتسب تلك الشجاعة وذلك الازدراء بالألم الذي يمنح البسالة العسكرية؛ إنما يؤدي بالطبع إلى النفور الشديد من الدراسة، لأن التربية العامة لاتحل أبداً القضية الصعبة للنمو المتزامن في الجسم والعقل(١). واستنتجت أغات من تشابه فيليب الفيزيائي الصرف معها توافقاً أخلاقياً وآمنت بيقين بأنها ستلقى فيه يوماً رقة عواطفها مكبرة بقوة الرجولة. كان فيليب في الخامسة عشر في الفترة التي انتقلت فيها أمه لتستقر في شقة شارع مازارين الكئيبة، وأكدت عندئذظرافة الأولاد في هذا العمر المعتقدات الأمومية؛ فجوزيف وهو أصغر عمراً من أخيه بثلاث سنوات يشبه أباه، إنما في غير المستحب، فشعره الغزير الأسود أولاً كان دائماً مشعثاً مهما فعل بينما شعر أخيه يبقى مسرحاً رغم حيويته. ثم وبقدر لايعلم سببه، إنما هو قدر غدا مستمراً إلى أن أصبح عادة، لم يتمكن جوزيف أبداً أن يحافظ على نظافة الثياب: يرتدي ثياباً جديدة، وسرعان ما تبدو قديمة، بينما أخوه الأكبر، وبدافع حب الذات، يعنى بجميع أمتعته. وبشكل لاشعوري اعتادت الأم أن توبخ جوزيف، وأن تطلب منه أن يقتدي بأخيه. فأغات لم تكن إذاً تظهر دائماً ذات الوجه لولديها؛ وعندما تذهب لتأتي بهما إلى المنزل، تقول عن جوزيف: «في أي حالة سيوافيني بأمتعته؟». هذه الأشياء الصغيرة دفعت قلبها في هوة التفضيل الأمومي(٢). ما من أحد بين الأشخاص العاديين جداً الذين يشكلون مجتمع الأرملتين، من الأب برويل، إلى العجوز كلابارون، إلى دروش الأب، وحتى الكاهن لورو معرف أغات إلا وأحس بميل جوزيف إلى الملاحظة، كان ميله هذا مسيطراً عليه فلم ينتبه رسام ألوان

(١) فصل بلزاك في هذه الفكرة في رواية «لويس لامبر» وبيّن أن حياة الكلية ضارة «فنقص التمارين ضار جداً بالأولاد».

(٢) كان بلزاك يتحسس من تفضيل أمه لأخيه هنري. وسيعالج هذا الموضوع في الدراسة عن الرواية والمؤلف التي تعقب النص.

المستقبل إلى شيء مما يخصه. وخلال طفولته كان هذا التصرف يشبه الخدر، حتى أن أباه خالجه القلق عليه؛ فكبر الرأس الغريب، وسعة الجبين دفعا إلى الخشية أولاً من أن يكون الطفل مائِه الرأس[1]. ووجهه الشديد التعرج اعتبر في نظر من لا يعرفون قيمة السحنة المعنوية دمامة لغرابته، ومما يبدو عليه من بعض التقطيب في فتوته، ومع تنامي قسماته فيما بعد بدت متقلصة، ويزيد من تشنجها الانتباه العميق الذي يوجهه الفتى للأشياء[2].

كان فيليب يثير كل تفاخرات أمه، بينما لا يدفعها جوزيف إلى أدنى مديح له. كان يصدر عن فيليب بعض هذه الكلمات المفرحة، وبعض هذه الردود السريعة التي تجعل الأهل يعتقدون أن أولادهم سيغدون رجالاً متميزين، بينما يبقى جوزيف صموتاً مفكراً. وتوقعت الأم العجائب من فيليب، وخيبة الأمل من جوزيف. وتجلت نزعة جوزيف للفن بحدث عادي جداً: ففي العام ١٨١٢، وخلال عطلة عيد الفصح، وعند عودته من نزهة في التويلري مع أخيه والسيدة دكوان، رأى تلميذاً يرسم على الحائط صورة كاريكاتورية لأحد الأساتذة، وسمّره الإعجاب على الرصيف أمام هذه الطرفة من الحوار المتوقدة خبثاً. وفي اليوم التالي وقف الفتى أمام النافذة، ولاحظ دخول التلاميذ من باب شارع مازارين؛ فنزل مسرعاً وجرى في بهو المجمّع الطويل حيث لاحظ التماثيل، والفضيات، وكتل الرخام التي بدأ عمل الأزاميل فيها، وقطع الغضار المشوي، والجبصين المشكل. وتأمَّل كل ذلك بانفعال؛ فغريزته استيقظت، ونزعته استثيرت، ودخل إلى قاعة منخفضة، كان بابها نصف مفتوح، ووجد فيها نحو عشرة شباب يشكّلون تمثالاً. وغدا الولد سريعاً هدفاً لألف فكاهة.

رماه أول هولاء المتجمعين بقطعة من لب خبز وهو يهتف به«أيها الصغير! أيها الصغير!»

---

(١) موه الرأس أو استسقاء الرأس Hydrocéphalie: مرض ناتج عن وجود كمية من السائل الدماغي الشوكي في تجاويف الدماغ.

(٢) في هذا الوصف لجوزيف في فتواته ذكريات من طفولة بلزاك: الميل غير المفهوم للملاحظة، الخشية من أن يكون خدره مرضاً، دمامته... الخ.

ـ سأل آخر: لمن الولد؟.

وقال ثالث: يا إلهي! كم هو دميم!.

أخيراً وبعد ربع ساعة تأمل فيها جوزيف الأعمال التي تتم في محترف المثَّال الكبير شوده[1]. لكن بعد أن سُخِرَ منه جيداً، لفت عناده، ومظهره التلاميذ فسألوه عما يريد؛ وأجاب جوزيف بأنه يرغب في أن يعرف كيف يرسم. وهنا راح كل من الحاضرين يشجعه وأخذ الفتى بلهجة الصداقة فذكر أنه ابن السيدة بريدو. وبدرت من جميع زوايا المحترف هتاف عام: «أوه! مادمت ابن السيدة بريدو فيمكن أن تغدو رجلاً كبيراً. يحيا ابن السيدة بريدو! أهي جميلة أمك؟ إن وجب الحكم عليها من عينة رأسك فحظها قليل!

قال الأكبر عمراً من التلاميذ وهو يترك مكانه يتقدم من جوزيف لطلب منه الوقوف في وضع معين: «آه! تريد أن تغدو فناناً؛ لكن أتعلم كم يجب أن تكون واسع الأفق، وكم يجب أن تتحمل من مشاق؟ نعم يجب أن تمر باختبارات تضني فيك الأيدي والأرجل.

إن جميع هؤلاء العلاجيم[2] الذين تراهم خضعوا للاختبارات، فهذا مثلاً، بقي سبعة أيام دون طعام! لنرَ مدى قدرتك على أن تكون فناناً؟»

وتناول ذراعه ورفعها باستقامة في الهواء، ووضع الأخرى إلى جانبه بعد أن جمع له قبضة يده وكأن جوزيف يريد أن يوجه لكمة.

قال: «إننا نسمي هذه الوقفة اختبار المبراق[3]؛ فإذا تمكنت أن تبقى دون أن تخفض يديك، أو تغيّر وضعهما لمدة ربع ساعة فهذا يعني نجاحك في الاختبار.

---

(١) شوده: أنطوان دنيس شوده (١٧٦٣-١٨١٠) مثال فرنسي، له تمثال السلام في اللوفر، لكنه متوفٍ قبل هذه الأحداث بسنتين.

(٢) العلجوم ذكر الضفدع، ويشبه به أحياناً الرجل القصير القامة أو الوالد الدميم. لكنها لم تكن تعني في القرن التاسع عشر مذمة إنما هي تعبير عن فردٍ أوشخص.

(٣) المبراق: الآداة التي ترسل بهاإشارات البرقيات في مراكز البرق والبريد.

بقي جوزيف مدفوعاً بحسن نيته كفتى في الثالثة عشر من العمر على هذا الوضع لمدة خمس دقائق تقريباً، والتلاميذ ينظرون إليه بجدّ، إلى أن قال أحدهم: «أوه حركت يديك».

وقال آخر: إيه! اصمد يا لضعفك!.

وأشار تلميذ ثالث إلى تمثال للامبراطور من صنع شوده[1] وقال: «إن الامبراطور نابوليون بقي شهراً على هذا الوضع».

التمثال يظهر الامبراطور واقفاً وبيده الصولجان الامبراطوري، وقد أنزل هذا التمثال في العام ١٨١٤ عن العمود الذي كان يتوِّجه بجدارة. بعد عشر دقائق كان العرق يلتمع كحبات لؤلؤ على جبين جوزيف، وفي تلك اللحظة دخل رجل قصير القامة، أصلع الرأس، عليل المظهر، شاحب الوجه؛ فساد صمت جليل في المحترف.

نظر إلى الفتى المعذب في المحترف وصاح بتلاميذه: «إيه، أيها الخبثاء، ماذا تفعلون؟»

قال أكبر التلاميذ، وهو من أوقف جوزيف على هذا الوضع: إنه شخص طيب نتخذه نموذجاً!

قال شوده وهو ينزل لجوزيف يديه: ألا تخجلون من تعذيب ولد مسكين على هذه الشاكلة» ثم سأل جوزيف وهو يربت على وجنته بشكل محبب: «منذمتى وأنت هنا؟»

---

(١) شوده: أنطوان دنيس شوده (١٧٦٣-١٨١٠) مثال فرنسي، يعتبر أحد الممثلين الرئيسيين للكلاسيكية الجديدة. لكن الحدث الوارد أعلاه يعود للعام ١٨١٢ أي بعد وفاة شوده بسنتين، وكان بلزاك قد وضع أولاً اسم هودون (١٧٤١-١٨٢٨) وكان ذلك أكثر مناسبة من الناحية التأريخية.
التمثال الموصوف هو فعلاً من إبداع شوده ويظهر فيه نابوليون كامبراطور روماني رأسه مكلل بالغار وإحدى يديه على سيفه بينما تمسك الأخرى بالصولجان الامبراطوري. وقد وضع على رأس عمود ڤندوم. لكن الحلفاء أنزلوه في العام ١٨١٤. وصُنِعَ من برونزه تمثال لهنري الرابع وضع على الجسر الجديد (بون-نوف).

ـ منذ ربع ساعة .

ـ وما سبب مجيئك؟

ـ أريد أن أكون فناناً .

ـ ولكن من أين خرجت، من أين أنت آت؟ .

ـ من عند أمي .

هتف التلاميذ مجدداً: أوه! ماما! .

صرخ شوده بغضب: الزموا الصمت على المقاعد! وعاد إلى جوزيف سائلاً: وماذا تفعل أمك؟

ـ إنها السيدة بريدو، وقد توفي أبي، وهو صديق للامبراطور، فإن أردت تعليمي الرسم، فإن الامبراطور يدفع لك ماتطلب .

هتف شوده وقد أبرقت في خاطره إحدى الذكريات: كان والده رئيس قسم في وزارة الداخلية .

ـ وتريد منذ الآن أن تكون فناناً؟

ـ نعم، ياسيدي .

ـ تعال إلى هنا متى أردت، وسنعمل على تسليتك! أعطوه صندوق ورق مقوى، وأوراق رسم، وأقلاماً، واتركوه يعمل . وخذوا علماً، أيها الفكهون، أن لوالده عليّ فضلاً . ثم التفت إلى التلميذ الذي سخر من جوزيف وناوله بعض النقود وقال: «خذ يا حبلَ الجُب، آتنا ببعض الفطائر والحلويات والسكاكر» وعاد إلى جوزيف وهو يداعب ذقنه وقال: سنرى إن كانت مهارتك في الفن تعادل مهارتك في تناول الطيبات!»

ثم استعرض أعمال تلاميذه يرافقه جوزيف وهو ينظر ويستمع ويجرب أن يفهم . ووصلت الحلويات وتحلّق حولها كل من في المحترف ومعهم المعلم المثّال

والولد الضيف يأكلون بشهية ويداعبون الفتى بقدر ماسخروا منه أولاً. هذا المشهد بما كشفه من فكاهة الفنانين وطيبة قلبهم فهمه جوزيف بالفطرة وكان له تأثير عجيب عليه. فظهور شوده المثّال الذي اختطفه موت مبكر، والذي أهلته حماية الامبراطور إلى المجد، كان بمثابة رؤيا لجوزيف. ولم يقل الفتى شيئاً لأمه عن هذه المغامرة، لكنه كان يقضي كل يوم أحد وخميس ثلاث ساعات في محترف شوده. وكانت السيدة دكوان التي تشجع نزوات هذين الملاكين تمنح جوزيف ثمن الأقلام، والطباشير الحمراء، ومظللات الرسم والورق. وفي الكلية الامبراطورية، كان رسام المستقبل يخطُّ صوراً كاريكاتورية لأساتذته ويرسم رفاقه، ويملأ المهاجع بتزويقات الفحم، ويثابر بنشاط مدهش على دروس الرسم. وحضر لمير الأستاذ في الكلية الامبراطورية، وهو معجب ليس فقط باستعدادت جوزيف إنما بالنجاحات التي حققها، ليعلن للسيدة بريدو ماتجلى من موهبة ابنها، وكانت أغات لاتفهم من الفن، وهي المرأة الريفية، إلا قدر مايفوتها من شؤون المنزل، فتملكها الرعب، وانخرطت في البكاء بعد ذهاب لمير.

قالت للسيدة دكوان عندما حضرت إليها: «آه! خاب أملي، فجوزيف الذي أردت أن أجعل منه موظفاً، خاصة والطريق أمامه ممهدة في وزارة الداخلية حيث يمكنه بالسمعة التي تركها أبوه فيها، أن يغدو رئيس مكتب في الخامسة والعشرين من عمره. إيه! إنه يريد أن يغدو رساماً كحال أولئك المشردين، توقعت ألا أنال من هذا الولد إلا الهموم!»

اعترفت السيدة دكوان بأنها كانت تشجع، منذ عدة أشهر، جوزيف في هوايته، وأنها كانت تغطي كل أحد وخميس هربه ومجيئه إلى المجمع. وأنها قادته إلى معرض الرسم السنوي حيث بدا في انتباهه العميق للوحات كمعجزة. وأستأنفت:

«إن كان ابنك جوزيف يفهم الرسم في الثالثة عشر، يا عزيزتي، فهذا يعني أنه سيكون رجلاً عبقرياً.

ـ نعم أنظري إلى أين قادت عبقرية أباه! مات مرهقاً بالعمل وهو في الأربعين من عمره.»

في الأيام الأخيرة من الخريف، وفي الفترة التي غدا فيها جوزيف في الرابعة عشر من العمر، توجهت أغات، رغم ممانعة السيدة دكوان إلى شوده، لتعترض على إفساده لابنها، ووجدت شوده في سترة عمل زرقاء يشكل آخر تمثال له، واستقبل بامتعاض أرملة الرجل الذي قدّم له سابقاً خدمة في ظروف حرجة، لكنه وقد طعن سابقاً في حياته، راح يصارع تلك الحماسةالتي يجب أن تبدر من الفنان لينهي في بضع لحظات ماعصي عليه تنفيذه في بضعةأشهر، فقد عثر على شيء كان يبحث عنه طويلاً. فراح يحرك أزميله وصلصاله بحركات متقطعة بدت لأغات الجاهلة وكأنها حركات رجل به مس. لو أن شوده كان في وضع آخر، لانتابه الضحك وهو يستمع إلى هذه الأم تلعن الفنون وتشكو من النصيب المقدر لإبنها، وتطلب من الفنان ألا يستقبله في محترفه، مما أثار فيه غضباً عارماً فهتف ساخطاً:

«إن عليّ تجاه المرحوم زوجك التزامات أردت أن أفيها بتشجيع ولده، والسهر على الخطوات الأولى لصغيركم جوزيف من أجل المهن طراً! نعم ياسيدتي، اعرفي إن كنت جاهلة أن الفنان الكبير هو ملك، بل أكثر من ملك: فأولاً هو أكثر سعادة، لأنه مستقل، ويعيش على هواه، ثم إنه يملك عالماً من التصورات. الواقع أن مستقبلاً جميلاً ينتظر ابنك، فالمؤهلات كمؤهلاته نادرة، ولم تكشف في أوقات مبكرة إلا لدى أمثال جيوتو، ورفاييل، وتيتيان، وروبنز وموريو[1]؛ إذ يبدو لي أنه سيكون رسام لوحات، لانحات تماثيل. وحق نور الله! لو أن لي ولداً شبيهاً به لكنت

(١) جميع الرسامين الذين ذكروا هنا كأمثلة عن ظهور مبكر لمواهبهم الفنيةهم رسّامو لوحات زيتية كجوزيف بريدو.

آ ـ جيوتو (١٢٦٦-١٣٣٧) رسام ومهندس معماري ايطالي طليعة فن النهضة.

ب ـ رفاييل (١٤٨٣-١٥٢٠) أشهر رسامي إيطالية.

ج ـ تيتيان (١٤٩٠-١٥٧٦) رسام إيطالي عمل للبابوات والملوك مما جعله عالمياً.

د ـ روبنز (١٥٧٧ـ١٦٤٠) رسام ودبلوماسي فنلندي.

هـ ـ موريو (١٦١٨-١٦٨٢) رسام اسباني له لوحات دينية شهيرة، وأخرى واقعية.

بمثل سعادة الامبراطور عندما أنبئ بولادة ملك روما! أخيراً فأنت سيدةمصير ابنك. هيا يا سيدتي! اجعلي منه أحمقاً، رجلاً يسير لمجرد وجوب السير، ناسخ أوراق بائساً وسترتكبين جريمة قتل. وأنا آمل أن يغدو فناناً رغم جهودك لردعه. فالموهبة هي أقوى من جميع العقبات التي تعارض ظهور نتائجها. الموهبة، كلمة تفيد الدعوةالخفية، إي! إنها اصطفاء من الله! غير أنك بمعارضتك ستسببين التعاسة لولدك[1]!». ورمى في دلو بعنف الصلصال الذي لم يعد بحاجة إليه، وقال عندئذ لموديله: «يكفي اليوم»

رفعت أغات عينيها ورأت امرأة عارية تجلس على مرقاة في زاويةمن المحترف، لم تكن قد توجهت إليها بنظرها، ودفعها هذا المشهد للخروج والروع يتملكها.

قال شوده لتلاميذه: «لاتستقبلوا بعد الآن بريدو الصغير هنا، فهذا يخالف رغبة أمه.

صرخ التلاميذ عندما أغلقت أغات الباب خلفها: هُه!

قالت الأم المسكينة مذعورة مما رأت وسمعت: «وجوزيف يأتي إلى هنا!»

ما أن علم تلاميذ النحت والرسم أن السيدةبريدو لاتريد أن يغدو ابنها فنانا، حتى اعتبروا سعادتهم الخالصة في أن يجذبوا جوزيف إليهم. ورغم الوعدالذي انتزعته أمه منه بعدم الذهاب إلى المجمع، فإن الفتى كان ينزلق غالباً إلى محترف رينيو[2] حيث كان يُشجع على خربشةاللوحات، وعندما أرادت الأرملة أن تشكو، أخبرها تلاميذ شوده أن رينيو لن يكون حليماً معها كحلم شوده، وأن

---

(١) هل من الضروري أن نشير هنا إلى كل مايضعه بلزاك من ذاته في تصوره للفنان؟ لنذكر أيضاًالسيدة بلزاك الوالدة قد عارضت في البدء رغبة ابنها في أن ينصرف إلى الكتابة والفن الأدبي.

(٢) جان باتيست رينيو (١٧٥٤-١٨٢٩) حاز على جائزة روما في العام ١٧٧٤، واشتهر في عصره كمدرس شهير مسموع الكلمة وقد تلمذ عليه ستندال في العام ١٨٠٠ كما ذكر في كتابه «حياة هنري برولار» الذي يروي فيه قصةشبابه وقد كتبه في العام ١٨٣٥ لكنه لم ينشر إلا في العام ١٨٩٠.

مامن أحد يرضى بأن يكلف بحراسة السيد ولدها ومنعه من دخول المحترفات، وألف فكاهة ساخرة مماثلة لهذا القول. عدا عن أن هؤلاء التلاميذ الشرسين ألفوا ولحنوا أغنية من مئةوسبعة وثلاثين مقطعاً عن السيدة بريدو.

في مساء ذلك اليوم الحزين، رفضت أغات أن تشارك في لعبة الوست وبقيت جالسة على إحدى الأرائك فريسة حزن عميق تكاد الدموع تطفر من عينيها الجميلتين.

سألهاكلابارون العجوز: «مالك يا سيدة بريدو؟»

ردت السيدة دكوان: إنهاتعتقد أن ابنها لن يكسب خبزه لأنه يهوى الرسم، أما أنا فلايخالجني أي هم على مستقبل حفيدي بيكسيو الذي يتملكه هيجان الرسم. إن الرجال قد وجدوا ليخترقوا مجالات الحياة.

قال دروش القاسي الجاف الذي لم يستطع رغم مواهبه أن يصل إلى مرتبةمعاون رئيس شعبة:

إن السيدة على حق، وأنا ليس لي لحسن الحظ إلا ولد واحد؛ إذ ماذا يمكننا أن نفعل براتب ألف وثمانمئة فرنك وماتربحه زوجتي من بيع أوراق الدمغة وهو لايتجاوز ألف ومئتي فرنك؟، وضعت ولدي ككاتب صغير لدى محام مرخص حيث تقدم له وجبة الغداء وخمسة وعشرين فرنكاً شهرياً، أعطيه أيضاً مثلها، وهو يتناول عشاءه وينام في البيت، هذا كل شيء، يجب أن ينطلق ويشق طريقه. إنني أؤمِّن هكذا تحصيلاً لفتاي أفضل من علوم الكلية، إذ سيغدو يوماً محامياً مرخصاً. وعندما أمنحه ثمن بطاقة مسرح يكون سعيداً كملك ويقبلني شاكراً. أوه! إنني أعامله بحزم، وهو يقدم لي حساباً عن جميع نفقاته. إنك طيبة جداً مع ولديك يا سيدتي. إن أراد ولدك أن يقضي حياته في حرمان فدعيه يفعل! فإنه سيصل بعد ذلك إلى أمر ما.

قال دوبرويل، وهو رئيس قسم عجوز أحيل حديثاً على التقاعد: إن ابني في السادسةعشر من عمره، وأمه تعبده، لكنني لن أصغي إلى رغبة ميل تبدو عليه مبكرة، فقد تكون نزوة عابرة، أو رغبة ينساها عاجلاً! وفي رأيي أن الأولاد يحتاجون لتوجيه.

قالت أغات: أنت يا سيدي رجل، وليس لك إلا ولد واحد، عدا عن أنك ثري.

علق كلابارون بالقول: يقيناً، إن أولادنا هم الطغاة علينا، (*اللعب كبا*)، وولدي يثير غضبي، فهو يكاد يسبب إفلاسي، وانتهيت إلى عدم التدخل في شؤونه (*الرهان: استقلال*[1]) وهكذا كان أكثر سعادة وأنا أيضاً. هذا التافه كان سبباً إلى حد ما في موت والدته المسكينة. وعمل وكيلاً تجارياً جوالاً، ووجد مايستحقه، فهو لايكاد يدخل إلى البيت حتى يخرج منه، كما أنه لايستقر في مكان. ولم يرد أن يتعلم شيئاً. ما أطلبه من الله هو أن أموت قبل أن أراه يلوث سمعتي[2]! من لا أولاد لهم يجهلون كثيراً من المسرات، لكنهم في ذات الوقت يتجنبون كثيراً من الآلام.

قالت أغات وقد عاودها بكاؤها: هوذا الآباء!.

ـ ما أريد أن أقوله لك يا عزيزني السيدة بريدو هو أن أنبهك إلى وجوب ترك ولدك يمتهن الرسم وإلا فإنك تضيعين ورقتك..

تابع دروش الفظ: لو أنك قادرة على السيطرة عليه لطلبت منك أن تعارضي ميوله، ولكن باللين الذي أراك فيه أقول اتركيه يخربش ويرسم.

---

(١) لعبة البوسطن: لعبة ورق استمدت اسمها من حرب استقلال أمريكا وحصار مدينة بوسطن وبالتالي فهناك فريقان: فريق يراهن على الاستقلال والآخر على بقاء الاستعمار. وهنا تداخل نقاش اللاعبين مع مراهنات اللعب.

(٢) توفي كلابارون في العام ١٨٢٠، وكان ابنه متورطاً في قضايا مشبوهة، لكنه لم يفتضح إلا فيما بعد. وأنهى أعماله في العام ١٨٤١ وهرب إلى أمريكا وحكم عليه بإفلاس احتيالي. أما ابن دروش فغدا محامياً مرخصاً وابن دو برويل أمن مستقبلاً مضموناً. ويمكن أن نرى بين نظريات الآباء ومستقبل الأبناء بياناً لأفكار بلزاك حول دور الأب وفقاً لما عرضه في إهدائه لشارل نوديه.

هتف كلاباورن: ***خسرنا*** !

هتفت الأم المسكينة: كيف، وماذا خسرنا؟

- ايه! نعم، **خسرنا رهان الاستقلال بالكبا**، فعود كبريت دروش يجعلني دائماً أخسر.

قالت السيدة دكوان: خففي عنك يا أغات فجوزيف سيغدو رجلاً شهيراً».

بعد تلك المناقشة التي تشبه جميع المناقشات البشرية، اتفق جميع أصدقاء الأرملة على رأي واحد لكنه لم يضع حداً لتردداتها؛ إذ نصحت بأن يترك جوزيف يتبع ميوله.

قال دو برويل الذي يتودد إلى أغات: «إذا لم تتجلّ عبقريته فيمكنك دائماً أن تضعيه في الإدارة».

ومن أعلى السلم حيث رافقت السيدة دكوان المستخدمين الشيوخ الثلاثة الذين سمتهم «**حكماء اليونان**»[1].

قال دو برويل: «إنها تعذب نفسها كثيراً».

وقال كلاباورن: إنها راغبة في أن يتمكن ابنها من فعل شيء تعتز به.

وقال دروش: إن أدام الله لنا الامبراطور، فإن ابنها سيكون تحت رعايته، فما الداعي لقلقها إذاً؟.

وردت السيدة دكوان: عندما يتعلق الأمر بولديها، فإنها تخاف من كل شيء.

ثم خاطبت ابنة أخت زوجها عند عودتها من وداع زوارهما: وبعد يا صغيرتي الطيبة، ألا ترين أنهم متفقون في الرأي، فما سبب استمرارك في البكاء؟

- آه! لو أن الأمر يتعلق بفيليب، لما خشيت شيئاً. أنت لاتعرفين ماذا يحدث في هذه المحترفات! إن لدى الفنانين فيها نساء عاريات.

---

(١) سبعة فلاسفة ورجال دولة من العصر الهلنستي.

قالت السيدة دكوان: ولكنهم يوقدون ناراً للتدفئة على ما أرجو».

بعد عدة أيام تفجرت مصائب هزيمة موسكو. وعاد الامبراطور نابوليون لتنظيم قوى جديدة وطلب تضحيات جديدة من فرنسة[1] واستسلمت الأم المسكينة عند ذاك لهموم أخرى. فابنها فيليب. وهو الكاره للكلية، أراد جازماً خدمة الامبراطور، وفي استعراض تم في التويليري، وهوالأخير الذي أجراه الامبراطور وحضره فيليب زاد حماسه، ففي ذلك الزمن كانت الأبهة العسكرية، ومظهر البزات الرسمية، وسلطة الكتفيات تمارس إغراءات لاتقاوم على بعض الشباب[2]. واعتبر فيليب نفسه مؤهلاً نسبة للخدمة في الجيش ويمتلك المواهب التي أبداها أخوه بالنسبة للفنون. ودون علم أمه كتب للامبراطور طلباً هذا نصه:

سيدي

أنا ابن بريدو الأمين لك، وقد بلغت الثامنة عشر، وطولي خمسة أقدام وست بوصات. واتمتع برجلين قويتين وبنيةمتينة، وأنا أطلب رعايتك لدخول الجيش».. الخ.

أرسل الامبراطور فيليب من الكلية الامبراطورية إلى سان سير، خلال أربع وعشرين ساعة، وبعد ستةأشهر، أي في تشرين ثاني ١٨١٣ تخرج ملازماًفي سلاح الخيالة. وبقي قسماً من فصل الشتاء في الاحتياط، لكن ما أن أتقن الفروسية حتى انطلق ممتلئاًبالحماس. وخلال الحملة على فرنسةكان ملازماً أولاً في طليعة استشكافية انقذت فيها جرأته عقيد فرقته. وسماه الامبراطور نقيباً خلال معركة لافير ـ شامبنواز واتخذه ضابطاًمرافقاً له. وزادت هذه الترقيةمن اندفاعه فنال صليب جوقة الشرف في مونترو[3]. وكان حاضراً وداع نابوليون في فونتيبنلو،

---

(١) عاد نابوليون في ١٩ كانون أول ١٨١٢.

(٢) وصف بلزاك هذا العرض الأخير الذي جرى في نيسان ١٨١٣ في قصة الموعد التي غدت القسم الأول من رواية امرأة في الثلاثين.

(٣) يشير بيير سيترون إلى مايلي: ١ ـ لم يحضر نابوليون اشتباك لافير شامبنواز (١٥آذار ١٨١٤) ٢ـ إن هذا الاشتباك كان بعد معركة مونترو (التي حدثت في ١٨ شباط ١٨١٤).

كان بلزاك يريد أن يبدل اسم مونترو بموغميراس لكن ذلك لايصحح الخطأ فهذه المعركة حدثت في ١١ شباط.

واستثاره هذا المشهد فرفض النقيب فيليب بريدو أن يخدم آل بورون. وعندما عاد إلى أمه في تموز ١٨١٤ وجدها مفلسة؛ فقدألغيت منحة جوزيف خلال العطلة الصيفية، وكان تقاعد السيدة بريدو يدفع لها من صندوق الامبراطور، وجربت عبثاًأن يسجل في وزارة الداخلية. وسرّت هذه الأحداث جوزيف، المخلص للرسم أكثر من أي وقت مضى، فطلب من أمه أن تسمح له بالذهاب إلى محترف رينيو، ووعد بإمكان تحصيله لعيشه. قال عن نفسه إنه أقوى تلميذ في الصف الثاني بحيث يمكنه أن يستغني عن الصف الأول.

كان فيليب النقيب في التاسعة عشر من العمر، والحاصل على صليب جوقة الشرف بعد أن خدم مرافقاً للامبراطور في معركتين، مصدر اعتزاز كبير لأمه. فهو رغم خشونته. وجلبته، وعدم تحليه إلا بالشجاعة المبتذلة كسيّاف[١]، كان بالنسبة إليها الرجل العبقري. بينما جوزيف، الصغير القامة، الهزيل الجسم، السقيم، ذوالجبين الوحشي، المحب للسلام والهدوء، الحالم بمجد الفنان، لايمنحها، وفقاً لتصريحها إلا العذاب والقلق. كان شتاء ١٨١٤-١٨١٥ مناسباً لجوزيف الذي كانت تحميه خفية السيدة دكوان وحفيدها بيكسيو، تلميذ غرو[٢]، فكان يذهب للعمل في هذا المحترف الشهير، حيث ارتبط بصداقة وطيدة مع شينر[٣].

وتفجرّ ٢٠ آذار ١٨١٥[٤]، والتحق النقيب بريدو بالامبراطور في ليون ورافقه إلى التويلري وسمي رئيس سريّة في فرسان الحرس الامبراطوري؛ وأصيب بجرح خفيف في معركة واترلو حيث نال صليب ضابط في جوقة الشرف؛ ووجد نفسه

---

(١) تعبير أريد منه تحقير ضباط الجيش لأنهم يعرفون استخدام سيوفهم لكنهم لايعرفون استخدام عقولهم وذكائهم.

(٢) انطوان ـجان غرو (١٧٧١-١٨٣٥) له لوحات شهيرة منها طاعون يافا، ومعركة إيلو.

(٣) شينر: شخصية في عدة روايات لبلزاك، المحفظة (١٨٣٢) ثم روايات ١٨٤٠-١٨٤٢: **بيير غراسو بداية في الحياة، الخليلة المزيفة.**

(٤) هو يوم وصول نابوليون إلى باريس بعد عودته من جزيرة إلبا، وبداية حكم المئة يوم.

إلى جانب المارشال دافو[1] في سان دنيس، ولم ينضم إلى جيش اللوار، لكنه حظي بحماية المارشال دافو فاحتفظ برتبته العسكرية ووسامه كضابط لكن راتبه خفض إلى النصف.

أما جوزيف، القلق من المستقبل، فكان يدرس في تلك الفترة بحماسة سببت له عدة مرات الوقوع في المرض وسط هذا الإعصار من الأحداث.

قالت أغات للسيدة دكوان: هذه رائحة الألوان الزيتية، يجب أن يتخلى عن دراسة تحدث مثل هذا الضرر بصحته.

كانت جميع هموم أغات منحصرة أنئذ بولدها المقدم[2] في الجيش، ورأته في العام ١٨١٦ وقد هبط راتبه من ٩٠٠٠ فرنك سنوياً وهو الراتب المقرر المقدم في سلاح الفرسان في الحرس الامبراطوري إلى نصف قيمته أي ثلاثمئة فرنك[3] شهرياً. ورتبت له السقيفة فوق المطبخ باللجوء إلى بعض مدخراتها. وغدا فيليب أحدالبونابريتين الأكثر مواظبة على مقهى لمبلن[4]، مركز النخبة الدستورية الحقيقية، واتخذ عادات، وتصرفات، وأسلوب حياة الضباط بنصف الراتب؛ وكما يتوقع من شاب في الحاديةوالعشرين من العمر تحمس معهم، وأبدى بجد كرهاً مميتاً للبوربونيين، وأبى أن ينضم إليهم، ورفض حتى الفرص التي عرضت عليه في الخدمة في الجيش العامل برتبته كمقدم وبدا في عيني أمه معبراً عن أنفة كبيرة.

قالت: «ماكان أبوه ليفعل أفضل من ذلك».

كان نصف الراتب يكفي فيليب، فلا يحتاج إلى شيء من المنزل، بينما كان

---

(١) المارشات دافو، دوق اورستدت (١٧٧٠-١٨٢٣) أحد أفضل قواد نابوليون.

(٢) هذه الرتبة تعادل قائد سرية.

(٣)٣٠٠×١٢= ٣٦٠٠ فرنك سنوياً. وهي لاتعادل نصف ٩٠٠٠ فرنك. لكن هذا المبلغ الأخير يتضمن علاوات يحرم فيها الضابط غير العامل.

(٤) هذا المقهى في الباليه رويال هو ملتقى كبار الضباط من بونابرتيين وغيرهم وقد ذكر عنه لويس فيرون بعض الفكاهات في **مذكرات بورجوازي في باريس**، وقد شبهه بلزاك بـBeotie دستورية أي المدينة التي كانت في القرن الخامس ق. م تصارع أثينا واسبارطة.

جوزيف على عاتق الأرملتين كلياً في جميع نفقاته . ومنذتلك اللحظةانكشف إيثار أغات لفيليب ، فحتى ذلك الوقت كان تفضيلها له خفياً ؛ لكن الاضطهاد الذي مورس على أحد جنود الامبراطور القدماء ، وذكرى الجرح الذي أصيب به ابنها العزيز ، وشجاعته في المحنة ، بالرغم من أنها إرادية ، بدت لها وقفة نبيلة . كل ذلك فجر حنان أغات ؛ وكانت كلمتها : «إنه سيء الحظ» تبرر كل شيء . أما جوزيف فكان يملك بطبعه تلك البساطة التي تفيض مع بداية الحياة في نفوس الفنانين ، ونشأ على بعض إعجاب يكنه لأخيه الأكبر ، فكان أبعد عن أي شعور بالغيظ من إيثار أمه ، بل برره بمقاسمتها هذا الإجلال للشجاع الذي قاتل تحت قيادة نابوليون في معركتين ، وجرح في واترلو ؛ وأنى له أن يشك بتفوق هذا الأخ الأكبر وقد رآه في بزته العسكرية الجميلة بلونيها الأخضر والذهبي الخاصة بفرسان الحرس الامبراطوري يقود سريته في شامب ـ دي ماي[1] . لكن أغات رغم إيثارها لفيليب ، بدت أماً ممتازة ، فهي تحبُّ جوزيف ، لكنه ليس ذلك الحب الأعمى ، وهي لاتفهمه ، هذا كل شيء . وجوزيف يعبد أمه ، بينما فيليب يتركها تعبده . غير أن الضابط الفارس يلطف خشونته العسكرية معها ، إنما لايخفي أبداً ازدراءه لجوزيف مع التعبير بطريقة ودية . فبرؤية هذا الأخ تسود هامته الضخمة ذلك الجسم النحيل المجهدبالعمل المتواصل ، الأعجف ، الضعيف البنية وهو في السابعة عشر ، سماه : «الولد!» ويمكن لتصرفاته المشفقة والساخرة دائماً بأخيه ، اعتبارها جارحة لولا لامبالاة الفنان الذي يرى فيها الطيبة الخفية لدى الجندي في مظهره الفظ . لم يكن جوزيف ، الفتى المسكين يعلم أن العسكريين ذوي الموهبة الحقيقية لطفاء ومهذبون كجميع الأشخاص السامين ؛ فالعبقرية في كل شيء مماثلة لنفسها لاتتغير .

كان فيليب يقول لأمه عند ذكر أخيه : «يا للولد المسكين! يجب عدم إقلاقه ، اتركيه يتسلى» وهذا الازدراء كان يبدو في عيني الأم برهان حنان أخوي ، فتفكر في نفسها : «إن فيليب سيحب دائماً أخاه وسيحميه» .

---

(١) مكان أعلن فيه «الملحق الاضافي لدستور الامبراطورية» خلال حكم المئة يوم وتم فيه استعراض وتوزيع النسور على الجيش في أول حزيران ١٨١٥ .

في العام ١٨١٦ حصل جوزيف من أمه على إذن بتحويل السقيفة الملحقة بغرفته إلى مرسم ومنحته السيدة دكوان بعض النقود لشراء اللوازم الضرورية لمهنة الرسام إذ أن الرسم في عرف الأرملتين هو مهنة. وبالروح والحماس اللذين يرافقان نداء الميل الباطني هيأ جوزيف بنفسه كل مايلزم لمحترفه المتواضع، وبمراجعة السيدة دكوان للمالك فتح له منوراً في السقف وجهزه بنافذة زجاجية، وغدت تلك السقيفة صالة واسعة دهنها جوزيف بلون كستنائي، وعلق على الجدران بعض الرسوم الأولية؛ كما وضعت فيها أغات، وهي تبدي بعض الأسف، مدفأة من الحديد الصب، وهكذا أمكن لجوزيف العمل في المنزل دون أن يهمل مع ذلك مرسم غرو أو مرسم شينر.

قام الحزب الدستوري المدعوم خاصة من قبل الضباط ذوي نصف الراتب، والحزب البونابرتي بتظاهرات هائجة حول المجلس النيابي اعتراضاًعلى ميثاق الملكية الثانية الذي لم يرض أحداً وسبب عدة مؤامرات، وأوقف فيليب الذي أقحم فيها، لكن أخلي سبيله لنقص الأدلة. لكن وزارة الحرب حرمته من نصف الراتب بوضعه في ملاك فئة الضباط المسماة تحت التأديب. ولم يعد العيش مطاقاً في فرنسة، وانتهى فيليب إلى الوقوع في شرك العملاء المحرّضين، وكان يتحدث كثيراً آنئذ عن هؤلاء الأشخاص وتحريضاتهم. وبينما كان فيليب يضيع الوقت وهو يلعب البليار في المقاهي المشبوهة ويعتاد على أن يرتشف فيها تلك الكؤوس الصغيرة من المشروبات الكحولية المختلفة، كانت أغات في ارتعادات مميتةخوفاً على رجل العائلة الكبير. وكان عقلاء اليونان الثلاثة قد ألفوا تماماً سلوك ذات الطريق كل مساء وصعود سلم الأرملتين ورؤيتهما بانتظارهم وهما مستعدتان لسؤالهم عن انطباعاتهم خلال اليوم حتى لايتخلوا عنهما. وكانوا يأتون دائماً لتمضية السهرة في جولة لعبة البوسطن في ذلك الصالون الأخضر الصغير.

في العام ١٨١٦، قامت وزارة الداخلية بتطهيرات إدارية في دوائرها، لكنها احتفظت بكلابارون أحد هؤلاء الرعاديد الذي كان يتحدث بصوت منخفض عما

ورد في صحيفة «المونيتور[1]» من أخبار مضيفاً: «لاتعرّضوني للشبهات!». وأحيل دروش على التقاعد بعد وقت قصير من إحالة دوبرويل وكان مايزال يتابع تقاعده. وكان هؤلاء الأصدقاء الثلاثة، وهم شهود قنوط أغات، ينصحونها بأن تعمد إلى تسفير العقيد؛ فيقولون: «يروج الحديث عن المؤامرات، وابنك، بما فطر عليه من طبع سيكون ضحية قضية ما، فالخونة كثر دائماً.»

قال دو برويل بصوت منخفض وهو يتطلع حوله: يا للشيطان! إنه من الأرومة التي صنع منها امبراطوره المارشالات، فلا يجب أن يترك دولته ليذهب ويخدم في الشرق أو في الهند...

قالت أغات: وماذا سيحل بصحته؟

وقال العجوز دروش: ولماذا لايأخذ وظيفة ما؟ في هذه الفترة عدة إدارات خاصة! وأنا سأدخل رئيس مكتب في إحدى شركات التأمين، ما إن انتهي من تسوية معاشي التقاعدي.

ردّت أغات بلهجة عدوانية: فيليب جندي، وهو لايحب إلا الحرب.

ـ يجب أن يكون عاقلاً إذاً، ويطلب أن يعود إلى الجيش العامل.

ـ هتفت الأرملة: حول هذا؟ أوه! لن أكون من تنصحه يوماً بذلك.

أردف دو برويل: أنت على خطأ فابني قد أعيد إلى الخدمة من قبل الدوق دي ناڤارن، والبوربونيون ممتازون مع من ينضمو ن إليهم بصدق. وسيسمى ابنك مقدماً في فرقة ما.

هتفت دكوان: إنهم لايريدون إلا النبلاء في سلاح الفرسان، ولن يرفع أبداً إلى رتبة عقيد».

---

(١) المونتيور: أو المرشد Moniteur جريدة انشئت في فرنسة العام ١٧٨٩ لنشر مناقشات الجمعية الوطنية واعتبرت الجريدة الرسمية من العام ١٧٩٩ حتى ١٨٤٨.

رجت أغات المذعورة فيليب بأن يهاجر ويضع نفسه في خدمة إحدى القوى التي تستقبل دائماً بالترحاب ضابطاً كان مرافقاً للامبراطور.

هتف فيليب مستنكراً: «أأنا أخدم الغرباء؟ . . .»

قبّلت أغات ابنها باعتزاز وهي تقول: «إنه ابن أبيه

قال جوزيف: إنه على حق فالفرنسي فخور بقيادته هنا ولا يمكنه الذهاب ليقاد في مكان آخر[1]. ومع ذلك فقد يعود نابوليون مرة أخرى!»

ولأجل أن يجامل أمه، خطرت لفيليب الفكرة الرائعة في أن يلتحق بالجنرال لالمان في الولايات المتحدة ويتعاون معه في مؤسسة «**حقل اللجوء**» إحدى أرهب الخُدَع التي عرفت تحت اسم الاكتتابات الوطنية[2]. وأعطت أغات ابنها عشرة آلاف فرنك سحبت من مدخراتها كما أنها انفقت ألف فرنك لمرافقة ابنها إلى الهافر لإبحاره من هناك. وفي نهاية العام ١٨١٧ عرفت أغات العيش بمبلغ الستمئةفرنك سنوياً التي بقيت لها كدخل من تسجيلها في السجل الكبير. ثم بوحي موفق وضعت في الحال العشرة آلاف فرنك التي بقيت لها من مدخراتها في هذا السجل مما أنتج لها دخلاً إضافياً بمقدار سبعمئة فرنك سنوياً. وأراد جوزيف أن يساهم بهذا العمل المتفاني: فعمل كشاهد تنفيذ[3]، وانتعل أحذيةضخمة، ولبس جوارب زرقاء خشنة، وتخلى عن القفازات، وتدفأ بفحم الخث[4] وعاش على الخبز والحليب وجبنة برِّي. ولم يكن الفتى المسكين يلقى التشجيع من العجوز دكوان أوحفيدها بيكسيو، رفيقه في الكلية.

---

(١) فكرة تعبر جيداً عن الشعور السائد بين تلامذة الفن ولدى . . . بلزاك أيضاً.

(٢) حقل اللجوء: تأسس في العام ١٨١٧ من قبل فرنسوا انطوان لالمان على ضفاف خليج المكسيك وفتح للاجئين الفرنسيين البونابرتيين والأحرار الذين منح كل منهم عشرة هكتارات من الأرض. وقد نظمت الصحف الحرة اكتتابات لمصلحة هؤلاء اللاجئين لكنها اتهمت باختلاس الأموال.

(٣) شخص يرافق كاتب المحكمة عند تنفيذ الأحكام ليشهد على تنفيذ ذلك ولمساعدة الكاتب إن اقتضى الأمر لقاء أجر يتلقاه.

(٤) فحم رخيص سيّء الاحتراق وينشر دخاناً كثيراً.

وفي المرسم حيث كان يقوم برسوم كاريكاتورية مدهشة في ذات الوقت الذي يشغل فيه وظيفة صغيرة في إحدى الوزارات كان بريدو يقول دائماً وهو يتحدث عن بؤسه آنذاك: بأي سرور انتظرت حلول صيف ١٨١٨! حيث اغنتني شمسه عن شراء الفحم».

كان قد غدا بمثل قوة غرو في استخدام اللون، ولم يعديرى أستاذه إلا لاستشارته. وكان يفكر عندئذ أن يعارض جهاراً الكلاسيكيين، ويحطم الاصطلاحات اليونانية والتخوم التي يراد أن يُحبَس بها تعود إلى الطبيعة كما هي بكل قدرة مخلوقاتها ونزواتها. وكان جوزيف يستعد لهذا الصراع الذي لم ينقطع منذ اليوم الذي ظهر فيه في معرض١٨٢٣. وكانت السنة رهيبة: فروغن كاتب عدل السيدة دكوان والسيدةبريدو اختفى حاملاًمعه الحجوزات الجارية منذسبع سنوات على حق الانتفاع والتي يمكن أن تنتج دخلاً بمقدار ألفي فرنك[1]. وبعد ثلاثة أيام من هذه الكارثة وصلت من نيويورك كمبيالة بألف فرنك مسحوبة من العقيد فيليب على أمه، فالشاب المسكين خُدع ككثيرين غيره، وخسر كل شيءفي **حقل اللجوء**. وقد تحدثت الرسالة المرفقة بالكمبيالة والتي أسالت دموع أغات وجوزيف ودكوان عن ديون مقترضة في نيويورك حيث قام رفاق الحظ العاثر بكفالة العقيد.

صرخت الأم المسكينة الماهرة في تبرير أخطاء فيليب: «كنت أنا التي أجبرته على الإبحار

قالت العجوز دكوان لابنة أخت زوجها: ألم أنصحك غالباً بعدم تشجيعه على مثل هذه الرحلات».

كانت السيدة دكوان تتحمل الكوارث ببطولة، وكانت تقدم دائماً الألف إكو المترتبة عليها للسيدة بريدو، وفي ذات الوقت كانت تغذي ثلاثية اليانصيب. وأتهمت الحكومة بالعمل على حذف هذه الأرقام الثلاثة وعدم ادخالها الصندوق لتزيد من تحريض المراهقين الغاضبين على زيادة مبالغ الرهان. وبعد فحص سريع

(١) سبب هرب روغن إفلاس غيوم غرانده وآل بيروتو أيضا، وقد وقع في العام ١٨١٩.

للموارد بدا من المستحيل تأمين ألف فرنك دون بيع قسم من رأسمال الدخل. وتحدثت المرأتان عن رهن الفضيات وقسم من البياضات أو الفائض من الأثاث. وذعر جوزيف من هذه الاقتراحات فذهب وقابل جيرار[1]، وعرض عليه وضعه، وحصل له الرسام الكبير على عقد من وزارة البلاط الملكي لإجراء نسختين من صورة لويس الثامن عشر لقاء خمسمئة فرنك للنسخة الواحدة. ورغماً من قلة المردود، رافق غرو تلميذه إلى تاجر ألوان زيتية، وطلب منه أن يقدم لجوزيف كل مايحتاجه وتسجيل ذلك على حسابه الخاص. لكن الألف فرنك لن تدفع قبل تسليم النسختين. وقام جوزيف عندئذ بإعداد أربع نسخ لوحات صغيرة خلال عشرة أيام، وباعها بألف فرنك للتجار، وحمل المبلغ لأمه التي تمكنت من تسديد الكمبيالة. وبعد ثمانية أيام وردت رسالة أخرى ينبئ فيها العقيد أمه بمجيئه على مركب ارتضى القبطان أن يقله فيه لقاء وعدٍ بتسديد الأجرة عند الوصول. وأعلن فيليب أنه سيحتاج إلى ألف فرنك على الأقل عندنزوله في الهافر.

قال جوزيف لأمه: «حسن، سأكون قد أنهيت نسختي ويمكنك أن تحملي إليه الألف فرنك. هتفت أغات وهي تذرف الدموع وتعانقه: يا عزيزي جوزيف، ليباركك الله، أنت تحب إذاً هذا المضطهد المسكين، إنه فخرنا، وكل مستقبلنا. إنه مع شبابه وشجاعته تعيس جداً فكل شيء انقلب ضده فلنكن نحن الثلاثة على الأقل معه».

هتف جوزيف مسروراً للحصول من أمّه على إذن بأن يكون رساماً كبيراً: أنت ترين الآن جيداً أن الرسم يفيد في شيء ما».

هرعت السيدة بريدو لتستقبل ابنها المحبوب العقيد فيليب وما أن وصلت إلى الهافر حتى أخذت تذهب كل يوم إلى باب البرج الدائري الذي بناه فرنسوا الأول تنتظر المركب الأمريكي، ويخالجها يوماً بعد يوم قلق ممض. فالأمّهات وحدهن

(١) فرانسوا جيرار: رسام تاريخ (١٧٧٠-١٨٣٧) وكان صديقاً لبلزاك، ويظهر اسمه هنا دون شك لأنه وضع رسماً للويس الثامن عشر، وهو الرسم الذي قام جوزيف بنسخه.

يعرفن كم تحيي هذه الأنواع من الآلام الأمومةووصل المركب في صباح يوم جميل من شهر تشرين أول ١٨١٩ ، دون أن يصاب بأي ضرر أو يناله أي مسّ. إن نسيم الوطن ولقاء الأم يحدثان دائماً حتى لدى الرجل الأكثر فظاظة، بعض الأثر، خاصة بعد رحلة مليئة بالشقاء . وأقبل فيليب على أمه وفيض من العواطف يتجلى في قسماته، مما دفع أغات إلى القول «آه! كم يحبني هذا الولد!» للأسف! لم يكن الضابط يحبُّ إلا شخصا واحداً في العالم، وهذا الشخص هو العقيد فيليب. وتعاسته في تكساس، وإقامته في نيويورك، البلاد التي وصلت فيها المضاربات والفردية إلى أعلى الدرجات، وحيث الرجل المنعزل بشكل رئيس يجد نفسه مضطراً للسير رغماً عنه، ليقيم من نفسه في كل لحظة محكماً على مصلحته الخاصة، حيث التهذيب لا وجود له أخيرا فإن أقل الأحداث في هذه الرحلة نمّت في فيليب الميول السيئة: فغدا شرساً، سكيراً مدخناً، أنانياً، قليل التهذيب فالشقاء والآلام الجسدية أفسدته. كما أن العقيد ينظر إلى نفسه كإنسان مضطَّهَد. ومن تأثير هذه الفكرة أن تجعل الأشخاص عديمي الذكاء، مضطَّهِدين، ومتعصبين، فالكون بالنسبة لفيليب يبدأ في رأسه وينتهي عند قدميه. والشمس لا تشرق إلا من أجله. أخيراً فما رآه في نيويورك، بعد تأويله من هذا الرجل الفعال، نزع منه أقل الوساوس العائدة للأخلاق، فلدى الكائنات من هذا النوع، لا توجد إلا طريقتان في الكون: إما أن يؤمنوا أو أن لا يؤمنوا؛ إما أن يتقيدوا بكل فضائل الرجل الشريف أو أن يستسلموا لكل متطلبات الضرورة. ثم يعتادون على أن ينصبوا أقل مصالحهم، وكل رغبة مؤقتة لأهوائهم، ضرورة قصوى. على هذا النسق يمكن الذهاب بعيداً، فالعقيد احتفظ ظاهرياً فقط بالصدق والصراحة، والعفوية المعروفة عن العسكري، وهكذا غدا خطيراًإلى أبعد حد، يظهر كطفل، لكنه لا يهتم إلا بنفسه، لا يفعل شيئاً أبداً دون أن يفكر بما يجب عليه فعله بمثل تفكير نائب عام ماكر بإحدى حيل المعلم غونين[1] . والكلمات لا تكلفه شيئاً فهو يعطي منها بقدر ما يلزم

(١) يشير اسم المعلم غونين إلى شخص ماكر جداً، ساحر إلى حد ما، مشعوذ. وقد عرف اثنان بهذا الاسم أحدهما «ساحر» في عهد فرانسوا الأول، و«الآخر» بهلوان في النصف الأول من القرن الثامن عشر وشاع التعبير شعبياً بعد صدور كتاب «حيل المعلم غونين» في العام ١٧١٣ وأعيد طبعه في ١٧١٤ و١٧٣٤ .

لإقناع مستمعيه، وإذا تجرأ أحد، لسوء حظه، على عدم قبول الشروح التي يبرر فيها التناقضات بين سلوكه ولغته، فالعقيد البارع في إشهار المسدس، القادر على تحدي أمهر الرماة، والرابط الجأش ككل اللامبالين بالحياة، مستعد أن يطلب تصحيحاً لأقل كلمة حادة تبدر منك، لكن بانتظار ذلك يبدو متهيئاً لاستخدام أسلوب العنف الذي لايمكن بعده إجراء أي تسوية. وقد أخذت قامته المهيبة بعض البدانة، واسمر وجهه خلال إقامته في التكساس، واحتفظ بالعبارة المقتضبة واللهجة الحازمة للرجل المضطر لفرض احترامه في وسط جماهير نيويورك. بهذا التكوين، وبثياب بسيطة، وجسم تتجلى فيه قسوة المعاناة الطارئة، بدا فيليب لأمة المسكينة كبطل؛ لكنه كان قد غدا بكل بساطة مايطلق عليه الشعب بكل مضاء اسم **الوغد**. وارتاعت السيدة بريدو من عري ابنها الأثير ومظهر إملاقه فأعدت له في الهافر مجموعة ملابس لائقة كاملة، وبسماع قصةتعاسته لم تطاوعها نفسها على ردعه عن الشراب والطعام والمتعة كما يشرب ويشتهي ويستمتع محروم عائد من «حقل اللجوء».
بكل تأكيد كان تصوراً جميلاً غزو التكساس بفلول الجيش الامبراطوري، لكن هذا التصور فشل لابحكم الظروف، إنما بخطأ الرجال، إذ أن التكساس اليوم جمهوريةواعدة بكل ازدهار في المستقبل(١). هذه التجربة من الليبرالية في ظل الملكية الثانية، برهنت بقوة على أن اهتماماتها كانت أنانية صرفة، وليست وطنية مطلقاً؛ إنها تسعى إلى السلطة في فرنسةوليس في مكان آخر؛ فلا الرجال، ولا الأمكنة، ولا الفكرة، ولا التفاني نقصت إنما الإكوات ومساعدات ذلك الحزب المنافق المستحوذ على مبالغ هائلة لايقدم منها شيئاً عندما يتعلق الأمر باسترداد امبراطورية.

إن ربات البيوت من أمثال أغات توقعن بحسهن السليم هذه الأنواع من الخدع السياسية والأم المسكينة استشفت الحقيقة من أحاديث ابنها، إذ أنها استمعت

(١) تكساس: أكبر الولايات الأمريكية حالياً بعد ألاسكا (٦٩٢٤٠٧ كم٢) انفصلت عن المكسيك في ١٨٣٥-١٨٣٦ وفي زمن كتابة هذه الرواية شكلت جمهورية مستقلة، وانضمت إلى الولايات المتحدة في العام ١٨٤٥.

خلال غيابه، ولمصلحة المبعد، إلى الاعلانات الطنانة المنشورة في الصحف الدستورية؛ وتابعت حركة الاكتتاب الشهيرة التي لم تجمع أكثر من مئة وخمسين ألف فرنك؛ بينما وجب الحصول على خمسة إلى ستة ملايين فرنك. وأدرك زعماء الليبراليين بسرعة أنهم يخدمون أغراض لويس الثامن عشر بتصديرهم من فرنسة البقايا المجيدة من جيوشنا، فتخلوا عن الأكثر إخلاصاً وحمية وحماساً، أولئك الذين تقدموا في الطليعة[1].

لم تتمكن أغات أبداً أن تشرح لابنها أنه كان مغفلاً أكثر منه مضطَّهَداً؛ فهي في إيمانها بمعبودها لامت نفسها على الجهل، وشكت من ظلم الزمان الذي ابتلى فيليب، والواقع، وحتى ذلك الحين، وفي جميع هذه المصائب، لم يكن مذنباً بقدر ماهو ضحية جميل طبعه، وحيويةطاقته، وسقوط الامبراطور، ورياء الليبراليين، وضراوة البوربونيين على البونابرتيين. ولم تجرؤ خلال هذا الأسبوع المنصرم في الهافر، وهو أسبوع فادح التكاليف، أن تقترح على إبنها أن يتصالح مع الحكومة الملكية، ويتقدم إلى وزارة الحربية: واكتفت بأن أخرجته من الهافر، حيث المعيشة باهظة الكلفة، للتوجه إلى باريس بعد أن لم يبق في حوزتها إلا أجرة السفر. وكانت السيدة دكوان وجوزيف في انتظار المبعد عند وصوله إلى بهو مكتب السفريات الملكية؛ وأذهلهما الانحطاط البادي على وجه آغات. وقالت السيدة دكوان لجوزيف وسط المعانقات، وبينما كان ينزل صندوقي الأمتعة: «إن أمك كبرت عشر سنوات في شهرين».

«طاب يومك أيتها الأم دكوان» كانت عبارة التحية التي وجهها العقيد لنسيبتهم البقالة العجوز التي اعتاد جوزيف أن يناديها بكل تودد: ماما دكوان..

قالت أغات مكتئبة: «لم يبق معنا دراهم لاستئجار عربة»

---

(١) يجب أن لاننسى أن هذه الرواية ظهرت أولاً مسلسلة في صحيفة سياسية هي «لابرس La Presse» وهذا الرأي ـ وهو قابل للمناقشة ـ بالنسبة لأحداث مضت هو بصورة خاصة مضاد لليبرالية ١٨٤١ ويتلاءم مع خط بلزاك السياسي آنذاك ومع سياسة الصحيفة التي كانت تنافسها صحيفة الليبراليين (الجيل Le Siècle).

أجاب الرسام الشاب: «معي مايكفي» ثم هتف لمرأى فيليب: لقد اكتسب أخي لوناً رائعاً.

ـ رد فيليب: نعم، لقد اسوددتُ كغليون. أما أنت فلم تتغير، أيها الصغير»

كان جوزيف قد بلغ آنذاك الحادية والعشرين من عمره، وهو مقدر من بعض أصدقاء خُلص له يدعمونه في وقت الشدائد، معتد بشخصيته، وواع لموهبته. وكان يمثل الرسم في الندوة[1] المؤلفة من عدة شباب نذروا حياتهم للعلم والأدب والسياسة والفلاسفة فامتعض من تعبير الازدراء الموجه له من أخيه، خاصة وأنه أرفقه أيضاً بحركة لاتقل عنه ازدراء، إذ فرك له أذنه كطفل يعاقب على حماقة ارتكبها. ولاحظت أغات البرود الذي طرأ على السيدة دكوان وجوزيف وأعقب انبثاق عواطفهما؛ لكنها لطّفت الموقف بمحادثتهما عن الآلام القاسية التي تعرض لها فيليب في منفاه.

كانت السيدة دكوان، احتفاء بعودة الابن «الذي سمته ضالاً» بصوت منخفض، قد أعدت أفضل عشاء ممكن. دعي إليه كلاباورن العجوز ودروش الأب، ووجب أن يحضره كل أصدقاء المنزل وحضروا في المساء؛ كما دعا جوزيف ليون جيرو، ودارتز، وميشيل كريستيان، وفلولجنس ريدال، وبيانشون أصدقاءه في الندوة. وطلبت السيدة دكوان من بيكسيو حفيدها المفترض العمل على تنظيم لعبة «تبعيدة»[2] بين الشباب الحاضرين. وكان دروش الابن، وقد غدا، بفضل إرادة والده الصلبة مجازاً في الحقوق، من بين الحاضرين، واهتم دوبرويل وكلاباورن ودروش الأب لورو بتأمل المبعد العائد الذي بدت لهم تصرفاته الخشنة، وهيئته وصوته المتأثران بالمشروبات الكحولية، وتشدقه الكلامي السوقي ونظرته تثير القلق. وهكذا وبينما كان جوزيف يهيئ موائد اللعب التف أخلص الأصدقاء حول أغات متسائلين: «ماذا ينوي فيليب أن يفعل؟»

(١) الندوة: سبق لبلزاك آنذاك أن تعرض لها في ثلاثيته «أوهام ضائعة» وهو يتطرق لها هنا في أول تداخل بين الروايتين ـ وسيعدد هذه التداخلات فيما بعد. خاصة والأسماء التي سترد تظهر في أوهام ضائعة أيضاً.

(٢) التبعيدة: لعبة ورق قديمة تشبه لعبة «البوكر» الحديثة من حيث إمكان تبديل عدد من الأوراق. (المترجم).

أجابت: لاأدري، ولكنه مصمم على عدم خدمة آل بوربون.

قال العجوز دو برويل: من الصعب إيجاد وظيفة له في فرنسة، إن لم يدخل الجيش. إذ لايمكن أن يعين سريعاً في الإدارة، ويكفي بالتأكيد سماعه لرؤية أنه غير مؤهل، كولدي، لجمع ثروة من إعداد المسرحيات».

فهم الجميع من حركة عيني أغات كم يقلقها مستقبل فيليب، ولما لم يكن لأي من الأصدقاء اقتراح يعرضه لزموا الصمت؛ بينما تحلّق المبعد ودروش الابن وبيكسيو حول مائدة للعب «التبعيدة» الرائجة في تلك الفترة.

جاء جوزيف وهمس في أذن السيدة دكوان، المرأة الفائقة الطيبة: «ماما دكوان، ليس لدى أخي نقود ليقامر بها». وهرعت «مساهمة اليانصيب الملكي فأحضرت عشرين فرنكاً سلمتها للفنان الذي زلقها بدوره خفية في يد أخيه. وحضر الجميع وتشكلت حلقتا لعب البوسطن، ودبت الحيوية في السهرة. وظهر فيليب مقامراً سيئاً، فبعد أن ربح كثيراً، أخذيخسر، وحوالي الساعة الحاديةعشر كان مدينا بخمسين فرنكاً لدروش وبيكسيو. وكان الصخب على طاولة «التبعيدة» والجدل حولها يرنان أكثر من مرة في آذان لاعبي البوسطن الهادئين الذين كانوا يلاحظون فيليب خفية. وبرهن المبعد عن طبيعة سيئة حتى أنه في جدله الأخير مع دروش الابن غير الطيب بدوره، اضطر دروش الأب للتدخل ولوم ابنه رغم أنه على حق، ومنعه من الاستمرار في اللعب. كذلك فعلت السيدة دكوان مع حفيدها الذي بدأ يطلق كلمات فكهة لم يفهمها فيليب؛ إنما كان من شأنها أن تعرض هذا الساخر اللاذع للخطر لو أن أحدأسهمه المسننة اخترقت جدار الذكاء الثخين لدى العقيد.

همست أغات في أذن فيليب: «يجب أن تكون تعباً. فهيا إلى النوم».

قال بيكسيو وهو يبتسم عند خروج فيليب تصحبه السيدة بريدو: إن الأسفار تثقف الشبيبة.

لم يشهد جوزيف نهاية تلك السهرة، فهو ينام باكراً لأنه ينهض مع الفجر. وفي صباح اليوم التالي لم تستطع السيدة دكوان وأغات وهما يحضران الإفطار في الغرفة الأولى من استمرار التفكير بأن الأمسيات ستكون مكلفة جداً إذا استمر فيليب بالمقامرة على هذا المنوال، وفقاً لتعبير السيدة دكوان؛ ورأت هذه السيدة وهي آنئذ في السادسة والسبعين من العمر بيع أثاثها، وإعادة الطابق الثاني إلى المالك الذي لن يطلب شيئاً أفضل من استعادته، وأن تجعل من صالون أغات غرفة نوم لها، وتتحول الغرفة الأولى إلى صالون ومائدة في وقت واحد. وهكذا يمكن لهما توفير سبعمئة فرنك سنوياً. وهذا الضغط في النفقات يسمح بمنح فيليب خمسين فرنكاً شهرياً بانتظار تأمين عمل مناسب له. وقبلت أغات بهذه التضحية، وعندما نزل العقيد، وبعد أن سألته أمه عن مدى ارتياحه في غرفته الصغيرة؛ عرضت له الأرملتان الوضع المادي في العائلة؛ فالسيدة دكوان وأغات تمتلكان بضم دخليهما خمسة آلاف وثلاثمئة فرنك. والسيدة دكوان تدفع ستمئة فرنك لقاء الإقامة الداخلية في الكلية لبيكسيو الذي اعترفت منذ ستة أشهر بأنه حفيدها وكذلك ستمئة فرنك لإقامة جوزيف وباقي دخلها ـ المحدد بأربعة آلاف فرنك سنوياً لمدى حياتها فقط مع دخل أغات ينفق على المنزل وشؤون العائلة؛ بينما استهلكت مدخراتهما بتمامها.

قال العقيد: كونا مطمئنتين، سأسعى إلى تأمين عمل، ولن أكون عالة عليكما، ولن أطلب في الوقت الحاضر إلا المأوى ولقمة الطعام.

قبلت أغات إبنها، وزلقت دكوان في يده مئة فرنك لتسديد ديون قمار سهرة الأمس. وخلال عشرة أيام تم بيع الأثاث، وإعادةشقة الطابق الثاني للمالك، والتغيير الداخلي في شقة أغات بتلك السرعة التي لاترى إلا في باريس. وخلال هذه العشرة أيام كان فيليب يغادر المنزل بعد الإفطار، ليعود عند العشاء، ويذهب مساء فلايرجع للرقاد قبل منتصف الليل. وهذه هي العادات التي اكتسبها هذا

---

(١) أنشئ جسر الفنون في ١٨٠٢-١٨٠٣ وكان المرور عليه ملزماً لدفع فلس يتقاضاه مقعد على طرف الجسر وحذف هذا الرسم في العام ١٨٤٨.

العسكري المسرح بشكل آلي تقريباً وتجذرت فيه: يعمد إلى تلميع حذائه على جسر بون ـ نوف بالفلسين الذين كان يتوجب عليه دفعهما لو سلك طريق جسر الفنون[١] للوصول إلى الباليه رويال حيث يقرأ الصحف وهو يرتشف كأسين صغيرين من ماء الحياة[١]، مما يشغله حتى الظهر. وعندما يسلك شارع ڤيڤين ليصل إلى مقهى مينرف[٢] حيث يتداول في السياسة الليبرالية، وحيث يلعب البليار مع ضباط سابقين؛ وسواء كان رابحاً أو خاسراً فإنه يتناول ثلاثة أو أربعة كؤوس من مختلف المشروبات الكحولية، ويدخن ما لايقل عن عشر لفافات وهو يتسكع في الشوارع. وبعد العشاء يعود إلى الاستامينه الهولندية[٣] حيث يدخن أكثر من حشوةغليون. ويصعد إلى قاعة اللعب نحو الساعة العاشرةو يقدم له خادم القاعة بطاقة ودبوساً ويتحرَّى من بعض اللاعبين المحنّكين عن مدى توارد اللونين الأحمر والأسود[٤]، ويلعب بعشرة فرنكات في اللحظةالأكثر مناسبة، ولايلعب أبداً أكثر من ثلاث مرات ربحاً أو خسارة، وعندما يربح وهذا مايحدث له في غالب الأحيان فإنه يتناول كأساً من البونش[٥] يلتحق بعده بعليته، لكنه يتحدث آنذاك عن القضاء على المتطرفين، والحرس الشخصيين، ويغني وهو يصعد السلالم «فلنسهر على إحياء الامبراطورية»[٦] وعندما تستمع إليه أمه المسكينة تقول: إن فيليب مغتبط هذا المساء، وتصعد لتقبله دون أن تمتعض من روائح البونش، والكحول، والتبغ المنتنة الكريهة.

قال لها نحو نهاية شهر كانون الثاني: «ألست مسرورة مني يا أمي العزيزة؟ إنني اتبع الحياة الأكثر انتظاماً في العالم».

---

(١) ماء الحياة: مشروب كحولي قوي يقطر عادة من الثمار ويؤخذ بجرعات صغيرة ممزوجاًمع الماء أو صافياً ومن أنواعه ما يقطر من العنب: يصنع منه في فرنسة الأرميناك وفي الشرق العرق. أو يقطر من التفاح: كلفادوس أو من قصب السكر: كيرش وروم . . . إلخ

(٢) مقهى مينرف مقابل المسرح الفرنسي على زاوية شارع ريشليو.

(٣) الاستامينه الهولندية: حانة في الباليه رويال قذرة وسيئة السمعة.

(٤) هذا يعني أن قاعة اللعب مخصصة للعبة الروليت، ويلجأ بعض اللاعبين لإحصاء توارد الأرقام لحساب الاحتمالات.

(٥) البونش: مشروب كحولي من الروم المعطر بالليمون والقرفة.

(٦) أغنية وطنية ألفت العام ١٧٩١ من قبل روي. اعتبرت فيما بعد نشيداً وطنياً من أناشيد الإمبراطورية.

تغدى فيليب خمس مرات في مطعم مع أصدقاء قدامى، وقد تداول هؤلاء الجنود السابقين في أوضاعهم متحدثين عن الآمال المرجوة من بناء غواصة لتحرير الامبراطور. ومن بين رفقائه القدامى الذين عاد فيليب للالتقاء بهم، أصفى الودّ بصورة خاصة لنقيب قديم من فرسان الحرس الامبراطوري اسمه جيرودو كان قد بدأ تدريبه برفقته؛ وحرّض هذا الفارس القديم فيليب على أن يتمم ماسماه رابله «معدات الشيطان»[١]، بأن يضيف إلى الكأس والسيكار والقمار دولاباً رابعاً[٢]. وصحب جيرودو فيليب بعد العشاء إلى الغيته[٣] إلى مقصورة مخصصة لصحيفة صغيرة للمسرح تعود إلى نسيب له اسمه فينو حيث يجري له حسابات الصندوق، ويشرف على الكتابات التي تعد منها إعلانات المسرح وتدقق. كان الاثنان يرتديان وفقاً لطراز الضباط البونابرتيين المنتمين للمعارضةالدستورية: معطفاً واسعاً ذا قبة مربعة مزرر حتى الذقن، يتدلّى حتى العقبين، ويزدان بوريدة وسام جوقة الشرف. وكان كل منهما يحمل عصا من الأسل ذات قبضةمرصصة. ، وهو يمسك بها عبر شريط من جلد مجدول. ودخل الجنديان القديمان إلى المقصورة، بعد أن شربا حتى الثمالة، وراح كل منهما يبث للآخر أفراحه وأتراحه، وعبر أبخرة عدد من زجاجات الخمر وبعض كووس صغيرة من المشروبات الكحولية أشار جيرودو على خشبة المسرح منبهاً فيليب لوجود راقصة إيقاع شابة صغيرة بادية النشاط اسمها فلورنتين ذكر أنها تخصه برعايتها وودها بفضل نفوذ الصحيفة التي لها الفضل أيضاً في توفير المقصورة له.

قال فيليب: ولكن ما مدى هذه الرعاية والمودة التي تخص بها جندياً قديماً وخط الشيب رأسه مثلك؟

أجاب جيرودو: أشكر الله على أنني لم أتخل عن المبادئ العريقة لبزتنا الرسمية المجيدة، ولا أنفق فلساً واحداً لكسب ود امرأة.

---

(١) تلميح غير دقيق لما ورد في الفصل الرابع من غارغانتوا لرابله.

(٢) يقصد بذلك المرأة طبعاً وخاصة في علاقة غير شرعية.

(٣) مسرح في رقم ٦٨ جادة التامبل يقدم خاصة الميلودراما وفيه قدمت في العام ١٨٤٣ مسرحية لبلزاك هي «باميلا جيرو» معدلة من قبل جم.

هتف فيليب وهو يضع إصبعاً على أذنه اليسرى: كيف؟

أجاب جيرودو: نعم، لكن السر بيننا، للصحيفة الفضل الكبير في ذلك. فغداً، وبسطرين ننصح الإدارة بأن تدخل الآنسة فلورنتين في الرقصة التالية. يقيناً يا صديقي العزيز، إنني سعيد جداً.

فكر فيليب: «إيه إذا كان هذا المحترم جيرودو رغم قحفه الأصلع كركبتي، وسنواته الثمان والأربعين وكرشه المترهل، ووجهه المحمر ككرام، وأنفه المتكور كدرنة بطاطا، صاحباً لهذه الراقصة الإيمائية، فيجب أن أكون خليلاً للممثلة الأولى في باريس». ثم سأل جيردود بصوت عال: «ولكن أين تجتمع بها؟

- سأريك مقرها، وبالرغم من أن مثيلة دولسينة[1] بالنسبة لي، لاتتقاضى من المسرح أكثر من خمسين فرنكاً شهرياً، فإنها بفضل أحد أثرياء تجار الحرير القدامى المسمى كاردو، الذي يقدم لها خمسمئةفرنك في الشهر، تدبر شؤونها جيداً!

قال فيليب الغيور: إيه! ولكن؟ . . .

استأنف جيردود: باه! إن الحب الحقيقي أعمى».

بعد اختتام حفلة المسرح صحب جيرودو فيليب إلى منزل الآنسة فلورنتين المجاور للمسرح في شارك كروسول[2].

قال له جيرودو: فلنتصرف بلياقة؛ فخادمة فلورنتين هي أمها؛ أنت تعرف أن ليس لدي القدرة على دفع أجرة خادمة لها، والمرأة القائمة بهذا العمل هي أمها الحقيقية، وقد كانت بوابة، لكن الذكاء لاينقصها، واسمها كابيرول[3]، نادها سيدتي تكن راضية عنك».

---

(١) دولسينة: هي الفلاحة الشابة في رواية **دون كيشوت** لسرفانتس، وقد أغرم بها البطل وجعلها سيدة أحلامه.

(٢) شارع تسكن فيه الممثلات. وفيه أسكن پار ملقا في قصة **الخليلة المزعومة**، التي أنهاها بلزاك قبل هذه الروايةبقليل.

(٣) يعطي بلزاك تفاصيل أكبر حول السيدة كابيرول وابنتها في قصة **بداية في الحياة** التي كتبها بعد هذه الرواية بقليل.

كان لدى فلورنتين في ذلك المساء صديقة اسمها ماري غودشال، جميلة كملاك، باردة كراقصة، وهي تلميذة ڤستريس[1]، وكان يتوسم لها مستقبلاً باهراً في الرقص الإيقاعي وأرادت أن تبدأ في مسرح البانوراما ـ دراماتيك[2] تحت اسم مارييت وتعتمد على رعاية نبيل أول في المجلس، وجب على ڤستريس أن يقدمها له منذ مدة. لكن ڤستريس وكان مايزال محافظاً على نضارته في ذلك الزمن، لم يجد تلميذته قد وصلت إلى المهارة المطلوبة. وكانت ماري غودشال الطموح قد أشهرت اسمها المستعار مارييت، وكان طموحها جديراً بالثناء، إذ أن لها أخاً يعمل كاتباً لدى درڤيل[3]. ونشأا معاً يتيمين بائسين لكنهما متحابان، ورأى كلاهما الحياة في باريس على حقيقتها: وأراد الأخ أن يغدو محامياً مرخصاً ليؤمن زواج أخته فكان يعيش بعشرة فلوس في اليوم، بينما صممت الأخت ببرود أن تغدو راقصة، وتستغل جمالها بقدر ماتحرك ساقيها لتشتري مكتباً لأخيها. وما عدا العواطف التي يكنها أحدهما للآخر، ومصالحهما، وحياتهما المشتركة، يعدّان كل شيء بالنسبة لهما كان كما لدى الرومان والعبرانيين في السابق، يعتبر بربرياً، وغريباً، وعدواً. هذه الأخوة بجمالها، ومتانتها التي لايؤثر شيء عليها توضح شخصية مارييت لأولئك الذين يعرفونها بعمق ومودة. وكان الأخوان يسكنان آنذاك في الطابق الثامن من بناء من شارع التامبل القديم. وكانت مارييت قد بدأت التدرب وهي في العاشرة من عمرها، وهي الآن في السادسة عشرة. وللأسف! فلبعض النقص في زينتها، لايمكن أن يبدو جمالها الراقص المخفي وهي تحت وشاح من كشمير وبر الأرنب، وتنتعل خفاً زلقاً من حديد، وترتدي ثوباً من قماش هندي سيء الترتيب. إلا للباريسيين المولعين بمطاردة الفتيات اللعوبات، المتتبعين لمواطن الجمال السيء

---

(١) فستريس (ماريوس أوغوست ڤستريس ألار: ١٧٦٠ـ١٨٤٢) الراقص الأول في الأوبرا من ١٧٨٠-١٨١٨

(٢) البانوراما ـ دراماتيك: مسرح في شارع التامبل فتح أبوابه في العام ١٨٢١.

(٣) ظهرت شخصية هذا الأخ غودشال في قصة **العقيد شابير** في ١٨٣٢ وفي **بيت نوسنجن** في ١٨٣٩، كما ستظهر في **بداية في الحياة** وقرابته مع مارييت، وقد كشف عنها ميغار، سببت عدم اتمام زواجه بسلست كولڤيل في قصة البورجوازيين الصغار.

الحظ. وأغرم فيليب بمارييت، ورأت مارييت في فيليب، المقدَّم في سلاح فرسان الحرس الإمبراطوري، والضابط المرافق للامبراطور، والشاب ابن الأربعة وعشرين ربيعاً، عدا عن سرورها بالظهور متفوقة على فلورنتين بالتفوق الواضح لفيليب على جيرودو وشجع جيرودو وفلورنتين، ذاك لإسعاد صديقته، وهذه لإيجاد حام لرفيقتها مارييت وفيليب على إجراء زواج مطاوع[1]. هذا التعبير من اللغة الباريسية يماثل اصطلاح زواج غير متكافئ[2] المستخدم من أجل الملوك والملكات. لكن فيليب عند خروجهما أسر لصديقه جيرودو بوضعه البائس، لكن الداهية الكهل طمأنه بإيجاد وسيلة لتحسين الحال قائلاً:

«سأتكلم بشأنك مع ابن أختي فينو، كما ترى يا فيليب السلطة اليوم للمدنيين والعبارات المنمّقة، فلنتمثل لها. فالمحبرة والريشة تفعلان كل شيء اليوم. والحبر حل محل البارود، والكلمة أقوى من الرصاصة، وبعد كل حساب فهولاء العلاجم رؤساء التحرير ماهرون جداً وأولاد طيبون. تعال لرؤيتي غداً في الصحيفة وسأحدث نسيبي عن وضعك. وبعد فترة ماسيكون لك مكانك في إحدى الصحف. ومارييت في هذا الوقت (لن تستغلّك)، فهي قد ارتضتك لأنها لاتملك شيئاً، لاارتباط بعمل، ولا إمكانية البدء به. وقد ذكرت لها أنك ستكون مثلي عاملاً في صحيفة. ستدعي مارييت أنها تحبك لذاتك، أظهر لها تصديق ذلك! افعل كفعلي، احتفظ بالراقصة قدر إمكانك! كنت مغرماً بفلورنتين حتى أنني رجوت فينو عندما أرادت أن تتميز برقصة خاصة بها، أن يتعدى الكتابة عن بداياتها. لكن فينو قال لي: «إن لها موهبة أليس كذلك؟ الواقع أنها في اليوم الذي ستثبت فيه كراقصة موهوبة، ستجعلك خارج باب منزلها» أوه! هذا هو فينو. ستري فيه مثال الحذق والدهاء.

---

(١) زواج مطاوع En Detrempe. معنى العبارة أزال سقاية الفولاذ. وأنسب ترجمة لها جعله مطاوعاً (المترجم).

(٢) زواج غير متكافئ: هو زواج ملك أو أمير من امرأة من الشعب دون منحها جميع حقوق الزوجة الشرعية.

في اليوم التالي كان فيليب حوالي الساعة الرابعة بعد الظهر في شارع سنتيه[١]؛ في دور صغير فوق أرضي رأى فيه جيرودو منحبساً كحيوان ضار في قفص ذي فتحة صغيرة لايوجد فيه إلا طاولة صغيرة وكرسيين ومدفأة وحطبتين، وكتب على باب الغرفة هذه الكلمات السحرية: «مكتب الاشتراك» بأحرف طباعيةسوداء بينما كتب «الصندوق» على لوحة بخط اليد علقت على شبك القفص. وعلى طول الجدار المقابل لمكان وجود النقيب يوجد مقعد خشبي طويل يجلس عليه عاجز مقطوع الذراع، ناداه جيرودو باسم كولوكنت بسبب السمرة المصرية الظاهرة على وجهه بدون شك.

قال فيليب وهو يتأمل هذه الغرفة، «يا للسوء! ماذا تفعل هنا؟ أنت الذي كنت مع المهاجمين بقيادة العقيد المسكين شابير في إيلو[٢]؟ اللعنة! ألف لعنة! أهذا مصير كبار الضباط؟!..

- إيه! نعم! - برُم! برُم![٣] - ضابط كبير يقطع وصولات في صحيفة.» ثم أصلح طاقية الحرير الأسود التي يعتمرها وأضاف: «وعدا عن ذلك فأنا المحرر المسؤول[٤] عن هذه التهريجات، وأشار بيده إلى الصحيفة.

---

(١) وصف هذا المكتب في «**أوهام ضائعة**» لكن بلزاك حدد مكانه في شارع سان - فياكر الموازي لشارع سان سانتيه.

(٢) معركة في روسيا جرت في شباط ١٨٠٧ أجبر فيها نابوليون الروس والبروسيين على القتال، لكن المعركة لم تكن حاسمة رغم كثرة الضحايا.

(٣) هذه اللازمة «الكلمة المكررة» برم، برم «مميزة لمدمني المشروبات الكحولية القوية كما يذكر بلزاك في «سيزار بيروتو».

(٤) أوجب قانون الصحافة الصادرة في ١٨١٩ وجود محرر مسؤول لكل صحيفة، وهو مسؤول أمام السلطات أو الأفراد عما يطبع في الصحيفة. والواقع أن هذا المحرر كان رجلاً مسخراً فاقد الشخصية، يتعرض للغرامات التي تسدد قيمتها الصحيفة فيما بعد - وإلى الحبس - وينال عن ذلك تعويضاً من الصحيفة. لكن قانون ١٨٢٨ بدل هذا «التلفيق» وأوجب وجود مدير التحرير المسؤول: وهو شخص يجب أن يمتلك قسماً من الصحيفة على الأقل.

وقال العاجز : وأنا الذي ذهبت إلى مصر، أذهب الآن للبحث عن طابع.

قال جيرودو : إلزم الصمت يا كولوكنت، أنت أمام باسل رافق الامبراطور في معركة مونيمراي[1]

ـ رد كولوكنت وقد وقف باحترام : حاضر! لقد فقدت فيها الذراع التي تنقصني.

ـ كولوكنت، انتبه إلى الدكان، فأنا صاعد إلى ابن أختي.

صعد العسكريان القديمان إلى الطابق الرابع، وسارا حتى علية في نهاية ممر، حيث وجدا شاباً ذا نظرة شاحبة باردة، مستلق على أريكة قديمة، ولم يغير المدني من وضعه وهو يقدم السيكار لخاله ولصديق خاله.

قال جيرودو بصوت ناعم متواضع : يا صديقي، هوذا الضابط رئيس السريّة من الحرس الإمبراطوري الذي حدثتك عنه.

رد فينو وهو ينظر بازدراء إلى فيليب الذي فقد كل طاقته كجيرودو أمام دبلوماسي الصحافة : حسن، وبعد.

استأنف جيرودو متخذاً دالة الخال : يا ولدي العزيز إن العقيد عائد من تكساس.

ـ آه! غامرت في التكساس في **حقل اللجوء**، مع أنك ماتزال شاباً للقيام بعمل «العسكري المزارع».

قد لايفهم فظاظة هذه الفكاهة إلا أولئك الذين يتذكرون طوفان الصور، والحواجز الواقية، وساعات الحائط وتماثيل البرونز والجبصين تمثل فكرة العسكري المزارع : الصورة الكبرى عن مصير نابوليون وضباطه البواسل التي ولدت عدة مسرحيات قصيرة «ڤودڤيل»، هذه الفكرة قد أنتجت ربح مليون من الفرنكات لمروجيها، وماتزال توجد صور العساكر المزارعين على أوراق من السجف في قلب

---

(١) سبق لبلزاك أن ذكر أنها معركة مونترو.

المقاطعات[1]. ولو لم يكن هذا الشاب ابن أخت جيرودو لوجه إليه فيليب صفعتين يستحقهما.

أجاب فيليب مجرباً أن يكشر عن ابتسامة: نعم، غامرت هناك وخسرت اثني عشر ألف فرنك وكثيراً من الوقت.

قال فينو: ومازلت تحب الامبراطور؟

ردّ فيليب: إنه إلهي المعبود.

- أنت ليبرالي.

سأبقى دائماً في المعارضة الدستورية أوه! فوي! أوه! مانويل! أوه! لافيت! هؤلاء هم الرجال[2] الذين سيخلصوننا من أولئك العائدين البؤساء في أعقاب الأجنبي.

استأنف فينو ببرود: وبعد، يجب أن تُعوّض عن مصيبتك، فأنت ضحية الليبراليين يا عزيزي! ابق ليبرالياً إن أردت التمسك برأيك، لكن هدِّد الليبراليين بأنك ستكشف حماقات تكساس. أنت لم تنل فلساً واحداً من الإكتتابات الوطنية، أليس كذلك؟ حسن، إنك في وضع جيد، اطلب كشف حساب عن الإكتتابات.

(١) ورد في لاروس القرن التاسع عشر بخصوص المسرحية الهزلية الخفيفة (فودفيل) «العسكري المزارع» مايلي: هي مسرحية لبرازيه ودومرسان وفرنسيس مثلت على مسرح الفاريبته في أول أيلول ١٨٢١.
«وكان العسكري المزارع يصور في كل مكان ويوضع في كل البيوت، ونجده في إطار مذهب في صالونات الأحرار. وكان البورجوازي والتاجر يجلانه بوضعه في إطار من خشب مدهون معلق بمسامير أربعة، وله مكانه المتميز على جدار العامل والفلاح. واستفادت الشعارات من هذا الصيت فتنازعت مقدمات المدافئ على تمثاله بشاربه الرمادي، وقبعة الشرطي فوق رأسه، ووسام جوقة الشرف على صدره، والمعزقة في يده.

(٢) فوي (١٧٧٥-١٨٢٥)، ومانويل (١٧٧٥-١٨٢٧) ولافيت (١٧٦٧-١٨٤٤) زعماء المعارضةالليبرالية.

هوذا ماسيحصل لك: ستؤسس صحيفة معارضةجديدة تحت إشراف نواب من اليسار[1]. وستكون أمين صندوقها براتب ألف إكو سنوياً، إنها وظيفة خالدة. يكفي أن تؤمِّن كفالة بعشرين ألف فرنك، فأسع إلى ذلك وستوظف خلال ثمانية أيام. سأنصح بالتخلص منك وأنا أعرض عليك الوظيفة، وماعليك إلا أن تصرخ محتجاً، وتصرخ بشدة».

أتاح جيرودو لفيليب أن يسبقه في النزول وهو يغالي في الشكر، وقال لابن أخته:

«الواقع أنك غريب التصرف!... وأنت تحتفظ بي هنا براتب ألف ومئتي فرنك سنوياً.

أجاب فينو: لن تصمد الجريدة أكثر من سنة. وأنا احتفظ لك بما هو أفضل من هذا»

قال فيليب لجيرودو: ليس مغفلاً أبداً ابن أختك، إنني لم أفكر بأن استغل وضعي، كما قال».

في المساء، في مقهى لمبلن، ثم في مقهى مينرف أخذ العقيد فيليب يطعن في الحزب الليبرالي الذي أجرى اكتتابات، وأرسلكم إلى تكساس، وتحدث بنفاق عن

(١) هل كان بلزاك يفكر بصحيفة معينة، وهل يمكننا تحديدها ورد في المسوّدات اسم شاتلن وتاريخ ٢٠ آذار ـ وهو يوم عودة نابوليون إلى باريس في العام ١٨١٥. ورينه تيوفيل شاتلن (١٧٩٠ - ١٨٣٨) ضابط ثم صحفي، كان أحد المحررين الهامين في الكورية Courrier التي تأسست في حزيران ١٨١٩، لكن الشركة المؤسسة انحلت في العام ١٨٢٠ وتأسست شركة جديدة من اتحاد الكورية مع الرينومة Renommée وكانت هذه بداية صحيفة كبيرة في عهد ملكية تموز. لكن هذه الملاحظة في المسودة التي حذفها بلزاك تعيدنا إلى ملاحظة أخرى فبيير فرنسوا يتسو (١٧٦٨-١٨٥٤) انتخب عضو أكاديمية في ١٨٣٣ وكان صحفياً في ١٨١٩-١٨٢٠ في البيلوت Pilote، الصحيفة الليبرالية المعارضة، وكانت هذه الصحيفة تعاني من ضائقة في فترة حدث الرواية وتوقفت في ٢٩ شباط ١٨٢٠ ولم تعد إلى الظهور إلا في ١١ كانون أول ١٨٢١. ويمكن لبلزاك أن يفكر بهذه الصحيفة. وأياً كان الأمر فإن مؤلف أوهام ضائعة يعرف جيداً عالم الصحافة.

الجنود المزارعين، وترك رجالاً شجعاناً دون مساعدة، في حمأة البؤس بعد أن التهم من كل منهم عشرين ألف فرنك وتركهم يتسكعون في الفيافي مدة سنتين.

«سأطلب كشف حساب عن الاكتتابات لحقل اللجوء» قال لأحد رواد مقهى مينرف الذي ردده بدوره لأحد صحفيي اليسار

لم يعد فيليب إلى شارع مازارين بل ذهب إلى مارييت ليعلن لها نبأ تعاونه القريب مع صحيفة لها عشرة آلاف مشترك حيث سيدعم بقوة تطلعاتها إلى الرقص الإيقاعي. وكانت أغات والسيدة دكوان تنتظران فيليب، وقد انتابهما روع شديد لأن الدوق دي بري صُرع تلك الليلة[1]. وفي اليوم التالي وصل العقيد بعد الإفطار ببعض الوقت، وعندما عبّرت له أمه عن القلق الذي سببه غيابه لهما؛ غضب وتساءل عما إذا كان قد بلغ الرشدثم قال:

«اللعنة! إنني آت إليكم بنبأ طيب، وأنتم بمظهر من هو في مأتم. مات الدوق دي بري، نِعْمَ الحدث! واحد بالناقص. أما أنا فسأكون أمين صندوق صحيفة براتب ألف إكو سنوياً وهكذا تنتهون من الارتباك الحاصل لكم بشأني.

قالت أغات: هل هذا ممكن؟.

ـ نعم إذا استطعتم أن تؤمّنوا لي كفالة عشرين ألف فرنك، يمكنكم أن تودعوا لي تسجيلاتكم ذات دخل الألف وثلاثمئة فرنك، وستقبضون مع ذلك دخل الأشهر الستة الأخيرة.

منذشهرين، والأرملتان تسعيان بشق النفس لمعرفة ماذا يفعل فيليب وأين وكيف يمكن توظيفه؛ فأسعدهما هذا النبأ حتى أنّهما لم تفكرا بمختلف كوارث اللحظة. وفي المساء حضر العجوز دو برويل، وكلابارون وهو يكاد يموت جزعاً، ودروش الأب الصارم، واتفق رأي حكماء اليونان هولاء على إجراء الكفالة ونصحوا الأرملة بإتمامها لولدها. وكانت الصحيفة قد تأسست لحسن الحظ قبل

---

(١) إذاً فنحن في ١٣ شباط ١٨٢٠ ففي ذلك اليوم طعن لوقل الدوق دي بري أثناء خروجه من الأوبرا.

مقتل الدوق دي بري، مما جنّبها الضربة التي وجهها دكاز للصحافة[1] آنذاك وكان رأسمال تسجيل الأرملة بريدو لدخل ألف وثلاثمئة فرنك قد خصص لكفالة فيليب المسمى أمين صندوق. ووعد هذا الولد الطيب أن يمنح الأرملتين مئة فرنك شهرياً لأجل سكنهما ونفقات معيشتهما واعتبر أبر الأبناء. وهنأ أولئك الذين لم يحسنوا الرأي فيه أغات واعترفوا بأن حكمهم كان خاطئاً بالنسبة إليه.

كذلك فإن جوزيف المسكين جرّب، كي لايبقى متخلفاً عن أخيه، أن يكفي نفسه بنفسه، وتوصل إلى ذلك.

وبعد ثلاثة أشهر، كان العقيد يأكل ويشرب فيها بقدر أربعة أشخاص، ويظهر عدم رضاه، ويَجرّ الأرملتين، بذريعة دفع النفقات، إلى مصاريف باهظة على المائدة، دون أن يكونَ قد سدَّد حتى ذلك التاريخ فلساً واحداً. ولم ترد أمه أو السيدة دكوان، لياقة منهما، تذكيره بوعده. ومرت السنة دون أن تمر أي من هذه القطع الذهبية المسماة بحق من قبل ليون غوزلان[2] «النمر ذو المخالب الخمسة» من جيب فيليب إلى صندوق العائلة، لكن العقيد أراد على مايظهر أن يُهدئ تبكيت ضميره فلم يعد يتناول عشاءه في المنزل.

اكتفت الأم بالقول: «أخيراً إنه سعيد، فهو مطمئن، وله عمل وأجر!»

---

(١) اعتبر مقتل الدوق دي بري ذريعة لسياسة رجعية ملكية واتخذت سلسلة من الإجراءات ضد الصحافة:

إعادة الرقابة، الإذن المسبق الضروري لتأسيس صحيفة، الملاحقة على النوايا.. إلخ، وهكذا لايمكن لصحيفة معارضة أن تحصل على سماح لها بالظهور. لكن بلزاك أخطأ بنسبة هذه الإجراءات لدكاز الوزير المعتدل الذي استقال عقب مؤامرة نوفل تاركاً رئاسةالوزارة للدوق دي ريشليو. وصيغة التأليف الأولى لبلزاك التي دفعته إلى التفكير بصحيفة موجودة سابقاً كانت مبررة إذاً بفكرة عدم الحاجة إلى ترخيص جديد.

(٢) ليون غوزلان (١٨٠٣ - ١٨٦٦) كان في الأعوام ١٨٤٠ ـ ١٨٤٢ صديقاً مقرباً لبلزاك، وبلزاك يوجه له التحية هنا، كما أن غوزلان ترك كتابين عن ذكرياته مع بلزاك اشتهر بهما وهما «**بلزاك في الخف** ١٨٥٦، و**بلزاك في بيته** ١٨٦٢».

وبتأثير المسلسلة التي كان يحررها ڤرنو أحد أصدقاء بيكسيو، وبوساطة فينو وجيرودو، بدأت مارييت الرقص إنما في مسرح باب سان مارتن[1] لافي بانوراما-دراماتيك، وحالفها النجاح إلى جانب بغران. وكان من بين مدراء هذا المسرح ضابط كبير غني ومترف وهو مغرم بممثلة عمل من أجلها امبريزاريو[2]. وفي باريس يحدث كثيراً أن يغرم أشخاص بممثلات أو راقصات أو مغنيات فيدفعهم الغرام إلى العمل مدراء في المسرح. كان هذا الضابط الكبير يعرف فيليب وجيرودو، وبمساعدة صحيفة فينو الصغيرة، والصحيفة التي يعمل بها فيليب، تسوت بداية مارييت بسرعة بين الضباط الثلاثة بحيث بدا أن الأهواء تتضامن في جنونها.

أنبأ بيكسيو الماكر سريعاً جدته وأغات الورعة أن أمين الصندوق فيليب، أشجع الشجعان، يحب مارييت الراقصة الشهيرة في مسرح باب سان مارتن. هذا الخبر القديم، الجديد عليهما كان كوقع الصاعقة على الأرملتين: فالعاطفة الدينية أولاً تدفع أغات لرؤية نساء المسرح كجمرات جهنم، كما أنها مع نسيبتها تعتقدان أن هولاء النسوة يأكلن الذهب، ويشربن اللآلئ، ويدمرن أكبر الثروات.

قال جوزيف لأمه: «وبعد هل تعتقدين أن الحمق يبلغ من أخي حداً يعطي فيه نقوده لمارييت؟ إن هؤلاء النساء لايدمرن إلا الأغنياء.

قال بيكسيو: يروج حديث لإدخال مارييت إلى الأوبرا، لكن لاتخافي يا سيدة بريدو، فإن الهيئة الدبلوماسية راحت تتردد على باب سان مارتن، ولن تبقى هذه الفتاة الجميلة طويلاً مع ولدك. وتروج شائعة عن هيام أحد السفراء بها. خبر آخر! لقد توفي الأب كلابارون وسيتم دفنه غداً، وطلب ابنه المصرفي، الذي يرتع

---

(١) مسرح باب سان مارتن: مسرح غدا في العام ٨٣٠ المكان المفضل للدراما الرومانسية، وفيه مثلت ڤوتران المسرحية التي أعدها بلزاك في العام ١٨٤٠.

(٢) أمبريزاريو Impresario: من يهتم بجميع الأمور المالية والحقوقية والإدارية المتعلقة بعمل ممثل أو ممثلة أو بمسرح وعندها يعتبر أحد مدراء المسرح.

بالذهب والفضة، أن تجري له مراسم مأتم من الرتبة الأخيرة. إن هذا الفتى تنقصه التربية، فالأمر لايحدث هكذا في الصين[1].

عرض فيليب، مدفوعاً بفكرة جشعه على الراقصةأن يتزوجها، لكن الآنسة غودشال عشية دخولها إلى الأوبرا رفضته، سواء لأنها خمنت نوايا العقيد، أو أنها أدركت مدى ضرورة احتفاظها باستقلالها لمستقبلها وثروتها. وخلال ماتبقى من تلك السنة كان فيليب يأتي لزيارة أمه مرتين في الشهر. أين هو؟ في الصندوق، أو في المسرح، أو لدى مارييت. ما من قبس نور عن سلوكه رشح إلى العائلة في شارع مازارين؛ فجيرودو، وفينو، وبيكسيو، وفرنو، ولوستو يرون أنه يمارس حياة متعة. وفيليب موجود في جميع مسرحيات توليا، وهو أحد أوائل المشاهدين لأوبرا فلورنتين بعد أن حلت محل مارييت في باب سان مارتن، ومن فلورين وماتينا إلى كورالي وكاموزو[2]؛ فهو يترك صندوقه في الساعة الرابعة، وينصرف إلى التسلية، إذ أن هناك دائماً حفلة ماترتبط بالسهرة. عشاء جيد مقام عند أحد ما، أمسية لعب، وجبة ليل متأخرة. كان فيليب يعيش أنئذ في البيئة الملائمة له، ودام

---

(١) تبدو العبارة مثيرة للاستغراب، لكن يجب التذكر أن بورجه قام خلال ١٨٣٦-١٨٤٠ بجولة حول العالم، وفي تشرين أول ١٨٤٢ نشر بلزاك في صحيفة «لجيسلاتور» سلسلة مقالات بعنوان «الصين والصينيون» بمناسبة ظهور مجموعة من الصور التي حملها بورجه من رحلته. وخصص بلزاك منذ مقاله الأول فقرة لاحترام الصينيين لذويهم فكتب: «أول مالفت انتباه رحالتنا في الصين، وشاهده بأم عينه، وأشار إليه في أول رسالة له إلى بري الحدث التالي: في إحدى القرى، ضرب فتى أمه!.. فعرض أولاً لأقسى العقوبات! ثم هدمت القرية ومنع إعادة بناء قرية أخرى في هذا المكان الملعون، وحراثة الأرض قبل انقضاء فترة ما... ليس هذا فقط، فقد أقيل حاكم المنطقة؛ كما خفضت رتبة كل حكام المقاطعات درجة. أخيراً لزم الامبراطور الحداد مدة خمسةعشر يوماً، وانقطع إلى الصلاة لمدة ثمانية أيام. حدث هذا في الوقت الذي كانت فيه فرنسة تفتش عن ظروف مخففة في قضية الولد الذي قتل أمه (لاليجسلاتور ١٤ تشرين أول ١٨٤٢) ثم يؤكد بلزاك في مقال ١٦ تشرين أول على الإجلال الذي يكنه الصينيون لموتاهم: «ينسب الصينيون بدرجة كبيرة من القناعة كل المصائب التي تحل بهم إلى عدم راحة أسلافهم في مثواهم».

(٢) هذا هو العالم الذي رسمه بلزاك في «**أوهام ضائعة**».

هذا الكرنفال ثمانية عشر شهراً، لكنه لم يمر دون بعض هموم، فماربيت الجميلة في بداياتها في الأوبرا خلال شهر كانون ثاني ١٨٢١ أخضعت لسلطان فتنتها أحد الأدواق الأكثر شهرة في بلاط لويس الثامن عشر. وجرب فيليب أن ينافس الدوق[١]؛ لكن رغم حسن حظه في المقامرة، وتجديد الاشتراكات في شهر نيسان[٢]، اضطر مدفوعاً بهواه إلى أن يمد يده إلى صندوق الصحيفة، وكان مديناً له في شهر أيار بمبلغ أحد عشر ألف فرنك، وفي هذا الشهر المشؤوم سافرت ماربيت إلى لندن لاستثمار مواهبها لدى اللوردات، في الوقت الذي كانت تبنى فيه قاعة الأوبرا الاحتياطية في موقع فندق شوازل[٣]، شارع لبلتيه. ففيليب التعس، انتهى، كما يحدث غالباً، إلى حب ماربيت رغم خياناتها الجلية، إذ أنها لم تر في هذا الفتى إلا عسكرياً فظاً، دون تفكير، درجة في سلم لاتريد الوقوف عليها طويلاً. وهكذا اغتنمت الفرصة التي لم يعد يملك فيها فيليب مالاً، فعرفت كيف تكتسب دعماً في أوساط صحفية أغنتها عن الاحتفاظ بفيليب. غير أنها حافظت على هذا العرفان بالجميل الخاص، الذي تكنه هذه الأصناف من النساء لمن مهد لهن أولاً صعوبات البداية الرهيبة في المسرح.

اضطر فيليب أن يترك خليلته الرهيبة تسافر إلى لندن دون أن يرافقها؛ وعاد إلى مقره الشتوي، وفقاً لتعبيره الخاص، في علية منزل ذويه في شارع مازارين، تنتابه الأفكار القاتمة عند رقاده وعند استيقاظه، إذ شعر في نفسه باستحالة عيشه خلافاً لما اعتاد عليه خلال السنة. فالترف السائد لدى ماربيت، وولائم العشاء،

(١) هذا الدوق الذي لم يسم هنا هو الدوق دي موفرينيوز.

(٢) هو موعد تجديد الاشتراك الربعي للصحف، ولم تكن في ذلك الزمن توزع إلا بموجب اشتراكات شهرية أو ربعية أو سنوية.

(٣) هذا يعني أن ماربيت بدأت في كانون الثاني ١٨٢١ في الأوبرا ـ كوميك ـ شارع ڤاڤار، فالأوبرا الواقعة في حينه في ساحة لوڤوا شارع ريشليو هدمت عقب مقتل الدوق دي بري في العام ١٨٢٠، وبدئ ببناء قاعة أوبرا جديدة في موقع فندق شوازل ـ شارع لبلتيه، ولم تفتتح إلا في آب ١٨٢١ ووجب أن تكون موقتة لكنها دامت حتى العام ١٨٧٣، وقد ترك بلزاك حول هذا الموضوع مقالاً نشر من قبل السيد دكورنو مع مقدمة هامة في «دراسات بلزاكية عدد: ٥-٦ كانون الأول ١٩٥٨».

ووجبات الليل والأمسيات بين الكواليس، ومرح أهل الفكاهة والصحفيين، ونوع الجلبة التي تتم حوله، وكل ما تنتجه من مداعبات للأحاسيس والزهو، هذه الحياة التي لاتوجد في مكان آخر غير باريس، والتي تقدم كل يوم شيئاً جديداً، غدت بالنسبة لفيليب عادة، شكّلت ضرورة، كتبغه وكؤوس مشروباته، وهكذا أحس أن ليس بإمكانه العيش دون هذه الملذات المستمرة. وخطرت فكرة الانتحار في رأسه، ليس بسبب الخشية من اكتشاف النقص في صندوقه، وإنما بسبب تعذر استمرار العيش مع مارييت في جو المتعة الذي يرتع فيه منذ عام، وكان مستغرقاً في هذه الأفكار القاتمة عندما وفد لأول مرة على مرسم أخيه، فوجده في معطف أزرق ينسخ لوحة لأحد التجار. فقال ليدخل معه في الحديث:

«أهكذا إذاً تصنع اللوحات؟.

أجاب جوزيف: كلا، إنما هكذا تنسخ.»

ـ وكم يدفع لك مقابل ذلك؟.

ـ هيه! القليل، مئتان وخمسون فرنك، لكنني أدرس طرائق المعلمين. فأربح تعليمياً، إذ اكتشف أسرار المهنة، هوذا إحدى لوحاتي وأشار بطرف فرشاته إلى رسم ماتزال ألوانه رطبة.

ـ وكم تضع في كيسك سنوياً؟.

ـ للأسف لست معروفاً حتى الآن إلا من قبل الرسامين، وأنا مدعوم من شينر الذي سيكلفني بأعمال في قصر برسل حيث سأذهب في شهر تشرين أول لإجراء زخارف فيه، وأطر، وتزيينات متفق عليها بأجور جيدة مع الكونت دي سريزي[1]، ومع هذه الارتزاقات، ومع توصيات التجار يمكنني من الآن فصاعداً أن أكسب بين ألف وثمانمئة فرنك إلى ألفي فرنك سنوياً، بعد تسديد كامل النفقات. باه! في المعرض القادم، سأعرض هذه اللوحة، فإن لقيت الإعجاب، فإن مركزي يتوطد

---

(١) هذه التفاصيل تعيدنا إلى قصة «بداية في الحياة» وقد كتبها بلزاك أثناء كتابته **للمتصيدة**.

وسيكون أصدقائي مسرورين. قال فيليب بصوت ناعم دفع جوزيف إلى تأمله: لن أشهد ذلك.

سأل الفنان أخاه وقد لاحظ تغير لونه: ولكن مابك؟

ـ أريد أن أعرف كم يلزمك من الوقت لترسم لوحة لي.

ـ إن انصرفت إلى ذلك، وكان الطقس صافياً يمكن أن أنهيها في ثلاثة أو أربعة أيام.

ـ هذا وقت طويل، ولايمكنني أن أمنحك إلا هذا اليوم؛ فوالدتي المسكينة تحبني إلى درجة أردت فيها أن أترك لها صورتي. لكن لننس هذا الحديث.

ـ وبعد، هل تريد أن تسافر مرة أخرى؟.

ـ قال فيليب وقد أظهر غبطة كاذبة: سأسافر سفرة لاعودة لي بعدها.

ـ آه هكذا! فيليب، يا صديقي، مابك؟ إن كان هناك شيء خطير، فإنني رجل، ولست أحمقاً، وأنا مستعد لأي صراع مرير، وإن لزم الكتمان، فسألزمه.

ـ هل هذا أكيد؟.

ـ أقسم بشرفي.

ـ لن تقول شيئاً لأي إنسان في العالم؟.

ـ لأي إنسان.

ـ حسن، سألهب رأسي برصاصة.

ـ أنت! هل ستبارز أحداً؟.

ـ سأنتحر.

ـ ولماذا؟.

ـ أخذت من صندوقي أحد عشر ألف فرنك، ويجب أن أسدد حساباتي

غداً، ستنقص كفالتي نصفها، وسيتقلص دخل والدتي المسكينة إلى ستمئة فرنك. لكن هذا لاشيء، فيمكنني مستقبلاً أن أؤمن لها ثروة، لكن سيكسوني العار، ولا أريد أن أعيش مهاناً.

ـ لا عار عليك في اقتطاعها من كفالتك، لكن ستفقد مركزك، ولن يبقى لك إلا تعويض وسام الاستحقاق وهو خمسمئة فرنك يمكن أن تدبر أمرك فيها.

قال فيليب وهو يهبط السلم سريعاً ولا يريد أن يسمع شيئاً: «وداعاً!»

ترك جوزيف مرسمه وهبط إلى صالة طعام أمه للفطور، لكن اعتراف فيليب جعله يعاف الأكل وانتحى بالسيدة دكوان جانباً وأطلعها على النبأ المروع، وبدرت من المرأة العجوز حركة ارتياع، وأفلتت من يدها مقلاة فخار ملأى بالحليب، وتهالكت على كرسي. وهرعت إليها أغات؛ وبين التأوهات تم الاعتراف للأم المسكينة بالحقيقة.

ارتعشت الأرملة بكل عضو فيها، واتسعت حدقتاها وتجمدتا، ثم جلست تذرف الدموع وقالت منتحبة: «هو! يخون الأمانة! ابن بريدو، يأخذ مالاً من الصندوق الذي عهد به إليه!» ثم صرخت وسط نحيبها: «أين هو؟ قد يكون ألقى بنفسه في السين!

قالت السيدة دكوان: لاتقنطي، إن الفتى المسكين التقى بامرأة فاسدة دفعته إلى أعمال جنونية. يا إلهي! هذا يحدث غالباً، وقد لقي فيليب حتى عودته كثيراً من سوء الحظ، ولم تتهيأ له إلا قليل من الفرص التي شعر فيها بالسعادة والحب، بحيث يجب ألا ندهش لهواه وتعلقه بتلك المخلوقة. إن جميع الأهواء تقود إلى الإفراط! إنني ألوم نفسي على خطيئة من هذا النوع مرت علي في حياتي، ومع ذلك فأنا أعتقد إنني امرأة شريفة! إن خطيئة واحدة لاتشكل عاراً! وبعد كل حساب، فأولئك الذين لايعملون شيئاً هم الذين لايخطئون!»

كان قنوط أغات قد أرهقها إلى درجة اضطرت السيدة دكوان وجوزيف إلى التقليل من أهميةخطأ فيليب قائلين لها إن مثل هذا يحدث لدى جميع العائلات.

هتفت أغات: «لكنه في الثامنة والعشرين[1] من العمر، فهو لم يعد ولداً».

عبارة رهيبة تكشف مدى تفكير المرأة المسكينة بسلوك ابنها.

قال لها جوزيف: «أؤكد لك يا أمي أنه لايفكر إلا بمعاناتك وبالهمّ الذي يسببه لك

صرخت الأم المسكينة وهي تتخيل لوحة رهيبة يبدو فيها فيليب ينتشل ميتاً من مياه النهر:

«أوه! يا إلهي، فليَعُد! وليحيَ، وسأغفر له كل شيء».

ساد صمت قاتم للحظات، ومر اليوم في أقسى التناوبات، كان الثلاثة يهرعون إلى نافذة الصالون عند أقل حركة، وقد استسلموا إلى عديد من التخمينات.

خلال هذا الوقت الذي كانت فيه العائلة فريسةهذه المعاناة، كان فيليب يرتب بكل هدوء صندوقه، وتملكته الجرأة على أن يصفّي حساباته بالقول إنه خشي بعض الطوارئ فنقل مبلغ الأحد عشر ألف فرنك إلى منزله، وخرج هذا الإنسان الغريب الأطوار في الساعةالرابعة بعد أن تناول خمسمئة فرنك أخرى من الصندوق، وذهب بكل برود إلى قاعة لعب القمار التي لم يزرها منذ شغله لوظيفته، إذ أنه أدرك وجوب عدم تردد أمين صندوق على قاعات اللعب. لم تكن تنقص هذا الفتى الحيلة، وسلوكه اللاحق يبرهن أنه خليق بجده روجه لابأبيه الفاضل. ربما كان سيغدو قائداً جيداً" لكنه في حياته الخاصة غدا أحد هولاء المجرمين الأثمة الذي يحجب مغامراته، وتصرفاته السيئة خلف واقية الشرعية، وتحت سقف عائلته الخفي. حافظ فيليب على كل رباطة جأشه في هذه المغامرة اليائسة. وربح أولاً، ووصل في ربحه حتى بلغ ستة آلاف فرنك، فترك لعبة ورق الثلاثين ـ أربعين عندما

---

(١) نحن في أيار ١٨٢١ وفيليب ولد في العام ١٧٩٥ أو ١٧٩٦ فهو في الخامسة والعشرين أو السادسة والعشرين من العمر فقط.

علم أن اللون الأسود خرج ستةعشر مرة متتالية في الروليت، فراهن بخمسةآلاف فرنك على الأحمر وخرج اللون الأسود للمرة السابعة عشر فخسر، فوضع عند ذلك ألف فرنك الباقية معه على الأسود ليخسرها لكنه ربح. رغم هذا التوافق المدهش مع المصادفة، شعر بثقل في رأسه، ورغم ذلك أراد أن يتابع. لكن حس التخمين الذي يلهم اللاعبين، والذي يبرق كومضات كان قد فسد وحلت التقلبات وفيها خسارة اللاعبين. فالصحوة كأشعة الشمس، لاتأثير لها إلا بثبات الخط المستقيم، ولاتخمن إلا بشرط عدم انقطاع نظرتها، وهي ترتبك في قفزات الحظ، وخسر فيليب كل شيء. وبعد مثل هذه المحن القاسية، فإن النفس الأكثر تهاوناً، كالأكثر إقداماً، تنهار. وهكذا فعند عودته إلى منزله، لم يكن يفكر بتصريحه بالانتحار بقدر ماكان غير عازم عليه. ولم يعد يفكر بوظيفته الضائعة، ولا بكفالته المخترقة، ولا بأمه، ولا بمارييت سبب دماره. كان يسير آلياً. وعندما دخل المنزل، كانت أمه تنتحب، وقفزت السيدة دكوان وجوزيف يعانقانه ويسيران به إلى قرب المدفأة.

فكر في نفسه: «هوذا! إن تصريح الصباح فعل فعله.»

هذا الوحش أخذحينذاك بشكل أفضل سحنة الظرف المناسب بعد أن غيرتها جولة اللعب. وبعد أن رأت الأم المسكينة ابنها الأثير شاحباًمضطرباً جثت على ركبيتها، وقبلت يديه، ووضعتهما على قلبها وتأملته طويلاً وعيناها غارقتان بالدمع.

قالت بصوت مخنوق: «فيليب، عدني ألا تقتل نفسك، وسننسى كل شيء».

نظر فيليب إلى أخيه المتأثر وإلى السيدة دكوان والدمعة في عينيها؛ وقال في نفسه: «إنهم أفراد طيبون!» وأمسك بأمه فأنهضها، وأجلسها على ركبتيه، وضمهاإلى صدره، وهمس في أذنها وهويقبلها: «لقد منحتني الحياة مرة أخرى!».

وجدت السيدة دكوان وسيلة في تهيئةعشاء شهي، وأرفقته بزجاجتين من النبيذ المعتق وبشيء من مشروب الجزر: بقية كنز مدخر قديم.

قالت وهم يتناولون التحلية: «أغات، دعي فيليب يستمتع بتدخين سيكاره!» وقدمت لفيليب علبة سيكار.

تصورت المخلوقتان المسكينتان أنهما بتركهما الفتى يتصرف وفق هواه، فسيحب البيت، ويلتزم به، وجربتا أن تتحملا دخان التبغ الذي تمقتانه. لكن فيليب لم يلاحظ هذه التضحية الشاقة. وفي اليوم التالي، بدت أغات وكأنها كبرت عشر سنوات. فما أن هدأت مخاوفها حتى ارتدت أفكارها، ولم تستطع المرأة المسكينة أن تغمض جفناً طوال ذلك الليل الرهيب فسيختزل دخلها إلى ستمئة فرنك سنوياً؛ والسيدة دكوان، كجميع النسوةالبدينات، الشرهات مصابة بسعال حدوري مزمن، ثقل عليها، وخطواتها على السلالم تقرع كضربات قطع الحطب[١] ويمكن أن يوافيها الموت بين لحظةوأخرى، وسيختفي معها دخل الأربعة آلاف فرنك المخصصة لها في حياتهما. أليس في الاعتماد على هذا المورد مايدعو إلى السخرية؟ ما العمل؟ وما المصير؟ فكرت أن تعمل في خدمة المرضى بدلاً من أن تكون عالة على ولديها. بل لم تعد أغات تهتم بنفسها؛ ولكن ماذا سيفعل فيليب بعد أن لم يعد له إلا تعويض خمسمئة فرنك عن وسام ضابط في جوقة الشرف؟ فمنذ إحدى عشر سنة، كانت السيدة دكوان تقدم كل سنة ألف إكو وبذلك سددت دينها مضاعفاً، و هي مستمرة بتضحيةمصالح حفيدها لقاء مصالح عائلة بريدو. وبالرغم من أن جميع عواطف أغات المستقيمة النزيهة قد طعنت وسط هذه المحنة القاسية، قالت في نفسها: «يا للفتى المسكين، أهو خطؤه؟إنه أمين لقسم ولائه». وقد كنت مخطئة في عدم تزويجه؛ لو وجدت له امرأة، لما تعلق بتلك الراقصة. إنه شديد العنفوان[٢]. كانت البقالة العجوز قد فكرت بدورها خلال الليل بطريقة تنقذ بها شرف العائلة،. وتركت سريرها مع الفجر وجاءت إلى غرفة صديقتها وقالت لها:

---

(١) إحدى جلبات باريس هي تفريغ أحطاب التدفئة من العربات وتسليمها للمنازل، وقد خلدها بودلير في قصيدة: غناء الخريف.

(٢) أهي أغات بريدو المحتشمة التي تتحدث هنا أم بلزاك الفيزيولوجي؟.

«لست أنت، ولا فيليب قادرين على معالجة هذه القضيةالحساسة، وإذا كان صديقانا العجوزان كلابارون، ودوبرويل توفيا، يبقى لنا الأب دروش، هو حقوقي خبير، وسأذهب إليه هذا الصباح. سيقول دروش عن فيليب أنه كان ضحيةثقته بأحد الأصدقاء، وأن ضعفه في هذا الموضوع يجعله غير مؤهل لإدارة صندوق، وما حدث له اليوم يمكن أن يحدث مرة أخرى. لذلك فهو يفضل تقديم استقالته. وهكذا فإنه لن يطرد طرداً. رأت أغات في هذه الكذبة شبه الرسمية إنقاذاً لشرف إبنها، على الأقل في أعين الغرباء فقبلت دكوان التي خرجت لترتب هذه القضية الحرجة، وكان فيليب ينام رخي البال. قال وهو يبتسم عندما أنبأته والدته بسبب تأخرهم في طعام الإفطار: «إنها داهية، هذه العجوز!».

كان العجوز دروش، وهو الصديق الأخير لهاتين المرأتين المسكينتين، رغم قسوة طباعه، يتذكر دائماً أنه وظف من قبل بريدو، فالتزم كدبلوماسي محنك بالقيام بهذه المهمة الحساسة التي عهدت بها إليه السيدة دكوان، وحضر مساء لتناول وجبةالعشاء مع عائلة بريدو وإعلام أغات بضرورة الذهاب صباحاً إلى وزارة المالية في شارع فيفيان لنقل القسم من سندات الدخل المسدد للمبلغ الناقص من الصندوق وسحب قسيمة الستمئة فرنك الباقية لها. ولم يترك المستخدم العجوز ذلك المنزل الموحش دون أن يحصل من فيليب على طلب موقع إلى وزارة الحربية يطلب فيه إعادته إلى الكوادر العاملة في الجيش. ووعد دروش بمتابعة الطلب في مكاتب وزارة الحربية وباستغلال انتصار الدوق على فيليب بالحظوة لدى الراقصة للحصول على وساطة هذا النبيل الكبير[1].

قال دروش: «قبل ثلاثة أشهر سيكون مقدماً في فرقة الدوق دي موفرينيوز، وستر تاحون من متاعبه.»

ذهب دروش العجوز مغموراً ببركات الأرملتين وشكر جوزيف. أما الصحيفة، فقد توقفت عن الصدور بعد شهرين كما توقع لها فينو، وهكذا لم يكن

(١) هو الدوق دي موفرينيوز الذي يظهره بلزاك متأخراً هنا، وسيشاهد مجدداً في **بهاء وتعاسة الغانيات**.

لغلطة فيليب في أوساط المجتمع أي تأثير، لكن أمومة أغات تلقت طعنة عميقة؛ فإيمانها بابنها قد تزعزع، وهي تعيش منذ ذلك الحين في ذعر متواصل لاتعرف فيه الطمأنينة إلا عندما ترى أن تصوراتها المشؤومة عارية عن الصحة. عندما يرى الرجال الشجعان فيزيائياً، الجبناء أدبياً، السفلة أخلاقياً، كفيليب طبيعة الأشياء تعود إلى مجراها، بعد كارثة ضاعت فيها أخلاقيتهم تقريباً، فإنهم يعتبرون هذه المراعاة من العائلة أو الأصدقاء سابقة تشجيعية، ويعتمدون على الإفلات من العقاب: ويحملهم تفكيرهم المغلوط، وأهواؤهم المشبعة على دراسة الطريقة التي أوصلتهم إلى حرف القوانين الاجتماعية، ويغدون مهرة بشكل مرعب. بعد خمسة عشر يوماً عاد فيليب مجدداً بطالاً، برماً، واستأنف بشؤم حياته السابقة في المقهى، ومحطاته المجمَّلة بالكؤوس الصغيرة، وجولات لعبه الطويلة بالبليار والمنتهية بكأس البونش، وحفلات المقامرة ليلاً حيث يجازف في الوقت المناسب برهان بسيط، ويحقق ربحاً بسيطاً يساعده على صيانة فوضاه. ولزيادة خداع أمه والسيدة دكوان أظهر التقتير، واعتمر قبعة وسخة تقريباً، جرداء الدائر والحواف. وجزمة مرقعة، ومعطفاً رثاً تكاد لاتلتمع عليه وريدة وسامه الحمراء، المسمرة لقدمها في عروته والمتسخة بقطرات الكحول أو القهوة. وبدا القدم على قفازيه المخضرين من جلد الغزال، أخيراً لم يكن يتخلى غن ياقته من الساتين إلا بعد أن تتلبد. كانت ماربيت الحب الوحيد في حياة هذا الفتى، فخيانة تلك الراقصة إذاً زادت من قساوة قلبه؛ فكان عندما يحقق بعض أرباح غير مأمولة، أو يتعشى مع صديقه القديم جيرودو يصب جام غضبه على فينوس الرعاع مبدياً ازدراء فظاً للجنس بكامله. لكنه كان نظامياً في حياته البيتية يتناول فطوره وعشاءه في المنزل، ويأتي للنوم حوالي الساعة الواحدة ليلاً؛ مما أعاد عقب ثلاثة أشهر من هذه الحياة الرتيبة بعض الثقة لأغات المسكينة.

أما جوزيف الذي كان يعمل في لوحة رائعة ستوطد شهرته، فكان يعيش في مرسمه. ، كانت السيدة دكوان الواثقة من مجده، بناء على ما أدلى به حفيدها؛ تغدق على الفنان عنايات أمومية، تحمل إليه طعام الإفطار صباحاً، وتذهب لتأمين

حاجياته من المتاجر، تنظف له حذاءه، وهو لايخرج أبداً من مكان عمله إلا مع موعد العشاء، ويخص رفقاؤه في الندوة بسهراته. ومع ذلك فهو يقرأ كثيراً، وينصرف إلى هذه الثقافة العميقة الجادة التي لايمكن تحصيلها إلا بجهود شخصية، وهي ثقافة حرص على اكتسابها كل أصحاب الموهبة وهم بين العشرين والثلاثين من العمر[1]. ولم تكن أغات ترى جوزيف إلا قليلاً، فهي غير القلقة عليه انصرفت بكل تفكيرها إلى فيليب، فهو وحده يثير في خاطرها تناوبات من مخاوف متجدِّدة، وأهوال متلطفة، هي بعض حياة العواطف، ولها ضروراتها في الأمومة كما في الحب. وكان دروش الذي يأتي مرة في الأسبوع تقريباً لرؤية أرملة رئيسه وصديقه السابق، قد أنعش آمالها: فالدوق دي موفرينيوز طلب فيليب للعمل كضابط في فرقته. وطلب وزير الحرب إعداد تقرير عنه، وبما أن اسم بريدو ليس وارداً في أية قائمة شرطة، أو في أي ملف عدلي، فإن فيليب سيتلقى في الأشهر الأولى من السنة المقبلة رسالة إعادته إلى الخدمة في الجيش. وللنجاح جند دروش جميع معارفه، وبينت له معلوماته المستمدةمن محافظة الشرطة أن فيليب يذهب كل مساء إلى صالة المقامرة، ووجد من الضروري أن يطلع السيدة دكوان فقط على هذا السر، طالباً منها مراقبة المقدم المستقبلي، إذ أن افتضاح هذا الأمر يضيع كل شيء، ووزير الحرب في الوقت الحاضر لن يدقق في ميل فيليب لقضاء بعض الوقت في المقامرة. ولكن على المقدم أن يتخلى، عندما يغدو في خدمة العلم، عن هذه الهواية الناتجة عن البطالة. وكانت أغات، التي لم يعد أحد يزورها مساء، تتلو صلواتها قرب المدفأة، بينما السيدة دكوان تبصّر في ورق اللعب، وتفسر أحلامها، وتطبق قواعد «السحر» على رهاناتها؛ فهذه اللاعبة المعندة لايفوتها سحب ياناصيب: وهي تتابع ثلاثيتها التي لم تفز حتى الآن، وقد وصلت إلى سنتها الحادية والعشرين[2]، أي أنها في مرحلة البلوغ. والمساهمة العجوز بنت كثيراً من الآمال على هذا الظرف التافه. فأحد الأرقام بقي في قاع جميع الدواليب منذ أن أحدث

---

(١) إشارة عامة جداً إنما يقصد بها بلزاك في الأساس سيرة الذاتية.

(٢) أسس الياناصيب في العام ١٧٩٩ والأحداث تتناول العام ١٨٢١، إذاً فالثلاثية بلغت «سن الرشد».

اليانصيب، وهكذا فدكوان راهنت بمبلغ كبير على هذا الرقم، وعلى كل تركيباته المؤلفة من ثلاثة أرقام. وكان آخر فراش في سريرها هو مقر ودائعها، تفتقه المرأة المسكينة وتضع فيه الليرة الذهبية المقتصدة من حاجياتها، وتلفها جيداً بالصوف، وتعيد الخياطة. وأرادت في آخر سحب يجري في باريس[1] أن تغامر بكل مدخراتها حول مركبات ثلاثيتها الأثيرة على نفسها. هذا الهوس المذموم بشكل عام، لم يدرس أبداً موضوعياً، لم ينظر إليه كأنه أفيون الشقاء. ألا يثير اليانصيب أقوى ساحر في العالم آمالاً سحرية؟ إن كرة الروليت التي تري المقامرين أكوام الذهب والملذات لاتدوم دورتها إلا كلمعان البرق؛ بينما اليانصيب يعطي خمسةأيام من الديمومة لهذه البارقة العجيبة. أية قوة اجتماعية يمكنها اليوم أن تعطيك مقابل أربعين فلساً مثل هذه السعادة التي تداعب خيالك لخمسةأيام، وتضع بين يديك بشكل مثالي جميع متع الحضارة؟ فالتبغ ضريبة ألف مرة أكثر لاأخلاقية من اليانصيب فهو يدمر الجسم، ويؤثر على الذكاء، ويخبل الأمة، بينما لايسبب اليانصيب أي ضرر من هذا النوع، بل إن هذا الهوى مرغم على أن يضبط أموره، سواء بالمدة الزمنية الفاصلة بين سحب وآخر. أو بالدولاب الذي يفضله كل لاعب. والسيدة دكوان لاتراهن إلا على دولاب باريس، وعلى أمل أن ترى ربح هذه الثلاثية التي تغذيهامنذعشرين سنة، فإنها عانت من حرمان كبير، لتتمكن بكل حرية أن تراهن على آخر سحب في العام. وعندما تتراءى لها أحلام سحرية، إذ ليست جميع الأحلام تتعلق بأعداد اليانصيب، فإنها تذهب لتقصها على جوزيف، لأنه الكائن الوحيد الذي يستمع إليها دون أن يوبخها بل ويواسيها أيضاً بهذه الكلمات العذبة التي اعتاد الفنانون مواساة جنون الفكر بها. إن جميع المواهب الكبيرة تحترم وتدرك الأهواء الحقيقية، وتعللها وتجد لها جذوراً في القلب أو في الرأس. وفي رأي جوزيف أن أخاه يحب التبغ والمشروبات الكحولية، وماماه العجوز دكوان تحب ثلاثيات اليانصيب، وأمه تحب الله؛

---

(١) كان السحب يتم كل خمسة أيام وعلى التتابع على أحد الدواليب الخمسة التي يعود أحدها إلى باريس والأخرى إلى المقاطعات.

ودروش الابن يحب الدعاوي، ودروش الأب يحب الصيد بالصنارة، وجميع الناس كما يقول يحبون شيئاً ما، وهو يحب المثل الأعلى الجميل في كل شيء، يحب أشعار بايرون، ولوحات رسم جريكو، وموسيقى روسيني، وروايات والتر سكوت. كان يهتف: «لكل ذوقه، ماما، لكن ثلاثيتك ماطلتك كثيراً»،

ستخرج يوماً، وستغدو غنياً، أنت وحفيدي بيكسيو.

هتف جوزيف: أعطي كل شيء لحفيدك، ومن ثم لك أن تفعلي ماتشائين!.

ـ هيه! إن خرجت، سيكون لدي ما أرضي به جميع الناس، وأنت أولاً، سيكون لك مرسم جميل؛ ولن تحرم نفسك من الذهاب إلى جادة الإيطاليين لتسدد أجور نماذجك ومستحقات تجار الألوان. أتعلم، يا ولدي، إنك لم تجعلني ألعب دوراً جميلاً في تلك اللوحة هناك؟

كان جوزيف بدافع الاقتصاد قد اتخذ من السيدة دكوان نموذجاً في لوحة رائعة تمثل امرأة عجوزاً تقود غانية شابة لتسلمها إلى أحد الشيوخ الفينيسيين. وهذه اللوحة وهي إحدى التحف في الفن الحديث، وقد قرظها غرو بذاته واعتبرها جديرة بتيتيان، قد هيأت، على وجه رائع، الفنانين الشباب للاعتراف بجوزيف وإعلان تفوقه في صالون معرض ١٨٢٣[(١)].

أجاب بغبطة: إن من يعرفك يعرف جيداً من أنت فلماذا تقلقين من نظرة أولئك الذين لايعرفونك؟».

منذنحو عشر سنوات، أخذمظهر السيدة دكوان القسمات الناضجة لتفاحة كندية في عيد الفصح، فتشكلت تجاعيدها على تمام بشرتها التي غدت باردة وغضة. وبدت عيناها المليئتان بالحياة تتوقدان بفكرة شابة متأصلة، يمكن جيداً اعتبارها فكرةجشع، بقدر مايوجد دائماً شيء من الجشع لدى المقامر. وبدا على وجهها الربل آثار كتمان عميق، وفكرة مسبقة مبطنة في صميم نفسها. كان هواها

---

(١) تردد بلزاك كثيراً حول هذا التاريخ. لأسباب ستشرح في الهامش رقم (٢) في الصفحة التالية.

يستلزم الكتمان، وفي حركة شفتيها بعض قرائن شره. وهكذا فبالرغم من انها السيدة المستقيمة الممتازة التي تعرفونها، يمكن للعين أن تنخدع بها. لذلك فهي تمثل نموذجاً رائعاً للمرأة العجوز التي أراد بريدو أن يرسمها. وكانت كورالي الممثلة الشابة ذات الجمال السامي، المتوفاة وهي في ربيع العمر، خليلة الشاعر الشاب الصديق لبريدو، لوسيان دي روبمبره هي التي أعطت فكرة هذه اللوحة[1].

وأتهمت هذه اللوحة بأنها محاكاة أثر سابق[2]، رغم أنها إخراج رائع لثلاثة وجوه، فميشيل كريستيان أحد شباب الندوة أعار بالنسبة لشيخ البندقية رأسه الجمهوري الذي خلع عليه جوزيف مسحة من النضوج، كما أنه زاد من تعابير وجه السيدة دكوان. هذه اللوحة الكبيرة التي أثارت كثيراً من الضجة، وسببت كثيراً من الحقد، ومن الغيرة، ومن الإعجاب، صممت في خطوطها الأولى، لكن الرسام اضطر لإيقاف التنفيذ للقيام بأعمال طلبات تمكنه من العيش. فهو ينسخ لكبار الفنانين مكتشفاً طرائقهم؛ وهكذا كانت فرشاته إحدى الأبرع في الفن. وأوحى إليه حس الفنان السليم أن يخفي عن السيدة دكوان وعن أمه المكاسب التي بدأ يجنيها إذ رأى لدى الواحدة والأخرى سبباً لدمارها في فيليب وفي اليانصيب. فالبرود الذي أبداه الجندي بعد كارثته، والخطة الخفية في الانتحار المزعوم التي ظهرت لجوزيف، وذكرى الأخطاء المرتكبة في سيرة لم يتخل عنها، أخيراً التفاصيل الدقيقة في سلوك أخيه انتهت إلى تفتيح عيني جوزيف. وهذه النظرة الثاقبة نادراً ماتنقص الرسامين: ينشغلون خلال أيام كاملة في صمت محترفاتهم، في أعمال تترك إلى حد ما الفكر حراً، فتكون أفكارهم إلى حد ما كأفكار النساء، يمكن أن تدور حول أحداث الحياة الصغيرة، وتصل إلى معناها الخفي. كان جوزيف قد اشترى إحدى هذه الخزائن

---

(١) هنا تداخل مع رواية **أوهام ضائعة**.

(٢) يلاحظ، ج. أدمار في مقال له عن بلزاك والرسم أن هذه اللوحة قريبة من لوحة للرسام كزافيه سيغالون بعنوان «المومس» وأتاحت له أن يلاقي الشهرة في معرض١٨٢٢، وفي المعرض نفسه برز دلاكروا وآرى شيفر وهما نموذجان ممكنان لجوزيف بريدو. فتحويل نجاح جوزيف لمعرض١٨٢٣ مع ذلك التلميح للوحة سيغالون العائدة للعام ١٨٢٢ أدخل بلزاك شخصيته الخيالية في تيار الرسم المعاصر، وتجنب أي شبه لبطله مع رسّام غدا شهيراً في العام ١٨٢٢.

الصغيرة المزخرفة، التي كان قد جهل آنئذ طرازها ليزين فيها زاوية من محترفه يرد منها النور فيبرق على النمنمات معطياً كل جلائه لهذه التحفة اليدويةمن القرن السادس عشر. واكتشف فيها وجود مخبأ راح يجمع فيه بعض وفر احتياطي، وبالثقة الطبيعية للفنانين الأصلاء كان يضع عادة الدراهم المتوقع إنفاقها خلال الشهر في جمجمة ميت موضوعة في إحدى طاقات الخزانة. ومنذ عودة أخيه إلى المنزل لاحظ عدم توافق مستمر بين نفقاته وهذا المبلغ. فمئة فرنك الشهر تختفي بسرعة عجيبة، فهو لايجد شيئاً بعد إنفاق أربعين أو خمسين فرنكاً. قال في نفسه أول مرة: يبدو أن دراهمي تمضي بسرعة! وفي المرة الثانية انتبه جيداً إلى نفقاته، وحسب جيداً كروبير ماكير[1] ستة عشر زائد خمسة تعطي ثلاثة وعشرين، لكنه لم يجد موضع النقص. وبعد ملاحظة فرق كبير في المرة الثالثة أطلع على هذا الموضوع المقلق السيدة دكوان، وهي من تحبه حباً أمومياً، حانياً، أميناً، ساذجاً، متحمساً، لم تظهره له أمه، على طيبتها، وعلى ضرورته لبدايات الفنان، كرعاية الدجاجة لصغارها إلى أن يقوى ريشهم. فلدكوان وحدها يمكن أن يصرح بشكوكه، فهو أمين من أصدقائه كنفسه، والسيدة دكوان لاتأخذ منه بالتأكيد شيئاً لتضعه في الياناصيب - وعند هذه الفكرة لوت المرأة المسكينة يديها - ففيليب وحده يمكن أن يرتكب هذه السرقة البيتيةالصغيرة.

هتف جوزيف وهو يأخذ شيئاً من اللون على لوحته، ويخلط بها جميع الفوارق دون انتباه:

«ولكن لماذا لايطلب مني مايحتاج إليه. فهل أمنع عنه مالاً؟

هتفت العجوز دكوان بارتياع عميق: لكن هذا سلبُ ولدٍ!

تابع جوزيف: كلا، يمكنه ذلك، فهو أخي، ومحفظتي هي محفظته، ولكن يجب إعلامي.

---

(١) روبير ماكير: تمثيلية بهذا العنوان من تأليف سان آمان آنتيه (١٧٩٧-١٨٨٥) والممثل فردريك لميتر. لكن هذا الحساب المغلوط (١٦+٥=٢٣؟) غير موجود في النص. ويمكن أن يكون ذكرى من عرض المسرحية الذي حضره بلزاك خاصة وهو من المعجبين بتمثيل ف. لميتر وتمثيلية روبير ماكيير بالذات.

قالت له السيدة دكوان: ضع هذا الصباح مبلغاً معيناً من النقود، ولا تلمسه، وسأرقب من يدخل إلى مرسمك، فإن لم يدخل إلا أخوك، تكن متيقناً من فعلته».

في صباح اليوم التالي، حصل جوزيف على برهان الاستعارات الإلزامية التي غرمه بها أخوه. فقد دخل فيليب إلى المرسم أثناء غياب جوزيف وأخذ المبالغ الصغيرة التي نقصت. وارتعش الفنان لاختلاس كنزه الصغير لكنه قال ضاحكاً للسيدة دكوان: «انتظر! انتظر! أيها المستهتر، سأمسك بك».

ـ وحسناً تفعل؛ فيجب أن نؤدبه، لأنني أنا بدوري لاحظت نقصاً في محفظتي، لكن الفتى المسكين يلزمه تبغ، إذ اعتاد عليه.

ـ تابع الفنان: يا للفتى المسكين، يا للفتى المسكين، إنني إلى حد ما من رأي فوجنس[1] وبيكسيو: ففيليب يجرنا دائماً من أرجلنا[2]: فحيناً يشترك في الفتن ويجب إرساله إلى أمريكة فيكلف والدتي اثني عشر ألف فرنك، ولم يستطع أن يجد شيئاً في غابات العالم الجديد، وتكلف عودته بقدر ذهابه. وبذريعة أنَّه كرّر كلمتين عن نابوليون لأحد القادة، ظن في نفسه أنه عسكري كبير عليه الالتزام بإدارة ظهره للبوربونيين، وبالانتظار يتسلى، ويسافر، ويشاهد بلادا؛ وأنا غير مقتنع بمعاناته، فلا يبدو عليه إلا أنه رجل يتكيف مع كل الأوضاع، فعندما أمن لمستهترنا مركز مناسب، عاش عيشة سردنَبال[3] مع فتاة أوبرا، وسطا على خزينة الصحيفة، وكلف والدتنا اثني عشر ألف فرنك إضافية. من المؤكد، فيما يتعلق بي أنني أغض الطرف؛ لكن فيليب يدمر المرأة المسكينة؛ إنه ينظر إليّ وكأن لاقيمة لي، لأنني لم أكن من فرسان الحرس الإمبراطوري، وسأكون أنا على الأرجح من يعيل تلك الأم العزيزة الطيبة في أواخر أيامها، بينما لا أعلم كيف سينتهي هذا الفظ إن استمر على

(١) فوجنس ريدال: أحد أعضاء الندوة (شخصية وردت في **أوهام ضائعة**).

(٢) تعبير يعني بسبب لنا الضرر ويقسرنا على فعل أمر لانرغب به.

(٣) سردنبال: شخصية آشورية خيالية، هلك على محرقة مع نسائه وكنوزه.

هذا المنوال. قال لي بيسكيو: «إن أخاك مهرج كبير»، والواقع أن حفيدك على حق: فسيبتكر فيليب مجوناً ما يعرض فيه شرف العائلة للخطر، ويجب عندها إيجاد عشرة آلاف أو اثنى عشر ألف فرنك! إنه يقامر كل مساء، وتسقط منه على السلم، عندما يعود ثملاً كأحد فرسان المعبد، بطاقات مثقبة لتسجيل أدوار الأسود والأبيض. إن الأب دروش يسعى لإعادة فيليب إلى الجيش، وأنا اعتقد، قسماً! إنه سيكون في غاية القنوط إن عاد للخدمة. أتعتقدين أن فتى له مثل هاتين العينين الجميلتين الزرقاوين، بصفائهما الشديد، وهو بمظهر الفارس بايار يرتد إلى ساكريبان[1]؟.

رغم التعقل ورباطة الجأش اللذين يمارس بهما فيليب مقامرته مساء، فإنه كان يشعر بين وقت وآخر بما يسميه المقامرون «التصفية». فيندفع برغبة لاتقاوم ليحصل على رهان الأمسية بمعدل عشرة فرنكات، فيسطو في البيت على نقود أخيه، أو تلك التي تتركها السيدة دكوان في متناول اليد، أو نقود أغات. وفي إحدى المرات، شعرت الأرملة المسكينة، وهي في بدء رقادها، برؤيا مرعبة: إذ دخل فيليب إلى غرفتها، وأخذ من جيوب ثوبها كل الدراهم الموجودة به. وتظاهرت أغات بالنوم، لكنها قضت بقية الليل تبكي. تجلى لها الأمر. الخطيئة الواحدة ليست نقيصة، هكذا قالت السيدة دكوان؛ لكن بعد هذا الانتكاس المتكرر المستمر تأكدت النقيصة، ولايمكن لأغات أن تشك فيها. فابنها الأثير خلا من الشرف واللياقة. غداة هذه الرؤية البغيضة، وبعد الإفطار، وقبل أن يخرج فيليب جذبته إلى غرفتها لترجوه بلهجة استعطاف أن يطلب منها الدراهم التي يضطر لها. وهكذا تجددت الطلبات حتى وجدت أغات أنها قد استنفدت مدخراتها كلها خلال خمسة عشر يوماً. لم يعد معها فلس واحد، فكرت بأن تعمل؛ وناقشت خلال

---

(١) بايار (١٤٦٧-١٥٢٤) قائد فرنسي اشتهر بانتصاراته وشجاعته وحسن تصرفه فلقب «الفارس دون خوف ودون عيب» بينما ساكريبان جندي يدّعي الشجاعة ويتفاخر بجلبة وصخب في نشيد رولان العاشق لبورياردوالشاعر الإيطالي (١٤٤١-١٤٩٤) ثم في نشيد رولان الغاضب لأريوست الإيطالي (١٤٧٤-١٥٣٣) وهما نشيدان مستمدان من ملاحم البطولة الفرنسية.

عدةأمسيات مع السيدة دكوان وسائل كسب بعض المال بعملها. وذهبت الأم المسكينة تطلب مطرزات لملئها من مؤسسة «**رب العائلة**»[1] وهو عمل يدر عليها عشرين فلساً في اليوم؛ ورغم تكتمها العميق، فقد أدركت السيدة دكوان سبب هذه الرغبة في كسب المال بعمل أنثوي. ،فتغيرات سحنة أغات كانت معبرة: وجهها النضر بدا عليه الجفاف، بشرتها تلتصق بصدغيها وبوجنتيها، والتجاعيد تملأ جبينها وفقدت عيناها صفاءهما، وبدا بداهة أن ناراً داخلية تضنيها. وهي تبكي خلال الليل، ولكن مايسبب الضرر الأكبر لها هو ضرورة أن تحبس آلامها، وعذاباتها، وتخوفاتها . فهي لاتنام قبل عودة فيليب، وهي تسمعه في الشارع، وتميز تغيرات صوته، ومشيته، ووقع عصاه وهو يطرق بلاطات الشارع. لايفوتها شيء: تعرف درجة سكره عند وصوله، ترتعش وهي تسمعه يتعثر على السلالم. وفي إحدى الليالي عثرت على قطع ذهبية في المكان الذي سقط فيه. عندما يكون قد ربح وشرب. تبدو بحة في صوته، وهو يجر عصاه. لكن عندما يخسر تظهر خطاه جافّة، مسموعة، غضبي، يدندن بصوت واضح ويرفع عصاه في الهواء كأنه يقدم سلاحه. عندما يربح يبدو بمظهر مغتبط على الإفطار، شبه ودود، يمازح بفظاظة، لكنه يمازح دكوان. بينما هو بالعكس مع جوزيف وأمه مكفهر الوجه، وعندما يخسر لاينطق إلا بعبارات قصيرة ومتقطعة ويبدو بنظرات قاسية وكآبة مرعبة. حياة الفساد هذه والإدمان على تناول المشروبات الكحولية غيرت بين يوم وآخر هذه السحنة الجميلة سابقاً، فغلظت قسمات وجهه وازرقت أوداجه من الدم المحتقن في أوردته. وفقدت عيناه أهدابهما وجفتا. أخيراً كانت تفوح منه لقلة عنايته بنفسه أوخام الخمارة، ورائحة الأحذية الموحلة، حتى إنه ليبدو للغريب كدلو فجور.

قالت السيدة دكوان لفيليب في الأيام الأولى من شهر كانون أول: «يجب أن تعد لنفسك ثياباً جديدة من الرأس حتى القدمين».

---

(١) موسسةتوجد في ١ شارع نوف ـ دي بتي شامب.

أجاب بصوت حاد: ومن يدفع ثمنها، فأمي المسكينة لاتملك درهماً، وأنا أتلقى خمسمئة فرنك في العام، ويلزمني تعويض عام كامل للحصول على هذه الثياب؛ عدا عن أنني رهنت تعويض ثلاث سنوات.

- ولماذا؟ سأل جوزيف.

- دين قمار. أخذ جيرودو ألف فرنك من فلورنتين ليقرضني إياها... صحيح أن الأناقة تنقصني. ولكن عندما نفكر أن نابوليون في سانت ـ هيلين[1]، يبيع فضياته من أجل أن يعيش، يمكن للجنود المخلصين له أن يسيروا على قصبات أحذيتهم»؛ ورفع رجله فبدت جزمته مهترئة النعلين. وخرج.

قالت أغات: «ليس ولداً سيئاً، إنه يتحلى بعواطف طيبة».

قال جوزيف: يمكنه أن يحب الامبراطور ويعتني بهندامه. لو التفت للعناية بنفسه بالتأكيد، لما بدا عليه مظهر الصعاليك!.

قالت أغات: جوزيف، يجب أن تكون متسامحاً مع أخيك. أنت تفعل ماتريد، بينما هو بالتأكيد ليس في مكانه المناسب.

سأل جوزيف: ولماذا تركه؟ وما الفرق بين أن تكون بقات لويس الثامن عشر أو كوكونابوليون[2] على الأعلام، مادامت هذه الخرق فرنسية؟ إن فرنسة هي فرنسة! أنا أرسم للشيطان! وعلى الجندي أن يقاتل إن كان جندياً حقاً تحقيقاً لفنه. ولو أن فيليب بقي بهدوء في الجيش، لغدا الآن جنرالاً...

قالت أغات: إنك تظلم أخاك، لو بقي أباك الذي كان يعبد الامبراطور حياً لأثنى على موقفه. لكنه أخيراً اقتنع بالعودة إلى الجيش! والله يعلم ماتسببه هذه العودة لأخيك من أسى فهو يعتبرها خيانة.

---

(١) سبق لبلزاك أن قولّ العقيد شابير: «عندما أفكر بأن نابوليون في سانت هيلين، فكل ما على هذه الأرض يبدو تافهاً بالنسبة لي» لكن يجب أن نلاحظ هنا أننا في كانون أول ١٨٢١. ونابوليون قد توفي في أيار ١٨٢١.

(٢) كوكو نابوليون: هو رسم النسر الذي وضعه نابوليون كرمز للامبراطورية على العلم الفرنسي. أما بقات لويس الثامن عشر فلعلها بعض رموز على شعار الملكية الثانية؟.

نهض جوزيف ليصعد إلى مرسمه، فأمسكته أغات من يده، وقالت له: كن طيباً مع أخيك إنه في غاية التعاسة!».

عندما عاد الفنان إلى مرسمه تبعته السيدة دكوان وهي تطلب منه أن يراعي حساسية أمه ملفتة نظره إلى مدى تغيرها؛ وكم يكشف هذا التغير من آلام داخلية. ولدهشتهما وجدا فيليب في المرسم.

قال لجوزيف بمظهر منطلق: «جوزيف، يا صغيري، إنني بحاجة إلى دراهم. اللعنة! إنني مدين بثلاثين فرنك ثمن سكاير لمكتب التبغ الذي أتعامل معه، وأنا لا أجسر أن أمر أمام هذا المتجر اللعين دون أن أدفع له، فهذه هي المرة العاشرة التي أعده فيها بالتسديد.

أجاب جوزيف: حسن، هكذا أفضل، خذمن الجمجمة.

ـ لكنني أخذت كل مافيها البارحة مساء بعد العشاء

ـ لكن كان فيها خمسةوأربعون فرنكاً.

ـ إيه! نعم، هذا ما أخذته، وهذا ما وجدته، هل أسأت في ذلك؟

ـ أجاب الفنان: لا يا صديقي، كلا، لو كنت غنياً، لفعلت مثلك، ولكن قبل أن آخذ شيئاً فإنني أطلب منك إن كان ذلك يوافقك.

ـ استأنف فيليب: إن الطلب مذل، وأنا أفضل أن تأخذها كما آخذها دون أن تقول شيئاً: فهذا أدعى للثقة. في الجيش، عندما يموت رفيق، وفي قدميه جزمة جيدة، فرفيقه يستبدلهابجزمته العتيقة.

ـ نعم، لكنه لايأخذها منه عند وجوده حياً.

ـ تابع فيليب وهو يهز كتفيه: أوه! إنها أمور صغيرة. هكذا أنت لاتملك مالاً؟

قال جوزيف الذي لم يرد أن يكشف عن مخبأ دراهمه: كلا.

قالت السيدة دكوان: بعد بضعة أيام سنكون أغنياء.

ـ نعم، أنت، أنت تعتقدين أن ثلاثيتك ستخرج في الخامس والعشرين من

الشهر في سحب باريس. فيجب أن تراهني عليها بمبلغ كبير إن أردت إغناءنا جميعاً.

قالت السيدة دكوان إن ثلاثية على الأرقام الكاملة بمئتي فرنك تعطي ثلاثة ملايين، إذا استثنيت الثنائيات والمستخلصات المحددة[1].

هتف فيليب: خمسة عشر ألف ضعف، نعم، يلزمك مئتا فرنك تماماً.

عضت السيدة دكوان على شفتيها، فقد بدرت منها كلمة متهورة، والواقع أن فيليب تساءل على السلم: «أين يمكن أن تخبئ هذه الساحرة العجوز دراهم رهانها؟ إنه مال ضائع وأنا استعمله بشكل أفضل؛ فمع أربع كتل بخمسين فرنك يمن أن يصل الربح في القمار إلى مئتي فرنك وهو إلى حد ما أكثر توقعاًمن ثلاثية اليانصيب!» وأمعن التفكير في المكان المحتمل لخبيئةالسيدة دكوان. وعشيةالأعياد ذهبت أغات إلى الكنيسةوبقيت مدة طويلة كانت تعترف دون شك وتتهيأ لتنال القربان المقدّس. كان ذلك عشيةالميلاد، وستذهب دكوان بالضرورة لتشتري بعض الحلويات لسهرة العيد، لكنها في ذات الوقت قد تضع الرهان على ثلاثيتها؛ فسحب اليانصيب يتمّكل خمسةأيام على دواليب بوردو، وليون، وليل، واستراسبورغ وباريس. ويانصيب باريس يسحب في ٢٥ من كل شهر، وتغلق القوائم في ٢٤عند منتصف الليل. درس العسكري جميع هذه الظروف، وباشر الملاحظات؛ وعاد عند الظهر إلى البيت وكانت السيدة دكوان قد خرجت، لكنها حملت معها المفتاح. ولم يأبه لهذه العقبة، إذ تظاهر بأنه نسي شيئاً، وأرسل البوابة لتذهب بنفسها وتستدعي حداد أقفال قريباً منهم في شارع غوغنار، فجاء وفتح له الباب وتوجه هذا الفظ بفكرته الأولى إلى السرير، فنقضه، وجس الحشيات فيه قبل أن يلتفت إلى الخشب، وفي الحشية الأخيرة أحس بالقطع الذهبية مصرورة بالورق،

(١) تعتبر ثلاثية الأرقام كاملة إذا لعبت لوحدها فقط أي دون الأخذ بالاعتبار ثنائيات الرقمين فيها وهذه الثنائيات تسمى بسيطةدون تعيين رقمين محددين، وهي مستخلصةمحددة إن ثبت رقمان من احتمالات الثلاثة. وجائزة الثلاثية الكاملة ـ وهي مماثلة تقريباً ليانصيب اللوتو الحالي كانت تعطي في تلك الأيام ١٥٠٠٠ ضعف، بينما الثلاثيةالبسيطة أقل من ذلك فهي ٥٥٠٠ ضعف، يبدو أن دكوان كانت تفكر في هذه المرة أن تراهن على ثلاثية كاملة بمبلغ ٢٠٠فرنك، وعلى ثلاثية بسيطةبمئتي فرنك أيضاً.

ففكّ سريعاً القماش والتقط العشرين نابوليون[1] المودعةفيها، ودون أن يكلف نفسه بإعادة الخياطة سوى السرير ببعض مهارة بشكل لاتلاحظ السيدة دكوان شيئاً.

أسرع المقامر بالخروج بخطوة ماهرة ناوياً على اللعب خلال ثلاث جولات مختلفة بين الواحدة والأخرى ثلاث ساعات ومدة كل جولة عشر دقائق فقط، فالمقامرون الحقيقيون منذ العام ١٧٨٦ وهو العام الذي ابتكرت فيه قاعات المقامرة العامة، المقامرون الكبار الذي تخشاهم الإدارة، والذين يلتهمون، وفقاً لتعبير المقامر، أموال المقمرة، لايلعبون إلا بهذه الطريقة. ولكن قبل أن يحصلوا على هذه الخبرة كانوا قد خسروا ثروات. وكل فلسفةإدارة الكازينو وربحها مستمدان من عدم تأثر صندوقها، ومن الضربات المتساوية المسماة إعادةالكرة[2] حيث يكسب الصندوق نصف الرهان، ومن علامة سوء النية، المقررة من الحكومة، القائمة على عدم اعتبار رهان اللاعبين، وعدم الدفع إلا اختيارياً، أن ترفض رهان اللاعب الغني، الرابط الجأش، وتشجع مراهنة اللاعب الأحمق إلى حد ما، المعاند، المنتشي بحركة هذه الماكنة السريعة، وموزعو ورق لعبة الثلاثين ـ أربعين يسيّرون اللعب بمثل سرعة الروليت تقريباً. وقد انتهى فيليب إلى اكتساب رباطة جأش القائد المحتفظ بالعين البصيرة والذكاء الوقاد وسط دوامة الأشياء. ووصل إلى هذه المهارة العالية في اللعب، التي يجدر أن نقول بشكل عارض، إن نحو ألف شخص في باريس بلغوا من القوة فيها مايجعلهم يخوضون كل مساء هذه اللجة دون أن تسبب لهم الدوار، وهي مصدر رزقهم. بهذه الأربعئمة فرنك صمم فيليب أن يحصل ثروة في ذلك اليوم. ووضع مئتي فرنك في جزمته، واحتفظ بمئتي فرنك في جيبه. وفي الساعة الثالثة وفد على الصالة التي يشغلها الآن مسرح الپاليه ـ رويال، حيث في متناول أصحاب الصناديق مسيري اللعب أكبر المبالغ، وخرج بعد ربع ساعة وقد

(١) النابوليون عملة ذهبيةفي فرنسة كانت بقيمة عشرين فرنكاً.

(٢) تعبير يعني في لعبة الورق تساوي الخصمين. وهنا يفكر بلزاك بلعبة ٣١-٤١ حيث يقوم اللاعب بجمع أوراق سوداء مجموع نقاطها ٣١، فإذا جمع أوراقاً حمراء لمجموع ٣١ أيضاً نصف الرهان يعود للصندوق. ويبدأ ربح اللاعب على اللون الذي يلي هذه المساواة.

ربح سبعةآلاف فرنك؛ وذهب لرؤية فلورنتين فسدد لها خمسمئة فرنك اقترضها سابقاً منها، واقترح عليها تناول وجبة ليلية بعد المسرح في مطعم صخرة كانكال[1]، وعند عودته مر على مكتب الجريدة التي يعمل بها جيرودو في شارع سنتيه لينبئه بالاحتفال المخطط له. وفي الساعة السادسةمساءً ربح فيليب خمسة وعشرين ألف فرنك وخرج بعد نحو عشر دقائق، متقيداً بما عاهد نفسه عليه. وفي المساء، عند الساعة العاشرة ربح خمسة وسبعين ألف فرنك. وبعد وجبة الليل، وكانت رائعة، عاد فيليب ثملاً، واثقاً من نفسه إلى قاعة اللعب نحو منتصف الليل؛ وبخلاف القانون الذي فرضه على نفسه لعب نحو ساعة وضاعف ثروته. وراح مدراء اللعب ينظرون إليه بفضول بعد أن انتزع منهم بطريقة لعبه مئة وخمسين ألف فرنك. وتساءلوا وهم يتبادلون النظر:

«هل سيخرج أم سيبقى؟ إن بقي تدمر»

اعتقد فيليب أنه في ذروة الحظ وبقي. ونحو الساعة الثالثة صباحاً كانت المئة وخمسون ألف فرنك قد عادت أدراجها إلى صندوق صالة القمار. وخرج الضابط الذي كان قد شرب كميات من المشروبات الكحولية الساخنة وهو يلعب، مترنحاً من السكر حتى أنَّ البرد الذي انتابه كاد يقضي عليه؛ لكن أحد خدم الصالة تبعه والقتطه وقاده إلى أحد هذه البيوت الرهيبة التي يمكن أن يقرأ على مصباح بابها: «هنا يمكن المبيت لليلة»، وسدد الخادم عن اللاعب المدمر أجرة الليلة، ووضعه بكامل ثيابه على سرير، حيث بقي حتى مساء يوم عيد الميلاد. فإدارة المقمرة تراعي روادها، وكبار المقامرين.

لم يستيقظ فيليب إلا عند الساعة السابعة مساء، وفمه جاف دبق، ووجهه متورم، وهو فريسة حمى عصبية، ومكنه عنف طبعه أن يسير على قدميه حتى بيت والدته حيث أحل، دون دراية منه، الحداد، والكآبة، والبؤس، والموت.

---

(١) هو من أشهر مطاعم باريس في ذلك العصر وكان يقع في شارع مونتورغوي غير بعيد عن الهال.

في العشيةبعد أن تم إعداد العشاء انتظرت أغات والسيدة دكوان فيليب نحو ساعتين ولم تجلس العائلة إلى المائدة إلا في الساعة السابعة، وكانت أغات تنام في العاشرة؛ لكن أرادت في عشية العيد أن تشهد قداس منتصف الليل، فذهبت لتأخذ قسطاً من النوم حتى ذلك الوقت، بينما بقيت دكوان وجوزيف وحدهما قرب المدفأة في تلك الصالة الصغيرة التي غدت تستخدم لكل شيء، ورجت العجوز الرسام الشاب أن يحسب لها رهانها الشهير الرهان الضخم على الثلاثية الذائعة الصيت. أردات أن تراهن على ثنائياتها، ومستخلصاتها المحددة، أخيراً الإحاطة بجميع الحظوظ. وبعد أن تذوقت شاعرية هذا الدور، وصبت ذخائر قرني الخصب[1] على قدمي ولدها بالتبني، وقصت عليه أحلامها مبيّنة يقينها بالربح، غير قلقة إلا على صعوبة تحملها مثل هذه السعادة، وعناء الانتظار من منتصف الليل حتى العاشرة من صباح اليوم التالي. وعندما لم ير جوزيف الأربعمئة فرنك اللازمة للرهان تجرأ على تنبيهها له، فابتسمت المرأة العجوز وقادته إلى الصالون القديم الذي تحول إلى غرفة نوم لها، وقالت: «ستشاهدها!».

ونفضت السيدة دكوان بسرعة سريرها، وفتشت عن مقص لفتق الحشية الخشبية؛ وفتشت عن نظارتها، وفحصت القماش وعندما رأته محلولاً، سقطت الحشية من يدها، وبدرت منها تنهدة واردة من أعماق صدرها كأنها اختنقت بالدم المندفع من قلبها، أسرع على أثرها جوزيف يحتضن بكلتا يديه غريزياً مساهمة اليانصيب العجوز، ويضعها على أريكة وهي غائبة عن الوعي. وهو ينادي أمه للحضور إليهما. ونهضت أغات، وارتدت مبذلها وأسرعت إلى غرفة امرأة خالها، تحاول إنعاشها على ضوء شمعة، بالاسعافات المعتادة، تمسح صدغيها بماء الكولونيا، وتضع كمادات ماء بارد على جبينها؛ ثم حرقت ريشةتحت أنفها، ورأتها أخيراً تعود إلى الحياة وتتمتم: «كانت مخبوءة هنا هذا الصباح، لكنه أخذها الوحش!».

---

(١) قرن الخصب Corne d'abondance: رمز الإقبال والحظ الطيب، قرن ممتلئ بالثمار والأزهار والمقصود بالقرنين هنا: ثلاثية الأرقام الكاملة والثلاثية البسيطة بثنائياتها ومستخلصاتها.

قال جوزيف: ماذا؟.

- كان معي عشرون لويسية[1] في حشية فراشي. مدخرات خلال سنتين. وفيليب وحده يمكنه أن يأخذها.

- هتفت الأم المسكينة رازحة بالهم: ولكن متى؟ إنه لم يعد منذالإفطار.

صرخت العجوز: اتمنى أن أكون على خطأ، لكنني في هذا الصباح، وفي مرسم جوزيف عندما تحدثت عن رهاني، انتابني شعور مسبق بأنني ارتكبت خطأ لعدم نزولي بسرعة، لأخذسان فروسكاني[2] الصغير وإيداع رهاني في تلك اللحظة. أردت ذلك، ولا أعلم مامنعني. أوه! يا إلهي ذهبت لأشتري له سيكاراً

قال جوزيف: لكن الشقة كانت مغلقة. عدا عن أن الأمر في منتهى الدناءة بحيث لايمكن تصديقه. فقد تجسس فيليب عليك، وفتق حشية فراشك، وهيأ لذلك مسبقاً.. كلا!

كررت دكوان: أحسست بذلك هذا الصباح وأنا أرتب سريري بعد الإفطار»

هبطت أغات مرتاعة، وسألت إن كان فيليب قد عاد خلال النهار، وقصت عليها البوابة حكاية فيليب. وقرعت الأم على صدرها، وعادت متغيرة كلياً، شاحبة كبركال قميصها، تمشي، كما يتصور، مشي الأشباح، دون ضجة، وبهدوء، تحت تأثير قوة فوق بشرية غير أنها آلية. وكانت تحمل شمعداناً في يدها يضيئها كلياً، ويظهر عينيها المتجمدتين من الهول، ودون أن تدري راحت تبعثر شعر رأسها بحركة من يديها على جبينها.

وبدت في هذا المظهر جميلة في رعبها حتى أن جوزيف تسمر بظهور هذه الندامة، ورؤية هذا التمثال من الروع والقنوط.

قالت: «يا امرأة خالي، خذي آنية مائدتي الفضية، وعددها ست وهي

---

(١) يلاحظ هنا تكييف بلزاك للمفردات مع أشخاصه. فالقطع الذهبيةبالنسبة لفيليب البونابرتي هي عشرون «نابوليون» بينما سمتها العجوز باسمها ماقبل الثورة «عشرون لويسية».
(٢) سان فروسكان Saint-Frusquin: تعبير فرنسي يعني ما لدى المرء من مال ومقتنيات.

بقيمةالمبلغ الذي خسرته. فأنا من أخذه لفيليب، وكنت أظن أن بإمكاني أن أعيده قبل أن تلاحظي فقدانه. أوه! إنني أتألم كثيراً».

وجلست، وارتعشت عيناها الجافتان الجامدتان قليلاً آنذاك.

قالت دكوان بصوت منخفض لجوزيف: «إنه هو صاحب هذه الفعلة».

استأنفت أغات: كلا، كلا، خذي آنيتي، يمكنك بيعها، لاحاجة لي بها، يمكننا أن نستخدم على المائدة آنيتك».

وذهبت إلى غرفتها، وتناولت صندوق الآنية، وأحست بخفةوزنه، وفتحته فوجدته فارغاً. وصدرت عن الأم المسكينة صرخة رهيبة. وهرع جوزيف ودكوان؛ وغدت كذبة الأم السامية غير مجدية، عند رؤيتها الصندوق. بقي الثلاثة صامتين، متجنباً كل منهم النظر إلى الآخر، ثم وضعت أغات إصبعها على شفتيها طالبة كتمان سر لايريد أحد إفشاءه. وعاد الثلاثة إلى الجلوس أمام المدفأة في الصالون.

هتفت السيدة دكوان: «هوذا يا ولدي، إنني طعنت في قلبي، فثلاثيتي ستخرج، إنني على يقين من ذلك. وأنا لا أفكر في نفسي، وإنما بكما أنتما الاثنان!» ثم التفتت إلى نسيبتها قائلة: «إن فيليب وحش، إنه لايحبك أبداً، رغم كل الذي فعلته من أجله، فإن لم تحترسي منه فستنتهي إلى فقر مدقع. اسمحي لي أن أبيع مواردك، وأحقق لك رأسمال أضعه في تقاعد عمري خاص بك لمدى حياتك. إن جوزيف في وضع جيد وسيؤمن مستقبله بنفسه. وبلجوئك إلى هذا التدبير لن تكوني عالة عليه؛ والسيد دروش يريد توطيد مركز ابنه. وابن دروش(وهو في السادسة والعشرين من عمره[1]) أمن مكتباً لنفسه، وسيأخذ الاثني عشر ألف فرنك التي لك مقابل تقاعد عمري.»

---

(١) هذا يتوافق مع العمر الذي أعطاه بلزاك لابن دروش في قصة «**بداية في الحياة**» حيث نجده فيها يقسم اليمين المطلوب من محام مرخص وهو في السادسة والعشرين من العمر بعد أن اشترى مكتباً عارياً في العام ١٨٢٢.

تناول جوزيف شمعدان أمه وصعد بسرعة إلى مرسمه، وعاد ومعه ثلاثمئة فرنك هي كل ماوفره وقال: «خذي يا ماما دكوان، ليس علينا أن نبحث في طريقة انفاقك لأموالك، بل أن نؤمن لك ما نقصك، وهوذا تقريباً معظمه».

هتفت مساهمة اليانصيب الوطني الفرنسي وقد تنازعها بشكل ظاهر إيمان وطيد بنجاح ثلاثيتها وهذا التصرف الذي بدا لها كارتكاب المحرمات: «آخذ مطمورتك الصغيرة المسكينة، ثمرة حرمانك، وشدّ ما عانيت منه! أمجنون أنت يا جوزيف؟

قالت أغات وقد ترقرقت الدموع في عينيها لبادرة ابنها الطيب: «خذيها، وافعلي بها ما تشاءين»

أحاطت السيدة دكوان رأس جوزيف بيديها وقبلته على جبينه وقالت: «لاتغريني يا ولدي، هوذا، سأضعف أيضاً، ، كم في اليانصيب من حماقات!» ما من قول كان أصدق من هذا القول في مآسي الحياة الخاصة، لكن أليس هو في الواقع تعلق ظافر بنقيصةمتأصلة؟. وفي تلك اللحظة دقت الأجراس داعية إلى قداس منتصف الليل.

استأنفت السيدة دكوان: «وبعد، فقد فات الوقت.

قال جوزيف: أوه! هوذا تعزيماتك السحرية».

وأسرع الفنان الشهم فتناول أرقام الثلاثية، واندفع على السلم راكضاً لتسجيل الرهان، وعند ابتعاده أجهشت الأرملتان بالبكاء.

هتفت لاعبة اليانصيب: إنه ذاهب لتسديد الرهان، وسيكون الربح له لأن المال ماله!

للأسف كان جوزيف يجهل كلياً موقع مكاتب اليانصيب، رغم أن روّادها في ذلك الزمن، يعرفونها في باريس كما يعرف حالياً المدخنون مراكز بيع التبغ. وركض الرسام كالمجنون يتطلع إلى مصابيح الشارع، وعندما سأل بعض المارة لإرشاده إلى مكتب يانصيب، أجيب إلى أنها قد أغلقت، لكن المكتب الواقع على مدخل درج الپاليه - رويال يتأخر أحياناً عن موعد الإغلاق المحدد لبعض الوقت، وأسرع الفنان راكضاً إليه، لكنه وجده مغلقاً.

قال له أحد باعة البطاقات الفردية المتمركزين عند أسفل الدرج: «لو سبقت دقيقتين فقط لتمكنت من تسجيل رهانك» ثم تابع مناداته بهذه الكلمات الفريدةوهو يعرض بطاقاته المسجلة المفردةعليه: «بأربعين فلساً تربح ألفاً ومئتي فرنك!»

عل ضوء مصباح الشارع والأنوار الصادرة من مقهى الروتوند[١]، تأمل جوزيف هذه البطاقات عله يجد في إحداها أحد أرقام ثلاثية دكوان؛ لكنه لم يعثر على أي منها، فعاد والألم يحز في نفسه لأنه قام بكل ماوسعه من جهد، لكن دون جدوى، لإشباع رغبات تلك العجوز الطيبة، التي عاد فأنبأها بعدم توفيقه في تأمين أمنيتها الملحة.

تخلت العائلة عن سهرة عيد الميلاد؛ وصعد جوزيف إلى غرفته للنوم بينما ذهبت أغات مع زوجة خالها لحضور قداس منتصف الليل في كنيسة سان جرمن دي بره، وكانت السيدة دكوان تبدو كالمجنونة، بينما حكم على أغات أن يعتصر قلبها حداد دائم، وخلدتا إلى نوم قلق بعد عودتهما فلم تستيقظا إلا متأخرتين، ورنت الساعة معلنة العاشرة عندما نهضت السيدة دكوان لإعداد طعام الإفطار الذي لم يتجهز إلا في الحادية عشر والنصف وفي مثل هذا الوقت فإن حشداً كبيراً يتجمهر حول أبواب المكاتب الحاوية على الأرقام الزابحة، لو تيسر للسيدة دكوان أن تسدد رهان هذه الدورة وتحصل على بطاقتها لذهبت منذالساعة التاسعة والنصف إلى شارع نوف - دي - بتي شامب لمعرفة حظها الذي كان يقرر في مركز مجاور لوزراة المالية، حيث يشغل مكانه الآن مسرح فنتادور[٢] وساحته. ففي كل يوم سحب كان الفضوليون يشهدون بدهشة على باب هذا المركز تجمهراً صاخباً من النسوة العجائز والطاهيات والشيوخ في مشهد بمثل غرابة الصف الطويل من المتقاعدين يوم دفع المعاشات التقاعدية من الصندوق المخصص.

(١) كان هذا المقهى الذي أسس في عهد الثورة من أشهر مقاهي باريس خلال العهد الامبراطوري والملكية الثانية.

(٢) كان مسرح فنتادور يقوم في الموقع الحالي لمصرف فرنسة العام.

هتف العجوز دروش وهو داخل من الباب بينما كانت السيدة دكوان تتناول آخر جرعة من فنجان قهوتها: «وبعد، هوذا أنت يا ذات الثراء العظيم!»

هتفت أغات المسكينة: وكيف؟.

قال وهو يقدم لها قائمة أرقام كتبت على ورقة صغيرة، يضع قيّمو مكاتب اليانا صيب مئات منها في طبق خشبي على رفوف مكاتبهم: لقد خرجت ثلاثيتها الكاملة.»

قرأ جوزيف القائمة، وقرأت أغات القائمة. لكن السيدة دكوان لم تقرأ شيئاً، فقد طرحت غائبة عن الوعي كأن صاعقة أصابتها. وبتغير سحنتها والصرخة التي بدرت منها المرأة المسكينة، التي لم تستعد وعيها إلا في حوالي الساعة الرابعة مساءً. وأعلن العجوز هودري[1] طبيبها أن من الواجب التفكير، رغم هذا التحسن العارض، بتصفية أمورها ووداعها الأخير، ولم تلفظ آنذاك إلا هذه العبارة: «ثلاثة ملايين!...»

ذكر الأب دروش، الذي أحيط علماً من قبل جوزيف بظروف عدم مراهنة العجوز، إنما مع التحفظات الضرورية، عدة أمثلة عن لاعبين أفلتت منهم الثروة في اليوم الذي فاتهم فيه، لسوء الطالع، أن يراهنوا. لكنه أدرك كم ستكون هذه الضربة مميتة عندما تقع بعد عشرين عاماً من المواظبة. في الساعة الخامسة مساءً، وفي اللحظة التي كان يسود فيها أعمق الصمت في هذه الشقة الصغيرة، حين قام جوزيف وأمه برعاية المريضة، أحدهما عند رأس السرير والآخر في نهايته، وهما ينتظران حفيدها، بعد أن ذهب العجوز دروش للاتيان به، سمع وقع خطوات فيليب ونقرات عصاه على السلم.

هتفت العجوز دكوان وهي تحاول النهوض وتحريك لسانها المشلول: «هاهوذا! هاهوذا!» ذهل جوزيف وأغات بحركة الهول المرتسمة بعنف على سحنة

(١) الطبيب هودري: يظهر في روايات عديدة من الملهاة الإنسانية، في **النسيب بونس، وسيزار بيروتو، والمستخدمين، والوجه الآخر للتاريخ المعاصر، وفتنة وتعاسة الغانيات، وفراغوس.**

المريضة، وتبرَّر انتظارهم المضني كلياً بمشهد وجه فيليب المزرق والمتشنج، ومشيته المترنحة، والحالة الرهيبة لعينيه المحاطتين بعمق بهالتين زرقاوين قاتمتين، غير أنهما زائغتان بوحشية. كان يرتعش بعنف من الحمى، وأسنانه تصطك.

صرخ: يا لبؤس البروسيين[1]! لاخبز، ولاعجائن، وحلقي يلتهب كالنار. وبعد، ما الأمر؟ إن الشيطان يتدخل دائماً في شؤوننا. فالعجوز دكوان في السرير، وهي تحدق بي وعيناها جاحظتان كأنهما الأطباق.

قالت أغات وهي تنهض: أصمت، أيها السيد واحترم على الأقل النكبةالتي أحللتها.

قال وهو ينظر إلى أمه: أوه! تخاطبينني **بسيد**، وأنت أمي العزيزة الصغيرة، هذا أمر غير طيب، ألم تعودي إذاً تكنين الحب لولدك؟.

- وهل أنت جدير بالحب؟ ألا تذكر أبداً ما فعلته البارحة؟ إذاً فتش لك عن منزل؛ فلن تسكن أبداً معنا، وذلك اعتباراً من يوم غد. ثم استأنفت: «إذ يصعب عليّ وأنت في الحالة التي أراك فيها...

قاطعها قائلاً: أن تطرديني الآن، أليس كذلك؟ آه! ألا تمثلون هنا ميلودراما الابن المبعد[2]؟ عجباً! أهكذا تنظرون إلى الأشياء؟ إيه! إنكم جميعاً مهرجون عجيبون! أي سوء فعلت؟ أجريت في حشية للعجوز تنظيفات صغيرة. إن الدراهم لاتوضع في الصوف، يا للشيطان! وأين الجريمة؟ ألم تختلس هي منك عشرين ألف فرنك؟ ألسنا دائنيها؟ هل استوفيت إلا القليل؟ هذا هو الأمر!... .

هتفت المحتضرة وهي تضم يديها بتضرع وتصلي: يا إلهي! يا إلهي!

---

(١) يأتي هذا التعبير من أن الراتب في الجيش البروسي يحسب على أساس الشهر ثلاثين يوماً، لذلك يعتبر اليوم الحادي والثلاثون من الأشهر المتضمنة هذا اليوم بائساً لدى أفراد هذا الجيش.

(٢) هي ميلودراما لفريدريك دوبتي ـميره، تحمل هذا الاسم، وقد مثلت في العام ١٨١٥ في الامبيغو ـ كوميك)

صرخ جوزيف وهو يهجم على أخيه ويضع يده على فمه: اصمت!

ردّ فيليب وهو يمسك بيده القوية كتف جوزيف ويلفه ويلقي به على أريكة: ربع دورة التفاف على الجانب الأيسر، أيها الولد الرسام! لاتلمس هكذا شاب قائد سرية فرسان في الحرس الامبراطوري.

نهضت أغات وهي تنظر بغضب إلى ابنها وقالت: لكنها سددت لي جميع استحقاقاتي، عدا على أن هذا الأمر يخصني وحدي.» ثم قالت وهي تشير إلى الباب بحركة استنفدت كل قواها: «إنك تقتلها، أخرج يا ولدي، ولاتظهر أبداً أمامي! إنك وحش!

ـ أنا أقتلها؟.

ـ قال جوزيف: خرجت ثلاثيتها دون أن تراهن عليها بعد أن سرقت لها المال المدخر لرهانها.

ـ رد السكران: إن تَنْفُق من ثلاثية دخلت، فلست أنا إذا من قتلها.

قالت أغات: أخرج إذاً، إنك تسبب لي الرعب، إنك بؤرة رذائل! يا إلهي، أيكون هذا ولدي؟.»

أطلقت السيدة دكوان حشرجة خرساء زادت من هياج أغات الساخط.

قال فيليب: ماأزال أحبك جيداً يا أمي، رغم أنك سبب مصائبي كلها. إنك تطردينني يوم عيد الميلاد! يوم ولادة... ماسم المولود؟.. يسوع! ماذا فعلت لجدي روجه، وهو أبوك، حتى طردك وحرمك من ميراثك؟ لو لم تكدريه، لكنا أغنياء، ولما كنت وصلت إلى هذه الدرجة من الشقاء! ماذا فعلت لوالدك، أنت أيتها المرأة الطيبة؟ أنت ترين جيداً أن بإمكاني أن أكون ولداً طيباً، مع ذلك أطرد من البيت، أنا فخر العائلة.

صرخت السيدة دكوان: يا للخجل!

صرخ جوزيف: إما أن تخرج أو أن تقتلني! واندفع نحو أخيه بغضبة أسد.

قالت أغات وهي تنهض محاولة فصل الأخوين وإبعادهما: ياإلهي! ياإلهي!»

في تلك اللحظة دخل بيكسيو والطبيب هودري، وكان جوزيف قد ألقى بأخيه أرضاً وهو يقول: «إنك وحش ضار. لاتتكلم وإلا . . .

قال فيليب وهو يخور كثور: سأتذكر هذا.

قال بيكسيو: أهذه تصفية حساب عائلي؟.

قال الطبيب: انهضوه، إنه بمثل مرض العجوز الطيبة، جردوه من ثيابه، وضعوه على سرير، واخلعو جزمته من رجليه.

هتف بيكسيو: من السهل طلب ذلك، ولكن هذه الجزمة لاتخلع دون أن تمزق قطعاً لشدة تورم ساقيه. . . »

تناولت أغات مقصاً، وعندما شقت الجزمة وكانت مرفوعة فوق ساق سرواله الملتصق بالرجلين، سقطت عشر قطع ذهبية على بلاط الغرفة.

قال فيليب متمتماً: «هوذا دراهمها، يا لي من بهيم ملعون! نسيت الاحتياط؛ وأنا أيضاً فاتتني الثروة!».

انتاب فيليب هذيان حمى رهيبة، وبدأ يهرف بكلام غير مفهوم، وتمكن جوزيف وبيكسيو بمساعدة دروش الأب من نقل ذلك التعس إلى غرفته. واضطر الدكتور هودري أن يوجه كتاباً صغيراً إلى مشفى «الإحسان»[١] طالباً سترة تكبيل مجنون، إذ أن هذيان فيليب ازداد إلى حد خشي فيه الطبيب أن يقتل الضابط السابق نفسه لشدة الغضب البادي عليه. وحوالي الساعة التاسعة عاد الهدوء إلى العائلة. وجرب الأب لورو والعجوز دروش أن يواسيا أغات، التي مافتئت تبكي قرب

(١) كان هذا المشفى في موقع كلية الطب الحالية - شارع الآباء القديسين.

سرير نسيبتها، ولزمت صمتاً كئيباً لايعرف إلا جوزيف ودكوان مدى الجرح الداخلي المسبب له.

قال جوزيف أخيراً بعد أن ذهب دورش وبيكسيو: سيصطلح، يا أمي.

هتفت الأرملة: أوه! إن فيليب على حق. فأبي قد لعنني. وليس لي الحق في...

ثم قالت موجهة كلامها للسيدةدكوان بعد أن ضمت ثلاثمئة فرنك جوزيف والمئتي فرنك التي عثر عليها مع فيليب: هو ذا الدراهم.

والتفتت إلى جوزيف وطلبت منه أن يذهب ليسقي أخاه إن احتاج لذلك.

قالت السيدة دكوان وهي تشعر أنها تكاد تفقد كامل وعيها: هلا أعطيتني وعداً وأنا على فراش الموت.

ـ نعم يا امرأة خالي.

ـ اقسمي لي على أن تعطي دروش المحامي الشاب رأس مالك من أجل تقاعد لمدى الحياة. فستحرمين من تقاعدي، وأرى مما سمعته أنك ستسلبين حتى آخر فلس من قبل هذا التعس...

ـ أقسم لك يا امرأة خالي.

توفيت البقالة العجوز في ٣١ كانون أول بعد خمسة أيام من الضربة الرهيبة التي وجهها إليها العجوز دروش ببراءة. وكادت الخمسمئة فرنك، وهي الدراهم الوحيدة الباقية لدى العائلة، لاتكفي لنفقات الجنازة والدفن. ولم تترك الأرملة المتوفاة إلا بعض الفضيات والأثاث التي أعطيت قيمتهالحفيدهامن قبل السيدة بريدو التي تقلص دخلهاإلى ثمانمئة فرنك تقاعد سنوي لمدى الحياة تعهد به المحامي دروش الابن الذي بدأ عمله في مكتب دون زبائن، وأخذ هذا الرأسمال البالغ اثني عشر ألف فرنك بالمقابل. وأعادت أغات للمالك شقته في الطابق الثالث، وباعت كل الأثاث غير اللازم لها. وبعد نحو شهر عندما دخل فيليب المريض في دور

النقاهة، شرحت له أغات ببرود أن نفقات علاجه استهلكت كل السيولة النقدية التي تملكها، وأنها ستكون مضطرة من الآن فصاعداً للعمل من أجل العيش. وهكذا دفعته بالطريقة الأكثر مودة لأن يسعى للعودة إلى الجيش ولكفاية نفسه بنفسه.

قال فيليب وهوينظر إلى أمه بعين جعلتها اللامبالاة الكاملة باردة: «كان بإمكانك أن توفري على نفسك هذه العظة، فأنا أرى جيداً أنكما أنت وأخي لم تعودا تكنان لي الحب. وأنا الآن وحيد في هذا العالم: وهذا أفضل لي.

ردت الأم المسكينة المصابة في صميم قلبها: استعد جدارتك بالحب لنعيد إليك محبتنا...

هتف مقاطعاً: هذه حماقات؟»

وتناول قبعته العتيقة المهترئة الحواف، وعصاه، وأمال قبعته على أذنه وهبط الدرج وهو يصفر.

صرخت أمه التي لم تستطع حبس دموعها: «فيليب! أين أنت ذاهب دون نقود؟ خذ..»

ومدت يدها بمئة فرنك، عملة ذهبية ملفوفة بقطعة ورق، فصعد فيليب الدرجات التي كان نزلها وتناول الدراهم.

قالت وهي تذرف الدموع: «وبعد ألا تقبلني؟»

وضم أمه إلى صدره، إنما دون انبثاق لتلك العاطفة التي تعطي وحدها للقبلة قيمتها.

سألته أغات: إلى أين أنت ذاهب؟.

أجاب بخشونة: إلى فلورنتين خليلة جيرودو، فهؤلاء هم الأصدقاء!»

ونزل السلم، ودخلت أغات وساقاهاترتعشان، والدموع تُغشي عينيها،

وقلبها منقبض. وجثت على ركبتيها تتضرع للخالق أن يكلأ بعنايته هذا الابن الضال مسلمة له هذه الرعاية الأمومية الثقيلة.

في شهر شباط ١٨٢٢ استقرت السيدة بريدو في الغرفة التي كان يشغلها فيليب سابقاً والواقعة فوق مطبخ شقتها القديمة، وكان محترف الفنان وغرفته في الجهة المقابلة لها على الجانب الآخر من السلم. وأراد جوزيف وقد رأى أمه قد اقتصرت على هذا المكان، أن يحسنه ما أمكنه ذلك؛ فبعد رحيل أخيه اهتم بترتيب السقيفة، فطبعها بطابع الفنان؛ ووضع فيها سجادة، ورتب السرير ببساطة، إنما بذوق متناه، فأعطاه طابعاً ديرياً، وغطى الجدران ببركالين رخيص الثمن، وقد أحسن اختياره بلون ينسجم مع الأثاث المجدد مما جعل هذه الغرفة أنيقة ونظيفة. وأضاف على المدخل باباً مضاعفاً، وفي الداخل سجفاً، وغطى النافذة بستارة تشف نوراً ناعماً. وإذا كانت حياة تلك المرأة المسكينة قد حصرت في أبسط شكل يمكن أن تأخذه حياة المرأة في باريس؛ فإن أغات كانت أفضل من كثيرات في وضع مماثل بفضل ولدها؛ ولتجنب أمه المتاعب الأكثر قسوة في حياة العائلات الباريسية كان جوزيف يأخذها كل مساء للعشاء على مائدة نزل في شارع بون حيث توجد سيدات فاضلات، ونواب مجلس، وأشخاص ذوو ألقاب. وكان الإشتراك الشهري لوجبة العشاء يكلف تسعين فرنكاً للشخص الواحد، واستعادت أغات من أجل الإبن العادة التي كانت قد اتبعتها سابقاً مع الأب في إعداد إفطار شهي له في المنزل. ورغم كذبات جوزيف البريئة، عرفت أن عشاءها يكلف نحو مئةفرنك شهرياً. وارتعبت من فداحة هذه النفقة، ولم تتصور أن ابنها يربح هذا القدر من المال من رسم النساء العاريات؛ وحصلت بفضل الأب لورو معرفها على وظيفة بسبعمئة فرنك سنوياً في مكتب ياناصيب يعود إلى الكونتة دي بوفان أرملة أحد قادة الثوار الملكيين. وكانت مكاتب اليناصيب، هي نصيب الأرامل ذوات الحظوات، تؤمن بشكل عادي معيشة عائلة تتولى إدارتها. ولكن في عهد الملكية الثانية، فإن صعوبةمكافأة جميع الخدمات المبذولة، ضمن حدود إمكانات الحكومة الدستورية، دفعت إلى منح النساء البائسات ذوات الألقاب مكتبي يانصيب بدلاً

من مكتب واحد بحيث يتراوح الريع بين ستة آلاف وعشرة آلاف فرنك[1]. وفي هذه الحالة فإن أرملة القائد أو النبيل صاحبة الحظوة لاتدير مكتبيها بنفسها، وإنما تكلف وكلاء مختصين، وعندما يكون هولاء الوكلاء شباباً فلا يمكنهم الاستغناء عن وجود مستخدم معهم، لأن المكتب يجب أن يبقى مفتوحاً من الصباح حتى منتصف الليل، والمراسلات المطلوبة مع وزارة المالية عديدة. ووعدت الكونتة دي بوڤان التي شرح لها الأب لورو وضع الأرملة بريدو أن تولي وكالة مكتبها للأرملة بريدو في حال استقالة وكيلها الحالي، ولكن بانتظار ذلك عيَّنت الأرملة في المكتب براتب سبعمئة فرنك سنوياً، وكانت أغات المسكينة ملزمة بأن تداوم في المكتب من الساعة العاشرة صباحاً، ثم تعطى بعض وقت يكاد لايكفي لتناول وجبة العشاء تعود بعدها في الساعة السابعة لتعمل حتى منتصف الليل. وكان جوزيف يأتي يومياً ليرافق والدته مساءً إلى مسكنها في شارع مازارين، وغالباً ماكان يأتي بها للعشاء، وكم شاهده أصدقاؤه يترك سهرته في الأوبرا، أو في مسرح الإيطاليين، أو في أشهر الصالونات ليكون في شارع فيفيان لمرافقة أمه إلى المنزل عند منتصف الليل.

ألفت أغات سريعاً هذا الانتظام الرتيب في الحياة، وهو مايجد فيه من تعرض لأحزان عنيفة نقطةاستناد. ففي الصباح بعد أن تنهي ترتيب غرفتها حيث لم يعد للقطط والعصافير وجود، تحضر طعام الإفطار قرب مدفأتها وتحمله إلى المراسم حيث تفطر مع ابنها. ثم ترتب غرفة جوزيف، وتطفئ النار في غرفتها، وتأتي لتعمل في المحترف قرب المدفأة المعدنية الصغيرة، وتخرج عند حضور أحد الأصدقاء أو الموديلات فالصمت العميق في المرسم يلائمها. وبالرغم من أنها لاتفهم شيئاً عن الفن ووسائله، فهي من هذه الجهة لم تحرز أي تقدم، لكنها لم تبدي أي رياء، بل تنتابها الدهشةبسذاجة لرؤية الأهمية المعلقة على اللون والتركيب والرسم. وعندما كان يحتدم النقاش مع أحد أصدقاء الندوة، أو أحد الرسامين من أصدقاء جوزيف مثل شينر أو بيير غراسو، أو ليون دي لورا، وهو تلميذ فتي جداً

---

(١) كان المكتب يتقاضى ٥٪ من قيمة مبيعات مكتبه. وماتجدر ملاحظته هنا كيف أن اليانصيب سبب تعاسة أغات بريدو، ثم أمّن لها وسيلة العيش.

كانوا ينادونه باسم ميستيغري، تأتي أغات لتنظر بانتباه، فلا تكتشف شيئاً مما يدعو إلى هذه الكلمات الكبيرة أو هذه المناقشات الحامية. كانت تعد بياضات ابنها، وترتق له جواربه، بل ووصل بها الأمر إلى تنظيف مضرب ألوانه، وتجمع له الخرق ليمسح بها فراشيه، وترتّب كل أدوات المرسم. وبرؤية أمه تهتم بكل هذه التفاصيل الصغيرة، كان يغمرها برعايته وإذا كانت الأم والابن لايتفاهمان بلغة الفن، فإنهما يتآلفان بشكل يدعو إلى الإعجاب بالحنان. وكان للأم مشروعها. فعندما تملقت ذات صباح جوزيف وهو يخطط للوحة كبيرة حققها فيما بعد، ولم تفهم منهاشيئاً، تجرأت على القول بصوت عال: «يا إلهي ماذا يفعل؟.

ـ من؟.

ـ فيليب!

ـ آه! أجل! إن هذا الفتى يقضي حياة الحرمان، وهذا مايؤدّبه.

ـ لكنه عرف الشقاء سابقاً، وقد يكون الشقاء هو الذي غيَّره، ولو عرف السعادة لظهرت طيبته.

ـ أتظنين يا أمي العزيزة أنه تألم خلال هجرته؟ إنك تخدعين نفسك، لقد قام بالتهريج في نيويورك كما استمر في القيام به هنا.

ـ غير أن في معاناته وهو قريب منا ألماً مريعاً

رد جوزيف: نعم، فيما يتعلق بي، أنا مستعد أن أعطي بعض المال عن طيبة خاطر، لكنني غير مستعد لرؤيته، فقد قتل السيدة دكوان المسكينة.

استأنفت آغات: هكذا إذاً لن تقوم بوضع صورة له؟.

لأجلك يا أمي سأتحمل العذاب، فيمكن ألا أتذكر إلا شيئاً واحداً: هو أنه أخي.

ـ أتضع رسمه بشكل نقيب فرسان فوق حصان؟

ـ نعم إن لدي هنا نموذجاً مجسماً لحصان قدمه لي غرو، ولا أعلم استخداماً له.

ـ حسن، هيا إذاً وتقص أخباره من صديقه.

ـ سأذهب.

نهضت أغات: فسقط مقصها وماتطرزه على الأرض، وتقدمت تقبل جوزيف على رأسه، وتخفي بين خصلات شعره دمعتين انسكبتا من عينيها.

قال جوزيف: «إن هذا الفتى هواك! ولكل منا هواه التعس.

ذهب جوزيف مساءً إلى شارع سنتيه، ووجد فيه نحو الساعة الرابعة أخاه، وقد حل محل جيرودو، فنقيب الفرسان القديم هذا غدا أمين صندوق لصحيفة أسبوعية أسسها ابن أخته. وبالرغم من أن فينو بقي مالكاً للصحيفة اليومية الصغرى التي جعلها مساهمة، وكانت كل أسهمها بين يديه، فقد سمّى مالكاً ورئيس تحرير في الظاهر لها أحد أصدقائه المسمى لوستو[1]؛ وهو بالضبط ابن الوكيل الموفد إلى إيسودون، الذي أراد جد بريدو، روجه، الانتقام منه. فهو إذاً ابن أخ السيدة هوشون. ولإرضاء خاله، أحل فينو فيليب محله، لكنه أنقص راتبه إلى النصف؛ كما ألزم جيرودو بالتحقق يومياً في الساعة الخامسة من الصندوق و استلام الحصيلة اليومية. وكان كولوكنت العاجز المستخدم مراسلاً للمكتب وحاجباً في الصندوق براتب المقدم فيليب، مع أنه يقوم بواجبه جيداً، وراتب الستمئة فرنك مع تعويض خمسمئة فرنك الوسام كفت لمعيشه، فهو مدفّأ في المكتب خلال اليوم، ويقضي السهرة مجاناً في المسارح، وليس عليه الاهتمام إلا بغذائه وسكنه.

كان كولوكنت قد ذهب في مهمة نقل رسالة ذات طابع في أعلاها. وفيليب يفرجن كمي القماش الأخضر الإضافيين عندما دخل جوزيف.

قال فيليب: عجباً؛ هوذا الولد، حسن سنتعشى معاً هذا المساء، وترافقني إلى الأوبرا. فلدى فلورين وفلورنتين مقصورة، وسأذهب مع جيرودو، وستكون

---

(١) أحد شخصيات **أوهام ضائعة** وظهوره هنا إحدى الروابط المتعددة التي يحب بلزاك إجراءها بين مؤلفات **الملهاة الإنسانية**.

معنا، وتتعرف على ناتان[1]! . وتناول عصاه ذات القبضةالرصاصية، ورطب سيكاره .

قال جوزيف: لايمكنني تلبية دعوتك فأنا أتعشى مع أمي على مائدة ضيوف نزل شارع بون، وعلي إعادتها من عملها إلى المنزل مساءً .

ـ وبعد، كيف حال هذه المرأة الطيبة المسكينة .

أجاب الرسام: ليست سيئة أبداً، وقد أعدت رسم صورة والدي، وصورة نسيبتنا دكوان. كما أنهيت صورتي، وأريد أن أهدي أمي صورتك في بزتك الرسمية كضابط فارس في الحرس الامبراطوري .

ـ جيد .

ـ لكن يجب أن تأتي إلى المرسم فأنت نموذج اللوحة . . .

ـ إني ملزم بالدوام يومياً في قفص الدجاج هذا من التاسعة صباحاً حتى الخامسةبعد الظهر . .

ـ لكن يمكن إجراء جلستين في يومي أحد متعاقبين .

أشعل الضابط، مرافق نابوليون سابقاً سيكاره من شمعدان الباب وقال: موافق، يا صغيري»

عندما شرح جوزيف لأمه، وهما ذاهبان للعشاء في شارع بون، وضع فيليب، شعر بيدها ترتعش في يده، وشعت الغبطة في هذا الوجه الحائل اللون، وتنفست المرأة المسكينة كأن حملاً ثقيلاً أزيح عنها. وفي صباح اليوم التالي دفعها عرفان الجميل والسعادةإلى القيام برعاية خاصة لجوزيف فزينت مرسمه بالأزهار واشترت له حوضي زراعة نباتات زينة. وفي أول أحد محدد لمجيء فيليب للرسم،

(١) شخصية أخرى من **أوهام ضائعة**.

أعدت أغات بعناية فطوراً شهياً في المحترف، وهيأت كل شيء على المائدة دون أن تنسى زجاجة خمر ملأى إلى منتصفها فقط. وبقيت خلف حاجز واق أحدثت فيه ثقباً. وكان الفارس السابق قد أرسل في العشية بزته الرسمية فلم تستطع أن تمنع نفسها من غمرها بالقبلات. وعندما امتطى فيليب صهوة أحد هذه الأحصنة المحشوة بالقش التي يمتلكها السروجيون، المستأجر من جوزيف، اضطرت أغات كي لاتكشف عن نفسها ألا تبدر منها أيّة حركة وهي خلف الحاجز إلا لمسح دموعها أثناء محادثة الأخوين. جلس فيليب في وضع الفارس ساعتين قبل الإفطار، وساعتين بعده. وفي الساعة الثالثة بعد الظهر ارتدى ثيابه العادية وعرض للمرة الثانية على أخيه، وهو يدخن سيكاراً، أن يذهبا معاً للعشاء في الپالية - رويال، وأسمعه رنين القطع الذهبيةفي كيس نقوده.

أجاب جوزيف: كلا، وأنت تروعني عندما أرى ذهباً معك.

صرخ المقدم بصوت مدوٍ: هكذا إذاً، مازالت نيتك سيئة تجاهي، تظن إنني غير قادر على التوفير!.

- أجابت أغات وهي تخرج من مخبئها وتقبل على معانقة فيليب: كلا، كلا، هيا نتعشى مع أخيك يا جوزيف.

لم يجسر جوزيف على تأنيب أمه، فارتدى ثيابه، وصحبهما فيليب إلى شارع مونتورغوي إلى مطعم صخرة كانكال، حيث استمتعوا بعشاء شهي ارتفعت فاتورته إلى مئة فرنك.

قال جوزيف قلقاً: يا للشيطان! أبدخل ألف فرنك سنوياً تجري توفيرات كتلك التي قام بها بونشار في مسرحية «**السيدة البيضاء**» وتمكن أن يشتري قصراً وأرضا[1].

---

(١) يكشف التلميح عن عميق معرفة بلزاك بعالم المسرح. لكن بونشار ليس اسم الشخصية في مسرحية «السيدة البيضاء» (اعداد سكريب ١٧٩١-١٨٦١ وموسيقا بوالديو) الذي يشتري من وفر راتبه الذي لايتعدى ألف ومئتي فرنك سنوياً قصراً. إنما هو المغني الذي يقوم بدور الملازم براون. وجان- فردريك أوغوست بونشار (١٧٨٩-١٨٦٦) يغني في الأوبرا كوميك منذ العام ١٨١٢.

أجاب الضابط الفارس وكان قد شرب حتى الثمالة: باه! إنني موهوب».

عند سماع هذه الكلمة تقال عند الباب، وقبل الصعود في عربة لتقلهم إلى المسرح، إذ أن فيليب أراد أن يأخذ أمه إلى سيرك ـ الأولمبيك[1]، وهو المسرح الوحيد الذي سمح لها معرّفها بارتياده؛ شد جوزيف على ذراع أمه التي تظاهرت آنئذ بالتوعك، واعتذرت عن الذهاب، فاصطحبها فيليب مع أخيه إلى المنزل في شارع مازارين، حيث لزمت الصمت العميق بعد أن بقيت وحيدة مع جوزيف في سقيفتها.

وفي يوم الأحد التالي جاء فيليب إلى جلسة الرسم الثانية. وفي هذه المرة شهدت أمه الجلسة بشكل ظاهر. وجلست مع الأخوين على طعام الإفطار، وأمكنها أن تسأل الفارس عن شؤونه، وعرفت منه أن ابن أخ العجوز هوشون[2] صديقة أمها يلعب دوراً في الأدب. ففيليب وصديقه جيرودو موجودان ضمن شلة من الصحفيين، والممثلات، والناشرين، ولهما اعتبارهما كأميني صندوق، وكان فيليب طلق اللسان، وهو يشرب الكيرش في جلسة رسم بعد الإفطار، فراح يتباهى بما سيؤسس لنفسه من مكانة خلال زمن قصير، ولكن عند سؤال جوزيف عن إمكاناته المالية لزم الصمت. وشاءت الصدفة أن يكون اليوم التالي يوم عطلة بمناسبة أحد الأعياد، والصحيفة مغلقة، واقترح فيليب الحضور لاتمام جلسات الرسم. لكن جوزيف بين له أن موعد المعرض يقترب[3]، وأنه لايملك ثمن إطارين للوحاته، وعليه من أجل الحصول على المال أن ينهي نسخ لوحة لروبنز أوصى عليها أحد التجار المسمى ماغوس. وتعود اللوحة الأصلية لمصرفي سويسري ثري أعاره إياها لعشرة أيام فقط؛ سيكون آخرها يوم غد، فيجب إذاً، قطعاً، تأجيل الجلسة إلى الأحد القادم.

---

(١) كان المسرح يعتبر مكان فساد، لكن سيرك ـ الأولمبيك الواقع آنئذ في ربض التامبل لايقوم إلا بألعاب خفة وخاصة على الخيل وحيوانات مدربة وبالتالي يسمح الورعون لأنفسهم بالدخول إليه.

(٢) هو إيتين لوستو.

(٣) كان معرض صالون الرسم يقام في شهر نيسان من كل عام. ونحن في نهاية شباط ١٨٢٢، مما يعني أن جوزيف سيشارك في معرض العام ١٨٢٢.

قال فيليب وهو ينظر إلى لوحة روبنز الموضوعة على حامل: «وهذا هو السبب؟»

أجاب جوزيف: نعم، وهذه اللوحة تساوي عشرين ألف فرنك. هوذا ماتستطيع العبقرية الوصول إليه. هناك لوحات يصل ثمن الواحدة منها إلى مئة ألف فرنك.

قال الضابط الفارس: أما أنا فأفضل نسختك.

ـ قال جوزيف ضاحكاً: إنها أكثر نضارة، لكنها لاتساوي أكثر من ألف فرنك. ويلزمني العمل يوم غد لأعطيها مسحة عتق اللوحة الأصلية حتى لايمكن التعرف عليها.

قال فيليب وهو يقبل أمه: وداعاً يا أمي، وإلى الأحد المقبل.

كان على الياس ماغوس أن يأتي في اليوم التالي ليأخذ نسخة اللوحة، وأراد بيير غراسو أن يشهد اللوحة ـ النسخة منتهية؛ ورغب جوزيف أن يخدع صديقه، وأن يرى مبلغ مهارته في التقليد، فوضع نسخته المقلدة بعد أن دهنها ببرنيق خاص على حامل اللوحة الأصلية ونقل هذه إلى منصب عمله، وانخدع بيير غراسو دي فوجير(١) كلياً وكانت دهشته كبيرة لبراعة صاحبه فقال: «ترى هل سينخدع العجوز الياس ماغوس».

قال جوزيف: سنرى.

لكن التاجر لم يحضر، والوقت متأخر. وكانت أغات مدعوة للعشاء لدى السيدة دروش التي فقدت زوجها، واقترح جوزيف على بيير غراسو أن يصحبه إلى مائدة النزل. وعندنزوله ترك كعادته مفتاح المرسم لدى البوابة.

جاء فيليب وقال للبوابة بعد ذهاب أخيه بنحو ساعة: لدي جلسة رسم مع أخي هذا المساء، وهو عائد بعد قليل، وسأنتظره في محترفه.

---

(١) يعيد بلزاك هنا ظهور شخصية «بيير غراسو» الذي كتب في العام ١٨٤٠ قصة عنه تحمل الاسم ذاته.

وأعطته البوابة المفتاح، وصعد فيليب وأخذ النسخة المقلدة معتقداً أنها اللوحة الأصلية، وعاد من حيث أتى، بعد أن رد المفتاح للبوابة متظاهراً بأنه نسي شيئاً ما. وذهب فباع تلك اللوحة بثلاثة آلاف فرنك، وبلغ من يقظته أن مر على الياس ماغوس لينبئه باسم أخيه ألا يحضر لاستلام بضاعته إلا في اليوم التالي. وفي المساء، عند عودةجوزيف، وهو يصحب أمه من منزل دورش؛ حدثه البواب عن نزوة أخيه الذي صعد إلى مرسمه ثم نزل بسرعة.

هتف الرسام وقد خمن السرقة: «سأضيع إن أمكنه التمييز بين اللوحتين» وصعد سريعاً الطوابق الثلاثة إلى المرسم، ولاحظ أن أخاه خدع بدوره فقال: «الشكر لله، هو على ماكان عليه وسيبقى نذلاً حقيراً!»

لم تدرك أغات التي تبعت جوزيف شيئاً من هذه العبارة، ولكن عندما شرح لها جوزيف الوضع وقفت وقد جمدت الدموع في عينيها وقالت بصوت مخنوق: «لم يعد لي إلا ولد واحد.

قال جوزيف: لانريد أن نفضحه أمام الغرباء، لكن يجب تحذير البواب منه الآن، وسنحتفظ بمفاتيحنا في جيوبنا. وسأنهي هذا الوجه الكريه من الذاكرة، إذ لم يعد ينقصه إلا القليل.

أجابت الأم وقد طعنت في صميم قلبها، وذهلت من الدرجة التي بلغتها خسة ابنها البكر: «أترك هذه الصورة كما هي، فرؤيتها تزيد من آلامي».

كان فيليب يعرف مدى ماسيسببه فقدان هذه اللوحة من المتاعب لأخيه، لكنه لم يعد يملك أي حس وجداني، كما أن أغات بعد هذه الجريمة الأخيرة لم تعد تشير إليه بكلمة، واتخذت سحنتها تعبير قنوط مر، وبارد، ومتركز حتى تكاد الفكرة تقتلها.

قالت في نفسها: «في يوم ما، سنرى بريدو أمام المحاكم!».

بعد نحو شهرين وبينما أغات تستعد للذهاب إلى مكتب اليانصيب، حضر

في ذات صباح عسكري كهل لرؤية السيدة بريدو أثناء تناولها طعام الإفطار مع جوزيف، وعرف عن نفسه بأنه صديق فيليب وهو ات لأمر عاجل جداً.

عندما صرح جيرودو باسمه، ارتعشت الأم كما ارتعش الابن خاصة وأن لنقيب الفرسان السابق سحنة كلب بحر عجوز لاتبعث على الإطمئنان، فعيناه الرماديتان منكمشتان، وشاربه أبقع، وبقايا شعره مبعثرة حول قحف رأسه ذي اللون المصفر كزبدة طازجة، وهي تظهر شيئاً مامن تخديد وشبق، كان يرتدي معطفاً قديماً بشهبة الحديد مزين بوريدة ضابط في جوقة الشرف، وهو يتصالب على كرش طاه ينسجم مع فمه المشقوق حتى أذنيه، وعَرُض كتفاه بينما استقر جذعه فوق ساقين قصيرتين ضامرتين، أخيراً فحمرة وجنتيه تكشف عن حياة غارقة في اللذات، وأسفل خديه المثنيين بشدة تفيض عن ياقة مخمل سوداء مهترئة، بينما تدلى من أذني هذا الفارس السابق قرطان ذهبيان ضخمان.

قال جوزيف في نفسه مستخدماً تعبيراً شعبياً درج في المحترفات: «أي فاسق!».

قال خال فينو وأمين صندوقه: «سيدتي، إن ابنك وصل إلى حالة من التعاسة بحيث يستحيل على أصدقائه إلا أن يرجوك مشاركتهم في المهام الثقيلة المترتبة عنها؛ ولم يعد يمكنه أن يقوم بعمله في الصحيفة؛ والآنسة فلورنتين من مسرح باب سان مارتن تسكنه لديها في شارع ڤندوم في سقيفة هزيلة[١]. وفيليب في حالة مرضية خطرة وإذا كنتما لاتتمكنان أنت وأخوه من تأمين نفقات الطبيب والأدوية، فنحن مضطرون أملاً بشفائه إلى نقله إلى مشفى الكبوشيين[٢]، بينما يمكننا العناية به لقاء ثلاثمئة فرنك. وهو بحاجة أكيدة إلى رقيب، إذ أنه يخرج كل مساء بعد ذهاب الآنسة فلورنتين إلى المسرح، ويتناول عندئذ أشياء مخرشة

(١) في رواية أوهام ضائعة تحتل فلورنتين شقة كورالي، لكنها وفقاً لبداية في الحياة لاتنتقل إليها إلا في العام ١٨٢٥.

(٢) هو مشفى «ميدي» وسمي بعد ذلك «ريكور» وقد زال حالياً وكان يقع على زاوية جادة بوربوريال وفوبور سان جاك، وسمي مشفى الكبوشيين لأن المبنى كان ديراً قديماً لرهبان الكبوشيين. وكان مخصصاً لمعالجة الأمراض الزهرية.

لاتناسب مرضه، ولاعلاجه. وبما أننا نحبه فإننا نرثي لحالته فعلاً، فهذا الفتى المسكين استدان على تعويضاته المستحقة له للسنوات الثلاث المقبلة، بينما وظف أمين صندوق مكانه في الصحيفة مؤقتاً، وهو لايملك شيئاً، لكنه قد ينتحر إن لم نضعه في مصح الدكتور دوبوا[1]. وهذا المصح اللائق يتقاضى عشرة فرنكات يومياً، ويمكننا أن نساهم أنا وفلورنتين بنصف النفقات، فساهموا بالنصف الآخر، ولن يستغرق علاجه أكثر من شهرين.

أجابت أغات: سيدي، يصعب على أم ألا تكون شديدة الامتنان لما تقومون به من رعاية لولدها. لكن هذا الولد قد بتر من قلبي. وفيما يتعلق بالمال، ليس لدي منه شيء، وحتى لا أبقى عالة على ولدي الذي تراه، وهو من يعمل ليلاً ونهاراً ويضني نفسه ويستحق كل محبة الأم، فإنني سأعمل اعتباراً من بعد غد في مكتب بيع ياناصيب، وأنا في هذا العمر!.

قال الفارس الكهل مخاطباً جوزيف: وأنت أيها الشاب، هيا؟ ألا تفعل من أجل أخيك ماتفعله راقصة في مسرح باب سان مارتن، وعسكري كهل؟.

قال جوزيف وقد نفذ صبره: أتريد أن أعبر لك بلغة فنان عن الغرض من زيارتك، إنك آت لابتزازنا.

ـ غداً إذاً سيرحل أخوك إلى مشفى ميدي.

رد جوريف: سيكون في وضع جيد جداً هناك، ولو أنني في مثل حالته لتوجهت إليه.

انسحب جيرودو بمنتهى الخيبة، ولكن بمنتهى الشعور أيضاً بالإهانة لتصريحه بترحيل فارس إلى مشفي الكبوشيين، وهو من رافق الإمبراطور في معركة مونترو.

بعد ثلاثة أشهر، ونحو نهاية شهر تموز، وفي ذات صباح، كانت أغات

---

(١) هو مصح أقامته مدينة باريس، وكان يقع في ربض سان مارتن، ويديره الدكتور انطوان دوبوا الذي اشتهر بأنه أبرع طبيب مولد في عصره.

متوجهة إلى مكتب اليانصيب سالكة طريق الجسر الجديد، لتتجنب دفع الفلس المترتب على من يسلك جسر الفنون، لاحظت على محاذاة متاجر رصيف المدرسة[١]، وهي تسير إلى جانب الدرابزين، رجلاً عليه علائم الشقاء من الدرجة الثانية، مما سبّب لها بعض الذهول؛ إذ وجدت فيه بعض شبه بفيليب.

الواقع أن في باريس مراتب للشقاء: فأولاً شقاء الرجل المحتفظ بالمظاهر، وهو ينظر إلى المستقبل: شقاء الشباب، والفنانين، وأبناء المجتمع المنكوبين مؤقتاً؛ وأمارات هذا الشقاء لاتظهر إلا في مجهر الملاحظ الخبير. هؤلاء الأشخاص يشكلون المرتبة الخيّالة من الشقاء، فما زال بإمكانهم التنقل في عربات. وفي المرتبة الثانية يوجد العجزة غير المبالين بشيء الذين يضعون في شهر حزيران صليب جوقة الشرف على معطف من وبر الجمل، إنه شقاء المتقاعدين الشيوخ، وقدماء المستخدمين الذين يعيشون في سانت برين[٢]، غير مهتمين بأثوابهم الخارجية. أخيراً شقاء الأسمال، شقاء الشعب، الأكثر شاعرية مع ذلك، الشقاء الذين افتتن به كالو، وهوغار وموريو وشارله ورافه وغافارني وسونيه واستثمره الفن وخاصةفي الكرنفالات[٣].

والرجل الذي خيل لأغات المسكينة أنها رأت فيه ابنها كان بين المرتبتين الثانية والثالثة، وقد لاحظت عليه ياقة مهترئة بشدة، وقبعة جرباء، وجزمة بالية ومرقعة، ومعطفاً منسول الخيوط، بأزرار اندعك قالبها وتوسعت أو انفلتت عراها، فغدت في تناسق تام مع الجيوب التالفة والياقة المتسخة. كانت بقايا الزغب تنطق صارخة بأن هذا المعطف إن حوى شيئاً، فلا يمكن أن يكون هذا الشيء إلا الغبار. وبدت يدا

---

(١) هو الرصيف الممتد من الجسر الجديد حتى ساحة اللوڤر، وهو يشكل حالياً قسماً من رصيف اللوڤر.

(٢) سانت برين: بيت عجزة سبق التطرق إليه في قصةبييريت، وهو يقع في شارع شابو، ويمكن القول عنه أنه فندق للعجزة المدينين لأسعاره المعتدلةوحسن معاملته.

(٣) سبق لصحيفة «لابرس LaPresse» أن شطبت، عند نشر الرواية مسلسلة فيها، هذه الأسماء باعتبارها كثيرة التبحر رغم أن بلزاك سبق أن تعرض لها مراراً في مؤلفاته باستثناء المثال الإنكليزي هوغار (١٦٩٧-١٧٦٤) ورسام التاريخ رافه (١٨٠٤-١٨٦٠) الذين ورد ذكرهم لأول مرة.

الرجل بسواد يدي عامل، وكان بنطاله الأشهب بلون الحديد مفتوقاً، وعلى صدره سترة صوفية محبوكة، اسمرت من كثرة الاستعمال، وقد فاض كماها، واستطالت فوق جبين فيليب واقية نظر من قماش تفتا أخضر مشدودة بسلك نحاسي، ورأسه شبه أصلع[1]؛ ولونه الشاحب، ووجهه الهزيل ينبئان فعلاً بأنه خارج من مشفى ميدي الرهيب. كانت وريدة جوقة الشرف مستقرة كما هي دوماً في عروة معطفه الأزرق المبيض في الحواشي، وهكذا كان المارة ينظرون إلى هذا **المقدام**، ضحية الحكومةعلى الأرجح، نظرة فضول ممتزجة بالشفقة؛ فالوريدة تقلق النظر، وتلقي المتطرف الملكي الأكثر ضراوة في شكوك صريحة حول جوقة الشرف. في ذلك الوقت، وبالرغم من محاولة التقليل من قيمة هذا الوسام بإطلاق العنان في منحه، لم يكن يوجد في فرنسةأكثر من ثلاثة وخمسين ألف حامل له.

شعرت أغات برعشة في كيانها الداخلي. إن كان يتعذر عليها أن تحب هذا الابن، فما يزال يمكنها أن تتألم كثيراً من أجله. وأبرق في نفسها آخر شعاع أمومة. فبكت وهي ترى الضابط اللامع السابق، مرافق الامبراطور تبدر منه حركة الرغبة في الدخول إلى دكان بيع تبغ ليشتري منه سيكاراً، ويتوقف عند عتبته: فتش في جيوبه، ولم يجد شيئاً.

عبرت أغات سريعاً الرصيف، وتناولت كيس نقودها، ووضعته في يد فيليب، وأسرعت بالهرب كأنها ارتكبت جريمة. وبقيت يومين دون أن تستطيع تناول شيء. كان يتراءى لها دائماً أمام عينيها وجه ابنها الرهيب ينازع الموت جوعاً في باريس.

كانت تفكر: «بعد أن يستنفد ما في كيسي من نقود، من سيعطيه؟ لم يكن جيرودو يخدعنا: ففيليب خارج من المشفى».

---

(١) لم يحدد موسى لي ياونغ في دراسته: **وصف الأمراض في الإنسانية البلزاكية**؛ لكن اختصاص مشفى ميدي، والتعبير الذي استخدمه بلزاك هنا «الرأس شبه الأصلع لفيليب كل ذلك يدفع إلى التفكير بأنه مصاب بمرض زهري».

لم تعد ترى فيه قاتل امرأة خالها المسكينة، ومصيبة العائلة، والسارق المنزلي، والمقامر، والسكير، والمنحل بخسة؛ وإنما الناقه المتضور جوعاً، والمدخن ولاتبغ معه. وغدت وهي في السابعة والأربعين[1] من العمر كامرأة في السبعين. وغشيت عيناها من الدموع والتضرع.

لكن لم تكن هذه هي الضربة الأخيرة التي يوجهها إليها هذا الابن، بل تحققت نبوءتها الأكثر رهبة. فقد اكتشفت آنئذ مؤامرة ضباط في قلب الجيش أعلن عنها صراخ باعة صحيفة «المونيتور» التي نشرت تفاصيل عن الموقوفين.

سمعت أغات وهي في عمق شبك مكتب الياناصيب في شارع فيفيان، اسم فيليب بريدو فغابت عن الرشد، وأدرك مدير المكتب ماتعانيه، وضرورة قيامها بمساع، فمنحها إجازة خمسةعشر يوماً.

قالت لجوزيف وهي تتهالك إلى سريرها: «آه!نحن يابني، بقسوتنا، قد دفعناه إلى هذا المصير

أجاب جوزيف: سأذهب لرؤيةدروش».

بينما كان الفنان يعهد بقضية أخيه إلى دروش، الذي اعتبر من أدهى محامي باريس وأكثرهم دقة، مما مكنه من أن يقدم خدمات لشخصيات عدة، ومن بينهم دي لوبو [1] وكان آنئذ سكرتيراً عاماً لإحدى الوزارات. وقدم جيرودو مجدداً إلى الأرملة، التي أولته ثقتها هذه المرة. قال لها: سيدتي، جدي اثني عشر ألف فرنك، وسيخلى سبيل ولدك لنقص الأدلة؛ فالأمر يتعلق بشراء صمت شاهدين[2].

ردت المرأة المسكينة دون أن تعرف من أين، وكيف ستجدها: ستكون جاهزة».

---

(١) من الشخصيات التي ظهرت في أكثر من رواية في الملهاة الإنسانية.

(٢) في «باميلا جيرو» وهي مسرحية كتبها بلزاك في ١٨٤٠ ومُثلت في ١٨٤٣ بعد تنقيحها من قبل جيم يقص بلزاك كيف تم إنقاذ شاب متورط في مؤامرة، وتم ذلك بشراء شهادتين مختلفتين.

وألهمها الخطر أن تكتب إلى عرّابتها السيدة هوشون العجوز، لتطلب لها هذا المبلغ من جان جاك روجه أخيها، من أجل انقاذ فيليب. فإذا رفض روجه، فإنها ترجو السيدة هوشون أن تقرضها إياه متعهدة بتسديده خلال سنتين. وبعودةالبريد تلقت الجواب التالي :

«يا صغيرتي :

بالرغم من أن أخاك يملك فعلاً دخل أربعين ألف فرنك على الأقل سنوياً، دون حساب ما ادخره خلال السبعة عشر سنة الأخيرة، والذي يقدره السيد هوشون بأكثر من ستمئة ألف فرنك، فإنه لن يعطي درهمين لأبناء أخت لم يرها أبداً. أما أنا فإنني لا أستطيع التصرف بستة فرنكات مادام زوجي حياً. فهوشون أكبر شحيح في إيسودون، وأنا أجهل ما يفعل بنقوده، فهو لايعطي عشرين فرنكاً سنوياً لأحفاده. وللاستعارة احتاج إلى إذن منه، وهو يرفض منحي إياه. لم أفكر حتى بالتحدث إلى أخيك، الذي يعيش مع خليلة، هو خادمها الوضيع. والمعاملة التي يتعرّض لها هذا الرجل المسكين في بيته تثير شفقة من يعرفون أن له أختاً وأبناء أخت. لمحت لك في مناسبات عدة أن حضورك إلى إيسودون يمكن أن ينقذ أخاك؛ وينتزع من مخالب تلك الطفيلية الرديئة، ولمصلحة ولديك ثروة يقدر دخلها السنوي بأربعين ألف فرنك وقد يصل إلى ستين ألفاً لكنك لم تستجيبي إلى طلبي، بل يبدو أنك لم تفهميني أبداً. وهكذا فأنا مضطرة الآن للكتابة إليك دون أيّة حيطة تراسلية. أخذت علماً بالمصيبة التي حلّت بك، ولا يمكنني إلا أن أرثي لك، يا عزيزتي المحبّبة. وإليك سبب عدم استطاعتي تقديم شيء لك : إن هوشون وهو في الخامسة والثمانين من عمره الآن، يتناول أربع وجبات في اليوم، منها وجبة بيض مسلوق وسلطة مساءً، وهو يركض كأرنب. وسأقضي حياتي كلها، لأنه سيعدُّ لي شاهدة قبري، دون أن أرى في جيبي عشرين فرنكاً. فإذا أردت المجيء إلى إيسودون لمجابهة تأثير تلك الخليلة على أخيك. ، نظراً لوجود أسباب تدعو روجه لعدم استقبالك في منزله؛ سأجد مشقّة في الحصول من زوجي على إذن بأن استقبلك في بيتي، لكن يمكنك أن تأتي إليّ، فهو سيطيعني من هذه الناحية؛ وأنا

أعرف وسيلة للحصول على ما أريده منه؛ تلك أن أحدّثه عن وصيتي. وهذا ما يبدو لي رهيباً حتى أنني لم ألجأ إليها أبداً، لكنني سأفعل المستحيل من أجلك. آمل أن يُخلّص فيليب. من هذه الورطة، خاصة إذا أمنت له محامياً جيّداً. لكن تعالي بأسرع ما يمكن إلى إيسودون، وفكّري أن هذا الأحمق أخاك وهو في السابعة والخمسين من عمره أكثر هزالاً وشيخوخة من السيد هوشون. وهكذا فالأشياء تتطلب السرعة. ويجري الحديث الآن عن وصية تحرمك من الميراث. لكن ووفق قول السيد هوشون ما يزال المجال متوفراً لنقضها. وداعاً، يا عزيزتي أغات، فليُعنك الله، واعتمدي على عرّابتك التي تحبّك.

مكسميليين هوشون، ابنة لوستو

حاشية: هل أتى ابن أخي إتيين الذي يكتب في الصحف، وهو على ما قيل لي يرتبط بصداقة مع ابنك فيليب ليقوم بمايقتضيه واجبه نحوك؟ سنتحدث عن هذا عند مجيئك.

حظيت هذه الرسالة باهتمام كبير من أغات، وعرضتها بالطبع على جوزيف، كما أنّها كانت مضطرّة لتقصّ عليه عرض جيرودو، وأشار الفنان، الذي كان يبدي الحذر دائماً في كل ما يتعلّق بأخيه، على أمه، أن تطلع دروش على كل شيء.

بقناعتهما بصحة هذه الملاحظة، توجه الابن والأم في صباح اليوم التالي منذ الساعة السادسة لمقابلة دروش، في شارع بوسي. وكان هذا المحامي جافاً كالمرحوم أبيه، بصوت حاد، ومظهر فظّ، وعينين متوقّدتين، ووجه بسحنة نمس يلعق بشفتيه دم فروج. وقد قفز كالنمر عندما علم بزيارة جيرودو ومقترحاته؛ وصرخ بصوته المرتعش:

«آه! ما هذا؟ أيتها الأم بريدو، إلى متى تستمرين مخدوعة بشرور ابنك الخبيثة؟ لا تدفعي فلساً واحداً. أنا أكفل لك فيليب. ومن أجل مستقبله، سأجعله يمثل أمام محكمة الأعيان. إنك تخشين أن يحكم عليه، لكن فلتكن مشيئة الله. مع رغبة محاميه في الحصول على حكم عليه. اذهبي إلى إيسودون، وانقذي ثروة

ولديك. فإذا لم تتوصلي إلى ذلك، وإذا كان أخوك قد أعدّ وصية لمصلحة تلك المرأة، وإذا لم تتوصلي إلى طريقة لنقضها... فاجمعي لي على الأقل عناصر دعوى تحايل لأسير فيها. لكنك امرأة طيّبة جداً بحيث يصعب عليك إيجاد الأسس اللازمة لكسب دعوى من هذا النوع! وسأذهب أنا خلال العطلة إلى إيسودون... إذا استطعت».

هذا التصريح: «سأذهب، أنا» جعل الفنان يرتعش في داخله، لكن دروش أومأ بعينه لينبه جوزيف إلى ترك أمه تغادر المكتب قبله بقليل، ثم اختلى به للحظة وقال: «إن أخاك بائس كبير، فهو، إرادياً أو لا إرادياً، سبب اكتشاف المؤامرة، ذلك أن هذا الشخص الغريب من المرواغة بحيث لا يمكن معرفة حقيقة الأمر، وما بين الأحمق والخائن، اختر له دوراً. لكنه سيكون دون شك تحت رقابة الشرطة السريّة، هذا كلّ شيء. كن مطمئناً؛ ما من أحد غيري يعرف هذا السرّ. اذهب إلى إيسودون مع والدتك، فأنت انسان ذكي، جرّب أن تنقذ هذا الميراث.

قال جوزيف وهو يلحق بأمّه على السلم: «هيّا، يا أمي المسكينة، إن دروش على حقّ. لقد بعتُ لوحتي[1]؛ فلنذهب إلى مقاطعة برّي، بما أنّك نلت إجازة خمسة عشر يوماً». بعد أن كتبت أغات إلى عرّابتها لتعلن لها نبأ توجهها إليها؛ عزم جوزيف وأمه على السفر في مساء اليوم التالي إلى إيسودون، تاركين فيليب إلى قدره. ومرت عربة البريد من شارع آنفر لتأخذ طريق أورليان. وعندما أبصرت أغات اللوكسمبورغ حيث سجن فيليب، لم تستطع الامتناع عن القول: «لولا الحلفاء لما كان فيليب هنا!». لو أن هذه العبارة قيلت أمام أبناء آخرين لبدرت منهم حركة تأفف، أو لا بتسموا شفقة. لكن الفنان الذي وجد مع أمه منفردين في المقصورة الصغيرة، ضمها إليه وهويقول: «اوه! ياأمي! إنّك أم بالفطرة كما رفاييل رسّام بالفطرة، وستبقين دائماً بسذاجة الأم!».

(١) لاشكّ أن اللوحتين المقصودتين هما اللوحتان اللتان أراد جوزيف أن يشتري لهما إطارين ويعرضهما في صالون ١٨٢٢، وهذا ما يفسر عدم اشتراكه في هذا المعرض وتأجيل ذلك إلى العام ١٨٢٣.

اضطرت السيّدة بريدو، بعد أن اقتلعتها مناظر الطريق من همومها، أن تفكّر بالهدف من رحلتها. وأعادت بالطبع قراءة رسالة السيدة هوشون التي أثارت مشاعر المحامي دروش. ولفتت نظرها كلمتا **خليلة وطفيلية رديئة**[1]، تستخدمهما امرأة في السبعين من العمر، جليلة وورعة، لتشير إلى امرأة تسعى لابتلاع ثروة جان جاك روجه، الذيَ نعتته أيضاً **بالأحمق**، وتساءلت أغات كيف يمكنها بوجودها في إيسودون أن تنقذ ميراثاً. وجوزيف الفنان المسكين المترفّع عن المواريث، لا يعرف إلا القليل من الأمور القانونية، لكن اهتمام أمّه شغله فهتف: «كان يجدر بصديقنا دروش، قبل أن يرسلنا لإنقاذ ميراث، أن يشرح لنا الوسائل التي تمكّننا من ذلك.

وردّت أغات: بقدر ما أمكن أن يستوعب رأسي الطائش من نبأ وجود فيليب في السجن، دون تبغ، على الأرجح، وهو يوشك أن يمثل أمام محكمة الأعيان، يبدو لي أن دروش الشاب طلب منا أن نجمع عناصر دعوى تحايل؛ في حال كون أخي قد أعدّ وصية لمصلحة تلك... تلك... المرأة.

عقب الرسّام بالقول: يا لبراعة دروش!... إيه! إذا لم ندرك شيئاً فسأرجوه للذهاب بدوره.

قالت أغات: «لا داع لأن نشغل الفكر دون جدوى. فعندما نصل إلى إيسودون، يمكن لعرابتي أن ترشدنا».

هذه المحادثة، التي تمّت في اللحظة التي دخل فيها جوزيف والسيّدة بريدو سولوني، بعد أن أبدلا العربة في أورليان، تشير إلى عدم قدرة الرسّام وأمه على لعب الدور الذي وجههما إليه المحامي الرهيب. لكن بالعودة إلى إيسودون بعد غياب ثلاثين سنة، ستجد أغات فيها تغيرات في العادات إلى درجة يجدر بنا هنا أن نصف بقليل من الكلمات تلك المدينة. فدون هذه اللوحة سيصعب فهم الجرأة التي أبدتها السيدة هوشون لمساعدة فليونتها، والوضع الغريب لجان جاك روجه.

(١) هاتان الكلمتان لفتتا نظر صحيفة «غازيت دي فرانس» أيضاً، فوجّهت في ٢٧ تشرين أول ١٨٤٢ إلى صحيفة «لابرس» نقداً حول ورود الكلمتين في المسلسلة المنشورة فيها.

وبالرغم من أن الطبيب جعل ابنه يعتبر أغات غريبة عنه؛ يبدو من غير المألوف أن يبقى أخ ثلاثين سنة دون أن يتصل أويبدي أيّة إشارة حياة لأخته. هذا الصمت يعود بداهة إلى ظروف غريبة، لو صادفت أهلاً غير جوزيف وأغات لأرادوا منذ مدة طويلة أن يعرفوها. أخيراً يوجد بين وضع المدينة ومصالح آل بريدو بعض علاقات ستتكّشف خلال سياق القصة بالذات.

أيّاً كان وضع باريس، فإيسودون واحدة من أقدم مدن فرنسة، ورغم الأحكام التاريخية المسبقة التي تجعل من الامبراطور پروبوس[١] نوح الغاليين، فإن قيصراً قد تحدّث عن خمر شامفور[٢] الفاخر، وهو أحد أفضل كروم إيسودون، وريفور[٣] يتحدث عن تلك المدينة بتعابير لا تترك أي شكّ حول كثرة سكانها وسعة تجارتها. لكن هاتين الشهادتين لا تتناولان إلا فترة ضعيفة تقريباً من تاريخ المدينة بالمقارنة مع قدمها العريق. والواقع أن التنقيبات التي جرت حديثاً في تلك المدينة من قبل عالم الآثار السيد أرمان بريمه[٤] كشفت تحت برج إيسودون الشهير كنيسة تعود إلى القرن الخامس، هي الوحيدة، على الأرجح، الموجودة في فرنسة. وهذه الكنيسة تحتفظ، في مواد بنائها بالذات، بعلائم حضارة سابقة، إذ أن حجارتها ترد من معبد روماني حلّت محله. وهكذا، ووفقاً لأبحاث ذلك العالم التاريخي، فإن إيسودون كجميع مدن فرنسة ذات النهاية القديمة أو الحديثة (دُون) تعبر باسمها عن

---

(١) بروبوس (ماريوس، أورليوس، فاليريوس) امبراطور روماني ولد في العام ٢٣٢، قتله جنوده في العام ٢٨٢، خلص بلاد الغال من تدمير الجرمانيين وأعاد زراعة الكروم المقتلعة بأمر من دوميسيان الامبراطور الروماني في القرن الأول الميلادي.

(٢) يوجد في إيسودون كرم باسم شامفور لكن قيصر لم يتحدث عنه.

(٣) ريفور: المتوفي في العام ١٢٠٧ هو مؤرخ فيليب أوغوست، وقد ترك مجموعة وقائع تاريخية باللاتينية.

(٤) **أرمان بريمه**: ولد في إيسودون العام ١٨٠٤ ومات في باريس العام ١٨٧٤، تعرّف عليه بلزاك عن طريق السيدة زولما كارو وبورجه، قام بحفريات أثرية في إيسودون، وكان يحتاج لدعم مريمه، المراقب العام للأوابد التاريخية، وتوسّط بلزاك في ذلك العام ١٨٣٥ وخدمه بريمه بدوره في العام ١٨٣٨ عندما توسط له في عرض مسرحية «مدرسة الأزواج» في مسرح الرينيسانس. ومنه يستمد بلزاك معلوماته عن إيسودون، وهي معلومات مغلوطة أحياناً، إذ أن بريمه قدّمها له شفهياً فمؤلّفه(**أبحاث تاريخية وآثارية عن مدينة إيسودون** لم يظهر إلا في العام ١٨٤٧).

شهادة وجود أصيل. فهي وقف على كل ربوة خصّصت للعبادة الدوريدية[١] وهي تعلن عن مؤسسة عسكرية أو دينية للسلتيين[٢]، وقد بنى الرومان تحت «دون» الغالين معبداً لإيزيس[٣]، ومن هنا جاء اسم المدينة إيس-سو-دون، وفقاً لما ذكره شومو[٤]. وقد بنى ريشار قلب الأسد بالتأكيد البرج الشهير الذي صكّ فيه النقود، فوق الكنيسة العائدة للقرن الخامس، وهي الآبدة الثالثة للديانة الثالثة في تلك المدينة القديمة. واستخدم تلك الكنيسة كنقطة توقّف ضرورية لإعلاء سورها واحتفظ بها بعد أن أحاطها بتحصيناته الإقطاعية كالمعطف. وغدت إيسودون آنذاك مركز قوة مؤقت لفرق «الروتيه» و«الكوترو» التي أرسلها الملك هنري الثاني لتطويع ولده ريشار خلال ثورته عندما كان كونتا لبواتو[٥].

إن تاريخ أكيتانية الذي لم يُعدّه البندكتيون، لن يكتب أبداً إذ لا وجود الآن للبندكتيين وهكذا يجب ألا نتأخر عن إضاءة هذه الغياهب الأركيولوجية في تاريخ طبائعنا كلّما سنحت لنا الفرصة. يوجد شاهد آخر على قدرة أيسودون القديمة في قناة تُورِنْمين، وهو نهر صغير رُفِع إلى عدة أمتار ونشر على مساحة واسعة، فوق مستوى نهر التيول الذي يحيط بالمدينة. هذه المنشأة ناتجة، دون أدنى شك، عن العبقرية الرومانية. أخيراً فإن شارعاً يخترق الضاحية الممتدة من القصر نحو الشمال

---

(١) **الدرويدة**: هي عبادة السلتيين والغاليين، وكان يطلق على كهنتهم اسم «درويد».

(٢) **السلتيون**: مجموعة شعوب كانوا يتكلمون لغة هندية-أوروبية- مسكنهم الأصلي جنوب غرب ألمانيا ثم زحفوا منها نحو غرب أوروبة وامتدت حضارتهم ما بين القرن العاشر والثالث ق.م.

(٣) **ايزيس**: هي الهة الزواج والعائلة لدى المصريين، وأخت أوزيريس وزوجته، ووالدة هوروس. يحتمل أن يكون الرومان قد عبدوها أيضاً.

(٤) **شومو**: (جان) محام من بورج، نشر في العام ١٥٠٦ كتاباً بعنوان: «**تاريخ برّي، الحاوي على أصل وقدم وتصرّفات وخطوات وحريات البرويين، مع وصف خاص للمنطقة**» لكن الكتاب لا يحوي التسمية التي يذكرها بلزاك.

(٥) **ريشار قلب الأسد**: (١١٥٧-١١٩٩) ملك انكلترة (١١٨٩-١١٩٩) اشتهر باشتراكه في الغزوة الصليبية الثالثة. كان كونتاً على مقاطعة بواتو في فرنسة، ثار مرتين على والده هنري الثاني ملك انكلترة الأولى وهو يافع في العام ١١٧٣ والثانية قبل توليه الملك في العام ١١٨٨.

وهو يسمى منذ ألفي سنة شارع رومة. كما أن الضاحية بالذات اسمها ضاحية رومة وسكانها، بالطابع الخاص المميّز لسلالتهم، ودمهم وشكلهم، يدعون أنّهم أحفاد الرومانيين، وهم جميعاً كرّامون ذوو قسوة ظاهرة في الطبائع ناتجة دون شك عن أصلهم وربّما عن انتصاراتهم على الكوترو والروتيه الذين أبادوهم في القرن الثاني عشر في سهل شَارُوست. وبعد فتنة ١٨٣٠، ساد الاضطراب في فرنسة بحيث لم يُلفت تمرّد كرّامي إيسودون رغم رهبته، الانتباه، ولم تنشر تفاصيله؛ ولسبب[١]. فبورجوازيو إيسودون لم يسمحوا أولاً للجيش بدخول المدينة، فقد أرادوا أن تكون قضية الزمن في مدينتهم عائدة لهم وفقاً لتقاليد وعادات البورجوازية في العصر الوسيط. واضطرت السلطة أن تمتثل لأشخاص يساندهم ستة أو سبعة آلاف كرّام أحرقوا جميع الوثائق والمكاتب العائدة للضرائب غير المباشرة، وهم يجرون من شارع إلى شارع بمستخدمِ رسمِ دِخولٍ وهم يقولون أمام كل عمود مصباح: «هنا يجب شنقه». إلى أن انتُزِعَ الرجل المسكين من أيدي هؤلاء الساخطين بواسطة الحرس الوطني الذي أنقذ حياته بسوقه إلى السجن بذريعة محاكمته. ولم يدخل قائد فرقة الجيش[٢] المدينة إلا بعد اتفاقية وديّة مع جماعة الكرامين، وكان جريئاً في اختراق جموعهم، إذ أنه عند وصوله إلى دار الحكومة استل أحد رجال ضاحية رومة منجله ووضعه قرب عنقه (ومنجل الكرّامين بلطة عريضة مثبته على مقبض طويل وتستخدم لتشذيب الأشجار) وصرخ ذلك الكرام، بلهجة منطقته: «فليسقط المأمورون، الذين لا يقومون بأي عمل[٣]!». وكاد هذا الكرّام أن يقطع الرأس الذي احترمته ست عشرة سنة من الحروب، لولا التدخل

(١) سمّي هؤلاء الكرّامون المكابيين، وقد حدثت فتنتهم في آب ١٨٣٠.

(٢) هو اللواء پتي (١٧٧٢-١٨٥٦)، كان قائداً في الحرس الامبراطوري العام ١٨١٥، وعاد إلى الخدمة في العام ١٨٣٠ وقاد الفرقة الخامسة عشر في بورج، ووجب، وفقاً لما كتبه فليكس پيا أن يسحب سيف فونتنبلو ليقف في وجه مناجل الكرّامين.

(٣) المأمورون هم في رأي أصحاب الفتنة: الملك شارل العاشر، ورئيس وزرائه بولينياك، ومرافقوهم، والرقابة والتصويت المضاعف، والاستبداد وبكلمة واحدة كل موظفي الدولة.

السريع من أحد قادة الفتنة الذي وُعِد **بالطلب من المجلس إلغاء وظيفة جرذان الأقبية**[1].

في القرن الرابع عشر، بقي من سكان إيسودون ستة عشر إلى سبعة عشر ألف نسمة وهم نصف سكانها في زمن ريغور، وكان لشارل السابع قصر استمر فيها، وعرف حتى القرن الثامن عشر باسم بيت الملك، وكانت هذه المدينة مركز تجارة الأصواف، تموّن بها قسماً من أوروبة، وتصّنع على مقياس كبير الأغطية الصوفّية والقبعات، والقفازات الممتازة من جلد الماعز. وفي عهد لويس الرابع ذكرت إيسودون، التي يعود إليها بارون وبوردالو[2]، كمدينة تتميّز دائماً بالأناقة، واللغة الجميلة، والمجتمع الطيب. ويذكر الخوري بوبار[3] في كتابه **تاريخ سانسير** أن سكان إيسودون متميزون من بين جميع أهالي برّي برقّتهم وظرفهم الطبيعي. أما اليوم فهذا البهاء وذلك الظرف قد اختفيا كلياً. بينما يشهد اتساع المدينة على أهميتها القديمة، أما الآن فعدد سكانها اثنا عشر ألف نسمة[4]. بمن فيهم كرامو الأرباض الأربع المجاورة الكبيرة وهي: سان-ترين، وفيلات، وورومه، وألويت، وهي مدن صغيرة جداً. وتحتل البورجوازية كما في فرساي، معظم الشوارع. وما تزال إيسودون تحتفظ بتجارة صوف برّي، وهي تجارة مهدّدة بتحسينات السلالة الغنمية التي انتشرت في كل مكان لكن برّي لم تتنباها أبداً. وكروم إيسودون تنتج خموراً تُشرَب في مقاطعتين، ولو أنها تصنّع كما في بورغونية وغاسقونية لغدت من أشهر خمور فرنسة، لكن للأسف! مازال كرّاموها

(١) جرذان الأقبيه rats-de cave. هم موظفو الضريبة على الخمور الذين يكشفون على الأقبيه لتقدير كميات المخزون منها.

(٢) بارون: هو ليس الممثل الشهير رفيق موليير. إنّما هو والده الأقل شهرة منه بالرغم من أنّه تميّز في مآسي كورني أما بوردالو (١٦٣٢-١٧٠٤) فهو مبشّر اشتهر بسلاسل العظات العشرة في العظات التي كان يلقيها بين الميلاد والفصح ولكنه ليس من إيسودون، إنّما هو من مواليد بورج.

(٣) بوبار (فنسان) (١٧٢٩-١٧٩٦) خوري سانسير نشر في العام ١٧٧٧ كتاباً بعنوان «تاريخ مدينة سانسير».

(٤) رقم تأكّد بتقويم الإندر في العام ١٨٢٣ الذي يذكر أن عدد سكان إيسودون ١١٠٧٧ نسمة.

يتبعون طريقة آبائهم، دون أن يجددوا شيئاً. هذا هو قانون البلاد. فالكرّامون مستمرون بترك عرموش العناقيد خلال التخمر مما يسيء إلى طعم خمر أمكنه أن يكون مصدر ثروات جديدة وموضوع فعالية في المنطقة. وبفضل الحموزة التي تتركها العراميش، والتي تتعدّل مع القِدَم كما يقال، يمكن لهذا الخمر أن يعمّر طويلاً تصل إلى قرن. هذه الخاصة التي يمنحها الكرم ذات أهمية في صناعة الخمور وهي خاصة تستحق النشر، وقد أشهرها غيّوم لبرتون في الفيليبيد[١] ببعض أبيات شعر.

يتفسّر انحطاط إيسودون بروح مقاومة التجديد التي وصلت إلى حدّ الغباوة بحيث يمكن الاستشهاد بواقعة واحدة للبرهنة عليها: عندما بدىء بتخطيط طريق باريس-تولوز، كان من الطبيعي أن يوجّه من ڤيرزون إلى شاتورو عبر إيسودون، وهو أقصر من الطريق الحالي المار عبر ڤاتان، لكن وجهاء البلاد ومجلس إيسودون البلدي كما تشير مداولاته المحفوظة طلبوا، على ما يقال، تحويل الطريق إلى ڤاتان، معترضين بازدياد غلاء الأسعار إن اخترق الطريق العام مدينتهم بحيث يضطرون لدفع ثمن الفروج ثلاثين فلساً.

لن نجد مثيلاً لهذا التصرف إلا في المقاطعات الأكثر توحّشاً في سردينيه، وهي بلادعامرة وغنية سابقاً، لكنها الآن قفراء. وعندما أراد الملك شارل-ألبر[٢] في فكرة حضارية محمودة أن يصل ساساري العاصمة الثانية للجزيرة إلى كاغلياري بطريق جميل رائع، هو الوحيد الموجود في تلك السهوب المسماة سردينيه، اقتضي الخطّ المباشر لهذا الطريق أن يمرّ في بونورڤا، وهي منطقة يسكنها جماعة من المتمردين أشبه بقبائلنا العربية ذات الأصل المغربي. وعندما رأى هؤلاء أن الحضارة ستغزو ديارهم، لم يكلف متوحشو بونورڤا أنفسهم عناء المداولة، وعبّروا عن معارضتهم للمخطّط، لكن الحكومة لم تلق بالاً لهذه المعارضة؛

(١) الفيليبيد: قصيدة باللاتينية لتمجيد فيليب أوغوست. لكن بلزاك يرتكب خطأ هنا. فخمور إيسودون لا تصلح للتعتيق.

(٢) شارل ألبر (١٧٩٨-١٨٤٩) ملك سردينيا، خلّص لومبارديا من النمسويين لكنه دحر بعد ذلك أمامهم فاضطر إلى التنازل عن العرش لابنه ڤيكتور عمانوئيل الثاني.

وعندما جاء أوّل مهندس ليثبّت أوّل شاخص من هذا الطريق تلقى رصاصة في رأسه، ومات فوق شاخصه، ولم يجر بعدها أي بحث في هذا الموضوع، ورُسِمَ الطريق منعرجاً على بُعدِ ثمانية فراسخ[1] من بونوروڤا.

في إيسودون، هيّأ الهبوط المتواصل في أسعار الخمور التي تستهلك محليّاً، ملبيّاً هكذا رغبة البورجوازية في العيش بسعر رخيص، دمار الكرامين المرهُقين أكثر فأكثر بنفقات الزراعة والضرائب. كما تهيّأ دمار تجارة الصوف بتعذر السلالة الغنمية؛ فأبناء الريف يخشون بعمق أي نوع من التغيير، حتى ذلك الذي يبدو مفيداً لمصالحهم. ففي إحدى المرّات وجد باريسي في الريف عاملاً يتناول في عشائه كمية هائلة من الخبز والجبن والبقول؛ فبرهن له أنّه إن استعاض بقطعة لحم عن كلّ هذه المآكل لتغذّى بشكل أفضل، وبسعر أرخص، ولأمكنه العمل زيادة دون أن يستهلك بسرعة رأسمال قوته الحيوية. واعترف عاملٍ برّي بصحة الحساب. لكنه أجاب: «وأقاويل الناس ياسيدي».

- وماذا سيقول الناس؟

- وبعد كيف يمكنني أن أجابه أقاويل الناس؟.

تدخل صاحب الأرض التي تمّ عليها هذا المشهد بالقول: «سيغدو قصة المنطقة بكاملها، سيعتُقَد أنه غني كبورجوازي، إنه يخشى الرأي العام، ويخشى أن يشار إليه بالإصبع؛ أو أن يُظنَّ أنه رجل ضعيف أو مريض... هكذا نحن في هذه البلاد».

كثير من البورجوازيين ينطقون العبارة الأخيرة بزهوٍ خفيٍ، وإذا كان الجهل والجمود لا يقهران في الأرياف، حيث يترك الفلاحون على هواهم، فإن مدينة إيسودون وصلت إلى ركود اجتماعي تام، واضطرت لمحاربة انحطاط الثروات

---

(١) في نيسان ١٨٣٨ قام بلزاك برحلة إلى سردينيا. ومن هذه الرحلة يستمدّ هنا ذكرياته.

باقتصاد كريه؛ إذ اقتصرت كل عائلة على العيش في عزلة. والواقع أن المجتمع وجد نفسه فيها محروماً نهائياً من المنافسة التي تعطي للطبائع طعمها. ولم تعرف المدينة أبداً تلك المجابهة بين قوّتين التي تعود إليها حياة الدول الإيطالية في العصر الوسيط، وليس في إيسودون نبالة[1]. فالكوترو، والروتيه، والجاكري، والحروب الدينية، والثورة، حذفت منها كلياً النبالة. والمدينة معتزّة جداً بهذا الانتصار. فإيسودون رفضت باستمرار، ودائماً من أجل الحفاظ على العيش بسعر رخيص، أن يكون فيها حامية من الجيش. وفقدت هذه الوسيلة من الاتصال مع القرن، مع فقدانها أيضاً الفوائد التي تجنيها من وجود الجيش. وقبل العام ١٧٥٦، كانت إيسودون إحدى المدن الأكثر رَغَداً للحامية. لكن مأساة قانونية شغلت كل فرنسة، وهي قضية ضابط محكمة الإقطاع مع المركيز دي شابت، الذي قتل ابنه[2]، الضابط في سلاح الفرسان، بخصوص علاقة غرامية، عن حقّ على الأرجح، لكن غدراً، حرمت المدينة من حاميتها اعتباراً من ذلك التاريخ. وإقامة الفرقة الرابعة والأربعين خلال الحرب الأهلية[3] التي أعقبت الثورة، لم يكن من شأنها أن تصالح السكان مع الطغمة العسكرية. ،بورج التي كان سكانها في تناقص كل عشر سنوات مصابة بذات الداء الاجتماعي[4]. فالحيوية تهجر هذه الأجسام الكبرى؛ ومن المؤكد أن الإدارة مسؤولة عن هذه المصائب. فواجب الحكومة أن تلاحظ هذه الشوائب على

(١) كان بلزاك قد كتب في العام ١٨٣٤: «من الضروري القول أن مدننا عديدة في برّي تخلّصت، وفقاً لتعبيرها من النبالة، فإيسودون ليس فيها بيت نُبل واحد» (الملاك الكبير).

(٢) في العام ١٧٥٤، كان في إيسودون حامية من الفرسان بقيادة الفيكونت دي شابت، وقامت علاقة غرامية بين هذا الضابط وزوجة ضابط محكمة الإقطاع آمابل آرتويس. واغتيل الفيكونت دي شابت وأعلن قبل موته أن قاتليه هما آرتويس وأخوه. لكن الأخوين بُرِّئا بعد المحاكمة من هذه التهمة. (هذه الحادثة نقلها أرمان بونيه في رسالة بتاريخ ١ تشرين أول ١٨٤٢ لبلزاك. ومن غير المعروف علاقتها بحرمان إيسودون من الحامية).

(٣) هذه الفرقة لم تُقِمْ إلا بضع أسابيع فقط في السنة العاشرة للثورة في إيسودون.

(٤) يقول فليكس بيات: «إن بورج تحتضر، فهذه المدينة لم تعد موجودة إلا بالنسبة للمؤرخ والفنان. وسكانها كسالى يسمنون من البطالة، وهم غرباء عن نشاط الأقسام الأخرى من الجسم الاجتماعي التي تتحرك وتعمل في كل الاتجاهات لنموّها وتحسين وجودها.

الجسم السياسي، وأن تعالجها بإرسال رجال عزومين إلى هذه الجهات المريضة ليبدّلوا فيها وجه الأشياء. وللأسف! هذا ما لا يحصل؛ بل يتمُّ التفاخر بهذا الهدوء المشؤوم المفجع. ثم، كيف يُرسَل إداريون جُدَد، أو قضاة كُفوء؟ ومن في أيامنا يهتمُّ بالذهاب ليُدفَن في مقاطعات، تمرّ فيها المنجزات الخيّرة دون بريق؟. إن حدث بالمصادفة، ووظّف فيها غرباء طموحون، فستتغلب عليهم بسرعة عادة الخمول فينصاعون إلى التوافق مع حياة المقاطعات البغيضة، وإيسودون بإمكانها أن تخدر حتى نابوليون. ونتيجة لهذا الوضع الخاص، كانت منطقة إيسودون مدارة في العام ١٨٢٢ من قبل رجال ينتمون كلّهم إلى مقاطعة برّي[1]. فالسلطة فيها معدومة أو دون فعالية، باستثناء الحالات، النادرة جداً بالطبع، التي تضطر العدالة فيها للتحرك بسبب خطورتها الصريحة. فالسيد مويرون وكيل الملك فيها نسيب لجميع الناس، ونائبه ينتمي إلى إحدى عائلات المدينة. وقد اشتهر عن رئيس المحكمة، قبل أن يصل إلى هذا المنصب، عبارة تلبسه عن جدارة قلنسوة حمار طول حياته في المقاطعة. فبعد أن انتهى من مطالعة تحقيق قضية جرمية، قال للمتهم: «يا عزيزي المسكين بيير، إن جرمك واضح وسيقطع عنقك. فليكن لك في ذلك عظة ودرساً!» ومفوّض الشرطة، وهو مفوّض منذ الملكية الثانية، له أقارب في كل المنطقة. أخيراً فتأثير الدين معدوم فيها. بل إن الكاهن لا يتمتع بأي اعتبار. والبورجوازية الليبرالية، والمنكّدة، والجاهلة تروي قصصاً فكاهية عن علاقات بين هذا الرجل المسكين وخادمته ومع ذلك فهم يرسلون أولادهم إلى دروس التعليم الديني، كما يقوم الأطفال بمناولتهم الأولى، ويذهب الكبار إلى الكلية، ويحضر الناس القداس، ويعيّدون دائماً الأعياد. ويدفعون الضرائب، وهذا هو الشيء الوحيد الذي تريده باريس من المقاطعات. أخيراً فعمدة المدينة يتخذ فيها قرارات؛ لكن هذه الأحكام من الحياة الاجتماعية تتم روتينياً. وهكذا فرخاوة الإدارة تتوافّق بشكل عجيب مع الوضع الثقافي والأخلاقي للبلاد. وأحداث هذه الرواية ترسم تأثيرات هذا الوضع الذي لا يعتبر فريداً كما قد يُظن؛ فكثير من مدن فرنسة

---

(١) يفضح بلزاك هذه المحاباة للأقارب في رواية «الفلاحين».

وبصورة خاصة في الجنوب تشبه إيسودون. إن الحالة التي وضع بها انتصار البورجوازية ايسودون وهي مركز المنطقة هي ما ينتظر كل فرنسة، وحتى باريس إن بقيت البورجوازية سيّدة السياسة الخارجية والداخلية في بلادنا[1].

والآن كلمة حول الطبوغرافية: تمتد إيسودون من الشمال إلى الجنوب على هضبة تستدير نحو طريق شاتورو، وفي أسفل ذلك التل شقّت سابقاً، من أجل حاجات المصانع أو لإملاء خنادق الأسوار، في زمن ازدهار المدينة، قناة تسمى الآن النهر القسري تستمد مياهها من نهر التيول، ويشكل **النهر القسري** ذراعاً صنعياً يصب في النهر الطبيعي مابعد ضاحية رومة في الموقع الذي يصب فيه أيضاً نهر التورنمين وبعض سيول أخرى. هذه المجاري المائية الحيّة، والنهران تسقي المروج الممتدة التي تحيط من جميع الجهات بالهضاب الصفراءأو البيضاء تنبث عليها نقاط سوداء، هي مظهر كروم إيسودون خلال سبعة أشهر من السنة، حيث يشذّب الكرّامون الدوالي كل عام ولا يتركون إلا جذلاً قبيحاً دون أيّة دعامة وسط قمع مجوّف. وهكذا فعند المجيء من ڤيرزون أوڤاتان أو شاتوروفإن العين الشجيّة برتابة السهولة تلقى بدهشة الغبطة مروج إيسودون. واحة ذلك القسم من بلاد برّي الذي يقدّم البقول لسكان المناطق على مدى دائرة شعاعها عشرة فراسخ. ومابعد ضاحية رومة يمتدُّ غيط واسع يزرع كلياً بالخضروات، ويقسم إلى قسمين يحملان اسم بلتان الأسفل والأعلى، وجادَّة طويلة واسعة مزيَّنة بممرين جانبيين من أشجار الحور تؤدّي من المدينة، عبر المروج، إلى دير قديم يسمى فرابسل[2]، حظيت جنائنه، الوحيدة في المنطقة بالاسم الطموح التيفولي حيث يتنزّه العشاق كل يوم أحد وهم يتسارّون ببوح عواطفهم.

---

(١) هذا الاستطراد ضروري دون شك لتفسير إفلات «فرسان البطالة» من العقاب. لكن بلزاك هنا يعالج موضوعاً عزيزاً عليه وهو السيطرة المتزايدة للبوراجوزية على حياة البلاد؛ وهو سيقول عنه في رواية **الفلاحين**: سيادة الضعف«la mediocratie».

(٢) **فرابسل**: مزرعة يملكها آل كارو (زولما كارو وزوجها) صديقا بلزاك. حيث قضى الروائي فيها عدة إقامات.

من المؤكد أن آثار العظمة القديمة لإيسودون تنكشف للملاحظ اليقظ، وأكثرها تميّزاً تقسيمات المدينة. فالقصر الذي كان يشكّل في السابق لوحده مدينة بأسواره وخنادقه، يؤلّف حيّاً متميّزاً لا يمكن الدخول إليه حالياً إلا من الأبواب القديمة، ولا يخرج منه إلا عن طريق ثلاثة جسور أنشئت على أذرع النهرين، وهذا الحيّ وحده يعطي مظهر المدينة القديمة. فالأسوار ماتزال تظهر بين مكان وآخر أساساتها المهيبة التي ترتفع فوقها البيوت. وفوق القصر ينتصب البرج، وقد كان هو القلعة؛ ومن أراد السيادة على المدينة، الممتدة حول هاتين النقطتين المحصَنتين، عليه السيطرة على البرج والقصر. فامتلاك القصر لا يعني السيطرة على البرج وربض سان باترن الذي يرسم لوحاً مسّطحاً ما بعد البرج، وهو يقرض من المروج، هامّ إلى درجة يمكن أن يعتبر فيها خلال الأزمنة السحيقة في القدم المدينة بالذات. ومنذ العصر الوسيط تسلّقت إيسودون كباريس هضبتها وتجمعت حول البرج والقصر. وقد تأكّدت هذه الفكرة في العام ١٨٢٢ من وجود كنيسة سان باترن الظريفة التي هدمت حديثاً من قبل الوارث الذي اشتراها من الأمّة. وهذه الكنيسة وهي من أجمل نماذج الكنائس الرومانية التي تمتلكها فرنسة، خرّبت دون أن يهتم أحد برسم مدخلها الفخم وكان محفوظاً بشكله الكامل. ولم يُجدِ الصوت الوحيد الذي ارتفع آنذاك لإنقاذ ذلك الصرح التاريخي(١) أيّ صدى في المدينة أو في المنطقة. وبالرغم من أن لحيّ قصر إيسودون ميزة المدينة القديمة بشوارعه الضيّقة، ومساكنه القديمة. فإن المدينة بالذات التي احتلَّت وحُرِقَت عدة مرّات في مختلف العصور وخاصة خلال حرب المقلاع، عندما احترقت بكاملها(٢)؛ لها مظهر حديث: شوارع عريضة، قياساً على شوارع المدن الأخرى. ومنازل جيّدة البنيان

---

(١) هو صوت أرمان برِمه دون شك، عالم الآثار وصديق بلزاك.

(٢) **حرب المقلاع**: (١٦٤٨-١٦٥٢) فتنة في فرنسة قامت ضد مازاران قبل بلوغ لويس الرابع عشر سن الرشد وقد شب حريق في إيسودون وفقاً لما يذكره غينيار في ٢١ أيلول ١٦٥١ أصاب ٦٠٠ بيت ومات من جرائه عشرون ضحيّة.

تشكّل مع مظهر القصر تبايناً ملفتاً للنظر، مما يبرّر في بعض الكتب الجغرافيه منح إيسودون اسم الجميلة[1].

في مدينة قائمة بهذا الشكل، خلت من أي نشاط حتى التجاري منه؛ ولا ميل فيها إلى الفنّ، ودون أي اهتمامات علميّة، وحيث كلّ شخص يلزم منزله؛ يجب أن يحدث شيء ما، وهذا ما حدث في ظلّ الملكية الثانية، العام ١٨١٦، عندما هدأت الحرب، وكان بين الشباب عديدون ممن لم يهيؤا لأي مهنة يتعاطونها، ولا يعرفون ماذا يفعلون بانتظار موعد زواجهم أو وراثتهم لأهلهم. يغشاهم الملل ولا يجدون أي تسلية في المدينة؛ فلم يبق عليهم وفقاً لتعبير ساد في المنطقة إلا أنْ يرتموا في أحضان الطيش ويقوموا بإجراء هرجاتهم الفكاهية على حساب المدينة بالذات. وكان من الصعب عليهم أن يمارسوا مظاهر طيشهم في وضح النهار حيث يمكن التعرف عليهم، وإن فاض جام تهوّرهم، فإنهم يساقون مع أولّ زلّة كبيرة إلى الشرطة الجنحيه. لذلك فقد اختاروا بنباهة الليل للقيام بمقالبهم الماكرة. وهكذا التمعت بين هذه البقايا القديمة من الحضارات العديدة المختفية كبارقة أخيرة بقية من روح الفكاهة التي ميّزت الطبائع القديمة. وراح هؤلاء الشباب يعبثون بمرح كما عبث سابقاً شارل التاسع، وحاشيته[2] وهنري الخامس ورفاقه[3]؛ وكما تتمّ بعض التسليات في كثير من مدن المقاطعات الفرنسية. وما أن تجمّعوا بضرورة تبادل المساعدة، وحماية أنفسهم، وابتكار أدوار طريفة؛ حتى نمّت فيهم باحتكاك الأفكار جملة من الحيل تتلاءم مع روح الشباب، وتلاحظ حتى لدى الحيوانات الفتيّة. ومنحهم تآلفهم مزيداً من المتع الصغيرة التي يوفّرها غموض تجمّع سرّي مستمر، فأطلقوا على أنفسهم اسم «**فرسان البطالة**». وخلال النهار كان هؤلاء القرود الفتيان كالقديسين الأبرار،

(١) هذا التعبير وجد في مذكرات مسافر لستندال بتاريخ ٢١ حزيران ١٨٣٧، وهذا ما عدّل النقد القاسي الذي وجهه بلزاك لإيسودون، وفسّر التقدير الذي وجهته المدينة حديثاً للأديب الكبير. ففي العام ١٩٣٠ أطلقت اسمه على أحد الشوارع وعلى كلية المدينة كما رفع له نُصب تذكاري في الحديقة العامة.

(٢) تعرّض بلزاك إلى تسليات شارل التاسع وحاشيته في رواية «**حول كاترين دي مديسي**» ومسرحية «ماري توشيه» غير المكتملة. وبصورة خاصة إلى قفز شارل ورفاقه من سطح منزل إلى آخر فوق الأزقة الضيقة.

(٣) هو هنري الخامس ملك انكلتره، وبلزاك يلمح هنا إلى مسرحية شكسبير.

يتظاهرون بالهدوء التام؛ عدا عن أنّهم ينامون إلى ساعة متأخرة نهاراً، بعد أن يكونوا قد مارسوا خلال الليل إحدى ألاعيبهم الخبيثة.

بدأ فرسان البطالة ببعض هرجات عادية، مثل فكّ وتبديل بعض لافتات المحلات، أو قرع بعض أجراس المنازل، أو إلقاء برميل، نسيه أحدهم أمام باب بيته، في قبو جاره بقرقعة كبيرة يحسب فيها صاحب القبو أن منزله قد تفجّر. ففي إيسودون كما في كثير من المدن الفرنسية، يُنزَل إلى القبو عن طريق باب قلاّب مهيأ على مدخل المنزل ومغطّى بلوح خشبي ذي مفصلة مع قفل كبيرنقال. ولم يكن هؤلاء الفتيان الخبثاء[1] الجدد قد اهتدوا نحو العام ١٨١٦ إلى تلك الحيل الخبيثة التي كان يقوم بها أمثالهم من العابثين وفتيان الأزقة. لكن في كانون ثاني ١٨١٧ عرفت جمعية فرسان البطالة زعيماً كبيراً تميّز بإجراء مقالب حتى العام ١٨٢٢ أحلت نوعاً من الرعب في إيسودون أو أنّها على الأقل جعلت أهل الحرف والبورجوازيين في تحفّز قلق.

هذا الزعيم هو ماكسنس جيله، المسمى باختصار ماكس؛ وقد هيأته سوابقه إلى جانب قوته وشبابه للعب هذا الدور. وكان ماكسنس جيله يعتبر في إيسودون ابن سفاح للسيد لوستو، هذا الوكيل الموفد الذي تركت مغامراته الغرامية كثيراً من الذكريات، فشقيق السيّدة هوشون، هو من أثار كما سبق أن ذكرنا، حقد الدكتور روجه بخصوص ولادة أغات. لكن الصداقة التي كانت تربط بين هذين الرجلين، قبل اختلافهما، كانت على درجة من المتانة حتى أنهما كانا يسيران على ذات الوتيرة، ويمران بكل طيبة خاطر في ذات الدروب، وفقاً لتعبير أهل المنطقة في ذلك الزمن. وهكذا فقد زُعِمَ احتمال كون ماكس ابن الدكتور روجه، كاحتمال كونه ابن الوكيل الموفد. والواقع أن والده ليس هذا ولا ذاك، وإنما هو ضابط وسيم من فرسان حامية بورج. غير أنّ العداوة التي دبّت بين الرجلين، جعلت الطبيب والوكيل، لحسن حظّ الولد، يتنازعان باستمرار حول هذه الأبوة؛ وكانت أم ماكس، وهي زوجة حذّاء مسكين في ضاحية رومة، تتميّز لهلاك روحها، بفتنة

(١) تلميح لرواية باربيه ورُوِية «**الفتيان الخبثاء**»(١٨٣٠) التي تصف تصرفات عصبة من الفتيان في القرن السادس عشر.

ساحرة، وجمال إحدى فتيات تراستفرين[1]، وهو الهبة الوحيدة التي منحتها لابنها. وقد حملت السيدة جيله بماكس في العام ١٧٨٨، وكانت قد رغبت منذ مدة طويلة بهذه النعمة السماوية، التي نسبتها النوايا السيِّئة إلى براعة الصديقين الغرامية، وذلك دون شك لتحريض أحدهما على الآخر. وكان الحَذّاء جيله وهو سكير عجوز لاتكفيه زجاجات خمر ثلاث يومياً يحابي فساد امرأته بمشاحنات ومجاملات ليس غريباً مثيلها في الطبقة الدنيا. وحرصت السيدة جيله لتؤمن حماة لابنها، على عدم تنوير الآباء المستعارين. ولو أنّها كانت في باريس، لغدت مليونيرة، أما في إيسودون، فكانت تارة في يُسر، وأخرى في عسر، وعلى مَرِّ الأيام مزدراة[2]. وكانت السيّدة هوشون تقدّم كل سنة عشر إكوات لتيسّر لماكس الذهاب إلى المدرسة. هذه الأريحية، التي أبدتها السيّدة هوشون، وهي في وضع لا يسمح لها بإدائها لما عرف عن زوجها من بخل؛ نسبت بالطبع إلى أخيها وهو آنذاك في سانسير. وعندما لاحظ الدكتور روجه، الذي لم يكن سعيداً في عزوبيته، جمال ماكس، سدّد حتى العام ١٨٠٥ أقساط الكليّة عن هذا الذي كان يلقبه «الطريف الصغير» ولما كان الوكيل الموفد قد توفي في العام ١٨٠٠، وباستمرار الطبيب بدفع أقساط ماكس لخمس سنوات أخرى، بدا مدفوعاً بعاطفة حبّ الذات وبقي موضوع أبوة ماكسنس جيله مشكوكاً به؛ بينما نُسِيَ الشاب كموضوع إثارة لألف سخرية. ذلك أنه في العام ١٨٠٦، وبعد سنة من وفاة الدكتور روجه، بدا هذا الفتى وكأنه خلق لحياة المخاطرة، فعدا عن أنه وُهِبَ قوة وخفّة متميزتين، قام بمجموعة شرور تتجلّى الأخطار تقريباً في ارتكابها؛ فقد تفاهم مع أحفاد السيد هوشون لإغاظة بقّالي البلد، وكان يجني الثمار قبل مالكيها، ولا يبالي أبداً بتسلّق

---

(١) **تراستفرين**: حي شعبي في روما. يبدو أنه اشتهر بجمال فتياته وفقاً لما ذكره ستندال في كتابه «نزهات في روما» وقد سبق لبلزاك أن ذكره أيضاً في قصة **الخليلة المزعومة**.

(٢) سبق لصحيفة «غازيت دي فرانس» بتاريخ ٢٨ تشرين أول ١٨٤٢ أن نشرت المقطع «ماكسنس جيله يعتبر في ايسودون ابن سفاح ... حتى «على مرّ الأيام مزدراة». في حملتها ضد الروايات المسلسلة وضد «أخلاقية الصحف المحافظة في نشرها مثل هذا النتاج.

الأسوار؛ ولم يكن لهذا الجنيّ مثيل في التمارين العنيفة، فهو يلعب على العارضتين باتقان، ويمكنه أن يلحق بأرنب بري في سرعة عدوه، وقد منح حدة نظر جديرة ببا-دكوير[١]، وقد شغف بالصيد، وبدلاً من الانصراف إلى الدراسة كان يقضي وقته في الرمي على دريئة، وكان يستخدم الدراهم المرسلة من الطبيب العجوز في شراء بارود ورصاصات لطبنجة رديئة أعطاه إياها الأب جيله الحذّاء. والحال أنه في العام ١٨٠٦، وكان ماكس في السابعة عشر من عمره، ارتكب حادثة قتل لا إرادية بترويعه مع هبوط الليل امرأة شابة حاملاً فاجأها في بستانها عندما انسلّ إليه لسرقة الثمار. وهدّده والده الحذاء بتسليمه إلى المقصلة، وقد أراد دون شكّ أن يتخلّص منه؛ فهرب راكضاً دون توقف حتى بورج، والتحق هناك بفرقة عسكرية في طريقها إلى اسبانية، فتطوع فيها، وطوى النسيان قضية المرأة الميتة فلم يتابع أمرها أحد.

إن فتى مثل ماكس يجب أن يبرع في الجيش، وقد برع فعلاً، وبعد ثلاث حملات رُفّع إلى نقيب[٢]، فالثقافة الحاصل عليها على ضآلتها كانت شديدة النفع له. وفي العام ١٨٠٩ حُسب في البرتغال قتيلاً أمام بطارية مدفعية انكليزية جابهتها سريّته لكنها لم تستطع الصمود أمامها. وقبض عليه الانكليز، وأرسلوه إلى المجسّرين الاسبان في كابريرا[٣] وهي أرهب الفرق الاسبانية. وقد طُلب منحه وسام جوقة الشرف ورتبة رائد، لكن الامبراطور كان في النمسة، وهو يحتفظ بإنعاماته لفعاليات البطولة التي تحدث تحت ناظريه؛ وهو لا يحب من يقعون في الأسر، ولم يكن مسروراً مما حدث في البرتغال. وبقي ماكس لدى المجسّرين من ١٨١٠ إلى ١٨١٤، وخلال هذه الأربع سنوات حلّ به القنوط تماماً، فالتجسير أشغال شاقة عدا الجريمة والدناءة. وللاحتفاظ بحرية اختياره، ولمقاومة الفساد الذي

(١) با- دي كوير: شخصية شهيرة في روايات الكاتب الانكليزي فنيمور كوبر، وبلزاك من كبار المعجبين بكوبر.

(٢) اعتبرت شخصية غيوم- انطوان - جان فيكس نموذجاً لماكس جيله. لكن إذا كان فيكس قد شارك؛ في حملة اسبانية بين ١٨٠٦ - ١٨٠٨ وعاد برتبة نقيب فهذه هي نقاط الشبه الوحيدة له مع ماكس.

(٣) جزيرة في الباليار جنوب ماجوركا.

يعصف بهذه السجون الكريهة، غير الجديرة بشعب متمدن، قتل النقيب الوسيم الشاب في مبارزة(وكانت تتم المبارزة ضمن حيّز ستة أقدام مربّعة) سبع مسايفين أو طغاة، وخلّص منهم زورق تجسيره أمام فرحة ضحاياه الكبرى.

وساد ماكس على زورق تجسيره، بفضل المهارة الخارقة التي اكتسبها في استعمال الأسلحة، وقوّته الجسديّة، ويقظته. لكنه ارتكب بدوره أفعالاً تعسفيه، فكان له مجاملون يعملون لحسابه، ويتملّقون إليه. وفي هذه المدرسة من الآلام، حيث تقسو الطبائع فلا تفكر إلا بالانتقام، وحيث المغالطات المتفتقة في هذه الأدمغة المزحومة تبرّر الأفكار السّيئة. انحرف ماكس كلياً[1]، فاستمع إلى آراء من يحلمون بالثروة مهما كانت الوسائل؛ دون التراجع أمام نتائج تصرّف جرمي ما دام يتمّ دون أدلّة. أخيراً، خرج مع السلم منحّلاً فاسداً رغم أنه بريء. كان قادراً أن يعمل كسياسي كبير في الأوساط العليا وشقي بائس في الحياة الخاصة، وفق ظروف قدره. وعند عودته إلى إيسودون أنبيء بالنهاية المؤسفه لأبيه وأمّه. وكجميع الأشخاص الذين ينقادون إلى أهوائهم، والذين يمارسون وفقاً للمثل حياة عريضة وقصيرة[2]، مات الأبوان جيله في فاقة مريعة بعد دخول المشفى. عندما عمّ خبر نزول نابوليون في كان [3] وانتشر في فرنسة؛ لم يجد ماكس أفضل من أن يتوجّه إلى باريس ويطالب برتبته كرائد، وبالوسام الذي يستحقه، وتذكر المارشال وزير الحرب[4] سلوك النقيب جيله الجيد في البرتغال؛ فوضعه في الحرس كنقيب، مما يعطيه رتبة رائد عند توجهه إلى ساحة المعركة. لكنه لم يستطع الحصول على صليب جوفة الشرف. وذكر له أن الامبراطور قال: «بامكانك أن تربح هذا الوسام في أوّل

---

(١) يمكن أن يكون بلزاك قد حصل على هذه التفاصيل من المقدّم كارو الذي قضى مدّة في التجسير وفي الكاتالوغ الذي أعدّه في العام ١٨٤٥ سجل ضمن مشاهد من الحياة العسكرية رواية باسم زوارق التجسير، جمع معلومات لها.

(٢) هذه هي نظرية بلزاك: من يَعِش حياة صاخبة يمت شاباً.

(٣) أي خلال شهر آذار ١٨١٤.

(٤) كان الوزير آنذاك المارشال دافو.

معركة تخوضها»والواقع أن الامبراطور سجّل اسم النقيب الشجاع لمكافأته بعد معركة فلرُوس[1] التي أبدى فيها جيله شجاعة كبرى. وبعد معركة واترلو[2] انسحب ماكس إلى اللوار، وعند التسريح لم يعترف المارشال فلتر[3] لجيله برتبته أو بوسامه. وعاد جندي نابوليون إلى إيسودون في حالة سخط يسهل تصورّها، ولم يرد أن يخدم في الجيش إلا بعد منحه وسام ورتبة الرائد. ووجدت المكاتب العسكرية هذه الشروط مبالغاً فيها من قبل شاب لم يتجاوز الخامسة والعشرين، دون لقب نبالة، ويمكنه إن استجيب طلبه أن يصبح عقيداً وهو في الثلاثين من العمر. وأرسل ماكس عند ذاك استقالته. وخسر الرائد - والبونابرتيون يعترفون فيما بينهم بالرتب المكتسبة في العام ١٨١٥ - بهذه الاستقالة الراتب الهزيل الذي منح لضباط جيش اللوار والمسمى نصف عنصر الأساس. وعندما رأى أهل إيسودون هذا الشاب الوسيم الذي لا يملك أكثر من عشرين نابوليون تحمّسوا لمصلحته، ومنحه العمدة وظيفة في دار العمدية براتب ستمئة فرنك سنوياً، وشغل ماكس هذه الوظيفة مدة ستة أشهر، ثم تخلى عنها من تلقاء ذاته، واستبدل به نقيب سابق اسمه كاربنتيه كان مثله من المخلصين لنابوليون.

اتبع جيله وهو زعيم فرسان البطالة اللبقين سلوكاً في الحياة أفقده احترام العائلات الأولى في المدينة دون أن يحظى بتقدير غيرهم. فقد كان عنيفاً يخشاه الجميع حتى ضباط الجيش السابق الذين رفضوا مثله الخدمة، وعادوا إلى بلاد برّي يزرعون الملفوف. ومن اللوحة السابقة لايستغرب عدم محبّة الأشخاص المولودين في إيسودون للبوربونيين. وهكذا فرغم قلّة أهمية تلك المدينة الصغيرة، فإن عدد

---

(١) معركة جرت في ١٦ حزيران ١٨١٥ تغلّب فيها نابوليون على بلوخر.

(٢) المعركة التي جرت في بلجيكا بتاريخ ١٨ حزيران ١٨١٥ وتغلب فيها البروسيون والانكليز على نابوليون.

(٣) هنري كلارك دوق دى فلتر (١٧٦٥-١٨١٨) كان وزير الحرب في العام ١٨٠٧. وفي العام ١٨١٤ انضم إلى آل بوربون، وهرب معهم إلى غان عند عودة نابوليون وحكم المئة يوم، لكنه بعد هزيمة نابليون استعاد مركزه كوزير حرب وسمي مارشالاً في العام ١٨١٦.

البونابرتيين فيها أكثر من أيٍ مكان آخر، وكما هو معروف غدا جميع البونابرتيين تقريباً ليبراليين، وأحصي في إيسودون أو في جوارها نحو اثني عشر ضابطاً في مثل وضع ماكسنس، وقد اتخذوه رئيساً لهم لشدة إعجابهم به، باستثناء هذا الضابط المسمى كاربنتيه، الذي خلفه في دار العمدية، وآخر اسمه مينيونه، وهو نقيب سائق في مدفعية الحرس. وكاربنتيه ضابط خيالة، محدث نعمة، تزوج قبل كل شيء وانتسب إلى إحدى العائلات الأكثر اعتباراً في المدينة، آل بورنيش-هرو. ومينيونة خريج مدرسة البوليتكنيك خدم في فيلق يرى في نفسه تميّزاً عن الفيالق الأخرى. وقد كان لدى عسكريي الجيوش الامبراطورية اتجاهان؛ فقسم كبير منهم ينظر إلى البرجوازي، الانسان الهزيل، نظرة ازدراء مماثلة لنظرة النبلاء للفلاحين، والغزاة للمغزوين؛ وهؤلاء لا يحافظون دائماً على قوانين الشرف في علاقاتهم مع المدنيين، أو لا يلومون كثيراً من ينتقد البورجوازي. والقسم الآخر وخاصة في سلاح المدفعية، وربّما عقب النزعة الجمهورية السائدة فيه، لا يقبل تلك النظرة، التي من شأنها، في حال مغالاتها، أن تخلق فرنستين: فرنسة عسكرية، وفرنسة مدنية. إذاً إن كان المقدّم بوتل والنقيب رنار، الضابطان من ضاحية رومة، لم يغيّرا رأيهما في البورجوازيين الهزيلين وانضما إلى ماكسنس جيله، فإن المقدّم مينيونه والنقيب كاربنتيه لزما جانب البورجوازية معتبرين تصرّف ماكس غير لائق برجل شريف. كان المقدم مينيونه، الرجل القصير، الضامر الجسم، مليئاً بالوقار، وانصبّ اهتمامه على ما ينتظر من الآلة البخارية أن تحلّه من مشاكل، وهو يعيش بكل بساطة، مقتصراً في زياراته على السيّد والسيّدة كاربنتيه؛ وحظي بتقدير كل أهل المدينة لطبعه الرائق؛ واهتماماته العلمية، وهكذا كان يقال في إيسودون، إن السيدين مينيونه وكاربنتيه مختلفان كلياً عن المقدّم بوتل، والنقيبين رنار وماكسنس وغيرهم من روّاد المقهى العسكري الذين حافظوا على طبائعهم العسكرية، وشطط الامبراطورية.

في الفترة التي عادت فيها السيّدة بريدو إلى إيسودون، كان ماكس مستبعداً عن المجتمع البورجوازي، والواقع أن هذا الشاب هو الذي استبعد نفسه في عدم

ظهوره أبداً في مكان اللقاء بأفراد هذا المجتمع المسّمى الندوة، ولم يتذمر أبداً من الجحود المؤسف الذي لقيه، رغم أنه الشاب الأكثر أناقة، وحسن مظهر في كل إيسودون، وهو يبدو أكثر إسرافاً، إذ أنه باستثناء الجميع يملك حصاناً، وهذا شيء غريب في إيسودون بمثل غرابته مع اللورد بايرون في البندقية. وسنرى كيف تمكّن وهو الفقير، الذي لا موارد له، أن يبدو بمثل هذه الأناقة، إذ أن الوسائل المخجلة التي سببت ازدراء الأشخاص الورعين أو المتديّنين له ذات علاقة بالمصالح التي جاءت بجوزيف وأغات إلى إيسودون. وماكس بجرأة مظهره، وتعابير قسماته يبدو غير مبال بالرأي العام، وهو ينتظر دون شك أن ينتقم منه في يوم ما، وأن يسود على هؤلاء الذين يبدون له بالذات الازدراء. والواقع لئن كانت البورجوازية لم تقدّر ماكس، فإن إعجاب الشعب بطبعه شكل ثقلاً موازناً لهذا الرأي؛ فجرأته، وهيبته، وحزمه أعجبت الجماهير، عدا عن أن فساده غير معروف لديها، كما أن البورجوازيين يجهلون مداه. فماكس، يلعب في إيسودون الدور المماثل تقريباً لدور الحداد في رواية « **حسناء بيرث**»[1] فهو بطل البونابرتية، والمعارضة؛ ويعتمد عليه كما اعتمد بورجوازيو بيرث على سميث في المناسبات الكبرى. والواقع أن قضية أشهرت هذا الشاب بطل المئة يوم وضحيتها.

في العام ١٨١٩ مرت كتيبة يقودها ضباط ملكيون، شباب من فيلق البيت الأحمر[2]، في إيسودون متوجهة إلى بورج لتستقر حامية فيها. ولم يعرف أفرادها ماذا يفعلون في مدينة دستورية مثل إيسودون، وتوجّه الضباط لقضاء الوقت في المقهى العسكري. ففي جميع مدن المقاطعات يوجد مقهى عسكري، ومقهى إيسودون مبني في زاوية من السور على ساحة الأسلحة، وتديره أرملة ضابط سابق[3]، وهو يستخدم بالطبع كناد لبونابرتيي المدينة وللضباط ذوي نصف الراتب

(١) روايةلوالتر سكوت ظهرت في العام ١٨٢٨. وهنري سميث بطلها وهو يدافع عن سكان بيرث وخاصة كاترين كلوفر ضد اغراءات الدوق دي روتسي ومؤامرات أتباعه.

(٢) فيلق حراسة العائلة المالكة وهو يتألف حصراً من النبلاء، وقد خدم فيه الفريد دي ڤينيي ولامارتين.

(٣) كان في إيسودون فعلاً مقهى بهذا الاسم، وكان يديره فرنسوا لشربونيه، وهو ليس ضابطاً، وقد توفي في كانون أول ١٨٢٢، وتزوّجت أرملته في تشرين ثاني ١٨٢٣ النقيب فيكس.

أو لأولئك الذين يشاطرون ماكس آراءه ويتيح لهم الجو السائد في المدينة التعبير عنها وعن تعلّقهم بالامبراطور. ومنذ العام ١٨١٦ كانت تقام في إيسودون في كل عام وليمة كبرى للاحتفال بذكرى تتويج نابوليون.

سأل الضباط الملكيون الثلاثة قي المقهى عن الصحف وخاصة « الكوتيديين» و «الراية البيضاء» [١] لكن الآراء السائدة في إيسودون، وخاصة في المقهى العسكري لا تتقبّل أبداً الصحف الملكية؛ ولم يكن في المقهى إلا صحيفة « التجارة» وهو الاسم الذي اضطرت صحيفة «الدستوري» لاتخاذه لعدة سنوات بعد أن ألغي امتيازها بقرار، وبما أنّها ظهرت في أوّل عدد لها تحت ديباجة هذه الكلمات : «التجارة دستورية بشكل رئيس» واستمر اسمها الدستوري؛ وتلقى جميع المشتركين التقويم المليء بالمعارضة والدهاء، وهو يرجوهم بعدم الأخذ بالإعتبار اللافتة [٢] فما تزال الخمر هي ذاتها.

أجابت سيدة المقهى الضخمة وهي جالسة وراء صندوقها الضباط الملكيين بأن ليس لديها الصحف المطلوبة.

سأل أحد الضباط وهو برتبة نقيب: « أي صحف تتلقون إذاً ؟».

وأسرع نادل المقهى وهو شاب صغير يرتدي سترة زرقاء وفوقها وزرة من قماش خشن وقدّم له « التجارة». وسأل الضابط: «آه! أهذه صحيفتكم ؟ أليس لديكم غيرها؟».

---

(١) الكوتيديين أو اليومية، La Quotidienne والراية البيضاء Le Drapeau blanc صحيفتان ملكيتان متطرفتان دامت الأولى حتى العام ١٨٤٧ أما الثانية فكانت أكثر عنفاً وقد توقّفت في العام ١٨٢٧ ثم عادت إلى الظهور في عهد وزاره بولينياك.

(٢) الدستوري Le Constitutionnel : صحيفة معارضة حرّة أسست في العام ١٨١٥ ومنعت في تموز ١٨١٧ وظهرت عند ذاك باسم التجارة Le Commerce حتى ايار ١٨١٩ حيث استعادت اسمها الأول.

وأجاب النادل: «كلا، إنّها الوحيدة».

مزّق الضابط صحيفة المعارضة وألقى بها قطعاً وبصق فوقها؛ وطلب من النادل علبة لعبة الدومينو.

خلال عشر دقائق، كان نبأ الشتيمة الموجّهة للمعارضة الدستورية والليبرالية من خلال تحقير صحيفتهم المقدّسة التي تهاجم الكهنة بالجرأة والروح التي تعرفونها[1] قد عمّ الشوارع وانتشر كالبرق في المنازل، وجرى الحديث فيه من ساحة إلى أخرى، وانطلقت من الأفواه كلمة واحدة: «فلنخبر ماكس!».

وعلم ماكس بالموضوع، ولم يكد الضباط ينهون جولة لعب الدومينو حتى حضر ماكس يرافقه المقدّم بوتل والنقيب رنار ويتبعهم ثلاثون شاباً من الفضوليين المندفعين لرؤية نهاية هذه المغامرة تجمعوا في ساحة السلاح بينما دخل ماكس ورفيقاه المقهى. المليء بالناس. نادى ماكس بصوت رقيق: «أيّها النادل، أين صحيفتي». وبدأ مناورة متصنعة، وردت المرأة الضخمة بصوت وَجِلٍ ومتودّد: «سبق إعارتها يا حضرة النقيب».

هتف أحد أصدقاء ماكس: «ابحثوا عنها».

قال النادل: ألا يمكنكم الإستغناء عنها؟ لم تعد موجودة لدينا».

راح الضباط الشباب يضحكون ويلقون بنظرات مواربة على البورجوازيين. وهتف أحد شباب المدينة وهو ينظر إلى رجلي الضابط الملكي النقيب: «لقد مُزّقت!».

وقف ماكس وقد صالب ذراعيه، وأبرقت عيناه وصرخ بصوت ثاقب: من سمح لنفسه بتمزيق الصحيفة؟

---

(١) كان بلزاك كمناصريه لا يحب صحيفة «الدستوري» ويسميها «صحيفة البقالين». وفي العام١٨٤٢ انهارت هذه الصحيفة أمام منافسة «لا برسLa Presse» و«القرنLe Siècle» لكن ڤيرون تمكن من دعمها في العام١٨٤٤، وكذلك أوجين سو في سلسلة«اليهودي التائه Le Juif Errant» التي نشرت بها لأكثر من سنة (حزيران١٨٤٥- تموز١٨٤٦).

نهض الضباط الشباب الثلاثة وهم ينظرون إلى ماكس وقالوا بصوت واحد: وبصقنا أيضاً فوقها.

قال ماكس وقد امتقع لونه: أهنتم بذلك كلّ المدينة.

ردّ الضابط الأحدث عمراً، وماذا بعد ذلك؟ ...».

وبحزم، وجرأة، وسرعة لم يتوقّعها هؤلاء الشباب وجه ماكس صفعتين لأوّل ضابط وصلت إليه يده قائلاً: «أتفهم الفرنسيّة؟».

وتوجّه الجميع للمبارزة على طريق فرابسل: ثلاثة ضد ثلاثة. إذ لم يشأ بوتل ورنار أن يجابه ماكسنس جيله الضباط الثلاثة وحده.

وقتل ماكس مبارزه، وجرح المقدّم بوتل خصمه التعس وهو ابن عائلة نبيلة جرحاً بليغاً، مات على أثره في اليوم التالي في المشفى الذي نقل إليه. أما الثالث فتعادل مع النقيب رنار خصمه بإصابة كل منهما الآخر بجرح. وانسحبت الكتيبة ليلاً متوجّهة إلى بورج وكان لهذه الواقعة دوي في برِيُي أشهر نهائياً ماكسنس جيل كبطل[1].

كان فرسان «فرسان البطالة» كلّهم من الشباب فأكبرهم لم يبلغ الخامسة والعشرين من العمر، وكلّهم من المعجبين بماكسنس، وبعضهم أبعد من أن يشاركوا ذويهم احتراسهم من ماكس وقسوتهم عليه؛ بل كانوا يغبطونه على وضعه ويجدونه في منتهى السعادة. وقد قامت الجمعية بزعامته بالأعاجيب. ولم يمرّ أسبوع بدءاً من كانون الثاني ١٨١٧ إلا واستثيرت المدينة بمقلب جديد. وطلب ماكس، حفاظاً على المواثيق، من الفرسان، بعض الشروط ووضع أنظمة للجمعية، وغدا هؤلاء الشياطين يقظين كتلاميذ أموروس[2]، شجعاناً كالعقبان،

(١) يذكر الكسندر لشربونيه مبارزة مماثلة جرت في إيسودون لذات الأسباب وقد قام بها النقيب فيكس بمفرده. وقد حاول السيد ج. إمبو أن يعلّل في مقال: «القصة الحقيقية لمبارزة فرابسل.» لكننا لا نوافقه على الخلاصة التي انتهى إليها. إذ يبدو أنه خلط موضوعين مختلفين: المبارزة مع الضباط الملكيين بخصوص الصحيفة. ثم مبارزة البونابرتيين التي ستتم العودة إليها بخصوص مبارزة فيليب وماكس.

(٢) دون فرنسيسكو أموروس أونديانو ضابط اسباني لجأ إلى فرنسة في العام ١٨١٤ وأنشأ فيها مؤسسات رياضية عرفت نجاحاً كبيراً.

مهرة في جميع الإختبارات، أقوياء بارعين كالأشقياء. وأتقنوا فن التسلّق على السطوح، وارتقاء المنازل، والقفز والسير دون ضجّة، ومزج الجبصين، وسدّ الأبواب، وغدا لديهم مصنع حبال وسلالم وأدوات تنكّر ووسائل له. وهكذا وصل فرسان البطالة إلى درجة مثالية من الدهاء ليس فقط في التنفيذ وإنما في ابتكار حيلهم، وانتهوا إلى اكتساب هذه العبقرية في الأذى التي كانت موضع غبطة بانورج الذي يثير الضحك ويجعل من ضحيته موضوع سخرية حتى لا يجرؤ على الشكوى. وقد كان لأبناء العائلات هؤلاء جواسيس في البيوت تتيح لهم الحصول على معلومات مفيدة لارتكاب تعدياتهم.

في أحد ليالي البرد الشديد، تمكّن هؤلاء الشياطين المتجسّدون أن ينقلوا مدفأة من صالة منزل إلى فنائه، وحشوها بالحطب بحيث استمرت فيها النار حتى الصباح، وذاع الخبر في المدينة أن السيد فلان (المعروف بشحه) جرّب أن يدفىء فناء بيته.

كانوا ينتصبون أحياناً جميعهم ككمين في الشارع الكبير أو الشارع المنخفض، وهما شريانا المدينة، حيث تنتهي إليهما الشوارع الصغيرة المعترضة. ويتلبّد كلّ واحد في زاوية جدار في طرف أحد هذه الشوارع الصغيرة؛ ثم يرفع رأسه مع الريح وسط بدء رقاد الأزواج ويصرخون جميعاً بصوت مذعور، وهم ينطلقون من باب إلى باب، من طرف المدينة إلى طرفها الآخر؛ ويستيقظ البورجوازيون ويظهرون بقمصان النوم وقلنسوات القطن، وفي يد كل منهم مصباح، وتتكرّر الأسئلة« ماهذا ؟ ... ماذا حدث ؟ ... ويتحلقون في أغرب اجتماعات، وفي أكثر المظاهر فضولاً.

كان هناك مجلّد مسكين، اعتقد وهو في آخر أيام عمره بوجود الشياطين، وكان يعمل كجميع حرفيي المقاطعات في دكان صغير منخفض؛ وغزا الفرسان، مقنّعين بهيئة شياطين، دكانه خلال الليل، ووضعوه في صندوق قصاصاته، وتركوه يصرخ لوحده كمن دبّت النار في أردانه، وأيقظ الرجل المسكين جيرانه،

وقصّ عليهم ظهور لوسيفر، ولم يستطع الجيران أبداً أن يكذّبوه. وكاد هذا المجلّد أن يصاب بالجنون.

في وسط شتاء قاس، هدم الفرسان مدخنة مكتب جابي الضرائب، وأعادوا بناءها في ليلة واحدة، مماثلة لما كانت عليه، دون أية ضجّة، ودون أن يتركوا أي أثر لعملهم، لكن بعد أن رتّبت داخلياً بحيث تنفث دخانها في كلّ المنزل. وبقي الجابي طيلة شهرين يتعذّب قبل أن يعرف كيف تحولّت هذه المدخنة التي كانت تسحب الدخان إلى الخارج، وكان شديد الإعجاب بها إلى عكس ما كانت عليه، مما اضطره إلى إعادة بنائها.

في أحد الأيام وضعوا ثلاث رزم من القش المكبرت، والورق المزيّت في مدفأة إحدى العجائز الورعات، صديقة السيدة هوشون، وفي الصباح عندما أوقدت النار، اعتقدت المرأة المسكينة، وهي امرأة هادئة وادعة، أنّها أوقدت بركاناً، وجاء الإطفائيون، وهرعت المدينة بكاملها، وبما أن بين الإطفائيين بعض فرسان البطالة، فإنهم أغرقوا بيت المرأة العجوز حتى أنها خشيت الطوفان بعد البركان، ودبّ بها السقام ذعراً وارتياعاً.

إن أرادوا أن يقضي أحدهم ليلة بيضاء ينتابه فيها القلق الممضّ، وجّهوا إليه رسالة غفلة من التوقيع ينذرونه فيها بأنه سيتعرض للسرقة في تلك الليلة. ثم يتناوبون في المرور على طول جدران منزله أو تحت نوافذه وهم يتبادلون الإشارة بصفير خاص.

كان أحد أبرع مقالبهم مما أضحك المدينة طويلاً، ومازال يروى فيها حتى الآن، هو توجيه رسائل إلى ورثة عجوز بخيلة جداً، لكنها ستترك إرثاً جميلاً؛ يعلنون فيها موت نسيبتهم، ودعوتهم للحضور في ساعة معينة لوضع الأختام على مقتنياتها، وتوافد ثمانون شخصاً تقريباً من ڤاتان، وسان فلوران، وفيرزون، والمناطق المجاورة وجميعهم في ثياب الحداد، لكن الفرحة بادية عليهم تقريباً، بعضهم مع نسائهم، والأرامل مع أولادهن، والأولاد مع آبائهم، منهم من حضر

في عربات، ومنهم من استقلّ طنابر عتيقة، أو كبريولات صغيرة من سوحر يجرّها حصان. ولكم أن تتصوّروا مشاهد الجدل بين خادمة السيدة العجوز وأوائل الوافدين، ثم الاستشارات لدى الموثقين! ... لقد بدت إيسودون يومها وكأنها في هياج شعبي.

أخيراً في أحد الأيام تجرّأ مدير المنطقة أن يعتبر هذه الأشياء قد وصلت إلى حدّ لا يطاق، بقدر ما تعذّر معرفة القائمين على هذه المساخر، وحامت الشبهات حول الشباب؛ ولكن بما أن الحرس الوطني موجود بالاسم فقط، ولا وجود لحامية، وليس تحت إمرة قائد الدرك أكثر من ثمانية عناصر، ولا يتم تسيير دوريات، فقد تعذّر الحصول على أدلة. لكن مدير المنطقة وُضع على «جدول أعمال الليل» واعتبر «العدو اللدود» للفرسان. وكان من عادة هذا الموظف أن يتناول في إفطاره بيضتين طازجتين. وهو يربي دجاجاً في زريبته، ويجمع إلى هوس تناول البيض الطازج، العمل على سلقه بنفسه. فلا زوجته، ولا خادمته، ولا انسان غيره يعرف كيف يسلق بيضة كما يجب. فهو ينظر إلى ساعته، ويفخر بأنه يتفوّق على جميع الناس في هذا الأمر. وهو يسلق بيضه منذ سنتين بنجاح استحق عليه ألف سخرية. لكن منذ شهر، وفي كل ليلة، أخذت ترفع بيوض دجاجاته ويوضع له بدلاً عنها بيوض مسلوقة قاسية[1]. ولم يفقه مدير المنطقة شيئاً مما يحدث؛ وخسر شهرته كسالق بيض، وانتهى إلى تغيير مادة إفطاره. لكنه لم يشتبه أبداً بفرسان البطالة الذين أتموا هذا الدور بمهارة فائقة. وابتكر ماكس وسيلة يشحّم له فيها قساطل مدافئه كل ليلة بزيت مشبع كريه الرائحة، بحيث يتعذّر عليه البقاء في منزله، ولم يكتف بذلك ففي يوم وجدت زوجته، وهي تتهيأ للذهاب إلى القداس، شالها وقد ألصقت أطرافه من الداخل بمادّة لازبة بحيث اضطرت إلى الاستغناء عنه. وانتهى المدير إلى طلب نقله. وثبّت جبن هذا الموظف وخضوعه نهائياً للهيمنة الماجنة والخفية لفرسان البطالة.

---

(١) يذكر السيّد سرڤال أن هذا المقلب حدث في العام ١٨٣٥ مع السيّد دي لاشاتر مدير منطقة إيسودون من ١٨٣٠ إلى ١٨٤٨.

ما بين ساحة ميزير وشارع مينيم، يوجد قسم من حيّ محاط بذراع من النهر القسري في أسفله، وبالسور في أعلاه وذلك بدءاً من ساحة السلاح وحتى سوق الفخاريّات. هذا الجزء المربع المتشوّه الشكل كان ممتلئاً بمنازل ذات مظهر بائس مضغوط بعضها إلى جانب بعضها الآخر، ومقسم بشوارع بلغت من الضيق ما لا يسمح لشخصين بالمرور معاً. هذا الجزء من المدينة هو نوع من فناء العجائب، يشغله أشخاص فقراء أو يمارسون مهناً قليلة الدخل، يسكنون في هذه الأكواخ القذرة، وفي نُزُل أطلق عليها بأسلوب جذّاب في اللغة الدارجة، البيوت العوراء. ولا شك أن هذا الحيّ كان في جميع العصور حيّاً ملعوناً، ملجأ لأشخاص ذوي سيرة سيئة، فأحد شوارعه يسمّى شارع الجلاّد[1] ومن الثابت أن بيت جلاّد المدينة ببابه الأحمر كان موجوداً فيه خلال خمسة قرون. وما يزال مساعد جلاد مدينة شاتورو مقيماً فيه، إن صدقت الشائعة السائدة، إذ أن البورجوازيين لا يرونه أبداً، لكن الكرّامين يقيمون علاقات وديّة مع هذا الشخص الغامض الذي ورث عن أسلافه هبة معالجة الكسور والجروح. وكانت بنات المتعة في السابق، يقمن قواعدهن في هذا الحيّ عندما كانت المدينة بمظهر العاصمة. وفيه أيضاً باعة الخردة والأشياء التي يبدو أنها لا تجد شارياً. والرّثاثون باعة الثياب العتيقة بمعروضاتهم النتنة. أخيراً فيه هذا الخليط المُختلق من بؤساء البشر الذين يصادفون تقريباً في جميع المدن في مثل هذه الأمكنة، حيث يسيطر يهودي أو يهوديان. في أحد هذه الأزقّة القاتمة، ومن الجانب الأكثر حيوية في هذا الحيّ، وجد من العام ١٨١٥ حتى العام ١٨٢٣ وربما إلى ما بعد ذلك، خمّارة تديرها امرأة تدعى الأم كونييت[2] وهذه الخمارة تقوم في بيت جيد البنيان تقريباً من سلاسل حجر أبيض تتخللها صفوف من لُبن ودُبش مطيّن، وهو يتألّف من قبو وطابق، وفوق الباب يلتمع ذلك الغصن الكبير من الصنوبر المماثل لبرونز فلورنسة، وإلى جانبه، كأنه رمز غير

(١) سُمّي منذ العام ١٨١٠ «شارع المسقاة» R. DE L'ABREUVOIR

(٢) يوجد في إيسودون «فندق دى لا كونييت. والأرجح وفقاً لما يذكره غينيار أن الخمّارة التي يتحدّث عنها بلزاك كانت قائمة في المنزل المجاور له.

كاف، تنبهر العين بلافتة زرقاء تشغل كفاف الباب وقد رُسِم عليها تحت هذه الكلمات: «بيرة مارس الطيّبة»[1] جندي يقدّم لامرأة عارية الصدر دفقة زبَد تنصب في كأسها المرفوع من دورق وهي ترسم قوساً فوّاراً، والكل بألوان جديرة بدلاكروا[2].

كان الطابق الأرضي يتألف من قاعة واسعة تستخدم مطبخاً وقاعة طعام، وقد ثُبِّت في عوارضها الخشبية مسامير تتدلى منها المؤن الضرورية اللازمة لهذه التجارة، وخلف هذه القاعة سلّم لولبي يقود إلى الطابق الأعلى. لكن عند قاعدة هذا السلّم ينفتح باب يفضي إلى غرفة صغيرة طويلة ينيرها أحد هذه الأفنية المعروفة في المقاطعة المشابهة لقسطل مدفأة لشدّة ضيقها وسوادها وعلوّها. هذه الغرفة مخفية بسقيفة مائلة، ومحجوبة عن جميع الأنظار بالأسوار، ويستخدمها فتيان السوء في إيسودون لاجتماعاتهم العامّة. في العلانية كان الأب كونيه يأوي أبناء الريف في أيام البازار، أما في السرّ فهو فندقي فرسان البطالة؛ وهذا الأب كونيه، السائس سابقاً في أحد بيوت الأثرياء، انتهى إلى الزواج بكونييت الطاهية السابقة في بيت موسر؛ واستمرت ضاحية رومة، كما في إيطالية وبولونية، على الطريقة اللاتينية، في تأنيث اسم الزوج ومنحه للزوجة.

اشترى الأب كونيه وزوجته، بعد ضمّ مدخراتهما. هذا المنزل، ليحوّلاه إلى خمارة. وكانت كونييت، وهي امرأة في نحو الأربعين من العمر، طويلة القامة. ممتلئة الجسم، ذات أنف شبيه بأنف روكسلان[3]، وبشرة سمراء داكنة، وشعر بسواد العنبر، وعينين داكنتين واسعتين تتوقّدان حيوية، وملامح ذكية ساخرة، وقد اختيرت من قبل ماكسنس جيله لتكون ليونارد[4] الجمعية بسبب طبعها ومواهبها

---

(١) مارس: في الميتولوجية الرومانية إله الحرب والزراعة.

(٢) دلاكروا (١٧٩٨-١٨٦٣) زعيم المدرسة الرومنسية في الرسم، اشتهر بجمال ألوانه، وخاصة في رواق أبولو في اللوفر.

(٣) روكسلان (١٥٠٥-١٥٥٩) زوجة سليمان الثاني وأم سليم الثاني. ويذكر هـ- رولان أن الأنف المرفوع كأنف روكسلان دليل المكر والمجون.

(٤) هو اسم طاهية اللصوص الذين احتجزوا جيل بلاس في مطلع رواية لساج.

كطاهية. وكان الأب كونيه في السادسة والخمسين من العمر، قصيراً بديناً، منقاداً لامرأته، ووفقاً للدعابة التي ما فتئت امرأته ترددها، لا يمكنه أن يرى الأشياء إلا بعين سليمة، ذلك لأنّه أعور.

خلال سبع سنوات، من العام ١٨١٦ إلى العام ١٨٢٣، لم يبدر من الزوج أو الزوجة أي تلفُظ بسرّ عما يتمّ لديهما ليلاً، أو عمّن يتآمرون في خمّارتهما، وبذلك حظيا بودّ الفرسان العميق. أمّا وفاؤهما فكان مطلقاً، لكن قد يفوته البهاء إن علمنا أنّ دافعه المصلحة. وأيّاً كان الوقت ليلاً يمكن للفرسان أن يحلّوا في الخمارة، بعد أن يطرقوا الباب باصطلاح خاصّ فيهرع الأب كونيه ليشعل النار والشموع، ويفتح الباب، وينزل إلى القبو ليحمل النبيذ المعتق خاصة لأعضاء الجمعية، وتقوم كونييت بإعداد حساء شهي لهم؛ سواء قبل أو بعد تنفيذ مهماتهم أو في عشيتها أو خلال النهار.

أثناء رحلة السيّدة بريدو بين أورليان وإيسودون، كان فرسان البطالة يقومون بأحد مقالبهم الساخرة ضد اسباني كهل، أسير حرب سابق، بقي في البلاد بعد أن ساد السلم، حيث كان يمارس تجارة الحبوب، فيأتي في ساعة مبكرة إلى السوق ويترك عربته الفارغة عند أسفل برج إيسودون؛ وعندما وصل ماكسنس في طليعةالوافدين وفق الموعد المحدّد لتلك الليلة عند قاعدة البرج، وبودر بهذا السؤال المُردَّد بصوت خافت: «ماذا نفعل هذه الليلة؟ أجاب: إن عربة الأب فاريو هنا، وقد ارتطمت بها وكدت أحطم أنفي. فلنصعدها أولاً حتى قمة البرج وسنرى بعد ذلك».

عندما بنى ريشار برج إيسودون، أقامه، كما سبق أن ذكرنا، فوق بقايا الكنيسة المؤسسة مكان الهيكل الروماني والدُون السلتي، وهذه الخرائب التي يمثّل كل منها مرحلة طويلة من القرون تشكّل جبلاً ضخماً من آثار ثلاثة عصور. فبرج ريشار قلب الأسد يوجد إذاً فوق قمّة مخروط وعر الانحدار من كل جانب لا يمكن

الوصول إليه إلا تسلّقاً، ولوصف صحن هذا البرج بكلمات قليلة يمكن مقارنته بمسلة الأقصر فوق قاعدتها. فقاعدة برج إيسودون، التي تكشف عن العديد من الكنوز الأركيولوجية المجهولة [١]، يبلغ ارتفاعها من جهة المدينة ثمانين قدماً وخلال ساعة كانت العربة قد فُككت ورفعت قطعة قطعة حتى أعلى التلّ عند قاعدة البرج في عمل مماثل لما قام به الجنود الذين نقلوا المدافع في ممر جبل سان برنار. وأعيد تركيب العربة، وأزيلت جميع آثار العمل، بحيث بدت وكأن الشيطان نقلها إلى هذا المكان، أو أن النقل تمّ بفعل عصا سحرية. بعد هذا العمل الصاعد، شعر الفرسان بالجوع والعطش فعادوا جميعاً إلى خمارة كونييت، وجلسوا سريعاً إلى مائدة في القاعة الصغيرة المنخفضة، وهم يضحكون مسبقاً من تخيل وجه الأب فاريو عندما سيبحث عن عربته حوالي الساعة العاشرة صباحاً. طبيعي أن الفرسان لا يجرون مقالبهم كل ليلة فعبقرية أمثال سغانارل، وماسكاري. وسكابن[٢] مجتمعة لا تكفي لأيجاد ثلاثمئة وستين مقلباً كلّ سنة. عدا عن أن الظروف لا تتهيّأ لذلك دائماً. فقد يكون ضوء القمر جليّاً، أو أن يكون المقلب الأخير قد أثار حساسية الأشخاص العقلاء؛ أو أن يرفض فارس أو آخر المساعدة عندما يتعلق الأمر بأحد أقاربه. لكن إن لم يلتق هؤلاء الفكهون كل ليلة لدى كونييت؛ فإنهم يجتمعون خلال النهار، حيث ينصرفون إلى متع الصيد المسموحة أو إلى القطاف في الخريف، أو إلى التزحلق على الجليد في الشتاء. في هذا التجمّع من عشرين شاباً في المدينة من المحتجين بهذه الطريقة ضد خدرهم الاجتماعي، يوجد من ينظر إلى ماكس كمثل أعلى له، كما أن روابط بعضهم به أشد وثوقاً من روابط الآخرين، ومثل هذا الطبع يحرض غالباً الشبيبة ومنهم حفيدا السيدة

---

(١) تلميح إلى أعمال التنقيب التي قام أرمان برنيه والكنوز الأثرية التي اكتشفها.

(٢) أ - سغانارل: أحد شخصيات مسرحيات موليير.

ب - ماسكاري: الخادم المخادع في مسرحيات القرن السابع عشر والثامن عشر.

ج - سكابن: خادم الملهاة الايطالية.

هوشـون: فـرنسـوا هوشـون، وباروخ بورنيش وهمـا من أشـد المخلصين لماكس، فـهذان الفتيان ينظران إليه كأنه نسيب لهما بتبينهمـا الرأي السائد في المنطقة حول القرابة غير الشرعـية مع آل لوسـتو. وكـان مـاكس يقـرض بسـخاء بعض الدراهم لهـذين الـشابين، وهمـا من يضيّق على أسبـاب متعتـهـما جدّهمـا هوشـون. وهو يصحبهمـا إلى الصيد، ويدرسـهـمـا، ويمارس عليهمـا نفوذا يفوق نفوذ العائلة. وهذان الشابان يتيمـان، وقد بقيا رغم بلوغـهمـا سن الرشد تحت وصاية جدهمـا السيد هوشون بسبب الظروف التي ستشرح عند ظهور السيد هوشون بما يستحق من شهرة على مسرح أحداث هذه الرواية.

في تلك اللحظة، كـان فرنسوا وباروخ(ولنسمـهـمـا باسميـهمـا الأولّين تأمينا لزيادة الوضـوح في هذه القـصـة) يجلسـان أحـدهمـا على يمين مـاكس والآخـر على يساره، وسط مائدة سيئة الإنارة بلهب سُخـامي لأربع شموع ثمنها نصف فرنك[٢]. وبعد أن عبّ الفرسان وكـان عددهـم أحد عـشر فـارساً نحو خـمس عشرة زجـاجة خـمـر إنحلت عـقدة جـمـيع الألسنة، والتـفت باروخ، واسـمـه يشيـر إلى بقيـة من الكالفنية في إيسودون وقال لماكس: «ستكون مهدّداً في مقرّ أركانك...

سأل ماكس: ماذا تعني بهذه الكلمات؟.

- تلقّت جدتي من السيّدة بريدو، فليونتـهـا، رسـالة تعلن لهـا مـجيئـهـا إلى إيسـودون مع ابنهـا، وأعدّت جدّتي غـرفتين لاسـتقبالهـمـا. تنـاول مـاكس كـأسـه، وأفـرغه دفعـة واحـدة، وأعاده إلى المائدة بحركـة مسرحـيـة قـائلا: ومـا عـلاقـتي بكل هذا؟»

كـان مـاكس آنذاك في الـرابعـة والثـلاثين من العـمـر. وكـانت إحـدى الشـموع

---

(١) - لاحظ السيد سيترون أن أسم بورنيش ليس من منطقة بري، وأن تاجر حطب في باريس كان بهذا الاسم العام ١٨٤٠.

(٢) - حسب جودة الشموع في ذلك الزمن كانت تباع شـمعتـان أو ثلاثة أو عشرة أو اثنتي عشر بفرنك واحد.

الموضوعة إلى قربه تلقي بنورها على وجهه العسكري، فيبرق جبينه مظهرا بشكل يثير الاعجاب لون بشرته العاجية، وعينيه المتوقدتين، وشعره الأسود الجعد قليلاً بلمعة العنبر. هذا الشعر الملتف بكثافة حول نفسه فوق الجبين وحول الصدغين، وهو يرسم بجلاء خمسة ألسنة سوداء كان يسميها أسلافنا «العقصات الخمسة». ورغم هذه التباينات المفاجئة بين الأبيض والأسود، كان لماكس مظهر ناعم جداً يستمد جاذبيته من ملامح مماثلة لتلك التي يعطيها رفاييل للوجوه المختلفة التي رسمها للعذراء، وفمه مشكّل بدقّة وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة عذبة، وهي سمة تميز بها ماكس أخيراً، إلى جانب البشاشة التي يخلعها التلون الغني على وجوه أهل بري. وكان عندما يقهقه ضاحكاً يظهر اثنتي وثلاثين سناً جديرة بأن تزين مبسم خليلة لعوب. وهو بطول خمسة أقدام وأربع بوصات، غير بدين ولانحيل، إنما بجسم يدعو الى الإعجاب بتناسقه، وإذا كانت يداه النظيفتان تعبّر ببياضهما عن جمال البشرة فإن قدميه تذكران بضاحية رومة، وجنود الامبراطورية المشاة، ولو بقي في الجيش لاستحق جيّداً رتبة لواء قائد فرقة؛ بل إن كتفيه جديران بحمل المقام الرفيع لمارشال فرنسة، وصدره العريض أهل لكل أوسمة أوروبة، عدا مايبدو في حركاته من ذكاء، أخيراً، فقد ولِد ظريفاً كجميع الأطفال المولودين عن علاقة حب[1]، وتجلى فيه نبل والده[2] الحَقيقي هتف من طرف المائدة ابن طبيب جراح اسمه غوره، كان من أفضل أطباء المدينة: «ألاتعلم إذا ياماكس أن فليونة السيّدة هوشون هي أخت روجه؟ وإذا كانت قد أتت مع ابنها الرسام، فذلك دون شك لاسترجاع ميراث الرجل، ووداعاً لقطافك...»

قطب ماكس حاجبيه وبنظرة مسحت وجوه الجالسين حول المائدة وجهاً

(١) - يصعب القول عن ماكس أنه ثمرة حب» بالمعنى الذي يطلقه بلزاك عادة على هذا التعبير. إذ مامن شئ في الرواية يدل على علاقة حميمة مع «والد ماكس» بل ذكر أن الوالدة كانت على علاقات عابرة مع عديدين.

(٢) - لمح بلزاك أن الوالد الحقيقي لماكس ضابط جذاب من الفرسان، والوقع أن ضباط الفرسان قبل العام ١٧٨٨ - سنة ولادة ماكس - كانوا جميعاً من النبلاء.

وجهاً، حاول أن يستشف تأثير هذه الالتفاتة على الخواطر وردّ مجدداً: «وماعلاقتي بكل هذا؟»

أستأنف فرنسوا: لكن يبدو لي في حال إبطال العجوز روجه لوصيته التي قد يكون وضعها لمصلحة المتصيّدة ... »

هنا قاطع ماكس صديقه بهذه الكلمات: «عندما جئت إلى هنا سمعت من يناديك أحد الهوشون الخمسة، وفقاً للجناس[1] المطبق على أسمائكم منذ ثلاثين سنة هنا، وأخرستُ الفم الذي ناداك هكذا ياعزيزي فرنسوا، وبطريقة فجة لم يجسر بعدها إنسان في إيسودون على هذه الحماقة، على الأقل أمامي! وهاأنت تفي دينك لي فتستخدم لقب ازدراء للإشارة إلى المرأة التي عُرِفَ تعلُّقي بها. »

لم يسبق لماكس أن قال مثل هذا الكلام عن علاقته مع المرأة، التي ذكرها فرنسوا باللقب الذي عرفت به في إيسودون. وأسير المجسّرين السابق لديه من الخبرة مايكفي، ومقدّم مدفعيي الحرس الامبراطوري يعرف كفاية معنى الشرف، بحيث يخمن سبب استخفاف المدينة. وهكذا لم يسمح أبداً لأحد أن يتلفظ بكلمة حول موضوع الآنسة فلور برازيه، تلك الخادمة - الخليلة لجان جاك روجه التي أطلقت عليها السيدة المحترمة هوشون بمزيد من القوة اسم **الطفيلية الرديئة**. والواقع أن كل واحد يعرف ماكس سريع الانفعال قبل أن يبدأ الحديث عن هذا الموضوع، لذلك فما من أحد يبدأبه. أخيراً في إثارة غضب ماكس أو تكديره مزيد من الخطر بحيث يتجنب أفضل أصدقائه المزاح فيما يتعلق بالمتصيدة. فإذا ورد ذكر علاقة ماكس مع تلك الفتاة أمام المقدّم بوتل أو النقيب رنار، الضابطين اللذين يحيا معهما على قدم المساواة يجيب بوتل: « إذا كان أخاً غير شرعي لجان جاك روجه، فلماذا لاتريدون أن يشاطره في هذا؟.

---

(١) - الجناس الناقص ظاهر بالفرنسية مابين الاسم Hochon وكلمة Cochon «خنزير» باستبدال الحرف الأول.

ويتابع النقيب رنار: بعد كل حساب، هذه الفتاة قطعة ممتازة، فأين الضرر إن أحبّها؟ ألم يحبُّ الفتى غوره السيّدة فيشه بحيث كوفئ بالابنة تعويضاً عن هذه السخرة؟» بعد هذا التوبيخ المستحق، تشتّتت أفكار فرنسوا، ولم يتمكن من استعادتها عندما قال له ماكس بعذوبة: «تابع ...

هتف فرنسوا: كلا!

هتف غوره الابن: أنت مخطئ في تكدّرك ياماكس، ألم نتفق أنّ بإمكاننا أن نقول كل شيء في خمارة كونييت؟ ألسنا جميعاً الأعداء المميتين لأي واحد منا يذكر شيئاً عما يقال أو يُبحَث أو يفعل هنا؟إن كل المدينة تشير إلى فلور برازيه بلقب المتصيّدة، وإذا كلن هذا اللقب قد ورد عفواً على لسان فرانسوا، فهل يعد هذا جريمة موجهة **لجمعية البطالة**؟.

قال ماكس: كّلا، ولكن ضد صداقتنا الخاصة. وقد خطرت لي هذه الفكرة، وتذكرت أننا الآن في جلسة **فرسان البطالة** لذلك قلت له: تابع ...»

ساد صمت عميق. وكانت الوقفة مقلقة للجميع إلى أن هتف ماكس سأتابع عن فرنسوا(إثارة) وعنكم جميعا(دهشة)! ... وسأقول لكم بماذا تفكرون(إثارة عميقة)[1]! إنكم تفكرون أن فلور، المتصيدة، ابنة برازيه، مدبّرة منزل الأب روجه، إذ أن هذا العازب العجوز يسمى الأب روجه دون أن يكون له أولاد. أقول، إنكم تفكرون أن هذه المرأة تقدّم لي جميع احتياجاتي. وإذا كنت أستطيع أن أبذر ثلاثمئة فرنك في الشهر، فأنكم تستمتعون بذلك، كما نفعل هذا المساء، وأنا أقرضكم جميعاً الدراهم، وإكوّاتي ترد من كيس الآنسة برازيه؟! وبعد، نعم(إثارة عميقة). ياالله! نعم! ألف مرة نعم! ... نعم، إن الآنسة برازيه تسدّد سهامها إلى ميراث هذا العجوز ...

علق ابن غوده وهو جالس في زاويته: إنها تحصلها من السلف إلى الخلف.

(١) - يحاكي بلزاك هنا أسلوب محاضر جلسات المجلس النيابي. هذه المحاضر التي كانت تملأ الصحف التي تنشر فيها الرواية مسلسلةً.

ابتسم ماكس من كلمة غوده الابن وتابع: تعتقدون أنني أضع خطة للزواج من فلور بعد موت الأب روجه. وأن أخت هذا الرجل وابنها، اللذين أسمع الحديث عنهما لأوّل مرة، يعرّضان مستقبلي للخطر؟

هتف فرانسوا: هو كذلك!

قال باروخ: هذا ما يفكر به كل من حول هذه المائدة.

ردّ ماكس: حَسَنٌ، كونوا مطمئنين ياأصدقائي، والرجل المحذَّر يعادل اثنين! والآن أتوجه إلى فرسان البطالة... ألا تمّدون لي يد المساعدة، إن احتجت الى الجمعية، في طرد هذين الباريسيين؟ ...»

عندها أحسّ بحركة تساؤل عامة فاستأنف بحماس: «أوه! ضمن الحدود التي نجري فيها مقالبنا. هل تعتقدون انني أريد قتلهما أو تسميمهما؟ ... الشكر لله، لست ذلك الوغد. وبعد كلّ حساب، إن نجح آل بريدو، فسأكتفي بما لدى فلور، أتسمعونني؟ إنني أحبها لدرجة أفضلها فيها على الآنسة فيشه، هذا إن رغبت الآنسة فيشه بي! ...»

كانت الآنسة فيشه أغنى وارثة في إيسودون، وخطبة الفتاة مركز اهتمام غوده الابن الذي يسعى إلى هذا الهدف عن طريق إغواء الأم...

كان لهذه الصراحة مردودها الجيّد بحيث نهض الجميع مرددين: «انت شاب طيب ياماكس»!

- هكذا يجب الكلام، ياماكس، سنكون جميعاً فرسانك في البطولة.

- سننخل آل بريدو!

- سنلجم آل بريدو![1]

---

(١) - في العبارات الثلاث المرددة تلاعب بالألفاظ على الطريقة التي يحبها بلزاك في الجناس الناقص، أي بتغيير أحد أحرف الكلمة لتغيير معناها وهو يظهر في أصل الكلمات الفرنسية.

فرسان البطالة CHEVALIERS DE DESOEUVRANCE. غدت C. DE DELIVRANCE

(أي فرسان التحرير أو الخلاص. وأعطيناها ترجمة البطولة. لإجراء مثل هذا الجناس بالعربية بين بطالة وبطولة.

النخالة BRIN مطابقة مع BRIDO

لَجَم BRIDER جناس ناقص مع BRIDO

- بعد كلّ حساب؛ هناك قصص عن ملوك تزوجوا راعيات!

- ياللشيطان! إن الأب لوستو أحب السيدة روجه. أليس حبُّ مدبّرة منزل، حرّة، ودون رباط زوجي أقل ضرراً؟

- وإذا كان المرحوم الدكتور روجه هو والد ماكس، على مايقال، فالأرث لايخرج من العائلة.

- إن جميع الآراء حرّة.

- يحيا ماكس!

- ليسقط المنافقون!

- لنشرب نخب فلور الجميلة!»

- هذه هي الإجابات الإحدى عشرة، أو التهليلات، أو الأنخاب، التي صدرت عن فرسان البطالة، والمباحة صراحة بأخلاقهم المنحلة؛ ومنها نرى أي فائدة يجنيها ماكس بتزعم جمعية البطالة، فبابتكار المقالب، وبالتفضل على شباب العائلات الرئيسة، أراد ماكس أن يجعل منهم أعواناً له لدعمه عندما يحين يوم رد اعتباره. ونهض برشاقة، وشرع كأسه المليء بنبيذ بوردو، وانتظر الجميع كلمة منه.

قال: «أشرب نخب الأذى الذي أعدّكم له، وأتمنى على الأقل لكل منكم امرأة تعادل فلور الجميلة! أما فيما يتعلق بغزوة الأنسباء، فلايخالجني في الوقت الحاضر أي خشية منها، وسنرى ماسيجدُّ مستقبلا! ...

- يجب ألا ننسى عربة فاريو.

قال غوده الابن: قسماً! إنّها في أمان.

هتف ماكس: أوه! سأتكفل بإنهاء هذا المقلب. تعالوا إلى السوق باكراً، وأنبئوني عندما يسعى الرجل للبحث عنها ...»

سمعت الساعة تدق الثالثة ونصف صباحاً، فخرج الفرسان بصمت، ليعود كل منهم إلى منزله وهم يحاذون الأسوار دون أن يحدثوا أيّة ضجة خاصة وأنهم ينتعلون أحذية من لبّاد وعاد ماكس بهدوء إلى ساحة سان جان الواقعة في القسم الأعلى مابين باب سان جان وباب ڤيلات[1]، حيث يقيم أغنياء البورجوازية. كان المقدم ماكس جيله قد تكتّم على مخاوفه إذ أنَّ هذا الخبر أصابه في الصميم. لكنه منذ أقامته على زوارق التجسير أو تحتها غدا في مواربة مماثلة في عمقها لفساده؛ فأولا وقبل كل شيء، يشكل دخل الأربعين الف فرنك من الاراضي الزراعية التي يمتلكها الأب روجه أساس هوى ماكس جيله لفلور برازيه؛ هذا أمر لاشك فيه. وبالطريقة التي تصرّف بها، من السهل ملاحظة مدى الثقة التي أوحت بها حول المستقبل المالي المؤمن لها نتيجة حنان العازب العجوز. غير أن وصول ورثة شرعيين، من شأنه أن يزعزع إيمان ماكس بقدرة فلور، ومدّخرات روجه خلال الأعوام السبعة عشر الفائتة كانت ماتزالِ أيضاً باسمه، وإن أمكن إبطال الوصية التي تذكر فلور أنها أعدت منذ زمن لمصلحتها. فعلى الأقل يمكن إنقاذ هذه المدّخرات إن تمّ نقلها إلى اسم الآنسة برازيه.

هتف ماكس وهو يدور في شارع مارموز ليدخل شارع آفنيه: «لم تقل لي هذه الفتاة الحمقاء خلال سبع سنوات كلمة حول أخت روجه وأولاد أخته. وهناك سبعمئة ألف فرنك موضوعة في عشرة أو اثني عشر مكتباً مختلفاً في بورج، وفيرزون، وشاتورو، ولايمكن أن تجمع، أو توضع في سندات على الدولة، خلال اسبوع، دون ان ينتشر الخبر في هذه المنطقة ذات التقولات!. قبل كل شيء يجب التخلص من القرابة، وما أن نتحرّر منها حتى نجّمع هذه الثروة. أخيراً سأفكر بطريقة ...»

كان ماكس مرهقاً. وبواسطة مفتاح عام دخل الى منزل الأب روجه، ونام دون أن يحدث أية ضجّة وهو يقول في نفسه: «غداً ستكون أفكاري أكثر صفاء».

---

(١) يذكر ر. غينيار أن هذين البابين خربّا في نهاية القرن الثامن عشر. ويريد بلزاك أن يشير فقط إلى موقعيهما.

من المفيد أن نذكر من أين جاء لقهرمانة ساحة سان جان لقب المتصيدة، وكيف تربّعت على ادارة منزل روجه.

بتقدم الطبيب العجوز، والد السيدة بريدو وجان جاك في العمر، لاحظ عدم أهلية ولده، فراح يعامله بقسوة ليكسبه نسقاً مطردا في التصرف يقوم مقام الفطنة، لكنه هيأه بذلك، دون أن يدري للخضوع لنير أول استبداد يمكن أن يقيده، وفي أحد الأيام لاحظ العجوز الماكر الفاجر، وهو عائد من دورته، فتاة صغيرة رائعة الجمال، على حافة مروج التيفولي، وعلى جلبة خبب الحصان وقفت الفتاة وسط أحد الجداول، التي تبدو من أعلى إيسودون كأشرطة فضية وسط ثوب أخضر، ورفعت الصغيرة فجأة، كحورية ماء، رأسها، فرأى الطبيب أحد أجمل هذه الرؤوس التي لايمكن أن يحلم رسّام بأروع منه لعذراء. لم يسبق للعجوز روجه الذي يعرف المنطقة كلها أن رأى هذه الآية من الجمال. كانت الفتاة شبه عارية، وهي ترتدي ثوباً قصيراً مثقباً وممزقاً، من قماش صوفي رديء تتناوب فيه أشرطة من اللونين الأبيض والأسمر الداكن؛ وعقدت فوق رأسها بغصن سوحر صحيفة ورق كقلنسوة، وتحت هذه الورقة المليئة بالخطوط والدوائر، التي تبرّر جيداً اسم الورقة الطلابية، التفَ أجمل شعر أشقر يمكن أن تتمناه إحدى بنات حواء وشُبِكَ بمشط من أمَشاط ذنب الخيل. وصدرها الجميل الملوح بالسمرة، وعنقها، وبعضه مغطى بمنديل مشقق كان سابقاً عصبة رأس يبديان بياضاً من تحت سمرة؛ وتنورتها المارة بين الساقين والمرفوعة حتى منتصف الجسم، حيث شبكت بدبوس كبير تبدو كسترة سبّاح. والقدمان والساقان الشافة عبر الماء الصافي، تعبّر عن رشاقة جديرة بتماثيل العصر الوسيط. هذا الجسم الفاتن المعرض للشمس كان بمسحة حمرة لايعوزها الظرف، والعنق والصدر يستحقان أن يحاطا بالكشمير والحرير. أخيراً كانت هذه الحورية بعينين زرقاوين مزينتين بأهداب تدفع الرسام والشاعر إلى الجثو أمامها خاشعين. وأدرك الطبيب الخبير بالأجسام بحيث لايخفى عليه جمال هذه القامة الهيفاء، ماسيخسره الفن إن تشوه هذا النموذج الفريد بأعمال الحقول، وسألها وهو الطبيب العجوز في السبعين من العمر آنذاك: «من أين أنت ياصغيرتي؟ أنا لم أرك أبداً قبل الآن!»

كان هذا المشهد في شهر أيلول من العام ١٧٩٩.

أجابت الفتاة: «أنا من ڤاتان»

بسماع صوت الطبيب البرجوازي، رفع رجل بشع السحنة يقف على بعد مئتي خطوة من الفتاة رأسه وصاح: «وبعد مابك يافلور؟ إنك تتسامرين بدلا من أن **تعكرّي المياه**، وهكذا سيفوتنا الصيد!

تابع الطبيب حديثه دون أن يهتم بتأنيب الرجل، وسألها: وماذا جئت تفعلين من ڤاتان حتى هنا؟

- انني أحرك الماء من أجل عمي برازيه الواقف هناك».

حركّ الماء كلمة من اصطلاح منطقة بري تصور بشكل رائع مايعني: تعكير ماء جدول بدفعه إلى الفقفقة بواسطة غصن شجر عريض تشكل عيدانه مروحة كالمكنسة؛ مما يذعر القريدس نتيجة هذه الحركة المفاجئة لها فتخرج من الشقوق والحفر وتصعد بسرعة في مجرى الماء وتلقي بنفسها وسط الشباك التي يضعها الصياد على مسافة ملائمة[1].

وكانت فلور برازيه تمسك بيدها **غصن التعكير** بالظرف الطبيعي للبراءة.

قال الطبيب: «لكن هل لدى عمّك رخصة لصيد القريدس؟.

صرخ العم برازيه من موقعه: وبعد ألسنا في ظل الجمهورية الواحدة غير القابلة للتجزئة؟

رد الطبيب: نحن في عهد حكومة الإدارة، ولاأعرف قانوناً يسمح لرجل من ڤاتان بالمجيء إلى أراضي منطقة إيسودون ليصطاد فيها. هل أمّك على قيد الحياة ياصغيرتي؟

- كلاسيدي، وأبي في مشفى بورج، وقد أصيب بالجنون عقب ضربة شمس تلقاها في الحقول على رأسه...

---

(١) - هذا الشرح المقدم من بلزاك معترض عليه. فجوبير الذي يتحدث في« معجم فرنسة المركزية» يذكر أن تعكير مياه الجداول يستخدم لصيد السمك لاالقريدس. وغينيار يذكر أن القريدس يلجأ إلى الثقوب ولايرمي بنفسه في الشباك؛ مما قد يسمح بالتقاطه بالأيدي.

- كم تكسبين؟

- خمسة فلوس في اليوم خلال موسم الصيد، ونحن نذهب للتعكير حتى برين[1]. وخلال الحصاد التقط السنابل؛ وفي الشتاء أغزل الصوف.

- إنّك في سن الثانية عشر تقريباً...

- نعم ياسيدي.

- أتريدين المجيء معي؟ سيتوفر لك الغذاء الجيد، واللباس الملائم، والأحذية الجميلة...

قال العم برازيه الذي اقترب من ابنة أخيه ومن الطبيب: كلا، كلا، إن ابنة أخي ستبقى معي فأنا مسؤول عنها أمام الله والناس، وأنا الوصي عليها، أتدرك ذلك؟.

حافظ الطبيب على رزانته، وحبس بسمة كانت ستبدو بالتأكيد على شفتي أيّ إنسان عند مرأى العم برازيه؛ كان على هذا الوصي قبعة فلاح قرضها المطر والشمس، فتقطعت كورقة ملفوف تغذي عليها عدة سرفات فرُفِئَت[*] أطرافها بخيط أبيض، وارتسم تحت القبعة وجه اسمر غامق مخدّد يشكِل الفم والأنف والعينان عليه أربع نقاط سوداء، وكانت سترته الرديئة أشبه بقطعة بساط، وبنطاله من قماش المماسح الخشن[2]

قال الطبيب: «إنني الدكتور روجه، وبما أنك الوصي على هذه الفتاة، فتعال بها اليّ في ساحة سان - جان وسيكون يومك طيباً، وكذلك يوم هذه الطفلة...»

ودون أن ينتظر جواباً، وهو واثق من أنه سيرى العم برازيه مع معكّرة المياه الجميلة، لكز حصانه وانطلق بسرعة نحو إيسودون. والواقع، أن الطبيب ما كاد يجلس إلى المائدة حتى جاءت الطاهية تعلن حضور المواطن والمواطنة برازيه.

---

(١) - هي منطقة مغمورة بالمستنقعات على بعد خمسة عشر فرسخاً من ايسودون.

(*) رفأ الثوب: لأمَ خرقه وخاطه.

(٢) - هذا اللقاء شبيه بلقاء بلونده مع الأب فورشون في رواية **الفلاحين**.

قال الطبيب للعم وابنة أخيه: «اجلسا»

نظرت فلور ووصيُّها، وماتزال أقدامهما عارية، بأعين مندهشة، حولهما، وإليكم السبب: كان هذا المنزل الذي ورثه روجه عن آل دكوان يقوم وسط ساحة سان جان وهي نوع من حيّز مربعٍ ضيّق جداً زرعت فيه بعض أشجار زيزفون عجفاء. وكانت البيوت في هذه المنطقة مبنية بشكل أفضل منها في أي مكان أخر، وبيت آل دكوان من أجملها[١]؛ وهذا المنزل، الواقع في مواجهة منزل السيد هوشون، له ثلاث نوافذ في واجهة الطابق الأول، وفي الطابق الأرضي بوّابة عربات تنفتح على فناء تمتد في مابعده حديقة، وتحت عقد البوّابة يوجد باب قاعة واسعة تضيئها نافذتان تطلان على الشارع، والمطبخ خلف القاعة لكنه منفصل عنها بسلم يوصل الى الطابق الأول وإلى السقائف فوقه، وخلف المطبخ مستودع للحطب، وعنبر يستخدم للغسيل، واصطبل لحصانين، ومرآب، وفوق هذه الأمكنة مستودعات للشوفان، والعلف والقش حيث ينام آنئذ خادم الطبيب، وكانت القاعة التي أدهشت كثيراً الفلاحة الصغيرة وعمّها مزينة بخشب جدران محفور بطراز الحفر السائد أيام لويس الخامس عشر، وهو مدهون بلون أشهب، وفي صدرها مدفأة جميلة رخامية تقوم فوقها مرآة كبيرة دون دعامة في الأعلى، وقد ذُهِّبت حوافها الجانبية. وأمكن لفلور أن ترى نفسها فيها ضمن هذا الاطار الجميل. بينما توزعت على البطانة الخشبية بين مسافة وأخرى بعض اللوحات الزيتية من أسلاب رهبنيات ديول، وإيسودون، وسان جيلداس، وپرى، وشيزال - بنوا، دى سان سولبيس[٢] وديري بورج وإيسودون التي كانت أريحية ملوكنا وأتقيائنا قد أغنتها هبات ثمينة ولوحات جميلة تعود إلى عهد النهضة، وهكذا كان بين اللوحات المحفوظة من قبل دكوان، وانتقلت الى روجه، لوحة العائلة المقدسة

---

(١) - سعى الباحثون لتحديد هذا المنزل، ويعتقد السيد سرڤال أنه كان موجوداً مقابل مركز مديرية المنطقة؛ لكن السيد غينيار يوقّعه بالاعتماد على ملاحظة من ريشاردسي في موقع هذه المديرية بالذات وهو يعود الى ابناء عم زولما كارو وهدم في نهاية عهد الامبراطورية الثانية.

(٢) - جميع هذه الرهبنيات وهي أديرة صغيرة تابعة للبندكتين أو الكلونيين هجرت أو هدمت خلال الثورة ونهبت محتوياتها.

لألبـان، والقـديس جيـروم لدومـينيكـان، ورأس المسـيح لجـان بلين[1]، وعذراء لليوناردو دافنشي، وحمل الصليب لتيتيان وهو من مجموعة المركيز دى بلابر، هذا الذي تحمّل الحصار، وقُطع رأسه في عهد لويس الثالث عشر، ولوحة اليعازار لبول فيرونيز وزواج العذراء للكاهن جنْوا، ولوحتان كنسيتان لروبنز، ونسخة عن لوحة لبروْجن أعـدَّت من قبل بروجن أو تلميذه رفاييل، ولوحـتـان لكوريج، ولوحـة لاندره دل سارتو[2]. وقد اختـار آل دكوان هذه التحف من ثلاثمئة لوحة كنسيّة، دون أن يعرفوا قيمتها، إنما اصطفوها فقط وفقاً لحالة حفظها؛ وكان العديد منها يحتفظ إلى جانب أطره الرائعة بواقية من زجاج. ولجمال هذه الأطر وقيمة الألواح الزجاجيـة احتفظ آل دكوان بهذه اللوحات. فأثاث هذه القاعة لاينقصه إذاً هذا الترف المثمن عالياً في أيامنا، لكنه كان دون قيمة في إيسودون. والساعة الموضوعة فوق المدفأة بين شمعدانين جميلين من الفضة بستة فروع تنبئ بروعة ديرية وهي من صنْع بُول. والأرائك من خشب السنديان المحفور وهي مفروشة بنجود مطرزة تعود إلى ورع بعض نساء الطبقة العليا، وقد علتها التيجان والشعارات النبيلة ممايعطيها قيمة كبيرة حالياً، ومابين النافذتين وجدت منضدة غنّية الزخارف واردة من أحد القصور، وعلى رخامتها يقوم إناء صيني كبير يضع فيه الطبيب تبغه. لم يكن الطبيب أو ابنه، أو الطاهية أو الخادم يعنون بهذه الكنوز؛ فقد كان يبصق فوق موقد بمنتهى الروعة طُعمت زخارفه بيشب أخضر رمادي، وثريا نصفها من الكريستال والنصف الآخر من أزهار من البورسلين مرشوشة كالسقف المدلاة منه بنقط سوداء تشهد على الحرية التي يتمتع بها الذباب. وكان آل دكوان قد وضعوا على النوافذ ستائر من بروكار مزهّر منتزع عن سرير رئيس دير مفوّض. وإلى يسار الباب صندوق مزخرف لاتقل قيمته عن آلاف الفرنكات يستخدم كخزانة.

---

(١) - جان بلين: الاسم المُفرنَس، وفق استعمال ذلك العصر، لجان بليني الرسّام الفينيسي العائد للقرن الخامس عشر، وسبق لبلزاك أن ذكره - وفق التسمية الايطالية في **التحفة المجهولة وبهاء وتعاسة الغانيات**.

(٢) - هذه لائحة بلوحات اعتاد بلزاك أن يضمنها رواياته، وهي خيالية بحيث يتعذر تحديد وجود هذه اللوحات وقد جهد أن تكون عائدة لفنانين من عصر واحد تقريباً.

قال الطبيب لطاهيته: هيّا يافانشيت آتنا بكأسين، وبالمشهيات.

كانت فانشيت خادمة بدينة من منطقة بري تعتبر أفضل طاهية في إيسودون قبل مجيء كونييت إليها، وقد هرعت بخفة تكشف عن مدى استبداد الطبيب، وعما اعتراه من فضول.

قال الطبيب وهو يصبُّ كأساً للعم برازيه: «كم يساوي أربنت الكروم في منطقتكم؟

- مئة إكو نقداً.

- حسن، اترك لي ابنة أخيك خادمة بأجرة مئة إكو، وستقبض أنت هذه الأجرة باعتبارك الوصي عليها.

استدارت عينا برازيه كصحنين وسأل: في كل سنة؟

أجاب الطبيب: أترك هذا لوجدانك، إنّها يتيمة، وحتى سن الثامنة عشر لن يكون لها علاقة بهذه الأجرة.

قال العم: إنّها في الثانية عشر، هذا يعني كسب ثمن ستة أربنتات من الكروم. كم هي لطيفةوديعة كحمل، جيدة البنيان، خفيفة الحركة، سلسة القياد. المخلوقة المسكينة، إنّها قرّة عين أخي المسكين.

قال الطبيب: سأدفع لك أجرة سنة سلفاً.

قال العم آنذاك: آه! اجعلها سنتين، وسأتركها لك، وستكون في وضع أفضل لديكم منها بيننا، إذ أن امرأتي تضربها وهي لاتطيقها؛ ومامن أحد غيري يحمي هذه المخلوقة القديسة البريئة كطفل ولد حديثاً.»

بسماع العبارة الأخيرة تنبه الطبيب إلى كلمة البراءة التي نطق بها العم، فأشارله بيده وخرجا معاً إلى فناء الدار ومنه الى الحديقة، بينما بقيت المتصيدة على المائدة بين فانشيت وجان جاك وهما يستجوبانها فتقصّ عليهما ببراءة لقاءها مع الطبيب.

قبّل العم برازيه عند عودته فلور من جبينها قائلا : «هيّا ، ياصغيرتي العزيزة ، يمكنك أن تعتبري جيّداً أنني ابتغيت سعادتك بوضعك عند أب الفقراء هذا الشهم الكريم . أطيعيه كطاعتك لي ، وكوني عاقلة ، ولطيفة وافعلي كل مايريده منك ...

قال الطبيب مخاطباً فانشيت : هيئي الغرفة الواقعة فوق غرفتي . فهذه الصغيرة فلور ، واسمها على مسمى ، ستنام فيها منذ هذا المساء . وسنستدعي لها غداً حذّاء وخياطة لإعداد مايلزمها . ضعي لها في الحال طبقاً على المائدة ، فستتناول طعامها معنا . »

في المساء لم يكن من حديث في مدينة إيسودون كلها إلا عن التحاق هذه المتصيّدة الصغيرة بمنزل الدكتور روجه ، واقترن هذا اللقب ، في هذه المنطقة الساخرة ، باسم الآنسة برازيه ، قبل نوالها هذه الحظوة وخلالها وبعدها .

أراد الطبيب دون شك ، أن يفعل من أجل فلور برازيه بشكل مصغر ، مافعله لويس الخامس عشر ، بشكل مكبّر من أجل الآنسة دى رومانس[1] ، لكنه أجرى ذلك متأخراً جداً : فلويس الخامس عشر كان مايزال شاباً ؛ بينما الطبيب في عزّ الشيخوخة . وعرِفت المتصيدة الظريفة بين الثانية عشر والرابعة عشر من عمرها ، سعادة لاشائبة فيها ؛ فهي مكسوة جيداً ، ومتجهزة كأغنى فتيات إيسودون ، كما أنهّا تتزين بساعة ذهبية وحليّ منحها لها الطبيب ليشجعها على الدراسة ، إذ أن معلماً كان مكلفا بالمجيء ليعلمها القراءة والكتابة والحساب ، لكن الحياة شبه الحيوانية للفلاحين أحلّت في نفس فلور هذا النفور من كأس العلم المرّ حتى اضطر الطبيب

---

(١) - اعتبرت الآنسة دى رومانس إحدى هذه «الظبيات» الشاردة ، عندما اهتم بها لويس الخامس عشر في العام ١٧٦٠ وكان قد بلغ الخمسين . لكن مامن إثبات إلى إنه اهتم بتثقيفها منذ طفولتها . لكن بلزاك يرجع أكثر من مرة إلى تلك الواقعة الأسطورية ، فيذكر في قصة **ماسيميلادوني** خاصة ، كيف قام نبيل صقلي بتربية خادمة في حانة أعجبه صوتها الساحر «وكان جمال تلك الطفلة ، وهي ماتزال في الثانية عشر ، جديراً بصوتها ، وثابر النبيل الكبير بجلد على تربية تلك الفتاة ، كمثابرة لويس الخامس عشر على تربية الآنسة دي رومانس . وانتظر بصبر إلى أن بلغت السادسة عشر من عمرها ليستمتع بهذه الكنوز التي حرص على تنميتها بعناية كبيرة .

إلى التوقف عند هذا الحدّ من تثقيفها. وفسّرت نواياه بالنسبة لتلك الفتاة، التي رفع مقامها، وعلّمها، وهيأها بعناية مؤثرة بقدر ماعرف عنه أنه غير قادر على العطف والحنان، تفسيرات مختلفة من قبل بورجوازية المدينة الثرثارة، التي سببت تقولاتها، كما عند ولادة ماكس وأغات أخطاء مشؤومة. إذ ليس من السهل على جمهور المدن الصغيرة أن يميزوا الحقيقة بين آلاف التخمينات، ووسط تعليقات متناقضة، وعبر جميع الافتراضات التي يخلقها حدث ما؛ فالمقاطعات، كما سياسيو ذلك الجزء من حدائق التويلري المسمى بروفنس الصغيرة[1]، تريد تفسير كل شيء، وتنتهي إلى الإلمام بمزيد من التخمينات، وكلٌّ يتمسك بالوجه الذي استماله في الحدث، يرى فيه الحقيقة، ويبرهن عليها، ويعتبر تعليله هو التعليل الصحيح وحده. والحقيقة رغم الحياة المكشوفة والتجسس السائد في المدن الصغيرة تكون غامضة غالباً، وتتطلب لجلائها إمّا الزمن الذي تعتبر بعده غير ذات بال، أو الموضوعية التي يتبناها المؤرخ أو الرجل السامي الذي يتطلّع إليها من علٍ.

- قال أحدهم بعد سنتين من وجود المتصيدة في بيت الطبيب: « ماذا تريد أن يفعل قرد عجوز في عمره هذا بفتاة في الخامسة عشر؟.

- ورد آخر: أنت على حق، لقد انقضت مدة طويلة على أيام احتفالاته...

- وعلق ثالث معتد بذكائه: ياعزيزي، إن الدكتور قد اغتاظ من حمق ابنه، وهو مستمر في حقده على ابنته أغات، وفي هذه الورطة ربما فكرّ أن يعيش بتعقل خلال السنتين الماضيتين ليتمكن من الزواج بهذه الصغيرة، علّها تنجب له فتى جميلاً رشيقاً، مشيقاً، في مثل حيوية ماكس. - دعنا في راحة بال، أبعد الحياة الصاخبة التي مارسها لوستو وروجه بين ١٧٧٠ و ١٧٨٧ يمكن أن ينجب ولداً وهو

(١) - هو القسم من التويلري الملاصق للجدار نصف الدائري «لمصطبة الرهبان» وكان المكان مطلاً ومشمساً يتردد عليه أهل المنطقة يقرؤون الصحف ويعلّقون على الأخبار.

في الثانية والسبعين من العمر؟! لاشك أن هذا الفاسق العجوز قد قرأ العهد القديم، على الأقل كطبيب، ورأى فيه كيف أدفأ الملك داوود شيخوخته[1]... هذا هو كل شيء ايها البورجوازي.

هتف أحد الأشخاص من المؤمنين خاصة بالشرّ: يقال أن برازيه يفخر عند سكره في فاتان بأنه تمكن من سرقة الطبيب.

- ايه! ياإلهي، أيّها الجار، هل ثمة شيء لايقال في إيسودون؟»

من العام ١٨٠٠ إلى العام ١٨٠٥، وخلال خمس سنوات اغتبط الطبيب بتربية فلور دون المتاعب التي خلقها طموح وتطلعات الآنسة دي رومانس، على مايقال، للويس المحبوب.

فالمتصيدة الصغيرة كانت مسرورة جداً عند مقارنة وضعها عند الطبيب، بالحياة التي كانت ستحياها عند عمها برازيه، لذلك كانت تمتثل لجميع متطلبات سيدها كامتثال العبد الرقيق في الشرق. وأياً كان رأي مصوري المثالية ومحبّي الإنسانية، فإن أبناء الريف لا يملكون إلا مفاهيم قليلة حول بعض الفضائل[2]؛ والمحاكمات الوجدانية تنبع من الأفكار النفعية، وليس من الإحساس بالخير أو الجمال، فهم المتربون في أحضان الفقر، والعمل المستمر، والشقاء، يجعلهم هذا الفكر يعتبرون كل مايمكن أن يخلصهم من جحيم الجوع والكدّ المتواصل مسموحاً، خاصة إن لم يكن معارضاً للقانون. والاستثناءات إن وجدت، نادرة. والفضيلة من وجهة النظر الاجتماعية، هي التوجه إلى الرفاه، وتبدأ بالتعلم. وهكذا غدت

(١) - هو تلميح لما ورد في الإصحاح الأول من سفر الملوك: «وشاخ الملك داوود، وتقدّم في الأيام، وكانوا يدثرونه بالثياب فلايدفأ. فقال له عبيده ليفتشوا لسيدنا الملك على فتاة عذراء. فلتقف أمام الملك، ولتكن له حاضنة، ولتضطجع في حضنه فيدفأ سيدنا الملك. ففتشوا على فتاة جميلة في جميع تخوم اسرائيل فوجدو أبيشبج الشونمية، فجاؤوا بها إلى الملك، وكانت الفتاة جميلة جداً. فكانت حاضنة للملك، وكانت تخدمه، لكن الملك لم يعرفها.

(٢) - تلميح واضح لأوجين سو. ففي أيلول ١٨٤٢، في الفترة التي كتب فيها بلزاك روايته، كان صديقه أوجين قد نشر القسم الثاني من «أسرار باريس» وفيه يرى رودولف الانساني يضع فلور ماري مغنية الشوارع في مزرعة نموذجية في بوكفال. كما أن أحد فصول هذا القسم بعنوان«مثالية» وبلزاك يعترض ايضاً على هذه النظرة المثالية لأبناء الريف في اهدائه رواية **الفلاحين لغافو**.

المتصيدة موضوع غيرة الفتيات ضمن دائرة يمتد شعاعها إلى عشرة فراسخ، بالرغم من أن سلوكها، في نظر الدين، يستوجب العقاب بكل تأكيد. ففلور المولودة في العام ١٧٨٧ تربت وسط مظاهر الدعارة بين ١٧٩٣ و ١٧٩٨، حيث كانت انعكاساتها توجّه هذه الحملات للكهنة، والتعبّد والقداديس، والاحتفالات الدينية، وحيث التحريض على الزواج من أجل إقامة علاقات شرعية. لكن المبادئ الثورية تركت بصماتها العميقة، وخاصة في إيسودون، المنطقة التي تدين بالثورة تقليدياً. وفي العام١٨٠٢ لم تكن الشعائر الكاثوليكية قد استعادت تأثيرها. وكانت مهمة شاقة أمام الامبراطور إيجاد العدد اللازم من الكهنة. وحتى العام ١٨٠٦ بقيت كثير من الخورنيات في فرنسة دون كهنة، فجمع الشمل الكهنوتي المستأصل بالمقصلة كان بطيئاً بعد هذه البعثرة العنيفة.

في العام ١٨٠٢ إذاً، مامن أحد يمكن إن يلوم فلور إلاوجدانها[١]. لكن أليس الوجدان أضعف من المصلحة لدى ربيبة العم برازيه؟ وإذا كان كل شئ يدعو إلى الافتراض بأن الشيخوخة ألزمت الطبيب الكلبي أن يحترم فتاة في الخامسة عشر من العمر، فإن هذا لايقلّل من اعتبار المتصيدة فتاة يقظة حتى الجرأة، وفق الاصطلاح السائد في المنطقة، غير أن بعض الأشخاص أرادوا أن يروا، في توقف الطبيب عن العناية والرعاية اللتين أحاطها بهما خلال السنتين الأخيرتين من حياته، شهادة على حرصها على طهارتها، لادليلا على برود الطبيب العجوز[٢].

شهد العجوز روجه كثيراً من المحتضرين على فراش الموت، بحيث لم يفته توّقع ساعة موته، وهكذا بوجوده فوق سرير الاحتضار ملتفاً بوشاح الفلسفة الموسوعية، طلب منه كاتب عدله أن يفعل شيئاً لمصلحة تلك الفتاة - الموجودة في بيته - وهي في السابعة عشر من عمرها فقال: «حسن، فلتعتبر راشدة في هذه السن».

هذه الكلمة تصورّ هذا العجوز الذي لاتفوته أبداً سخرياته التي اعتاد عليها

---

(١) - هذه العبارة توضح ماورد في الاهداء لنوديه«هل يمكن اللجوء إلى الكاثولكية لتنقية الجماهير بالعاطفة الدينية.

(٢) - كأن بلزاك هنا يتردّد في التصريح عما دار حقيقة بين فلور والدكتور روجه. ويبدو أنه يلمح إلى أن فلور حافظت على بكارتها نتيجة عجز الطبيب الشيخ. بينما يدّعي أهل المنطقة العكس كرها بالرجل

حتى على أولئك الذين كفلهم؛ وهو بتغطية تصرفاته السيئة بروح الدعابة يدفع إلى غفرانها في بلاد تعتبر الفكاهة على حق دائماً، وخاصة إن اعتمدت على المصلحة الشخصية بالطبع.

رأى كاتب العدل في هذهِ الكلمة، صرخةَ حقد مركزة لرجل، أفسدت الطبيعة مخططات فجوره، وانتقاماً ضد الهدف البريء لحبّ عاجز. وتأكد هذا الرأي، إلى حدّ ما، بإصرار الدكتور على ألا يترك شيئاً للمتصيدة، وقال عندما ألحّ كاتب العدل حول هذا الموضوع: «يكفيها جمالها ثروة!».

لم يبك جان جاك روجه والده، بينما بكته فلور. فالطبيب العجوز أشقى ولده، وخاصة منذ أن بلغ سن الرشد في العام ١٧٩١، بينما منح الفلاحة الصغيرة السعادة المادية، وهي بالنسبة لأبناء الريف مثال السعادة. وعندما قالت فانشيت لفلور بعد زمن المرحوم: «ماذا ستفعلين الآن، بعد أن لم يعد السيّد موجوداً؟» أبرقت عينا جان جاك، ولأول مرة دبّت الحياة في وجهه الجامد، وبدا أنه استنار بشعاع فكرة طرأت له، ونمّت عن عاطفة خالجته.

قال لفانشيت التي كانت ترفع الأطباق عن المائدة: «دعينا لوحدنا الآن».

كانت فلور وهي في السابعة عشر من عمرها ماتزال محتفظة بتلك الرشاقة في القامة والرقّة في القسمات، والتفرّد في جمال سبق له أن فَتَنَ الطبيب، وهو ماتعرف نساء المجتمع أن يحافظن عليه، لكنه يذبل لدى الفلاحات بمثل سرعة ذبول أزهار الحقول. غير أن هذا الميل لامتلاء الجسم الذي يبدو على جميع الريفيات اللواتي لايمارسن حياة العمل والحرمان في الحقول والشمس بدأت تظهر عليها. فبدا صدرها عامراً ورسم كتفاها العبلان البضّان استدارتين غنيتين ترتبطان في تناسق مع عنقها الذي بد يتثنى، لكن محيط الوجه بقي صافياً وحافظت الذقن على نعومتها.

قال جان جاك بصوت متهدّج: «فلور، لقد ألفت جيّداً هذا المنزل؟ ...

- نعم، ياسيدّ جان ...»

في اللحظة التي أزمع فيها على بوحه، شعر الوريث بلسانه متجمداً بذكرى ميت دفن حديثاً جداً. وتساءل عن المدى الذي بلغه حسن صنيع والده؛ وانتظرت فلور وهي تنظر إلى معلمها الجديد، دون أن تستطيع تخمين مدى سذاجته بعض الوقت، متوقّعة أن يستأنف كلامه، لكنه تركها دون أن تدرك سرّ الصمت المعنّد الذي لزمه. وأيا كانت التربية التي اكتسبتها المتصيدة من الطبيب، فقد وجب أن ينقضي أكثر من يوم لتتعرف على طبع جان جاك الذي يمكن تلخيص قصته بقليل من الكلمات.

كان جان جاك، وهو في السابعة والثلاثين من العمر عند موت والده، بمثل خجل وإذعان ولد في الثانية عشر من العمر، للسلطة الأبوية، وهذا الخجل يمكن أن يفسر طفولته وشبابه، وحياته لأولئك الذين لايدرون إدراك هذا الطبع أو أحداث هذه القصة، وهي للأسف شائعة بين الناس، حتى بين الأمراء، إذ أن صوفي دوز كانت مع آخر أمراء كونده في حالة أسوأ من حالة المتصيّدة[1]. وهناك حالتان من الخجل: خجل الروح وخجل الأعصاب؛ أو الخجل المعنوي والخجل الفيزيائي؛ وكل منهما مستقل عن الآخر. فالجسم يمكن أن يرتاع ويضطرب بينما تبقى النفس هادئة جريئة. والعكس بالعكس. وهذا مايسهل فهم الكثير من المظاهر النفسية الغريبة. فإذا اجتمع الخجلان لدى انسان فسيغدو عديم الكفاءة طيلة حياته. وهذا الخجل الكامل هو خجل من نسميهم «البلهاء». وتحتجب غالباً في الأبله مزايا كبيرة مضغوطة. وربّما تعود إلى هذا العجز المضاعف حالة بعض الرهبان الذين عاشوا في الانخطاف. إذ يمكن لهذا الوضع الفيزيائي والنفسي المؤسف أن ينتج عن كمال في الأعضاء والروح أو عن عيوب مازالت غير مدركة فيهما. وخجل جان

(١) - يتصدى بلزاك بشكل غير مباشر لموضوع أحدث كثيراً من الضجة في العام ١٨٣٠، فأمير كونده العجوز الدوق دي بوربون، والد دوق آنجن وجد مشنوقاً على مغلاق نافذته، وزاحمت خليلته السابقة صوفي دوز، التي زوجها للبارون دى فوشير، بشراسة على ميراثه. وقد بينت السيدة آن مارى منينيجه أن في رواية المتصيدة كثيراً من الذكريات العائدة لهذه القضية.

جاك ناتج عن بعض خمول في ملكاته، كان يمكن لأستاذ بارع أو جراح ماهر كدسبلن[1] أن ينعشها فيه. وإحساس الحبّ لديه؛ كما لدى المصابين بالفدامة[2]، ورث قوة وخفة تنقص الذكاء، الذي بقي له منه بعض حسّ ليسلك في الحياة؛ وعنف هواه المجرّد من الهدف الذي يفصح عنه جميع الشباب، يزيد أيضاً من خجله. فهو لايستطيع أبداً أن يقرّر، وفق التعبير المألوف، أن يغازل إمرأة في إيسودون، والواقع أن ما من فتاة تستطيع تشجيع شاب ذي قامة متوسطة، وهيئة مليئة بالخجل والمظهر الحرج، بينما تزيد وجهه المبتذل دمامةً عينان كبيرتان بارزتان بخضرة شاحبة عدا عن قسماته المنهكة ولونه الباهت أهرمته قبل الآوان؛ وصحبة امرأة ستقضي، في الواقع على هذا الفتى المسكين، الذي يشعر أنه مدفوع بالهوى بقدر العنف الذي تردعه فيه الأفكار القليلة العائدة لتربيته. وهو جامد بين قوتين متعادلتين، ولايعرف عندئذ مايقول، يرتعش إن سئل لشدة خشيته من اضطراره للجواب! والرغبة التي تطلق بسرعة الألسنة تجمّد لسانه. وهكذا بقي جان جاك معزولاً، وهو يفتش عن العزلة لشعوره أنه غير محرج فيها. وقد أبصر الطبيب الدمار الناتج عن هذا المزاج وهذا الطبع، لكنه كان متأخراً جداً بحيث تعذّر عليه العلاج. وأراد أن يزوج ابنه، لكنه رأى في ذلك تسليمه لسيطرة ستغدو مطلقة عليه. ووجب عليه أن يتردّد، أليس في هذا، التخلي عن إدارة ثروته لغريبة، لفتاة مجهولة؟ والحال إنه يعرف كم من الصعب وضعٍ تصوّرات عميقة عن مناقب المرأة، بدراسة الفتاة. وجرّب وهو يبحث عن إنسانة تحقق بتربيتها وعواطفها الضمانات المرجوّة، أن يوجه ابنه في طريق الشحّ؛ إذ أمل بغياب الذكاء أن يمنح هذا الأبله نوعاً من الغزيرة؛ فعوده أولاً على حياة آلية، ونقل إليه أفكاراً ثابتة حول توظيف مداخيله؛ ثم جنّبه الصعوبات الرئيسة في إدارة أملاك زراعية، بأن أصلح جميع

---

(١) - **دسبلن**: شخصية خيالية في روايات بلزاك، لكنه يذكره بدوبيترون«**انظر قداس الملحد**»

(٢) - **الفدامة**: حالة متصفة بالبلاهة، ووقوف نمو الجسد، وهي تظهر في الأماكن التي تستوطن فيها الجُدرَة وهي أورام جلدية خلقية أو عارضة وتصادف في المصابين وذريتهم. وقد لاتظهر الجُدرَة بل يكون الجسم الدرقي ضامراً. وقد اهتم بلزاك بهذه الحالة المرضية، وكان يفكر بتخصيص مؤلف خاص لها يقابل مؤلف **لويس لامبر**.

أراضيه وأجرها بعقود طويلة الأمد. غير أن الحدث المتوقع له السيطرة على حياة هذا الكائن المسكين خفي على نفاذ بصيره على هذا العجوز الداهية. فالخجل يشبه الكتمان، وله كل عمقه، وجان جاك أحب بوله المتصيّدة. والواقع أن هذا هو الأمر الطبيعي؛ ففلور هي المرأة الوحيدة الباقية قرب هذا الفتى، الوحيدة التي يمكن أن يراها على هواه. وبتأمّله لها في السر، وبملاحظتها في كل ساعة، أضاءت له المنزل الأبوي، ومنحته، دون دراية منها، المسرّات الوحيدة التي ذهّبت شبابه، وبعيداً عن غيرته من والده، أبهجته التربية التي هيأها الأب لفلور: ألاتلزمه امرأة سهلة، لايحتاج لأساليب الغزل للتقرّب منها؟ لاحظوا أن الهوى الذي يودي بالعقل يمكن أن يمنح البلهاء والحمقى والأغبياء نوعاً من الذكاء وخاصة في فترة الشباب. فلدى الرجل الأكثر فظاظة، تصادف دائماً الغريزة الحيوانية التي تشبه في مثابرتها العمل الفكري.

في اليوم التالي انتظرت فلور، بعد أن أثار بها صمت معلمها أفكاراً عديدة، أن يجري معها اتصالاً هاماً؛ لكن بالرغم من أنه دار حولها، ونظر إليها خفية بتعابير شهوة لم يجد جان جاك أن يجد شيئاً يقوله. وأخيراً مع وقت التحلية في نهاية العشاء، أعاد المعلم مشهد الليلة الفائتة، وسأل فلور:

«أنت مرتاحة هنا؟»

- نعم ياسيد جان.

- حسن، ابقي إذن.

- شكراً ياسيّد جان.

استمرت هذه الحالة الغريبة ثلاثة أسابيع، وفي ليلة ساكنة لم يعكر الصمت فيها أي ضجيج. استيقظت فلور صدفة، فسمعت لهاثاً يشبه تنفساً بشرياً على باب غرفتها، وذعرت عندما لاحظت على عتبتها جان جاك راقداً ككلب، وقد أجرى، دون شكّ، بنفسه ثقباً في أسفل الباب ليشاهدها وهي في غرفتها.

قالت في نفسها: «إنه يحبني، لكنه سيصاب بالرثية في تصرفه هكذا».

في اليوم التالي نظرت فلور إلى سيدها بطريقة مخالفة. فهذا الحبّ الصامت شبه الغريزي أثّر بها[1]. لم تجد هذا الأبله المسكين كثير الدمامة، رغم صدغيه وجبينه المليئة بالبثور المماثلة للقروح، التي تحمل هذا التاج الرهيب، رمز الدماء الفاسدة.

سألها جان جاك عندما بقيا وحيدين: «أنت لا تريدين العودة إلى الحقول، أليس كذلك؟».

قالت وهي تنظر إليه: لماذا تسألني هذا السؤال؟.

قال روجه وقد غدا بحمرة الإربيان المسلوق: لمعرفة ذلك.

سألت: هل تريد أن تطردني؟.

- كلا يا آنسة.

- حسن ماذا تريد أن تعرف إذا؟ إن لديك باعثاً.

- نعم أريد أن أعرف...

- قالت فلور: ماذا؟.

أجاب: لن تقولي لي!.

- بلى، أقسم بشرفي كفتاة...

استأنف روجه مذعوراً: آه! ها نحن. أنت فتاة شريفة.

- هذا مؤكد!

- حقاً؟.

- ما دمت أقول لك ذلك...

---

(١) إن أوّل استحقاق للرجل عند النساء هو شعورهن بحبّه لهن (هذا ما كتبه بلزاك في مفكرته: أفكار ومواضيع وشذرات).

- هيّا؟ أأنت كما كنت، عندما أتيت إلى هنا، حافية القدمين، يرافقك عمك؟.

- أجابت فلور وقد احمر وجهها: ياللسؤال الغريب! يقيناً.

طأطا الوريث رأسه وجلاً، ولم يرفعه؛ ودهشت فلور لرؤية جواب ملاطف للرجل يقابل بمثل هذا الذعر فانسحبت. وبعد ثلاثة أيام، وفي ذات الوقت. إذ يبدو أن كلا منهما اختار وقت التحلية كموعد للسجال، توجّهت فلور إلى سيّدها وبادرته بالسؤال: «هل أغضبتك بشيء؟».

أجاب: كلاّ يا آنسة، كلاّ... (وتوقّف) ثم أستأنف: بل بالعكس.

- بدا أنّك مغتاظ منذ عدة أيام لمعرفتك بأنني فتاة شريفة...

- كلا، ولكنني أردت أن أعرف فقط... (توقّف آخر) ولكنك لن تقولي لي....

تابعت: قسماً، سأقول لك كلّ الحقيقة...

سأل بصوت مخنوق: كل الحقيقة عن... عن أبي...؟

قالت وهي تثبت نظرها في عيني سيّدها: كان أبوك رجلاً طيبّاً... يحب المزاح... ماذا!... فَكِهٌ... لكن الرجل العزيز المسكين! لم يكن ينقصه الإستعداد... أخيراً نسبةَ لشيء ما قد لا يعجبك، كانت لديه نوايا... أوه! نوايا مؤسفة. غالباً، ما كان يثير ضحكي... ماذا... هذا كل شيء... وبعد؟.

قال الوريث وهو يمسك بيد المتصيّدة: وبعد يا فلور، ما دام أبي لا يمتُّ إليك بصلة...

هتفت بصوت فتاة شعرت أنها أهينت بافتراض شائن: أي صلة تريدها بيني وبينه؟...

- ايه! وبعد، اسمعيني إذاً؟.

- كان محسنا لي، هذا كل شيء، آه! كان يودُّ جيّدا أن أكون امرأته...

ولكن . . . قال روجه وهو يتناول مجدّداً يد فلور التي سحبتها منه : ولكن ، مادامت لم تكن له علاقة بك ، ألا يمكنك أن تبقي هنا معي ؟ . . .

أجابت وهي تغضي ببصرها : إذا أردت . .

تابع روجه : كلا ، كلا ، إذا أردت أنت . نعم ، يمكنك أن تكوني . . . السيّدة . وكل ما هو موجود هنا سيكون لك ، تهتمين بثروتي ، ستكون كليّة لك . . . لأنني أحبّك ، وقد أحببتك دائماً منذ أن دخلت إلى هنا ، هكذا ، حافية القدمين .

لم تجب فلور ، وعندما بدا الصمت مملاً ، بدرت من جان جاك تلك الذريعة الرهيبة ، فقال بحماس ظاهر : هيّا ، أليس هذا أفضل لك من العودة إلى الحقول . ؟ .

أجابت : «طبعاً ! يا سيد جان ، كما تريد» .

رغم هذه العبارة «كما تريد» لم يجد روجه المسكين نفسه متقدماً . والرجال بهذا الطبع يحتاجون إلى اليقين . فالجهد الذي بذلوه بتصريحهم بحبهم كان كبيراً ، وكلفّهم غالياً بحيث يجدون أنفسهم غير قادرين على إعادة الكرة ، ومن هنا يأتي تعلقهم بأوّل امرأة ترضى بهم . لايمكن بعد هذا أن نخمّن الأحداث إلا بنتيجتها . فبعد عشرة أشهر من موت الأب[1] ، تغيّر جان جاك كليّاً ، فوجهه الشاحب الأدكن نوّر ، وانجلى ، وتلوّن بمسحة وردية . أخيراً فإن سحنته كانت تعبّر عن السعادة . ففلور قد ألزمت سيّدها باتخاذ وسائل عناية دقيقة بشخصه ، واعتبرت جزءاً من الاحترام لها العناية بأناقته ومظهره ، فكانت تنظر إليه وهو متوجّه إلى النزهة وهي واقفة على الباب إلى أن يغيب عن ناظريها . ولاحظت كلّ المدينة هذه التغّيرات التي جعلت من جان جاك رجلاً آخر .

كان يقال في إيسودون : «هل علمتم الخبر ؟» .

---

(١) يبدو أن المتصيّدة قبل أن تغدو خليلة جان جاك قد راعت فترة الحداد ، وكان بلزاك قد ذكر أنها أبدت صراحة تلك الرغبة . لكنه عاد فحذف هذه التفاصيل رغم ضرورتها لانسجام النص ، واكتفى بعد ذلك فيما يلي من أسطر بالقول «إن فلور غدت بعد تسعة أشهر من موت الأب روجه خليلة جان جاك ، وبعد شهر من ذلك بدت الآثار المؤاتيه لهذا الوضع تظهر على جان جاك . »

- وبعد ماذا؟ .

- إن جان جاك ورث كلَّ ما كان لأبيه، حتى المتصيّدة . . .

- ألا تعتقد أن المرحوم الدكتور كان من الدهاء بحيث أمّن قيمّة لابنه؟ .

وكان الرأي السائد: هذا صحيح إنّها كنز بالنسبة لروجه .

- إنّها داهية! وهي بارعة الجمال، ستؤمن زواجها .

- إن هذه الفتاة ذات حظ طيّب! .

- إنه حظ لا يصادف إلا الفتيات الجميلات .

- آه! باه! أنت تعتقد بذلك، لكن ألم تسمع بعمي بورنيش - هيرو . وبعد ألم تسمع أيضاً من يذكر الآنسة جانيفه، كانت دميمة كالخطايا السبع الرئيسة، ورغم ذلك ورثت عنه دخل ألف إكو سنوياً .

- باه! كان ذلك في العام ١٧٧٨ .

- سيّان، فروجه على خطأ؛ ترك له والده، دخل أربعين ألف فرنك، وكان بإمكانه أن يتزوج الآنسة هيرو . . .

- جرَّب الدكتور ذلك، لكن الآنسة لم ترضَ، فروجه بليد جداً . . .

- بليد جداً! إن النساء يكنَّ سعيدات مع أشخاص من هذا النَمَط .

- أسعيدة هي زوجتك؟! . . .

هذه هي الملاحظات الرائجة في ايسودون . وإذا كان قد بُدىء وفقاً للعادات والتقاليد في المقاطعات من السخرية بهذا الشبه - زواج . فهوذا كيف وصلت فلور برازيه إلى قيّمة منزل روجه، من الأب إلى الابن وفقاً لتعبير غوده الابن، ولا يخلو من فائدة التطرّق إلى قيامها بهذه المهمة مما يعود بالفائدة الآن على العزّاب[1] .

---

(١) لنذكر أن الراوية عنونت لمدة طويلة «عائلة عازب» وأنها صنفت في الملهاة الإنسانية مع بييريت وكاهن تور في ثلاثةبعنوان «العزاب» .

كانت فانشيت العجوز الوحيدة في إيسودون التي أغاظها أن تغدو فلور برازيه ملكة في منزل جان جاك روجه، فإحتجّت على عدم أخلاقية هذه العلاقة وتبنت مبادىء الأخلاق المنتهكة، والصحيح أنها وجدت نفسها مهانة، وهي في هذا العمر، بان تسود عليها المتصيّدة، تلك الفتاة الصغيرة التي جاءت إلي المنزل حافية القدمين. كانت فونشيت تمتلك دخل ثلاثمئة فرنك في سجّل الدين العام، لأن الدكتور دفعها إلى وضع مدّخراتها هناك. والمرحوم السيد أوصى لها بمئة إكو دخلاً لمدى حياتها، فيمكنها إذاً أن تحيا كما يحلو لها. وتركت المنزل بعد تسعة أشهر من دفن معلمها القديم، أي في ١٥ نيسان ١٨٠٦. ألا يشير هذا التاريخ للأشخاص الثابتي الفكر إلى الوقت الذي انقطعت فيه فلور عن كونها فتاة شريفة[١].

كانت المتصيّدة من النباهة بحيث توقعّت انقطاع فانشيت عن عملها إذ ما من شيء يكسب المهارة كممارسة السلطة؛ وصممّت أن تستغني عن خادمة؛ وراحت خلال ستة أشهر، دون أن تظهر، تتعلّم طرق الطهي التي جعلت من فانشيت أبرع طاهية جديرة بمنزل طبيب، والواقع يمكن وضع الأطباء، بالنسبة للشراهة في ذات المرتبة التي يصنّف بها المطارنة[٢]. وكان الدكتور قد زاد من خبرة فانشيت، ففي المقاطعات، يدفع توفّر الوقت، ورتابة الحياة، النشاط الذهني نحو المطبخ، وقد لا يتوفر الترف على العشاء كما في باريس، إنّما يتوفر ما هو أفضل من حيث حسن إعداد الأطعمة وجودة طهيها. ففي أقصى المقاطعات يوجد من يضارع كارم[٣]، في تنورة، عبقريات مجهولة، يعرفن كيف يجعلن من صحن فاصولياء ما يدفع إلى مثل

---

(١) في ذلك تلميح إلى الوقت الذي لزم لتحوّل جان جاك، واهتمام بلزاك بالمعطيات الفيزيولوجية.

(٢) سبق الإشارة إلى مؤلّف فيزيولوجية الذوق «لبريّا - سافارن، حيث يصنف الأطباء والكهنة بين الشرهين.

(٣) هو ماري - انطوان كارم (١٧٨٤ - ١٨٣٣) رئيس طهاة شهير في ذلك العصر، وقد ترك مؤلّفات حول فن الطهي، وورد اسمه عدّة مرات تحت ريشة بلزاك عند ذكر كبار الطهاة.

تحريك الرأس الذي كان يعبّر فيه روسيني[١] عن نجاح قطعة موسيقية. وقد تابع الدكتور روجه أثناء دراسته في باريس دروس كيمياء العالم رويل[٢]، وحفظ منها بعض المبادىء التي يمكن الاستفادة منها في كيمياء اعداد الأطعمة، فاشتهر في إيسودون بعدة تحسينات لم تعرف كثيراً خارج برّي؛ فقد اكتشف أن عجّة البيض أطيب مذاقاً عندما لا يخفق زلاله مع صفاره معاً بمثل الطريقة الخاطئة التي تمارسها الطاهيات في هذه العملية. ويجب، في رأيه، أن يخفق الزلال ليغدو كالزبد تماماً ثم يضاف الصفار تدريجياً، كما يجب ألا تستخدم مقلاة وإنما فخّارة من البورسلين أو الآجر وهي وعاء ثخين ذو أربع أرجل يمنع علوه عن الموقد، وحركة الهواء تحته، النار من أن تلفح محتواه؛ وهذه الفخارة تسمى في تورين «مغلاة» وذكرها رابله في مؤلّف «غارغانتوا» مما يدلّ على استعمالها منذ القدم. كما وجد الطبيب طريقة لمنع حرافة الشياط لكن هذا السرّ الذي قَصَرَه على مطبخه، للأسف، نُسِيَ من بعده[٣].

وفلور التي وُلِدَت قلايّة، شوّاية، وهما ميزتان لا تكتسبان بالملاحظة أو بالعمل، فاقت فانشيت بعد قليل من الوقت، وكانت تفكّر بسعادة جان جاك باتقانها الطهي، لكنهاهي أيضاً، ولنقلها صراحة، كانت شرهة إلى حد ما[٤]. وكجميع الأشخاص غير المثقفين، لم تكن تهتم بإشغال الفكر، وتوجهت بطاقتها إلى أعمال المنزل، تمسح

---

(١) روسيني (١٧٩٢ - ١٨٦٧) مؤلّف موسيقي إيطالي، عرف شهرة كبيرة في باريس، وأشاد به بلزاك مراراً.

(٢) غليوم - فرنسوا رويل (١٧٠٣-١٧٧٠) استاذ الكيمياء في المتحف. سبق لطبيب آخر من شخصيات «الملهاة الانسانية» هو الدكتور ميروه أن تابع دروس هذا الاستاذ.

(٣) شغل المطبخ اهتمام بلزاك بقدر انشغاله بقضايا المال. ويمكن أخذ فكرة دقيقة عن هذا الموضوع بالدراسة التي أجراها السيد ف. لوت: بلزاك والمائدة في الملهاة الانسانية. (السنة البلزاكية ١٩٦٢).

(٤) هنا عودة أيضاً إلى دراسة بريار سافارين: ففلور من زمرة الشرهين المحظوظين المهيئين مادّياً وعضوياً لمباهج التذوّق. وقد أعطاها بلزاك الصفات المميزة للشرهات: «ممتلئة، أقرب إلى الملاحة منها إلى الجمال، وأميل إلى البدانة.

الأثاث وتعيد له لمعانه، وتحرص على نظافة كلّ ما في البيت كهولندية. وتشرف على أكوام البياضات الوسخة، وطوفان الأواني التي لا تجلى عادة في المقاطعات إلا ثلاث مرّات في السنة. وتلاحظ الثياب الداخلية بعناية ربّة بيت فترفو وترتق وفق الحاجة. ودفعها الفضول إلى أن تتدرّج على مراحل في خفايا الثروة، فتمثّلت القليل من العلم الذي عرفه روجه عن المشاريع وزادت عليه بمداولات مع كاتب عدل المرحوم الطبيب، السيد هيرون؛ وهكذا أمكنها أن تقدم نصائح ممتازة لخليلها جان جاك، وكانت واثقة من بقائها سيّدة البيت، فحرصت على مصالح هذا الفتى بمثل اللهفة والإخلاص لمصالحها، ولم تكن تخشى متطلبات عمّها إذ أنّه توفي قبل وفاة الطبيب بشهرين بعد أن تعثر وسقط وهو خارج من الخمّارة التي كان يقضي فيها كل وقته بعد أن عرف الغنى، كما أن فلور فقدت والدها المريض، لذلك انصرفت لخدمة سيّدها بكل التفاني الذي تعرفه يتيمة سعيدة تريد أن تؤسّس عائلة، وتسعى إلى هدف في الحياة، وكانت تلك الفترة هي أوج سعادةجان جاك المسكين الذي ألف العادات الحلوة في حياة حيوانيةمجمّلة بنوع من الانتظام الديري؛ فهو ينام إلى الضحى، بينما تنهض فلور منذ الصباح، فتذهب للتسوّق أو ترتب المنزل، وتوقظ سيّدها بحيث يجد إفطاره جاهزاً بعد أن يغتسل ويرتدي ثيابه. ثم يخرج بعد الإفطار، في حوالي الحادية عشر في نزهة يتداول الحديث مع من يصادفه، ويعود حوالي الساعة الثالثة ليقرأ الصحف: صحيفة المنطقة، وصحيفة ترده من باريس بعد صدورها بثلاثة أيام، وقد اتسخت من الأيدي الثلاثين التي تداولتها، وفاحت منها رائحة التبغ التي انبعثت من الأنوف فوقها، واسودّت من المناضد التي تجرجرت فوقها [١] وهكذا يصل العازب إلى وقت العشاء، ويقضي في تناوله أكبر وقت ممكن، وتردّد عليه فلور أخبار المدينة، والإشاعات السائدة، والمتداولة فيها؛ ونحو الساعة الثامنة تطفأ

(١) كانت الصحف تكلّف غالياً في ذلك الزمن، وخاصة في المقاطعات، فيتجمّع عليها الهواة ويتبادلونها فيما بينهم.

الأنوار. فالذهاب إلى السرير باكراً توفير للشموع والتدفئة يمارس بانتظام في المناطق، لكنه يساهم في بلادة الأشخاص، فالمغالاة في النوم تُخبلُ الذكاء وتُخمده.

هكذا كانت حياة هذين الشخصين خلال تسع سنوات مليئة وفارغة في ذات الوقت. أكبر الأحداث فيها بعض رحلات إلى بورج، وڤيرزون، وشاتورو، أو إلى أبعد من ذلك، عندما لا يكون لدى كتّاب عدل تلك المدن أو لدى السيد هيرون توظيفات رهنية. وكان روجه يقرض أمواله بفائدة خمسة بالمئة برهن أول، مع وكالة على حقوق المرأة عندما يكون المقترض متزوجاً، ولم يكن يعطي أكثر من ثلث القيمة الحقيقية للرهن، وينظم سندات لأمره تمثّل زياده في الفائدة باثنتين ونصف بالمئة مقسّطة على كل مدّة القرض. هذه هي القوانين التي طلب منه أبوه أن يتقيّد دائماً بها[1]. فالربا، هذا العَلَق الممتص لأماني الفلاحين يفترس الأرياف. وهذا المعدّل سبعة ونصف بالمئة يبدو معقولاً جداً بحيث أن جان جاك روجه يختار زبائنه، إذ أن كتاب العدل الذين يتقاضون عمولة جيّدة من الأشخاص الذين يؤمّنون لهم المال بهذه الفائدة الجيّدة يخطرون العازب الكهل عند وجوب الحيطة خلال تسع سنوات، حققت فلور، مع الزمن، ودون شعور أو إرادة منها، سيطرة مطلقة على سيّدها. بدأت تعامل جان جاك أولاً دون كلفة، ثم ودون أن تنقص من احترامها له، ثم سيطرت عليه بكثير من التفوّق، والذكاء، والقوّة، حتى غدا خادم خادمته، فهذا الطفل الكبير ذهب من تلقاء نفسه إلى أبعد مما تقتضيه هذه السيطرة باستسلامه إلى مزيد من اهتمام فلور به، حتى غدت بالنسبةإليه كأم بالنسبة لطفلها. وهكذا انتهى جان جاك إلى الشعور نحو فلور بالعاطفة التي تحسّس الطفل بضرورة الحماية الأمومية. لكن كان بينهما عرى أشدّ وثوقاً من ذلك؛ ففلور تسيّر الأعمال وتدير المنزل. وجان جاك يعتمد عليها في كلّ أمر، حتى لم تكن تبدو له الحياة دونها صعبة فحسب، بل مستحيلة؛ فهذه المرأة غدت حاجة كيانه، فهي تلامس كل نزواته،

---

(١) هذا ما يجعل «روجه الأب وابنه»، يستحقان أن يسجّلا في قائمة المرابين العديدين الواردة أسماؤهم في **الملهاة الإنسانية**، ونموذجهم الأكثر اكتمالا المرابي غوبسك.

وتعرفها جيّداً! وهو يحبّ أن يرى هذا الوجه السعيد الذي يبسم له دائماً، الوحيد الذي بَسَم له، الوحيد الذي يمكن أن يجد فيه بسمة له!

هذه السعادة، المادية الصرف، المعبّر عنها بكلمات مبتذلة، هي أساس لغة الأزواج في برّي، وظهورها على هذا المحيا الرائع لم يكن إلى حدّ ما، إلا انعكاس سعادته عليه. فالحالة التي يوجد فيها جان جاك، عندما يرى فلور مغتاظة من بعض المضايقات، تكشف عن مدى سلطة تلك الفتاة التي أرادت من أجل التأكّد منها أن تستخدمها. والاستخدام لدى النساء من هذا النوع يعني دائماً المغالاة؛ ولا شك أن المتصيّدة لعبت مع معلمها بعض هذه الأدوار المدفونة في خفايا الحياة الخاصة، والتي أعطى أوتوي مثالاً عنها وسط مسرحيته المأساوية «**البندقية المحررة**» بين السناتور وأكيلينا، في دور يحقّق روعة الرهبة [1] ورأت فلور نفسها متيقّنة من سيطرتها، حتى أنها لم تفكر، لسوء حظها وحظّ هذا العازب، أن تدفعه للزواج بها.

نحو نهاية العام ١٨١٥، وصلت فلور وهي في السابعة والعشرين من عمرها، إلى النمو الكامل لجمالها. ممتلئةً ونَضِرةً، بضّةً بيضاء كإحدى مزارعات بسّين[*]، فهي النموذج المثالي لمن يسميها أسلافنا «العرّابة الجميلة»، وجمالها، وهو أقرب إلى فتنة فتاة حانة تغذت ونضجت، جعلها أشبه بالآنسة جورج[2] في أوج تألقها، مع استثناء النبالة الامبراطورية، فلفلور هاتان الذراعان العبلتان الساحرتان، وذلك الامتلاء في الشكل، وتلك البشرة المخملية، وهذه الاستدارات الجذابة في القوام؛ الأقل صرامة من تلك التي للممثلة، وتعابير فلور هي الحنان والعذوبة،

---

(١) **البندقية المحررة Venise Sauveé**: مسرحية للشاعر الانكليزي أوتوي(١٦٥٢-١٦٨٥) ذكرها بلزاك أكثر من مرة. والدور الذي يذكره هو المشهد الذي يرى فيه السناتور أنطونيو، وهو في الواحدة والستين من العمر يزحف على الأرض كالكلب وخليلته الشابة توجّه إليه ضربات سوطها.

(*) بسين Bessin: إحدى مناطق النورماندي، على حافة الهضبة الأرموريكية.

(٢) **الآنسة جورج** (١٧٨٧-١٨٦٧) ممثلة فرنسية مثّلت الأدوار الكلاسيكية، وقيل عنها أنها كانت عشيقة نابليون. ثم عاشرت بين ١٨٣٩-١٨٤٢ هارل مدير مسرح«باب سان مارتن» وقد كان بلزاك على علاقة مع هارل في الفترة ١٨٣٩-١٨٤٠ ويبدو أنه لم يكن يودُّ كثيراً الآنسة جورج.

ونظرتها لا تفرض الاحترام كنظرة أجمل أغريبين(*) صعدت على خشبة المسرح الفرنسي منذ أيام راسين، بل تدعو إلى بهجة عامرة.

في العام ١٨١٦ رأت المتصيّدة ماكسنس جيله، وافتتنت به من أولّ نظرة، تلقت في صميم القلب ذلك السهم الاسطوري، وهو التعبير المدهش عن تأثير طبيعي مثله الاغريق بهذه الطريقة؛ هؤلاء الذين لم يتصوّروا أبداً الحبّ الفروسي، المثالي، والكئيب الذي ولدته المسيحية. كانت فلور أجمل من أن يستخفّ ماكس بهذا الهوى الغلاّب، وهكذا عرفت المتصيّدة، وهي في الثامنة والعشرين من العمر، الحبّ الحقيقي، المتدلّه، اللامتناهي، هذا الحب الذي يشمل كل أصناف الغرام من غرام غولنار إلى غرام ميدورا(١). وما أن علم الضابط السابق الفقير بالوضع الخاص لكلّ من فلور وجان جاك روجه، حتى رأى ما هو أبعد من حبّ عابر في علاقة مع المتصيّدة. وهكذا فلأجل أن يضمن مستقبله لم يجد أفضل من أن يسكن لدى روجه بعد أن عرف طبيعة الرجل الواهنة. وسيؤثر هوى فلور لا محالة على حياة وطويّة جان جاك. خلال شهر غدا الأعزب وجلاً إلى أبعد حدّ، يرى وجه فلور الباسم الودي، مرعباً قاتماً، عبوساً. وتعرّض لتفجّرات مزاج سيّء متعمّدة، تماماً كرجل متزوّج تضمر زوجته الخيانة(٢). وعندما تجرّأ العازب المسكين وسط أقسى صدود على سؤالها عن سبب هذا التغيّر، كان في نظرتها شرر مثقل بالحقد، وفي صوتها نبرات مزدرية، متهجمة، لم يسبق لجان جاك المسكين أن تلقاها أو سمعها.

قالت: قسماً، «ليس لك قلب ولا روح. هوذا ستة عشر عاماً وأنا أفني شبابي هنا، ولم ألاحظ أن لك هنا حجراً! ...» وأشارت إلى موضع القلب من صدره.

(*) أغربين Agrippine: اسم عدة أميرات رومانيات أشهرهن والدة نيرون (١٦-٥٩) التي تزوجت عمها كلود وسمّمته لتوصل ابنها نيرون إلى العرش ولم يرحمها الابن فحكم عليها بالموت، وقد قامت عدة ممثلات منذ أيام راسين بتمثيل هذا الدور (ملاحظة المترجم).

(١) هما بطلتا «**القرصان**» لبايرون، وكان بلزاك يريد أن يستمد منها أوبرا هزليه. وميدورا ترمز إلى التعلق الغرامي الكئيب، بينما ترمز غولنار إلى الهوى الجموح.

(٢) يوضح بلزاك هنا ملاحظات دوّنها في « **فيزيولوجية الزواج**» **التأملات الثامنة: أوائل الأعراض**.

ثم استأنفت: «منذ شهرين، وأنت ترى هذا المقدّم الشجاع، ضحية آل بوربون، الجدير بأن يكون لواء، وقد حصر لعوزه في جحْر من البلاد لا مجال فيه إلا للحظ العاثر، وهو مجبر أن يستمّر على كرسي في البلدية طيلة اليوم، ليكسب... ماذا؟ مبلغ بائس لايتجاوز ستمئة فرنك في السنة. يا للانطلاقة الجميلة! وأنت يا من يستثمر ستمئة وتسعة وخمسين ألف فرنك في الربا، ويأتيه دخل ستين ألف فرنك سنوياً، ولا ينفق، والفضل لي، أكثر من ألف إكو في العام، شاملة كل شيء، حتى ثمن ملابسي، أخيراً كل ّشيء، ولا تفكر أن تعرض عليه السكن هنا، رغم أن الطابق الثاني من المنزل بكامله فارغ. تفضل أن ترقص فيه الفئران والجرذان ولا تسكن فيه كائناً بشرياً؛ مع أن والدك اعتبر دائماً هذا الشاب كابن له!... أتريد أن تعرف من أنت؟ سأقول لك: إنّك قاتل الأخ! بعد هذا أنا أعرف السبب! رأيت أن أمره يهمّني، وهذا ما يغيظك! وبالرغم مما تبدو فيه من بلادة، فأنت أمكر الماكرين... وبعد، نعم إن أمره يهمّني، وبشكل كبير أيضاً.

- ولكن يا فلور...

- أوه! ما من «لكن» ففلور لم تعد تتحمّل. آه! يمكنك أن تبحث جيّداً عن فلور أخرى (إن وجدت واحدة!)، لأنني أريد لهذا الكأس من الخمر أن يتحولّ إلى سمٍّ لي، إن لم أترك بيتك الحقير. وأنا أشكر الله لأنني لم أكلفك خلال الإثنتي عشر سنة [1] التي بقيت فيها معك شيئاً، وقد حصلت على المتعة رخيصة. كان بامكاني في أيّ مكان آخر أن أكسب جيّداً حياتي بالأعمال التي أقوم بها هنا: أمسح الأرض، وأكوي، وأشرف على الغسيل، وأذهب للتسوّق، وأطهو الطعام، وأرعى مصالحك في كل شيء، وأسعى في تفان من الصباح حتى المساء... وبعد، هي ذي مكافأتي...

- ولكن، يافلور...

(١) هذا يعني أن هذا الجدال حدث في العام ١٨١٦، وتعتبر فلور بقاءها مع جان جاك اعتباراً من ١٨٠٥ سنة وفاة أبيه.

- نعم، فلور، سيكون لديك فلورات، وأنت الآن في الحادية والخمسين من العمر، وما أنت عليه من سوء حال، وأنت تنحطّ إلى حدّ مريع، كما أرى؛ إضافة إلى أنك لست ممتعاً...

- ولكن يا فلور...

- دعني وشأني!».

وخرجت وهي تصفق الباب بعنف ارتج له المنزل وبدا وكأنه يتزعزع من أساساته. ففتحه جان جاك روجه بكل هدوء، وتوجّه بهدوء أكبر نحو المطبخ حيث كانت فلور ما تزال تدمدم. قال هذا الخروف: «ولكن يا فلور، هوذا لأوّل مرة تبدين لي رغبتك، فكيف تعرفين إن كنت أريد، أو لا أريد...

قاطعته بالقول: أولاً، هناك حاجة لوجود رجل في البيت. فمن المعروف أن لديك عشرة آلاف أو خمسة عشر ألف، أو عشرين ألف فرنك فيه. فإن طمع اللصوص بك، فسيقتلوننا، وأنا لا أرغب أبداً في أن أوقظ في صباح ما لاأقطع قطعاً أربع، كما حصل لتلك الخادمة المسكينة التي دفعتها الحماقة لحماية سيّدها! والواقع إن يُرى لدينا رجل بمثل شجاعة قيصر، وليس بالأحمق... فماكس يبتلع ثلاثة لصوص، ما أن يذكر وجودهم... وهذا مايمكنني أن أنام براحة بال. ربّما قيلت لك حماقات... قائل من هنا: إنني أحبه، وقائل من هناك: إنني أعبده! أتعلم ماذا ستقول؟...

إيه! عليك أن تجيب، بأنك تعلم ذلك، ولكن والدك أوصاك وهو على سرير الموت بابنه المسكين ماكس. ، ستصمت جميع الألسنة، لأن بلاطات الشارع في إيسودون ستقول لك إنّه كان يسدّد عنه أقساط الكلية! هاقد مرّت اثنتا عشرة سنة وأنا آكل خبزك...

- فلور، فلور...

- في المدينة أكثر من شخص سعى لمغازلتي، هكذا! قدّمت لي سلاسل ذهبية

من هنا وساعات من هناك ... ومن قال : «يا صغيرتي فلور ؛ إن أردت ترك هذا الأحمق روجه» هذا ما يقال لي عنك. وكنت أجيب: أأنا أتركه؟ آه! شخص بمثل هذه البراءة، ماذا سيحلّ به؟ كلا، كلا، حيث تربط العنزة يجب أن ترعى ...

- نعم، يا فلور، ليس لي غيرك في الدنيا، وأنا سعيد جداً، إن كان يسرّك، يا صغيرتي، فسيعيش هنا ماكسنس جيله، وسيأكل معنا.

- يقيناً! آمل ذلك ...

- سيعيش هنا، لا تتكدّري.

أجابت باسمة: ما يوجد للواحد، يكفي جيّداً اثنين. لكن إن تلطّفت فاعرف ما يجب عليك فعله، يا عزيزي! ... ستذهب للتنزه في جوار دار العمدية في الساعة الرابعة وستعمد إلى لقاء المقدّم جيله؛ وتدعوه إلى العشاء، وإذا جامل معتذراً، عبّر له عن سرورنا باستقباله، وهو من الظرف بحيث لا يرفض، وبناء عليه، وفي المسامرة بعد العشاء، إن تحدث عن شقائه فوق قوارب التجسير، وهو ما تدفعك فطنتك إلى المبادرة به. فاعرض عليه أن يقيم هنا ... فإن وجد في ذلك حَرَجاً؛ فكن مطمئناً، سأعرف كيف أقنعه ...».

فكر العازب، وهو يتنزه بهدوء في شارع بارون، بهذا الأمر على قدر استيعابه له: «إن افترق عن فلور (وغامت الدنيا في عينيه أمام هذه الفكرة) أيّةامرأة أخرى سيجد؟ ... أيتزوج ؟ ... في العمر الذي بلغه، سيطمع في ثروته، وسيستغل بقسوة أكبر مع من ستكون زوجته الشرعية منه مع فلور. عدا عن أن مجرّد فكرة حرمانه من ذلك الحنان، وإن كان وهمياً سبّبت له قلقاً رهيباً. لذا أبدى من اللطف للمقدّم جيله قدر ما استطاع، وكما رغبت فلور تمت دعوته أمام شهود، مراعاة لقَدَر ماكسنس.

تمّت المصالحة بين فلور وسيّدها، ولكن منذ ذلك اليوم لاحظ جان جاك بوادر تبرهن عن تغيّر كامل في مودّة المتصيّدة. فقد تذمّرت فلور برازيه لمدة خمسة عشر يوماً أمام المموّنين، وفي السوق، ولدى الجارات اللواتي تثرثر معهن من تسلّط السيد روجه، بعد أن عزم على أن يُسكن أخاه غير الشرعي - على ما يقال - لديه.

لكن لم تنطل هذه الحيلة على أحد ونظر إلى فلور كمخلوقة ماكرة داهية. وكان الأب روجه سعيداً جداً بتزعم ماكس في منزله، إذ لقي فيه انساناً يهتم بشؤونه البسيطة دون أي صَغار. فجيله يسامره، ويكلّمه في السياسة، ويتنزّه معه أحياناً. وما أن استقر الضابط في المنزل، حتى امتنعت فلور عن الطهي، فالمطبخ يفسد جمال يديها، وفق قولها، وبناء على رغبة زعيم جمعية فرسان البطالة دلّت كونبيت فلور على إحدى قريباتها، فتاة عانس، توفي سيّدها الكاهن دون أن يُخلِف لها شيئاً، وهي طاهية ممتازة، ستخلص إلى الأبد لفلور وماكس، إذ أن كونبيت وعدت قريبتها باسم هذين الجوادين السمحين بدخل ثلاثمئة فرنك سنوياً بعد خدمة طيّبة ومخلصة ومستقيمة وكتوم لمدة عشر سنوات. كانت لاڤيدي آنئذ في الستين من العمر، وتتميز بوجه غزاه الجدري، وبدمامة ملائمة.

بعد مباشرة لاڤيدي الخدمة، غدت المتصيدة تنادى باسم السيدة برازيه، وترتدي المخصّرات وتقتني أثواب الحرير والصوف والقطن وفق الفصول! ولها الأطواق، والخُمُر الغالية الثمن، والقلنسوات المطرّزة، والياقات المخرّمة. وتنتعل الجزم الطويلة الساق، وتحافظ على أناقة اللباس وتنوّع فيه، مما جدّد شبابها فغدت كألماسة خام صقلها الجواهري ووضعها في إطار يبرز محاسنها. أرادت أن تكون مصدر اعتزاز لماكس. وفي نهايةالسنة الأولى، في العام ١٨١٧، أحضرت من بورج حصاناً انكليزياً للمقدم المسكين الذي ملّ النزهة على قدميه. واستقدم ماكس من الجوار رمّاحاً قديماً من الحرس الامبراطوري، وهو بولوني يسمى كوسكي، لحقت به الفاقة، فلم يطلب أكثر من أن يدخل لدى السيد روجه بصفة خادم للمقدّم. وكان ماكس هو المثل الأعلى لكوسكي وخاصة بعد مبارزة الضباط الملكيين الثلاثة. وهكذا فبدءاً من العام ١٨١٧ حوى منزل الأب روجه خمسة أشخاص، منهم ثلاثة أسياد، وارتفعت النفقات إلى نحو ثمانية آلاف فرنك سنوياً.

في الفترة التي عادت فيها السيّدة بريدو إلى إيسودون، لتنقذ وفقاً لتعبير المحامي دروش ميراثاً مهدّداً بشكل خطير، كان الأب روجه قد وصل تدريجياً إلى حالة شبه نباتية، فمنذ تزعّم ماكس في المنزل، راحت الآنسة برازيه تعدُّ المائدة على

قاعدة أسقفية، وانصرف روجيه إلى التنعم بأشهى المآكل، فكان يزداد نهماً مساقاً بالأطباق الممتازة التي تعدّها لافيدي، ورغم هذه التغذية الطيّبة والغزيرة، لم يسمن إلا قليلاً، ويوماً بعد يوم كانت تنحطُّ قواه كرجل متعب، ربّما[1] بسبب عسر الهضم، وتتهجّج[*] عيناه بشدّة. لكن إن سأله أحد البورجوازيين، خلال نزهة، عن صحته، أجاب بأنه ما من يوم كان أفضل مما هو عليه الآن. وبما أنّه اعتبر دائماً كائناً ذا ذكاء محدود، لم يلاحظ الانحطاط المستمر في قدراته؛ وهيامه بفلور هو العاطفة الوحيدة التي تجعله يعيش، فهو لا يوجد إلا من أجلها، وضعفه تجاهها ليس له حدود، يذعن لنظرة منها؛ يرقب حركات تلك المخلوقة، كما يرقب الكلب أقل إشارات صاحبه. أخيراً، ووفقاً لتعبير السيدة هوشون، كان الأب روجه، وهو في السابعة والخمسين من العمر يبدو أكثر شيخوخة من السيد هوشون الذي بلغ الثمانين.

يتصور كل واحد، وبحقّ، أن شقّة ماكس كانت جديرة بهذا الشاب الوسيم، والواقع أخذ المقدّم، وخلال ست سنوات، ومن سنة إلى أخرى، يزيد من وسائل الرفاهية لديه، ويعنى بتجميل أثاثه سواء لبهجة نفسه أو لإبهاج، فلور، لكن ذلك لا يتعدى الرفاهية السائدة في إيسودون: بلاط ملوّن، ورق جدران متوسط الأناقة، أثاث من الأكاجو، مرايا ذات أطر مذهّبة، ستائر من الموسلين المزخرفة بأشرطة حمراء، سرير ذو تاج وستائر موضوعة بترتيب اصطلح عليه منجدو المقاطعة بالنسبة لعروس ثريّة، وهو يبدو قمة في البهاء لكنه لا يتعدى ما يوجد في صور الموضة المألوفة التي عمّ استعمالها بحيث يأنف تجار المفرّق في باريس من أن يكون في غرف نوم ليلة زفافهم. وكان هناك شيء مستغرب دفع أهل إيسودون للتحدّث عنه، وهو وضع حُصرٍ من الأَسَل على السلّم، لإخماد ضجّة الأقدام دون شكّ؛ وهكذا فعند

(*) تهجّجت العينان: غارتا.

(١) هذه «الربّما» تترك للقارىء إمكانية تصوّر شيء آخر، وتذكّر بالمشهد المثار من قِبَل أوتوى في مسرحية «البندقية المحرّرة».

دخول ماكس مع الفجر إلى المنزل لا يوقظ أحداً فيه، ولا يشتبه روجه بتورّط مضيفه في المغامرات الليلية لفرسان البطالة.

في نحو الساعة الثامنة صباحاً، ارتدت فلور مبذلاً من قماش قطني جميل بخطوط وردية متعددّة، واعتمرت قلنسوة من المخرّمات، وانتعلت خفاً مبطّناً بالفرو، وتقدَّمت برفق وفتحت باب غرفة ماكس، ولما رأته نائماً بقيت واقفة أمام سريره.

قالت في نفسها: «عاد في الساعة الثالثة والنصف صباحاً، يجب أن يمتلك طبعاً في منتهى الاعتزاز ليستمر في هذه التسلْيات، كم هو مغرم بهذا اللهو الشبابي! ماذا فعلوا في هذه الليلة؟.

قال ماكس وهو يستيقظ على طريقة العسكريين الذين عوّدتهم أحداث الحرب أن يستجمعوا أفكارهم كاملة، ويستعيدوا هدوءهم سريعاً، أياً كانت المفاجأة التي تنتظرهم عند استيقاظهم: عجباً، ها أنت يا صغيرتي فلور.

- سأدعك تنام، إنني ذاهبة.

- كلا ابقي، فهناك أشياء خطيرة...

- هل قمت بحماقة ما خلال الليلة الفائتة.

- آه! الأمر يتعلق بنا، وبهذا البهيم العجوز. آه! لم تحدثيني سابقاً عن عائلته... وبعد، هاهي العائلة هنا، لتقيم في وجهنا العقبات...

قالت فلور: آه! إنني ذاهبة لأهزّه.

قال ماكس برزانة: آنسة برازيه، الأمر يتعلق بقضايا هامّة جداً، بحيث يجب الابتعاد عن الطيش فيها، أرسلي لي قهوتي، فسأتناولها في سريري وأنا منصرف إلى التفكير في السلوك الذي يجب أن نظهر به، وعودي في الساعة التاسعة لنتحدّث. وبالانتظار تظاهري بأنك لا تعلمين شيئاً.».

فاجأ فلور هذا النبأ، فتركت ماكس وذهبت تعدُّ له قهوته، ولكن بعد ربع ساعة دخل باروخ مسرعاً وقال للزعيم: «إن فاريو يفتش عن عربته».

خلال خمس دقائق، ارتدى ماكس ثيابه ونزل وهو يتظاهر بالتسكع إلى أن وصل إلى قاعدة البرج حيث وجد بعض الناس متجمهرين.

قال ماكس وهو يخترق الجمهور إلى أن وصل إلى قرب الأسباني: ما الأمر؟»

كان فاريو وهو رجل قصير القامة معروق، بدمامة مماثلة لتلك المميزة لكبير من نبلاء اسبانية، وعينين ناريتين كأنهما حفرتا بمثقب، ومتقاربتين جداً نحو الأنف، فلو أنه في نابولي لحسب من السحرة صائبي العين[1]. هذا الرجل يبدو وديعاً لأنه رزين، هادىء، بطيء في حركاته، ولذلك سمّي الطيب فاريو، لكن بشرته بلون البسكوت، ووداعته تخدع الجهلة وتكشف للملاحظ الدقيق عن طبع نصف موري لفلاح من غرناطة لم يخرجه شيء عن بروده وكسله.

قال له ماكس بعد أن استمع إلى تظلّماته: هل أنت واثق بأنك أحضرت عربتك إلى هنا؟ فالشكر لله على عدم وجود لصوص في إيسودون.

- كانت هنا.

- ألا يمكن للحصان إن كان مربوطاً بها أن ينقلها إلى مكان آخر.

- قال فاريو وهو يشير إلى حصانه المكدون على بعد ثلاثين خطوة: «ها هو حصاني».

ذهب ماكس بتؤدة إلى المكان الذي ربط به الحصان، بحيث يستطيع إن رفع عينيه أن يرى قاعدة البرج في أعلى الهضبة، إذ أن التجمع كان في أسفلها مباشرة، وتبع جميع الناس ماكس، وهذا ما كان الشاب الفكه يريده.

قال فرانسوا: «هل وضع أحدكم سهواً عربة في جيبه؟.

قال باروخ: هيّا فتشوا جيوبكم!».

---

(١) الساحر الرامي بالعين: JETTATURA: من يميّز في جنوب إيطالية بأن نظرته تسبب سوء الطالع أو المرض، إن سلّطها على الآخرين.

انطلقت القهقهات الضاحكة من جميع الجهات . وراح فاريو يشتم . والشتائم لدى الاسباني تعني الدرجة الأخيرة من الغضب .

قال ماكس : أتكون عربتك خفيفة؟ .

ردّ فاريو : خفيفة؟ ... لو مرّت على أرجل هؤلاء الذين يسخرون من حولي، لما شكوا بعدها من الثَفَن [1] في أصابع أقدامهم .

أجاب ماكس وهو يشير إلى البرج : يجب أن يكون الشيطان نفخ فيها من أنفاسه إذ هاهي في أعلى الهضبة» .

عند هذه الكلمات ارتفعت جميع الأعين، وفي لحظة سادَ هَرج كالتجمّع في السوق، وراح كل واحد يشير بعده إلى موضع العربة- الجنيّة، وانطلقت جميع الألسنة بالهذر .

قال غوده الابن للتاجر المنذهل : فليأخذ الشيطان أصحاب النُزُل وليهلكهم جميعاً، فهم الذين أقنعوه بأن يعطيك درساً بعدم ترك العربات سائبة في الشارع وبضرورة إدخالها إلى مرائبهم .

عند هذا اللون الساخر انطلقت صيحات هازئة من الجمهور، إذ اشتهر عن فاريو شحِّه .

وقال ماكس : « هيّا أيّها البطل، لا تيأس، يجب أن نصعد إلى البرج لنرى كيف وصلت عربتك إلى هنا ك . قسماً بالمدفع، سنساعدك قدر المستطاع؛ هيّا، ألا تأتي يا باروخ؟» ثم همس في أذن فرنسوا : « وأنت، أبعد الناس عن أسفل الهضبة عندما نصل إلى أعلاها» .

صعد ماكس وباروخ وثلاثة من فرسان البطالة مع فاريو إلى البرج، وأثناء تسلقهم الخطر، كلن ماكس يبدي لفاريو ملاحظاته عن غياب كل أثر أو ضرر في

(١) الثَفَن : COR، ورم صغير صلب، مؤلم جداً يقع فوق مفاصل السلاميات في القدم سببه انضغاط النسج بالحذاء الضيّق، ويتألف من تكثف الطبقات القرنية في البشرة وانغرازها في الأدمة(عن المعجم الطبي- الجزء الأول- د. خاطر، د. خياط) .

العربة يشير إلى مرورها الصاعد، مما أدخل في روعة أن هذا الفعل من إجراء ساحر، وأضاع له صوابه، عند الوصول إلى القمة، وفحص الموقع، إذ بدا له بجد أن إيصالها إلى هناك ليس من فعل البشر.

قال الاسباني، وعيناه الصغيرتان السوداوان تعبران لأول مرة عن الرعب، ووجهه الأصفر الهزيل، الذي يبدو أنه لا يغير أبداً لونه، يزداد شحوباً: «كيف سأنزلها؟ ...

قال ماكس: كيف!، لكن يبدو لي أن ما من صعوبة في ذلك ...».

وحرَّك بذراعيه القويتين العربة، مستغلاً دهشة تاجر الحبوب، بعد أن رفع عريسيها بطريقة حرّرت عجلتيها للانطلاق، وفي اللحظة التي بدت أنها ستفلت منه صرخ بصوت راعد: «حذار، يا من في الأسفل! ...».

لكن لم يكن هناك أي محذور: فالجَمْع، وقد نبهوا من قبل فرانسوا، واستبد بهم الفضول، ابتعدوا عن الساحة إلى المكان المناسب ليروا منه بوضوح ما يجري على الهضبة، وهوت العربة من علٍ، بالطريقة الأكثر إثارة لتتحطم وتتحول إلى عدد لا متناه من القطع.

قال باروخ: «ها قد نزلت.

صرخ فاريو: آه! يا قطاع الطرق! آه! أيّها الأوغاد! إنّكم، على الأرجح، أنتم الذين رفعتموها إلى هنا ...».

استغرق ماكس، وباروخ ورفقاؤهما الثلاثة في الضحك من شتائم الاسباني. وقال ماكس ببرود: أردنا أن نؤدي لك خدمة، وكدت وأنا أحرّك عربتك اللعينة، أن أُجرَّ معها، أهكذا تجزي لنا الشكر؟ ... فمن أي بلاد أنت إذن؟ ...

ردّ فاريو وهو يرتعش من الغضب: من بلاد لا تصفح أبداً، فعربتي ستؤمّن نقلك إلى الشيطان! ... ثم أضاف وقد غدا وديعاً كخروف: إلا إذا أردت أن تأتيني بواحدة جديدة بدلاً عنها؟!

قال ماكس وهو ينزل: سنتفاوض على هذا».

بعد أن أصبحوا في أسفل البرج، وبلحاقهم بالمجموعات الأولى من الساخرين، أمسك ماكس فاريو بزرّ من سترته وقال له: «نعم أيّها الأب الكريم فاريو؛ سأهديك عربة رائعة، إن أردت أن تقدم لي مئتين وخمسين فرنكاً، لكنّني لا أضمن لك أن تكون مثل هذه معدّة للأبراج.

تلقى فاريو هذه السخرية الأخيرة ببرود وكأنه يختتم بها صفقة تجارية وعقب بالقول: «إنّك تهيّء لي ما أعوّض به عربتي المسكينة بطريقة لم تستخدم أفضل منها في استغلال دراهم الأب روجه».

شحب لون ماكس، ورفع قبضته الرهيبة باتجاه فاريو؛ لكن باروخ الذي يعرف أن مثل هذه الضربة لايتحملها الإسباني ولن تقتصر عليه وحده، أسرع بحمل هذا كأنه ريشة، وقال بصوت منخفض لماكس: «لا ترتكب مثل هذه الحماقات!».

كانت الكلمة تذكيراً للمقدّم بالتقيّد بالنظا م فأخذ يضحك وقال لفاريو: «إذا كنتُ، عن عدم انتباه، حطّمت لك عربتك، فقد حاولت عن عمد الإفتراء عليّ فنحن متخالصان.

تمتم فاريو: ليس بعد! لكنني جدُّ مرتاح لمعرفة ما تساويه عربتي!

قال أحد حضور هذا المشهد ممن لا ينتمون لفرسان البطالة: آه! يا ماكس. لقد وجدت من يناظرك؟.

امتطى تاجر الحبوب حصانه واختفى وسط صيحات الساخرين قائلاً: وداعاً، يا سيّد ماكس، لم أشكرك بعد على مساعدتك لي.

صاح به أحد نجّاري العربات ممن حضروا ليروا تأثير هذا السقوط: سنحتفظ لك بحلقات حديد العجلات».

كان أحد عريشي العربة قد انغرز هناك كأنه شجرة، ووقف ماكس شاحباً مفكرّاًوقد أصابته عبارة الإسباني في الصميم. جرى الحديث لخمسة أيام في

إيسودون عن عربة فاريو، فهي مخصصة للسفر كما يقول غوده الابن، لأنها أجرت جولة في مقاطعة برّي كلها، حيث رُدّدت فكاهات ماكس وباروخ، وهكذا بقي الاسباني خلال ثمانية أيام حكاية تتندّر بها المناطق الثلاثة، وما أثار حساسيته هو أنه غدا موضوع كل التقوّلات [1]. كما أصبح ماكس والمتصيّدة، بعد إجابات الاسباني الحقود الرهيبة موضوع تعليقات عديدة تتمّ همساً في إيسودون، لكنها تطلق عالياً في بورج، ،ڤاتان، وفيرزون، وشاتورو، وكان ماكسنس جيله يعرف البلاد جيّداً، ليخمّن مدى السميّة الكامنة وراء إطلاقها.

فكّر في نفسه قائلاً: «لا يمكن أن نمنع الناس من الهذر. آه! لقد قمت بضربة طائشة».

قال فرانسوا وهو يمسك بذراع ماكس: «هيه! يا ماكس، سيصلان هذا المساء...

- من؟.

- آل بريدو، فجدتي تلقّت رسالة من فليونتها.

همس ماكس في أذنه: اسمع، يا صديقي، فكرت طويلاً في هذا الموضوع. ويجب ألا أبدو أنا أو فلور حاقدين على آل بريدو، وإذا كان على الورثة أن يتركوا إيسودون، فمن واجبكم أنتم آل هوشون أن تطردوهم منها. افحص جيّداً هؤلاء الباريسيين، وسنرى غدا لدى كونييت، بعد أن أعرف مدى ثقلهم، ما يجب أن نقابلهم به، وكيف نعكر علاقتهم مع جدك؟...

قال باروخ لنسيبه فرنسوا وهما عائدان إلى منزل هوشون بينما عاد صديقهما إلى مسكنه: عرف الاسباني نقطة الضعف في ماكس».

بينما كان ماكس يقوم بضربته مع الاسباني، لم تستطع فلور أن تكتم غيظها، ورغم توصيات نديمها، ودون أن تعلم إن كانت تخدم مخططاته أو تضرّ بها. تفجّر

---

(١) في رأي م. سرفال أن حكاية عربة فاريو حقيقية، وفي هذه الحالة يكون بلزاك قد سمعها من برنيه أو بورجه.

غضبها على العازب المسكين، وكان جان جاك عندما يتعرّض لغضب خادمته يحرم من كل العنايات والمداهنات المبتذلة التي تدخل السرور إلى نفسه. كانت فلور تطبّق عليه عقوباتها، فلا تسمعه تلك الكلمات الصغيرة المتودّدة التي تزيّن الأحاديث بنغمات مختلفة مع نظرات متفاوتة في رقتها مثل: يا هري الصغير، ويا جروي الكبير، ويا أنا، الخ... بل تخاطبه بكلمة «أنتم» الجافة، الباردة، المظهرة لاحترام ساخر يُوجّه إلى قلب هذا الفتى المسكين كأنه حد سكين. هذه «الأنتم» كانت بمثابة إعلان حرب. وبدلاً من أن تشرف على نهوضه من السرير، وتقدّم له لوازمه، وتخمن رغباته، وتنظر إليه بهذا الإعجاب الذي تعرف كل النساء كيف يعبرن عنه، وتزيد من المبالغة فيه لتبدو أكثر ملاطفة مثل قولها: «إنّك نضر كوردة!، أو هيّا إنك تتدفق صحة وعافية، أو كم أنت جميل، يا عزيزي جان!»، أخيراً فبدلاً من أن تمتّعه بدعاباتها ومجونها، فإن فلور تتركه يرتدي ثيابه بمفرده، وإذا ناداها أجابت من أسفل السلم: «إيه! لا يمكنني أن أفعل أشياء عديدة في آن واحد، هل أشرف على إعداد فطورك أم أخدمك في غرفتك. ألم تصل بعد إلى السنّ الذي تستطيع فيه ارتداد ثيابك بمفردك؟».

تساءل العجوز وهو يتعرّض لأحد هذه المواقف المغتاظة في اللحظة التي طلب فيها موافاته بماء ساخن لحلاقة ذقنه: «يا إلهي بماذا أخطأت معها؟» بينما كانت فلور تصرخ «ڤيدي، خذي ماء ساخناً للسيّد».

قال الرجل الطيب المخبول من خشية الغضب الذي يثقل الجوّ من حوله: فيدي؟ ما للسيّدة هذاالصباح؟.

كانت فلور برازيه قد عملت على أن يناديها جميع من في المنزل: روجه، وڤيدي، وكوسكي، وماكس، بالسيّدة.

أجابت ڤيدي وهي تتخذ مظهراً كثير التودُّد: يبدو أنها علمت عنك شيئاً ليس جميلاً، إنك على خطأ يا سيّدي. ما أنا إلا خادمة مسكينة، ويمكنك أن تقول عني إنني أتدخل في أموركم، ولكن لو فتشت بين جميع نساء الأرض، كما فعل الملك

في الكتابة المقدّسة، لما وجدت من تماثل السيّدة؛ يجب أن تقبّل الأثر الذي تتركه أقدامها عندما تسير ... إن تُسبِّبْ لها الكَدَر، يُحزنْك هذا ويعتصر قلبك! أخيراً، إن الدموع تترقرق في عينيها الآن».

تركت فيدي الرجل المسكين مرتعباً، فتهالك على كرسي وراح ينظر حوله كمعتوه كئيب ونسي حلاقة ذقنه. فقد كان لهذا التناوب بين الحنان والبرود على هذا الكائن الضعيف، الذي لا يحيا إلا في جوّ يشعره بالودّ، التأثيرات المرضية التي يحدثها الانتقال المفاجىء من حرارة استوائية إلى برد قطبي؛ فكأنها آفات معنوية يُبتلى بها كالعلل، وفلور وحدها، في هذا الكون، يمكن أن تؤثّر عليه هذا التأثير؛ فهي مردُّ عافيته وسبب سقامه.

قالت وقد ظهرت على الباب: هيه! وبعد، أراك لم تحلق ذقنك؟ انتابت الأب روجه عند سماع صوتها هزّة ذعر، وتحول لونه للحظة من شحوب واصفرار إلى احمرار، لكنه لم يجسر على الشكوى واستأنفت قولها ببرود: «إن إفطارك ينتظرك! ويمكنك النزول في المبذل والخفّ، افطر لوحدك، وابتعدت دون أن تنتظر جواباً؛ فقد كان تركُ روجه يفطر لوحده إحدى عقوباتها، التي تسبّب له حزناً ممضاً؛ فهو يحب التحدث عند الأكل؛ وبوصوله إلى أسفل السلم انتابه السعال، فالإنفعال أيقظ فيه الحدور [1].

قالت فلور وهي في المطبخ دون أن تبالي بسماع سيّدها لكلماتها: «ليسعل! ليسعل! هذا العجوز الغادر فهو من القوة بحيث لا مبرّر للقلق علّيه، ولن يلفظ روحه إلاّ بعد أن يزهق أرواحنا ...».

هذه هي الإهانات التي كانت توجّهها المتصيّدة إلى روجه في لحظات غضبها.

---

(١) **الحدور**: اسم أطلقه القدماء على جميع التهابات الأغشية المخاطية، الحادّة أو المزمنة مع فرط إفراز غدد الناحية الملتهبة (عن المعجم الطبي. د. مرشد و د. خياط).

وجلس الرجل المسكين في كآبةعميقة، وسط القاعة، على زاوية من المائدة، ونظر إلى أثاثه القديم، وإلى لوحاته الأصيلة نظرة أسف.

قالت فلور وهي تدخل: «كان باستطاعتك أن تضع رباط عنق. أتظن» أن من المبهج رؤية عنق في احمرار وتجعد عنقك المماثل لرقبة ديك رومي.

رفع روجه نحو فلور عينيه الخضراوين الكبيرتين وقد ترقرقت فيهما الدموع، وقال وهو يواجه سحنتها الباردة: ولكن ماذا فعلت لك؟.

- ماذا فعلت؟ ألا تعلم؟! يا لك من منافق! إن أختك أغات، أو من هي أختك بقدر ما أنا أخت لبرج إيسودون، بينما هي لا تمت إليك بصلة وفق شهادة أبيك بالذات[1]، وصلت من باريس مع ابنها، ذلك الرسّام اللئيم، الذي لا يساوي فلسين، وهما آتيان لرؤيتك.

ردّ بدهشة" أختي وابن أختي آتيان لإيسودون.

- نعم تظاهر بالدهشة لتوهمني بأنك لم تكتب لهما من أجل حضورهما؟ هذه خدعة خيطت بخيط أبيض! كن مطمئناً فلن نعكر أبداً صفو أهلك الباريسيين، فما أن يضعوا أقدامهم حتى لن ترى أثراً لأقدامنا، فسنرحل أنا وماكس ولن نعود أبداً. أمّا وصيتك فسأمزقها نتفاً بين أنفكَ ولحيتك، أتسمعني؟ ... اترك أملاكك لعائلتك، فنحن لسنا عائلتك، وسترى بعد ذلك إن كنت ستحبّ لشخصك من قبل أشخاص لم يروك منذ ثلاثين سنة، أو أنّهم لم يروك أبداً! ليست أختك التي تحلُّ مكاني!، هذه الورعة ستة وثلاثون قيراطاً![2].

قال العجوز: أهذا ما يكدّرك يا عزيزتي فلور؟ لن أستقبل أختي ولا أبناء أختي ... وأقسم لك إنني أسمع الآن ولأول مرة خبر مجيئها. هذه مؤامرة دبّرتها السيدة هوشون، العجوز التقيّة! ...».

---

(١) تذكير بالشكوك - غير القائمة على أساس - التي خالجت الدكتور روجه حول أبوّته لأغات.

(٢) من المعروف اطلاق صفة أربعة وعشرين قيراطاً على الذهب الصافي كلياً دون أي شائبة، وهذا هو أقصى الصفاء، وبالتالي لا وجود لستة وثلاثين قيراطاً.

أمكن لماكس أن يسمع جواب الأب روجه، إذ أنه ظهر فجأة وهو يقول بلهجة السيّد: « ما الأمر؟ ...

تابع العجوز، وهو سعيد بلجوئه إلى حماية الجندي الذي كان ينحاز دائماً إلى جانب روجه باتفاق بينه وبين فلور: عزيزي الطيّب ماكس، أقسم بكل ما هو مقدّس، أنني فوجئت بهذا النبأ الآن، فأنا لم أكتب لأختي أبداً: وقد طلب مني والدي معاهدته على ألا أترك لها شيئاً من أملاكي، وفضل بالأحرى أن أهبها إلى الكنيسة ... أخيراً، فأنا لن أستقبل أختي أغات، ولا أولادها.

أجاب ماكس: إن والدك على خطأ يا عزيزي جان جاك، والسيّدة فلور على خطأ أكبر أيضاً. كان لوالدك أسبابه الخاصة، لكنه مات، وحقده يجب أن يموت معه ... فأختك هي أختك، وأبناؤها هم أنسباؤك الأقربون. يجب لحسن سمعتك ولحسن سمعتنا نحن أيضاً أن تحسن استقبالهم. إذ ماذا سيقال في إيسودون؟ يا للصاعقة! تكفيني الهموم التي على كاهلي، ولم يعد ينقصني إلا أن أسمع من يقول في إيسودون، إننا ندفعك إلى مقاطعة أهلك، وإنك لست حرّاً، وإنّنا نحرّضك على وارثيك، وإننا نغتصب ميراثك، فليأخذني الشيطان إن لم أرحل عند سماعي فريّة ثانية، إذ يكفي واحدة! هيّا لنفطر».

غَدَت فلور ناعمة كالقاقم[1]، فساعدت لاڤيدي على إعداد مائدة الإفطار، وبلغ إعجاب الأب روجه بماكس أقصى مداه، فأخذه بين يديه، واقتاده لقرب إحدى النوافذ وهناك قال له بصوت منخفض: «آه! يا ماكس، لو أن لي ولداً لما أحببته بقدر ما أحبُّك. وفلور على حقّ: فأنتما وحدكما عائلتي ... إنك رجل شريف، يا ماكس، وقد قلت قولاً طيّباً جداً ...

---

(١) القاقم: حيوان بقدر ابن عرس، ويسمى أيضاً جرذ أرمينية، تعتبر فروته أجود الفراء لبياضها وشدّة نعومتها.

قاطعه ماكس قائلاً: يجب أن تحتفي بأختك وولدها، ولكن لا تغيّر الترتيبات المتعلّقة بوصيتك، وهكذا ترضي والدك وجميع الناس.

هتفت فلور بلهجة مغتبطة: وبعد يا حبيبيَّ الصغيرين العزيزين. إن لحم الطيور يكاديبرد. والتفتت إلى جان جاك روجه باسمة وقالت: «إليك يا أعزَّ حبيب، هذا الجناح».

عند هذه الكلمات فقد الوجه المتطاول للرجل الساذج لونه الرِمِّي، وبدت على شفتيه المتدلّيتين ابتسامة مدمن الأفيون (١)؛ لكن السعال عاوده، إذ أن سعادته بالعفو عنه سبّبت له انفعالاً بمثل عنف معاقبته. ونهضت فلور ورفعت عن كتفيها شالاً صغيراً من الكشمير، أحاطت به عنق العجوز، وهي تقول له: «إن من الحمق أن تلحق الضرر بنفسك من أجل أشياء تافهة. خذ أيّها الغبيّ العريق! ففي هذا ما يمنحك العافية، فقد كان إلى جانب قلبي...

قال روجه لماكس بينما ذهبت فلور لتحضر قلنسوة من المخمل الأسود ليغطي بها العازب رأسه شبه الأصلع: يا للمخلوقة الطيّبة.

أجاب ماكس: طيّبة بقدر ما هي جميلة، لكنها تتوقّد حيوية كجميع من يحملون قلوبهم على أكفّهم».

ربُّما تُؤخَذُ على هذه الصورة فظاظتها لكن ألا توجد فيها تقلّبات طبع المتصيّدة موسومة بهذه الحقيقة التي على الرسّام أن يتركها في الظلّ؟، الواقع أن هذا المشهد قد تكرّر مئة مرّة، وهو بشكله الصارم، وبحقيقته الرهيبة، النموذج الممثّل للأدوار التي تلعبها جميع النساء أيّاً كانت درجة السلّم الاجتماعي التي يقفن عليها؛ عندما تحولهن مصلحة ما من الطاعة والإذعان، وتمتحهن القدرة على توجيه الأوامر، مثلهن كمثل كبار السياسيين الذين تبرّر لديهم الغاية كلّ الوسائل. وفي النهاية،

(١) يعتبر بلزاك أن لمدمني المخدرات ابتسامة مميزة، وعبر عن ذلك في **الأب غوريو**، **والفتاة ذات العينين الذهبيتين وبييريت**، **والنسيب بونس**.

مابين فلور برازيه والدوقة، وما بين الدوقة وأغنى بورجوازية. وما بين البورجوازيه والخليلة المرّفهة، لا فروق إلا تلك العائدة للثقافة المكتسبة والوسط المعاش. فحرد السيدة النبيلة يحلُّ محل عنف المتصيّدة. والدعابات الفكهة، والسخريات المرّة، والازدراء البارد، والشكاوي المنافقة، والمشاحنات المختلفة، تؤدي إلى ذات النجاح الذي حصلت عليه، بخططها السوقية من في إيسودون تماثل السيّدة إقرار[1].

راح ماكس يقصّ بطرافة ما جرى لعربة ڤاريو، مما أضحك العازب الساذج، كذلك ڤيدي وكوسكي الواقفين يستمعان في الممرّ، أما فلور فانتابتها قهقهات صاخبة. وبعد الإفطار وبينما كان جان جاك يطالع الصحف، إذ سبق له الاشتراك «بالدستوري» وباندور[2]؛ اختلى ماكس بفلور، وسألها: «هل أنت واثِقة أنه لم يدوّن أي وصيّة منذ تلك التي أقامك فيها وريثة له؟.

أجابت: ليست لديه وسائل كتابة.

رد ماكس: يمكنه أن يملي وصية جديدة على كاتب عدل، إن كان لم يفعل فيجب الحذر من مثل هذه الحال. إذن فلنستقبل بحفاوة آل بريدو، لكن لنسع إلى تحصيل جميع ديون الرهنيات بسرعة. والموثقون العاملون معنا يرغبون بمثل هذه الإجراءات فهي مصدر رزق لهم. والمداخيل تزداد كل يوم؛ إذ يتمّ الإعداد لغزو اسبانية وتخليص فرديناند السابع من سيطرة جمعياته التأسيسية[3]. وهكذا ففي العام المقبل ستتجاوز المداخيل سعرها الاسمي، إذاً يعتبر وضع سبعمئة وخمسين

---

(١) **السيّدة إقرار**: شخصية في ملهاة كولن هارلفيل: **العازب العجوز**(١٧٩٢) وهي مدبّرة منزل عازب في الخامسة والستين من العمر تخطّط للزواج منه، وجدّد هذا النموذج في آذار ١٨٣٣ في مسرحية لأوجين بلانار وپولن بعنوان: **السيدة إقرار الجديدة**.

(٢) **باندور**: صحيفة ساخرة للمعارضة الدستورية والليبرالية وقد ظهرت بهذا الاسم في تموز ١٨٢٣ أي بعد الأحداث التي ترد في هذه الرواية.

(٣) في العام ١٨٢٠ نشبت ثورة في اسبانية اضطرّت فرديناند السابع للقبول بتشكيل جمعية تأسيسية (كورتس) وفي العام ١٨٢١ تمّ وضع دستور ليبرالي، وفي العام ١٨٢٣ جرى التدخل الفرنسي الذي وضع حداً لهذا النظام الليبرالي. وبالتالي فالأحداث التاريخية غير متطابقة مع التأريخ الروائي.

ألف فرنك في السجّل الكبير بسندات ٨٩ [١] مشروعاً ناجحاً، لكن حاولي أن تضعيها باسمك، فهذا أكثر أماناً.

قالت فلور: إنّها فكرة رائعة.

- وبما أنّه سيكون لدينا دخل خمسين ألف فرنك من إيداع ثمانمئة وتسعين ألف فرنك فيجب حثه على إقراض مئة وأربعين ألف فرنك لسنتين تسلم بالنصف، وخلال سنتين سنقبض مئة ألف فرنك في باريس، وتسعين ألفاً هنا، وهكذا لا نخشى شيئاً.

قالت: ماذا يحلُّ بنا لولاك يا عزيزي ماكس.

- أوه! غدا مساء، لدى كونييت، بعد أن أكون قد رأيت الباريسيين، سأجد الوسائل لصرفهما من قبل آل هوشون بالذات.

- يالذكائك يا ملاكي! أنت خير من يُحَبُّ.

تقع ساحة سان جان وسط شارع يسمى ناريت الكبرى [٢]في قسمة الأعلى وناريت الصغرى في قسمه الأدنى. وتعني كلمة ناريت في بري ذات وضع الأرض الذي تعنيه كلمة«ساليتا» في جنوا، أي المنحدر الحاد، وشارع ناريت سريع الانحدار من ساحة سان جان حتى باب فيلات. وبيت العجوز هوشون مقابل منزل جان جاك روجه، وغالباً ما يرى من نوافذ صالة السيدة هوشون ما يجري في منزل الأب روجه، والعكس بالعكس، إن كانت الستائر مزاحة أو الأبواب مفتوحة. والمنزلان متشابهان بحيث يمكن القول بأنهما مبنيان من قبل مهندس معماري واحد. وكان هوشون سابقاً جابي الضريبة الملكية في بلدة سِل من مقاطعة برّي، وهو من مواليد إيسودون وعاد إليها ليتزوج من شقيقة الوكيل الموفد، الشاب

---

(١) يربط ماكس هذا السجل بثورة ١٧٨٩. وهذه الحسابات مما اعتاد بلزاك أن يضمنه رواياته دون تدقيق في صحة الفوائد أو العائدات.

(٢) غدا شارع ناريت الكبرى في إيسودون يحمل اسم اونوره دى بلزاك في العام ١٩٣٠.

الظريف لوستو مستبدلاً بمنصبه في سلِ مكتب تحصيل الضرائب في إيسودون، وتخلى عن هذا العمل في العام ١٧٨٦ فتجنب بذلك عواصف الثورة التي اعتنق مبادئها دون تحفظ كجميع «الأشخاص الشرفاء» الذين يتغنون بأمجاد المنتصرين.

استحق السيد هوشون عن جدارة شهرته كأحد كبار البخلاء. لكن أليس في وصفه تعرّض للإتهام بالثرثرة؟ يكفي ذكر مثال واحد عن مظاهر البخل التي أشهرته ليبيّن لكم السيد هوشون كاملاً.

عند زواج ابنته من أحد أفراد عائلة بورنيش، وجب إقامة حفل عشاء لعائلة بورنيش، والخطيب وريث مؤمّل لثروة كبيرة، وفي يوم توقيع عقد الزواج اجتمعت العائلتان في الصالة: آل هوشون من جهة، وآل بورنيش في الجهة المقابلة وكلهم في ثياب العيد، ووسط قراءة العقد من قبل الموثق الشاب السيد هِرون، دخلت الطاهية وطلبت من السيد هوشون خيطاً لتحزم به الديك الرومي وهو الطبق الرئيس في حفل العشاء، وتناول جابي الضريبة الملكية من أسفل جيب معطفه خيطاً سبق استخدامه دون شك لرزمةما، وأعطاها إياه وقبل أن تصل الخادمة إلى الباب صاح بها: «غريت، ستعيدينه لي فيما بعد». وغريت في بري تصغير لاسم مرغريت. تدركون الآن السيد هوشون ودعابات المدينة حول هذه العائلة المؤلفة من الأب والأم وأولاد ثلاثة: الهوشون الخمسة.

سنة بعد سنة، غدا هوشون العجوز أكثر مماحكة، وأكثر عناية، وهو الآن في الخامسة والثمانين من العمر! ينتمي إلى ذلك الصنف من الرجال الذين ينحنون في الشارع، وسط مناقشة محتدمة، فيلتقط دبوساً، وهو يقول: «هوّذا يوميّة امرأة» ويغرز الدبوس في ظهر كمّه، وهو يشتكي بكل جَدٍّ من الحياكة السيّئة للأجواخ الحديثة مشيراً إلى أن معطفه لم يعمّر إلا عشر سنوات. طويل القامة، ضامر الجسم، شاحب اللون، يتحدّث قليلاً، ويقرأ قليلاً، ولا يجهد نفسه أبداً[1]، متقيّد

(١) ارتبط طول عمر السيد هوشون بذلك التقنين في الطاقة الحيوية الذي يؤمن به بلزاك، وهو يفكر بصورة خاصة بطول عمر والده.

بالأصول كشرقيّ، محافظ في المنزل على نظام تقشف كبير، يحدّد بالمكيال والوزن كمية المآكل والمشارب لعائلته، المتوسطة العدد المؤلفة من حفيديه باروخ وأخته أدولفين وريثي العجوزين بورنيش-بعد أن توفيت ابنته وصهره كمداً وارتضى بالوصاية على الولدين ليحفظ دوطة الابنة- ثم حفيده الآخر فرنسوا هوشون.

كان ابن هوشون البكر قد استدعي للخدمة في العام ١٨١٣، مع أبناء العائلات الذين تخلّصوا من القرعة، لكنهم استدعوا «كحرّاس للشرف»[١] واستشهد في معركة هانو. هذا الوريث المنتظر كان قد تزوّج في سن مبكّرة جداً امرأة غنية، كي لا يؤخذ في قرعة ما. لكنه بدّد كل ثروة امرأته كأنه يتوقع نهايته، وماتت تلك المرأة وهي تتبع من بعيد الجيش الفرنسي في استرا سبورغ في العام ١٨١٤، مخلّفة وراءها ديوناً رفض العجوز هوشون تسديدها، ملوّحاً في وجوه الدائنين بتلك القاعدة المتّبعة في الاجتهادات القضائية القديمة: «النساء قاصرات».

أمكن دائماً القول: الهوشون الخمسة لأن تلك العائلة بقيت مؤلّفة من ثلاثة أحفاد وجدين، وهكذا بقيت تلك الفكاهة سائدة، إذ ما من فكاهة تنسى في المقاطعات. وبقيت غريت، وقد بلغت الستين من العمر، تقوم بجميع خدمات العائلة.

كان المنزل، رغم اتساعه، لا يحتوي إلا على قليل من الأثاث، ومع ذلك أمكن جيّداً استضافة جوزيف والسيّدة بريدو في غرفتين من الطابق الثاني. وندم العجوز هوشون عند ذاك لأنه احتفظ بسريرين مرفق كل منهما بأريكة قديمة من خشب طبيعي منجّد، ومن طاولة من خشب الجوز وعليهما إبريق من النوع المسمّى «الجرّة الواسعة» مع طست محاط بلون أزرق؛ وكان العجوز يحتفظ بجني أشجار

(١) اتخذ نابليون في العام ١٨١٣ إجراءات شديدة في التجنيد ليعوّض عن الخسائر التي تكبّدها في روسية، فجند أبناء العائلات رغم أن بعضهم دفع عدة مرّات تعويض بديل عنه. وانتصر الامبراطور في معركة هانو على الجيش البافاري النمسوي في تشرين أول ١٨١٣.

فاكهته من التفاح، وإجاص الشتاء، والزعرور، والسفرجل على القشّ المفروش في هاتين الغرفتين، حيث ترتع الفئران والجرذان، وتفوح رائحة الفواكه. وعملت السيّدة هوشون على تنظيف كل شيءو ولَصْق ورق الجدران المنفك» في بعض الأماكن بمعجون الصمغ؛ ووضعت على النوافذ ستائر صغيرة اقتطعتها من فساتين قديمة-لها من الموسلين. وأمام رفض زوجها شراء سجّادتين صغيرتين من الخيوط الثخينة المجدولة قدمت سجّادة سريرها لصغيرتها أغات، قائلة عن تلك الأم التي أنهت السابعة والأربعين من العمر، الصغيرة المسكينة! واستعارت من آل بورنيش منضدتين للوازم الليل قرب السرير، واستأجرت من تاجر أثاث قديم، جار لكونييت صواني ملابس بقبضتين من نحاس. وكانت تحتفظ بزوجين من الشمعدانات الخشبية الثمينة من صنع والدها بالذات الذي كان يهوى أعمال المخرطة؛ وكان من عادة الأثرياء بين ١٧٧٠ و١٧٨٠ أن يتعلموا حرفة يدوية، وتعلّم السيّد لوستو الأب، الموظّف الأولّ في مصلحة الضرائب غير المباشرة الخراطة، تماماًكما تعلمّ لويس السادس عشر صناعة الأقفال. كانت هذه الشمعدانات مزخرفة بحلقات من جذور شجر الورد، والدرّاق والمشمش، وهكذا جازفت السيّدة هوشون بوضع هذه الذخائر الثمينة في الغرفتين. وضاعفت هذه التضحية وتلك الاستعدادات من حراجة موقف السيد هوشون، وكان ما يزال في شكّ من مجيء السيدة بريدو وولدها.

في صبيحة اليوم الذي تميّز بحادث عربة فاريو، قالت السيّدة هوشون بغد الإفطار لزوجها: «آمل، يا هوشون، أن تُحسن استقبال فليونتي» ثم أضافت بعد أن تأكدت من انصراف أحفادها، «إنني سيّدة أملاكي، فلا تلزمني بأن أعوّض لأغات عن استقبال سيءبتخصيصها بهبة ما في وصيتي.

أجاب هوشون بصوت ناعم: أتعتقدين يا سيدتي أنني أجهل وأنا في هذا العمر قواعد حسن الاستقبال البنيوي اللبق.

- أنت تعرف ما أعنيه بقولي أيّها المرائي العجوز. كن سمحاً مع ضيفينا وتذكّر كم أحبُّ أغات...

- أحببت أيضاً ماكسنس جيله الذي سيفترس الميراث العائد لعزيزتك أغات! ... آه! لقد أحسَنتِ إلى شاب عقوق، لكن بعد كلّ حساب: ستعود أموال آل روجه إلى أحد ما من آل لوستو.

بعد هذا التلميح لولادة أغات وماكس المفترضة، أراد هوشون الخروج، لكن السيّدة هوشون العجوز، وهي المرأة المستقيمة الجافة، عبرت عن سخطها، وهي تعتمر قلنسوة مستديرة مشرنقة، وثوباً من التفتة المتموّجة الألوان بكمين ضيقين، وتنتعل بابوجاً خفيفاً، بأن وضعت علبة سعوطها على طاولتها الصغيرة وقالت: «في الحقيقة، كيف يستطيع رجل فكر مثلك، يا سيد هوشون، أن يردّد ترّهات سبّبت الألم لصديقتي المسكينة، وضياع نصيب فليونتي من ثروة أبيها؟ إنّ ماكس جيله ليس ابن أخي الذي نصحته دائماً أن يوفّر نقوده، أخيراً فأنت تعرف تماماً كما أعرف أن السيّدة روجه كانت الفضيلة مجسّدة.

- والابنة جديرة بأمّها، لأنها تبدو لي غبيّة تماماً، فبعد أن فقدت ثروتها كلّها، ربت ولديها على نهجها بحيث أن أحدهما الآن في السجن يحاكم بقضية جرمية أمام محكمة مجلس الأعيان لمشاركته في مؤامرة الجنرال برتون[1]، أما الآخر فهو في وضع أسوأ، إذ أنه رسّام! ... وإذا بقيت فليونتك مع ولدها إلى أن يخلّصا هذا الأبله روجه من براثن المتصيّدة وجيله، فستطول مدة إقامتهما معنا.

- كفى، ياسيد هوشون، تمنَّ لهما أن يستخلصا جزءاً ولو يسيراً من ميراثهما.

تناو ل السيد هوشون قبعته، وعصاه ذات القبضة العاجيّة، وخرج مندهشاً من هذه العبارة الأخيرة، إذ أنه لم يكن يتوقّع مثل هذا التصميم لدى امرأته.

تناولت السيدة هوشون كتاب صلواتها لتتلو القداس اليومي، إذ أن تقدّمها في السن كان يمنعها من الذهاب يومياً إلى الكنيسة، واقتصرت على أيام الآحاد

---

(١) الجنرال برتون (١٧٦٩-١٨٢٢) أوقف في شهر حزيران ١٨٢٢ عقب مؤامرة فاشلة في سومور

والأعياد في زيارتها. ومنذ أن تلقت جواب أغات أضافت إلى صلواتها المعتادة دعاء ترجو فيه الله أن يهدي جان جاك روجه ويفتح عينيه ويبارك أغات ويحقق لها النجاح في المهمة التي دفعتها إليها، ورجت الكاهن خفية عن حفيديها اللذين كانت تلومهما على إلحادهما، من أجل نجاح هذه المهمة، أن يقيم قداديس تساعية تمثّلها فيها حفيدتها أدولفين بورنيش التي تفي ما عليها من صلوات في الكنيسة نيابة عنها.

كانت أدولفين آنذاك في الثامنة عشر من عمرها، وهي منذ سبع سنوات تعمل إلى جانب جدّتها في هذا البيت البارد، ذي التقاليد المنهجية والرتيبة. وقد قامت بكل طيبة خاطر بالتساعية راجية أن توحي بشيء من العاطفة لجوزيف بريدو، ذلك الفنان الذي لا يفهمه السيد هوشون، بينما علّقت الشابة أهمية كبيرة على التعرف عليه، تماماً بسبب ما نسب جدّها إلى هذا الشاب الباريسي من رسوم مستغربة.

أيّد العجزة، والعقلاء، وأرباب العائلات، ورؤوس المدينة، سلوك السيّدة هوشون، فتمنياتها لمصلحة فليونتها وولديها تتوافق مع الازدراء الخفي الذي كان يوحي به سلوك ماكسنس جيله منذ مدة طويلة، وهكذا فنبأ وصول أخت الأب روجه وابن أخته شكّل حزبين في إيسودون: حزب نخبة البورجوازية العريقة التي اكتفت بإبداء تمنياتها بالتوفيق دون أن تساعد على تحقيقه، وحزب فرسان البطالة وأنصار ماكس، وهم للأسف قادرون على تعمّد كثير من الأذى والمكر ضد الباريسيَين الوافدَين .

في ذلك اليوم إذاً، نزلت في مكتب النقليات قرب ساحة ميزير أغات وابنها جوزيف، ورغم تعبها أحسّت بتجدّد شبابها لمرأى مسقط رأسها، حيث تستعيد في كلّ خطوة ذكريات شبابها وانطباعاته، وفي الشروط التي وجدت فيها مدينة إيسودون آنذاك، فإن وصول الباريسيَين انتشر في كل المدينة خلال عشر دقائق.

وهرعت السيّدة هوشون إلى عتبة بابها لتستقبل فليونتها وتعانقها كأنها ابنتها. فبعد أن جابت خلال اثنين وسبعين عاماً مجال حياة خالياً ورتيباً، تجد بالارتداد إليه نعوش ثلاثة أولاد لها ماتوا تعساء ثلاثتهم، فانصرفت إلى نوع من أمومة مصطنعة لشابة، وجدتها، وفقاً لتعبيرها متعلقة بأذيالها خلال ستة عشر عاماً؛ وداعبت في غياهب المقاطعة، تلك الصداقة القديمة، وتلك الطفولة وذكرياتها، وكأن أغات كانت حاضرة، وهكذا استهوتها مصالح آل بريدو. وها هي تصحب أغات الآن بمظهر احتفالي إلى تلك القاعة حيث يقبع السيد هوشون بارداً كأنه موقد خبت ناره.

قالت العرّابة لفليونتها: «هوذا السيد هوشون، كيف تجدينه؟.

قالت الباريسية: ولكنه ما يزال تماماً كما فارقته.

ردَّ العجوز: آه! بيّن أنك آتية من باريس، فأنت كثيرة المجاملة».

وتمّت إجراءات التعارف: فقُدِّم الحفيد باروخ بورنيش، الشاب الطويل القامة ابن الاثني وعشرين عاماً، والحفيد فرنسوا هوشون ابن الاربعة والعشرين عاماً، والصغيرة أدولفين التي احمرّت خجلاً فلم تعرف ماذا تفعل بيديها، وخاصة بعينيها، لأنها لم ترد أن يبدو عليها أنها تنظر إلى جوزيف بريدو الذي أخذ الشابان والعجوز هوشون يتأمّلونه، كل من وجهة نظره إنّما من وجهات نظر مختلفة، فالبخيل يقول في نفسه: «إنّه يخرج من المشفى[1]، فهو ككلّ ناقه سيشعر باستمرار الجوع» أما الشابان فكانا يفكران: «يا له من شرير! أيّ رأس! لكنه سيهيّء لنا ممسكاً نلويه به،».

قالت أغات أخيراً: «هوذا ولدي الرسام، ابني الطيّب جوزيف!».

---

(١) يخلط العجوز هوشون بين جوزيف وفيليب الذي سمع عنه، دون شك، إنه كان في المشفى.

بدا الجهد في نبرتها وهي تلفظ كلمة طيّب، فكأن قلب أغات ينكشف وهي تفكّر بسجن اللوكسمبورغ.

هتفت السيّدة هوشون« يبدو وكأنّه مريض، إنه لا يشبهك...

قاطعها جوزيف بسذاجة الفنان المفاجئة: كلا يا سيّدتي، فأنا أشبه أبي، وبشكل أكثر دمامة أيضاً!

شدّت السيّدة هوشون على يد أغات التي كانت تمسك بها، وألقت عليها نظرة، كأنّها بحركتها ونظرتها تريد أن تقول: «آه! أتصورّ جيداً، يا ابنتي، أنك تفضّلين عليه ذلك العنصر الضال فيليب».

ردّت السيدة هوشون بصوت عال: « أنا لم أر أبداً والدك، يابنيّ العزيز؛ لكن يكفيك أن تكون ابن أمّك لأحبّك. عدا عن أنّك صاحب موهبة، وفقاً لما كتبت لي عنك المرحومة السيدة دكوان، الوحيدة التي كانت تنبئني بأخباركم في الفترة الأخيرة.

رد الفنان: الموهبة! لم تظهر بعد؛ لكن ربّما أمكنني مع الزمن والمثابرة أن أحقق الشهرة وأكسب ثروة.

قال السيد هوشون بسخرية عميقة: بالرسم؟...

قالت السيّدة هوشون: هيّا يا أدولفين، اذهبي وتفقّدي إعداد العشاء.

قال جوزيف: أمّي، إني ذاهب لنقل حقائبنا التي وصلت.

قالت الجدّة لفرانسوا: هوشون، أرشد السيد بريدو إلى غرفتيهما».

وبما أن العشاء لن يقدم قبل الرابعة، ولما كانت الساعة لم تتجاوز الثالثة والنصف، فقد ذهب باروخ إلى المدينة ينقل أخبار عائلة بريدو، ويصف مظهر أغات، وكذلك هيئة جوزيف الذي يبدو بوجهه المضنى، السقيم، المتميّز، كأنّه الصورة المثالية التي توضع للصّ متسكّع؛ وكان جوزيف، في ذلك اليوم، موضوع حديث جميع العائلات.

قال أحدهم: «يبدو أن أخت الأب روجه رأت، وهي حامل، قرداً ما، فابنها أشبه بالمكاك.

- إن له وجه قاطع طريق، وعيني عظاءة.

- يقال أن رؤيته مريعة وتثير الفضول.

- جميع الفنانين في باريس على هذه الشاكلة.

- انهم أشرار كالحمير الحُمر[1]، وماكرون كالقرود.

- يبدو أن هذا في طبيعتهم.

- لقيت مصادفة السيّد بوسيه، وهو يقول، بعد أن رآه في عربة البريد، انه يرجو ألا يصادفه ليلاً في ركن من الغابة.

- إن فوق عينيه وَقَباً كما فوق عيني حصان، وحركاته كحركات المجانين.

- يبدو أن هذا الفتى قادر على فعل كل شيء، ولعله السبب في انحراف أخيه، الرجل الوسيم الكبير.

- يبدو أن السيدة بريدو المسكينة غير سعيدة معه.

- لو أننا نستغل فرصة وجوده هنا ليصنع لنا رسوماً ممثّلة لنا؟.

نتج عن هذه الآراء المتطايرة في المدينة كأن الريح تتلاعب بها فضول مفرط، حتى أن كل من يحقّ لهم رؤية آل هوشون وعدوا أنفسهم بزيارتهم في ذات المساء لرؤية الباريسيين فوصول هاتين الشخصيتين يعادل في مدينة راكدة كايسودون العارضة التي سقطت وسط مجموعة الضفادع[2].

بعد أن وضع جوزيف متاعه وأمتعة والدته في غرفتي السقيفة وتفحّصهما،

---

(١) يقال أن ابن حمار الوحش والحمار يكون سريعاً كالخيل ومتميزاً بالشراسة، لذلك فإنه يُصبَغ باللون الأحمر تحذيراً منه.

(٢) تلميح إلى حكاية لافونتين: الضفادع التي تطلب ملكاً.

لاحظ هذا البيت الصامت، حيث الجدران، والسلّم، والبطانات الخشبية دون أي زخرفة، تقطرُ البرودة، ولا يوجد إلا الشيء الضروري. وذهل آنذاك من هذا الانتقال المفاجيء من باريس الشاعرية إلى المقاطعة الخرساء الجافّة[1]؛ ولكن عندما نزل ولاحظ السيد هوشون يقطع بنفسه لكل شخص شريحة من الخبز فهم لأوّل مرّة في حياته ما تمثّله شخصية هرباغون [2]في مسرحية موليير.

قال في نفسه: «كان من الأفضل لنا التوجه إلى النزُل».

أكّد مظهر وجبة العشاء تخوّفاته، فبعد حساء يعلن مرقه الصافي عن الاهتمام بالكمية دون مبالاة بالنوعية، قدّمت سليقة خضار محاطة بازدهاء بالبقدونس، والخضار المنتظمة في طبق منفصل تعتبر من ترتيبات الوجبة، فهي تتصدّر المائدة مرافقة بثلاثة أطباق: بيض مسلوق فوق حميّض في مواجهة البقول؛ وسلطة خسّ بزيت الجوز ترافقها حقاق وضعت بها قشدة الشوفان المحمّص بدلاً من الفانيليا فكانت كمن يبدل بقهوة الموكا الشيكوره. وبعض الزبدة والفجل في طبقين على طرفي المائدة، وفجل أسود ومخلّل خيار تتمّم هذه المائدة، التي حازت على موافقة السيّدة هوشون، فأومأت برأسها، كامرأة أسعدها أن ترى زوجها قد قام بالواجب، في اليوم الأوّل على الأقل. وأجاب العجوز بإشارة من طرف عينه وحركة من كتفيه كأنه يقول: «هوذا التبذير الأهوج الذي دفعتني إليه! ...».

استبدل باللحم المسلوق مباشرة ثلاثة أفراخ حمام مقطّعة تشريحية، وكان النبيذ يعود إلى العام ١٨١١[3]. وقامت أدولفين بناءً على توصية جدتها بتزيين طرفي المائدة بباقتي زهور.

---

(١) هذا التقابل بين باريس والمقاطعات موضوع متكرر لدى العديد من الأدباء وقد كتب عنه ب. سيترون مؤلفاً: «شاعرية باريس في الأدب الفرنسي من روسو حتى بودلير.

(٢) هرباغون: الشخصيةالرئيسة في مسرحية البخيل لموليير.

(٣) هذا يعني أنه خمر معتّق لعشر سنوات، إذا بالغ الجودة يستغرب تقديمه من شحيح. لكن السيد غينيار يذكر أن قسماً كبيراً من خمور ١٨١١، سنة مرور مذنّب هالي قد فسدت وبالتالي بُخست أسعارها.

فكّر الفنان وهو يتأمّل المائدة: «في الحرب يجب التصرّف كالمحاربين».

وأقبل على الطعام كرجل اقتصر إفطاره في ڤيرزون، الساعة السادسة صباحاً على فنجان قهوة رديء جداً. وبعد أن التهم شريحة خبزه، طلب أخرى. ونهض السيّد هوشون وفتش في جيب معطفه إلى أن اهتدى إلى مفتاح فتح به خزانة خلفه، ولوّح بقطعة مأخوذة من كتلة ذات اثنتي عشر ليبرة، وقطع منها بشكل احتفالي شريحة مستديرة قسمها إلى نصفين وضعهما في صحفة مرّرها عبر المائدة للرسّام الشاب بصمت وببرود جندي قديم يقول في نفسه وهو يبدأ المعركة: «هيّا، يمكن أن أقتل هذا اليوم». أخذ جوزيف نصف تلك الشريحة، وأدرك أن ليس له أن يطالب مجدداً بخبز. لم يبد أي من أفراد العائلة دهشة من هذا المشهد المريع في نظر جوزيف، واستؤنف الحديث كالمعتاد. وعلمت أغات أن المنزل الذي ولدت فيه، منزل أبيها قبل أن يرث منزل آل دكوان قد اشترى من قبل آل بورنيش فعبّرت عن رغبتها برؤيته مجدّداً.

أجابتها عرّابتها: دون شكّ، فآل بورنيش سيأتون هذا المساء، ثم التفتت إلى جوزيف قائلة: وستكون لدينا كل المدينة التي تريد أن تفحصك، ويريد كل واحد فيها دعوتك إلى منزله.

أحضرت الخادمة في نهاية العشاء جبن تورين وبرّي الشهير الطّري المصنوع من حليب الماعز، وهو ينطبع بدقّة بأوراق الكرمة المقدّم عليها كابتكار مميّز في تورين. ووضعت غريت إلى جانب كل قطعة صغيرة منه بشكل احتفالي لبّ الجوز، وبسكوتاً ثابتاً.

قالت السيّدة هوشون: هيا يا غريت، إلا تأتنا بفاكهة؟.

أجابت غريت: لكن لا يوجد ما هو متعفّن منها يا سيدتي.

أطلق جوزيف قهقهة عالية كأنه بين رفاقه في المرسم، إذ أدرك فجأة أن الحرص على تناول الفاكهة التي أصابها العطب أولاً تحوّل إلى عادة متأصّلة؛

وأجاب بحيوية مرح رجل راق له الجوّ: «باهٍ! ومع ذلك يمكننا أكلها .

هتفت السيّدة العجوز : ولكن اذهب أنت يا سيد هوشون» .

أحسّ السيد هوشون بالحرج من عبارة الفنّان ، فأتى بدرّاق الكروم[1]، وإجاص وخوخ سانت كاترين .

قالت السيّدة هوشون لحفيدتها : «أدولفين ، اذهبي واقطفي لنا بعض العنب» .

نظر جوزيف إلى الشابين وكأنّه يريد أن يقول : « أبفضل هذا النظام الغذائي يبدو وجهاكما بمثل هذه النضرة؟» وأدرك باروخ هذه النظرة القارصة ، فابتسم إذ أنه مع ابن خاله هوشون كانا حريصين على التكتم ، وهما لا يباليان بما يقدّم لهما في المنزل طالما يتعشّيان لدى كونييت ثلاث مرات في الأسبوع ؛ عدا عن أنه كان قد تلقى من زعيم الفرسان دعوة لحضور اجتماع هام للجمعية يستنفر أعضاءها لمد يد العون إليه .

هذا العشاء الترحيبي بالضيوف في منزل العجوز هوشون يشير إلى مدى ضرورة هذه الحفلات الليلية لدى كونييت لهذين الشابين الطيّبي الشهيّة بحيث لا تفوتهم أي حفلة هناك .

قالت السيّدة هوشون وهي تنهض وتشير لجوزيف لتتأبّط ذراعه : سنتناول المشروب المهضم في الصالون» . وبخروجهما أولاً استطاعت أن تهمس في أذن الرسام : «وبعد ، يا ولدي المسكين ، هذا العشاء لن يتخمك ، رغم أنني حصلت عليه بمشقّة . ستصوم هنا ولن تأكل إلا ما يقوم بأودك لاستمرار العيش . هوذّا كل شيء . إذن اصبر على مائدتنا» ، أعجبت طيبة هذه العجوز الفائقة الرسّام التي أدانت نفسها دون حرج ، واستأنفت : «عشت خمسين عاماً مع هذا الرجل دون أن أسمع «الموسيقى الراقصة» لعشرين إكو على الأقل في محفظتي . أوه!لو أن الأمر لا يتعلق بانقاذ ثروة لكما ، لما استدعيتكما إلى سجني ؛ أنت ووالدتك .

---

(١) هو درّاق متأخر النضج - مع مواسم قطاف العنب لذلك سمي درّاق الكروم .

قال الرسّام بسذاجة وبالمرح المعروف عن الفنّانين الفرنسيين: ولكن كيف بقيت على قيد الحياة.

- آه! بالصلاة».

بدرت من جوزيف رعشة خفيفة وهو يسمع هذه الكلمة التي زادت من تقديره لهذه المرأة العجوز، وابتعد عنها ثلاث خطوات ليتأمّل وجهها، فوجده مهلاً برصانة ملؤها الحنان مما دفعه إلى القول: «سأرسم صورتك في لوحة!.

قالت: كلا، كلا، إنني كثيرة السأم على هذه الأرض بحيث لا أريد أن أُخلّد فيها بلوحة».

نطقت هذه العبارة الحزينة بمرح، ثم أخرجت من خزانة زجاجة من «الكاشّي» المشروب الكحولي البيتي الجيّد، المعدّ من قبلها، بعد أن تعلّمت الطريقة من هؤلاء الراهبات الشهيرات اللواتي يعود لهن فضل إعداد كاتو إيسودون[1]، أحد أشهر ابتكارات الحلويات الفرنسية، الذي لم يستطع أيّ طاه أو حلواني تقليده، وكان السيّد دي ريفيير السفير في القسطنطينية يطلب في كل عام كميات كبيرة منه لقصر السلطان محمود[2]. كانت أدولفين تمسك صينية من صيني مبرنق ممتلئة بتلك الكؤوس الصغيرة ذات الزوايا المنقوشة والحواف المذهّبة، وكلّما ملأت جدّتها واحداً منها ذهبت لتقديمه.

هتفت أغات بحبور لهذا الاحتفال الذي ذكّرها بأيام فتوتها: «أديريها، هكذا كان يفعل أبي!.

---

(١) نوع من الحلويات عرف في فرنسة باسم MASSEPAIN«مسبّن» وفي إيطالية باسم «مرزبن» وهو مأخوذ من العربية«متبّن» ويتألف من اللوز المسحوق، وبياض البيض، والسكر، «لعله اللوزينا الحالية».

(٢) الدوق دي ريفيير (١٧٦٣-١٨٢٨) هو سفير فرنسة في القسطنطينية من ١٨١٦-١٨٢٠ وقد ذكره بلزاك أيضاً في قضية غامضة. والسلطان هو محمود الثاني (١٧٨٤-١٨٣٩) وقد حكم السلطنة العثمانية من ١٨٠٨ إلى ١٨٣٩ واشتهر بقضائه على الجيش الانكشاري.

قالت لها عرّابتها العجوز هامسة: سيذهب هوشون إلى شركته ليقرأ الصحف، وسيتسنى لنا الوقت للتحدّث».

وبعد نحو عشر دقائق كان جوزيف والنسوة الثلاث منفردين في ذلك الصالون الذي لم يمسح بلاطه يوماً، بل كُنِس فقط، وكانت نجوده مؤطّرة بخشب السنديان وحلقات وبروزات، وكل أثاثه بسيط وشبه قاتم وقد بدا للسيدة بريدو بالحالة التي تركته بها، فالملكية والثورة والامبراطورية والملكية الثانية التي لم تحترم إلا القليل من الأشياء، احترمت هذه القاعة بحيث لم تترك العهود بأمجادها أو بدمارها أي أثر فيها.

هتفت السيدة بريدو مندهشة لعثورها على طائر ترنجي كانت تعرفه حيّاً وقد رأته الآن محنّطاً فوق حافة المدفأة بين الساعة القديمة المعلّقة، وذراعين من نحاس، وشمعدانين من فضة: « آه! يا عرّابتي، كانت حياتي مضطربة قياساً على حياتك.

- أجابت المرأة العجوز: يا ابنتي، إن العواصف في القلب، وأيّاً كانت ضرورة الاستسلام للقدر كبيرة فإننا مضطرون للصراع مع أنفسنا. لن أتحدث عن نفسي، ثم أشارت إلى صالة بيت روجه المواجهة لمنزلها وقالت: أنت بالضبط في مواجهة العدوّ.

قالت أدولفين: « إنّهم يجلسون إلى المائدة».

هذه الشابة شبه المنعزلة كانت تنظر دائماً من النوافذ مؤمّلة الاستنارة عن الخبث المنسوب لماكسنس جيله، والمتصيدة، وجان جاك الذي وصلت بعض كلمات إلى أذنيها عنهم قبل أن تصرف من القاعة. طلبت العجوز من حفيدتها أن تتركها منفردة مع السيدة بريدو وجوزيف إلى أن يأتي أحد الزائرين.

قالت وهي تنظر إلى زائريها الباريسيين: «ذلك أنني حفظت إيسودون عن ظهر قلب وسيكون لدينا هذا المساء ما لا يقل عن عشرة إلى اثني عشر فضولياً».

ما كادت السيّدة هوشون تقصّ على الباريسين الأحداث والتفاصيل العائدة

لهيمنة المتصيّدة وماكسنس جيله على جان جاك روجه. ودون أن تأخذ بالطريقة التركيبية لتعرضهم بها وإنما باقتران كل واحد منهم بالعديد من التعليقات الأوصاف والفرضيات المتعلقة به من قبل الألسنة الطيّبة والسيّئة في المدينة، حتى أتت أدولفين لتعلن عن رؤيتها من بعيد آل بورنيش، وبوسيه، ولومستو- برانجن، وفيشه، وغوده-هرو أي ما مجموعه اربعة عشر شخصاً مقبلين [1] إلى المنزل.

قالت السيدة العجوز وهي تنهي حديثها: «أنت ترين، يا عزيزتي، أنّه ليس من السهل أن تنتزعي هذه الثروة من أشداق الذئب.

أجاب جوزيف: يبدو لي أن من الصعب جداً مع مثل هذا الوغد الذي وصفته لنا، إن لم يكن من المتعذر مع تلك الثرثارة الجسور أن نصل إلى نتيجة في رفع تأثيرهما عن خالي، وإزالة سيطرتهما عليه، إلا إذا بقينا نحو سنة في إيسودون. والمال لا يستحق مثل هذه الارتباكات، دون الأخذ بالإعتبار ما سنتعرض له من سفاهات. وليس لدى أمي إلاّ فرصة خمسة عشر يوماً، وعملها مضمون فيجب ألا تفوته. أما أنا فقد كلّفني شينر بأعمال هامّة لدى أحد أعيان فرنسة[2]... وكما ترين يا سيّدتي، فالثروة بالنسبة لي متوقّفة على ما تنتجه ريشتي!...».

استقبلت كلمات جوزيف بدهشة عميقة، فالسيّدة هوشون رغم تفوّقها بالنسبة للمدينة التي تعيش فيها؛ لم تكن تؤمن كثيراً بالرسم، لذلك نظرت إلى فليونتها وشدّت من جديد على يدها.

---

(١) في ربة وحي المقاطعة يأتي ستة عشر شخصاً من أهالي سانسير لزيارة السيّدة دي لابودري لرؤية بيانشون ولوستو، ويمكن، دون شك، أن يلحظ في ذلك ذكرى فترة كان فيها بلزاك موضع فضول عند إقامته في سان ساتور قرب سانسير في تشرين أول ١٨٤٠.

(٢) هذه الأعمال هي الزخرفة التي قام بها جوزيف في قصر برسل في أيلول ١٨٢٢ وقصّها بلزاك في رواية «بداية في الحياة» وكانت هذه الرواية قد نشرت مسلسلة في صحيفة «الجيسلاتور» من تموز حتى أيلول ١٨٤٢. قبل أن يكتب بلزاك هذا القسم الثاني من المتصيّدة.

همس جوزيف في أذن أمّه: «هذا الماكس نسخة ثانية من فيليب، لكن بمهارة وتدبير لا يملكهما فيليب» ثم التفت إلى السيدة هوشون قائلاً بصوت عال: «هيا يا سيّدتي، لن نزعج السيد هوشون بإقامة طويلة هنا.

قالت السيّدة العجوز: آه! ماتزال شاباً، وما تزال جاهلاً بأمور الدنيا، فخلال خمسة عشر يوماً، وببعض المهارة، يمكن الحصول على بعض النتائج. استمعا إلى نصائحي وتصرفا وفقاً لتوجيهاتي.

أجاب جوزيف: أوه! بكل سرور، فأنا في عجز مذهل فيما يتعلق بالسياسة العائلية، وأنا لا أعلم، على سبيل المثال، رغم تعليمات دروش بالذات، ما يجب علي القيام به، إن رفض خالي استقبالنا غداً؟».

دخلت السيّدات بورنيش، وغوده-هيرو، وبوسيه، ولوستو-برانجن، وفيشه، برفقة أزواجهن، وبعد عبارات المجاملة، وجلوس الأشخاص الأربعة عشر قدمت لهم السيدة هوشون فليونتها أغات وابنها جوزيف. وجلس جوزيف على مقعد وهو يدرس بتكتم الوجوه الستين التي عُرضت أمامه«مجانا»، منذ الساعة الخامسة والنصف حتى الساعة التاسعة كما قال لأمه ولم يغير موقف جوزيف خلال تلك الأمسية، أمام وجهاء إيسودون رأي المدينة بالنسبة إليه: إذ ذهب كل واحد وهو متأثّر من نظرته الساخرة، أو قلق من ابتساماته، أو مرتعب من هذا الوجه العبوس بالنسبة للأشخاص الذين لا يعرفون كيف يميّزون غرابة العبقرية.

في الساعة العاشرة، بعد أن انصرف الزائرون، ولجأ كل إلى غرفة نومه، احتفظت العرابة بفليونتها في غرفة نومها حتى منتصف الليل. وأسرّت كل من المرأتين للأخرى، وهما واثقتان من انفرادهما، بهموم حياتها، وتبادلتا الأحاديث عن آلامهما. وبتعرّف أغات على الصحراء الشاسعة التي ضاعت فيها قوّة تلك الروح الجميلة المجهولة، وبسماعها الأصداء الأخيرة لذلك الفكر الذي خذله القدر، وباطلاعها على آلام هذا القلب السمح المحسن الذي لم يستطع أن يمارس

أبداً سماحته وإحسانه. رأت أغات أنّها ليست الأكثر تعاسة، بإدراكها كم خفّفت الحياة الباريسية بتسلياتهاومتعها الصغيرة من المرارات المرسلة من الله.

قالت: «اشرحي لي يا عرّابتي، وأنت الورعة، أخطائي، وماذا يعاقب الله بي؟...

أجابت المرأة العجوز في الوقت الذي أعلنت فيه الساعة منتصف الليل: إنّه يهيّئنا، يا ابنتي»

عند منتصف الليل وفد فرسان البطالة واحداً بعد الآخر كالأشباح وهم يسيرون تحت أشجار جادة بارون، ويتجولون وهم يتحدثون همساً.

كانت الكلمة الأولى لكل منهم عندما يصادف رفيقه: «ماذا سنفعل؟.

قال فرنسوا: أعتقد أن نيّة ماكس هي أن يُولمَ لنا بكل بساطة.

- كلا إن الظروف الحاضرة خطيرة عليه وعلى المتصيّدة، وهو يخطّط، دون شك، لمقلب يعدّه لهذين الباريسيين.

- سيكون ترحيلهما أكثر لطفاً.

قال باروخ: إن جدي المذعور جداً من إطعام فمين إضافيين في المنزل سيقتنص بكل سرور ذريعة تيسّر ذلك...

هتف ماكس بعذوبة عند وصوله: وبعد أيّها الفرسان! لماذا تنظرون إلى النجوم؟إنّها لا تقطر لنا مشروب الكيرش. فهيّا إلى كونييت! إلى كونييت!.

صرخ الجميع: إلى كونييت!».

هذه الصرخة المنطلقة من كل الحناجر دفعة واحدة أحدثت جلبة مرّت على المدينة كزمجرة كتائب عسكرية في هجمة مفاجئة، ثم ساد الصمت العميق. وفي اليوم التالي سألت أكثر من جارة جارتها: «هل سمعت هذه الليلة، نحو الساعة الواحدة صباحاً، صيحات مروّعة؟ خيّل إليّ أن النار اندلعت في مكان ما.

أبهجت أطعمة كونييت نفوس المدعوين الاثنين وعشرين، فالجمعية التأمت بكاملها، وفي الساعة الثانية صباحاً، وفي اللحظة التي بُدئى بها بالتمزُّز، أي وفقاً لقاموس فرسان البطالة ارتشاف الكحول جرعة، جرعة، والتلمّظ به بدأ ماكس الكلام قائلاً:

«يا أبنائي الأعزاء. هذا الصباح، وبخصوص المقلب المأثور مع ڤاريو وعربته، وُجّهت إلى زعيمكم إهانة نكراء من قبل هذا الحقير تاجر الحبوب، الاسباني إضافة إلى ذلك! ... (أوه! يا للمجسّرين! ...) بحيث عزمت على أن أشعر هذا التافه بوطأة انتقامي؛ مع المحافظة على شروط تسلياتنا. وبعد أن فكّرت طيلة هذا النهار، وجدت وسيلة لتنفيذ مقلب رائع، مقلب سيسبّب له الجنون. ومع انتقامنا للإهانة التي لحقت بالجمعية ممثّلة بشخصي. سنغذي حيوانات وقرها المصريون، قوارض صغيرة هي بعد كل حساب من مخلوقات الله، ويضطهدها الناس ظلماً. إن الخير هو ابن الشرّ، والشرّ هو ابن الخير؛ هذا هو القانون الأسمى! أوجّه الأمر لكم جميعاً تحت طائلة تكدير زعيمكم المتواضع ليسعى كل واحد منكم سرّاً لتأمين عشرين جرذاً أو عشرين فأرة حاملاً؛ إن قدّر الله. اجمعوا أنصبتكم في فترة ثلاثة أيام، وإذا زاد العدد عن ذلك لدى أحدكم فالزيادة مرغوبة. احفظوا هذه القوارض الهامة دون أن تقدّموا لها شيئاً، لأن من الضروري جداً أن تتضوّر هذه البهائم الصغيرة جوعاً. يمكن أن أقبل بدل الجرذان فئران منازل أو حقول؛ وإذا ضربنا اثنين وعشرين في عشرين فسيتجّمع لدينا أكثر من إربعمئة قارض، إن أطلقت جميعاً في مركز الكبوشيين القديم الذي استخدمه فاريو مستودعاً للحبوب التي اشتراها فستستهلك كمية لا بأس بها. ولنكن سريعي الحركة. فغاريو سيسلم قسماً كبيراً من حبوبه خلال ثمانية أيام؛ والحال إنني أريد لهذا الاسباني، المتجول الآن في المناطق المجاورة لأعمال له أن يجد عند عودته نقصا كبيراً في مستودعه».

ثم استأنف بعد أن لاحظ علائم الاعجاب العام على وجوه مستمعيه:

«ليس لي الفضل في هذا الابتكار أيّها السادة، فلنعط ما لقيصر لقيصر، ، وما

لله لله. فما هذه الحيلة إلا تقليد لثعالب شمشون[1] الواردة في التوراة. لكن شمشون كان مشعل حرائق، وبالتالي فهو غير خيّر. أما نحن، فمثل البراهمانيين، حماة للسلالات المضطهدة. وقد نصبت الآنسة فلور برازيه جميع مصائد فئرانها، كما أن كوسكي ذراعي اليمين ذهب إلى صيد فئران الحقول. هذا قولي.

قال غوده الابن: إنني أعرف أين أجد حيواناً يعادل لوحده أربعين جرذاً.

- وما هو؟.

-سنجاب.

وقال أحد المبتدئين: وأنا أقدم قرداً صغيراً ينتشي بأكل الحبوب.

قال ماكس: تفكير سيّء. فسيُعلم من أين أتى هذان الحيوانان.

قال بوسيه الابن: يمكننا أن نحضر خلال الليل من كل برج من أبراج حمام المزارع المجاورة حمامة. نطلقها في المستودع من ثغرة نحدثها في السقف، وستستدعي كلّ حمامة رفيقاتها، فتتجمع سريعاً آلاف الحمامات.

هتف جيله وهو يبسم لفكرة بوسيه الابن: إذن فخلال أسبوع يكون مخزن فاريو على الجدول الليلي؛ وأنت تعلم أن النهوض يتم باكراً في مركز الكبوشيين. ولا يذهبّن أحد دون أن يقلب النعل الليفي في حذائه، وستكون القيادة للفارس بوسيه مبتكر الحمامات. أما أنا فسأحرص على أن أوقع باسمي على أكوام الحبوب، وكونوا أنتم رقباء الجرذان وإذا كان للكبوشيين حارس، فيجب أن يُسكرَ من قبل الرفقاء وبلباقة ليبتعد عن مسرح الوليمة المقدّمة للقوارض.

قال غوده الابن: لم تقل لنا شيئاً عن الباريسيين.

قال ماكس: أوه! يجب دراستهما؛ غير أنني أقدم بندقية صيدي الجميلة،

---

(١) أمسك شمشون ثلاثمئة ابن آوى، وأخذ مشاعل وجعل ذنباً إلى ذنب ووضع مشعلاً بين كل ذنبين في الوسط. ثم أضرم المشاعل وأطلقها بين زروع الفلسطينيين فأحرق الأكداس والزرع وكروم الزيتون. (قضاة- الإصحاح ١٥- (٤-٥)).

الواردة من الامبراطور، وهي تحفة مصنع فرساي، وتساوي ألفي فرنك؛ لمن يجد طريقة لابتكار مقلب لهذين الباريسيين، يرمي الشقاق بينهما وبين السيد والسيّدة هوشون بحيث يقوم هذان العجوزان بصرفهما أو ينصرفان من تلقاء نفسيهما، دون الإساءة بالطبع إلى جدّي صديقينا باروخ وفرنسوا.

قال غوده الابن وهو من هواة الصيد: حسنٌ، سأفكر بطريقة.

- استأنف ماكس: وإذا كان مبتكر المقلب لا يرغب بالبندقية؛ فيمكن أن يستبدل بها حصاني ومنذ تلك الوجبة الليلية بدأ عشرون شخصاً يشغلون مخّهم ليدبّروا مؤامرة ضد آغات وابنها، مع الالتزام بهذا البرنامج، لكن الشروط المفروضة كانت صعبة بشكل لا يتيسر النجاح في هذا الأمر إلا للشيطان أو للمصادفة.

في صباح اليوم التالي نزلت أغات وجوزيف من غرفتيهما قبل موعد الإفطار الثاني الذي يتم عادة في الساعة العاشرة، بينما يسمى كأس الحليب مع قطعة خبز .طليّة بالزبدة يؤخذان باكراً عند النهوض من السرير إفطاراً أولاً. وبانتظار السيدة هوشون التي تقوم رغم عمرها المتقدّم بالتقيّد بدقة بكل إجراءات الزينة التي كانت تمارسها الدوقات في زمن لويس الخامس عشر؛ رأى جوزيف من باب المنزل في مواجهته جان جاك روجه متسمّراً على قدميه في صالته، وأشار بالطبع إلى أمه لتنظر إليه، لكنها لم تستطع أن تتعرّف على أخيها لشدّة تغيّره منذ أن فارقته.

قالت أدولفين الوافدة مع جدّتها، المتأبطة ذراعها، للسيّدة بريدو: «هوّذا أخوك.

هتف جوزيف: أيُّ فَدْم!».

ضمّت أغات يديها ورفعت عينيها إلى السماء وقالت: «إلى أيّة حالة أوصلوه؟ يا إلهي، أهذا رجل في السابعة والخمسين من العمر؟».

أرادت أن تمعن النظر في أخيها، ورأت خلف العجوز فلور برازيه، وقد أرسلت شعرها وأظهرت من تحت وشاح مخرم ظهراً كالثلج بياضاً، وصدراً

عـامـراً، وبدت بهندام غانيـة ثريّة، ترتدي ثوباً مخـصرّاً من الفـرنادين، القـمـاش الحريري الذي ساد طرازه آنذاك، وهو بأكمام منتفخة وينتهي عند المعصمين بأسورة رائعة؛ وتتدلّى من عنقها فوق صدارها سلسلة ذهبية، وكانت تحمل لجان جاك قلنسوته الحريرية السوداء كي لا يصاب بالزكام: مشهد خُطّط له بداهة.

هتف جوزيف: «هي ذي امرأة جميلة! قطعة نادرة! ... لكإنّها خُلقت لترسم -كما يقال- يا للون بشرتها! أوه! يا للإشراقات والظلال الجميلة! أيّة خطوط واستدارات وكتفين! ... إنها كارياتيدية رائعة! إنّها كالموديل الشهيرة لڤينوس تيتيان[1]».

خيلّ لأدولفين والسيّدة هوشون سماع كلام باللغة الاغريقية، وأومأت لهما أغات من خلف ابنها لتشعرهما أنّها اعتادت على هذه الاصطلاحات.

قالت السيّدة هوشون: «أتجد هذه الفتاة التي اختطفت ثروتكم جميلة؟.

- هذا لا يمنعها من أن تكون موديلاً جميلاً! ممتلئة الجسم على وجه الدقة دون أن يفسد ذلك قوامها وجمال ردفيها...

قالت أغات: يا صديقي، أنت لست في محترفك، وأدولفين هنا...

- هذا صحيح؛ أنا مخطىء؛ لكنني من باريس حتى هنا وعلى طول الطريق لم أصادف إلا القردة...

توجّهت أغات إلى السيدة هوشون قائلة: ولكن يا عرّابتي العزيزة. كيف يمكنني أن أرى أخي؟... وهذه المخلوقة إلى جانبه...

قال جوزيف: باه! سأذهب أنا لأراه!... فأنا لم أعد أراه بمثل هذه الفدامة منذ اللحظة التي فكّر بها بإمتاع عينيه بمثيلة ڤينوس تيتيان.

---

(١) استشهد جان سافان بهذا النصّ ليبين شبه فلور برازيه مع لويز دى برونيول. والكارياتيد نساء كاري في بليبونيز الإغريقية وقد مثّلن يحملن أفاريز المعابد. وتيتيان (١٤٩٠-١٥٧٦) الفنان الرسّام الايطالي المشهور.

قال السيد هوشون المنضمّ إليهم: لو لم يكن أحمقاً، لتزوّج بهدوء، ولرُزِقَ أولاداً، ولما حظيتم بالسعي إلى ميراثِه. لكن ربّ ضارّة نافعة.

قالت السيدة هوشون: إنّ فكرة ابنك جيّدة، فليذهب لزيارة خاله وليبلّغه أن عليه أن يكون بمفرده إن رغب بزيارتك له.

- قال السيد هوشون: أو تغيظين الآنسة برازيه؟ كلا! كلا! يا سيدتي. تحمّلي هذا المضض. فإذا لم تحصلي على الميراث، فجرّبي على الأقل أن تحظى ببعض الهبات...».

لم يكن آل هوشون بقدرة صراع ماكسنس جيله. وخلال الإفطار، حمل البولوني من قبل معلّمه، السيد روجه، رسالة موجّهة إلى أخته السيّدة بريدو. وهذه هي الرسالة، التي كلّفت السيّدة هوشون زوجها بقراءتها:

أختي العزيزة:

علمت من قبل غرباء بوصولك إلى إيسودون. وأنا أخمّن السبب الذي جعلك تفضلين منزل السيد والسيّدة هوشون على منزلي. لكن إن أتيت لزيارتي فستستقبلين كما يليق بك. وكنت أودّ لو أبدأ أنا بزيارتك، لكن صحتي تلزمني في هذه الفترة على البقاء في المنزل. وأرجو أن تتقبلي أصدق مشاعر أسفي. ويسرُّني أن أرى ابن أختي، الذي أدعوه للعشاء معي هذا المساء، فالشباب أقل حساسية من النساء في موضوع المعاشرة، كما يسعدني أن أراه مصحوباً بالسيّدين باروخ بورنيش وفرنسوا هوشون

«أخوك المخلص.

ج.ج. روجه.

قال السيد هوشون لخادمته: «اذهبي وبلغي جارنا أننا على مائدة الإفطار، وأن السيّدة بريدو ستجيبه عقب انتهائنا. وأن دعواته مقبولة.

ووضع العجوز اصبعه على شفتيه طالباً الصمت من الجميع. وما أن أغلق باب الشارع، حتى ألقى السيد هوشون، غير العارف بالصداقة الرابطة بين حفيديه وبين ماكسنس، أحد أنفذ نظراته على زوجته وعلى أغات وقال: «إنني مستعد للتضحية بخمس وعشرين لويسية ذهبية، إن يكن الأب روجه كاتب هذه الأسطر. إننا نتراسل مع العسكري...

قالت السيدة هوشون: وماذا يعني هذا؟ لا يهم. سنجيب» ثم أضافت وهي تنظر إلى الرسام: «أمّا أنت أيّها السيد، فاذهب للعشاء؛ ولكن إن...

وتوقفت السيّدة العجوز عن الكلام أمام نظرة زوجها.

بإدراكه مدى متانة الصداقة بين زوجته وأغات، خشي العجوز أن يرى هذه الزوجة تهب شيئاً ما في وصيّتها لفليونتها في حال فقدان هذه لكل ميراث روجه. وبالرغم من أنه أكبر عمراً بخمسة عشر عاماً من زوجته فقد كان هذا البخيل يأمل في أن يرثها، وأن يكون في يوم ما على رأس جميع أملاك العائلة. وكان هذا الأمل فكرة ثابتة لديه. وهكذا فالسيّدة هوشون خمّنت جيّداً وسيلة حصولها من زوجها على بعض التنازلات بتهديده بإعداد وصيتها. لذلك تبنّى السيد هوشون مصلحة ضيفيه، عدا عن أن ميراث روجه ضخم، وهو يريد أن يراه، بمنطق العدالة الاجتماعية، يتحوّل إلى وارثين طبيعيين بدلاً من أن ينهب من قبل غرباء غير جديرين بالاحترام. أخيراً فكلّما انتهت هذه القضية بسرعة، كلّما عجّل ضيفاه بالرحيل. وما أن تحقّق الصراع بين ملتقطي الإرث والوارثين الشرعيين، بعد أن كان مشروعاً في ذهن زوجته حتى استيقظت الفعالية الفكرية للسيد هوشون، بعد أن خمّدتها حياة المقاطعة، ولاحظت السيّدة هوشون، بدهشة ممتعة، في ذلك الصباح بالذات العجوز هوشون يوجّه بعض كلمات متودّدة لفليونتها، مما يكسب آل بريدو نصيراً كبير الكفاءة والبراعة.

عند الظهر، دُهش جوزيف وأغات من توافق ذكاء السيد والسيّدة هوشون، ومن تدقيق هذين العجوزين في اختيار الكلمات التي تضمنّها الجواب التالي الموجه لفلور وماكس أكثر منه إلى جان جاك روجه.

« أخي العزيز .

إن كنت قد بقيت ثلاثين سنة دون العودة إلى هنا ، ودون الاتصال بأي كان ، حتى بك أنت ، فالخطأ لا يعود فقط للأفكار المغلوطة والغريبة التي تصورّها والدي ضدي ؛ وإنما أيضاً لما لقيته من تعاسة ، وسعادة في باريس ، وإذا كان الله قد أسعدني كزوجة ، فقد أشقاني كأم . وأنت لا تجهل أبداً أن ابني ، ابن أختك فيليب متهم بالاشتراك في مؤامرة كبرى بسبب إخلاصه للامبراطور ، وهكذا فلا تندهش إذا علمت أنني كأرملة اضطررت لأن أرضى بعمل متواضع في مكتب ياناصيب لأكسب عيشي ؛ وأنني آتية إلى هنا أفتش عن المواساة والمساعدة ممن شهدوا ولادتي . والحرفة التي اختارها ولدي الآخر المرافق لي من الحُرَف التي تحتاج إلى مزيد من الموهبة ، والتضحيات ، والدراسات قبل أن تثمر وتعطي أكلها ؛ والمجد فيها يسبق الثروة ، مما يعني أن جوزيف بعد أن يكسب عائلتنا الفخار سيبقى فقيراً . وأختك يا عزيزي جان جاك تحمّلت بصمت نتائج الظلم الأبوي ؛ لكن اغفر للأم أن تذكّرك بأن لك ابني أخت ، أحدهما كان مرافق الامبراطور في مونترو ، وخاض وهو في الحرس الامبراطوري ، معركة واترلو ، وهو الآن في السجن ، والآخر لبّى منذ أن كان في الثالثة عشر من عمره نداء الميل الفطري فانصرف إلى مهنة صعبة لكنها مجيدة . وهكذا فأنا أشكرك على رسالتك يا أخي ، مع بوح قلب مخلص ، أصالة عن نفسي ، ونيابة عن جوزيف الذي سيلبي بكل تأكيد دعوتك . المرض يعذر كلّ شيء يا عزيزي جان جاك . سآتي أنا إذاًلزيارتك في منزلك ، والأخت تعتبر نفسها دائماً إلى قرب أخيها أيا كانت الحياة التي اعتمدها . أقبلك بحنان .

« أغات روجه» .

قال السيد هوشون للباريسية: هاهي القضية قد طرحت، وعندما تزورين أخاك يمكنك أن تحدثيه صراحة عن ولديك ... ».

حملت غريت الرسالة، وعادت بعد عشر دقائق لتقدّم تقريراً لمعلميها عن كل ما عرفته، أو استطاعت مشاهدته، وفقاً لما جرت عليه العادة في المقاطعات.

قالت: «سيدتي، منذ البارحة مساءً، جرت الترتيبات في ذلك البيت بحيث أعادته السيّدة ...

قاطعها السيد هوشون متسائلاً: ولكن، من هي السيّدة؟.

أجابت غريت: هكذا يُسمّون في ذلك المنزل المتصيّدة. وبعد أن كانت الصالة وكل ما يتعلّق بالسيد روجه في حالة تثير الشفقة. عاد منذ البارحة إلى ما كان عليه قبل مجيء السيّد ماكسنس؛ بل ويمكن الآن التملّي إعجاباً به. وذكرت لي لاڤيدي أن كوسكي امتطى الحصان في الساعة الخامسة صباحاً، وعاد في التاسعة وهو محمّل بالمؤن. أخيراً سيعدُّ عشاء فاخر، عشاء جدير بمطران بورج، واستبعد كل تقتير، ونظّم كل شيء في المطبخ، وما فتىء العجوز يردّد وهو يبدي اهتمامه بكل شيء: «أريد أن أحتفل بابن أختي» ويبدو أن «آل روجه» سُرُّوا كثيراً بالرسالة. هذا ما قالته لي السيدة ... أوه! بأيّة زينة تبدو! ... زينة! لم أرَ أجمل منها يوماً! ففي أذن السيدة قرطان ألماسيان، كل ألماسة منهما بألف إكو كما ذكرت لي لاڤيدي، والمخرّمات! والخواتم في أصابعها والأساور في يديها كأنّها مذّخر حقيقي؛ وثوب الحرير بجمال الوشاح المزخرف لواجهة مذبح في هيكل الكنيسة ... وقد قالت لي عند رؤيتها: «إن السيّد مفتون لما عُرف عن أخته من طيب الخُلُق، وأنا آمل أن تسمح لنا بالإحتفاء بها كما تستحق. ونحن نعتمد على الرأي الطيّب الذي ستكوّنه عنّا بعد الاستقبال الذي نعدّه لابنها ... والسيّد ينتظر بفارغ صبر لقاء ابن أخته». كانت السيّدة تنتعل خفّاً من الساتين الأسود. وجوارب ... كلا، إنّهما أُعجوبتان! يوجد ما يشبه الأزهار في الحرير؛ وثقوب كأنّها المخرّمات، تبدو من خلالها بشرتها الوردية. أخيراً، إنّها في غاية الأناقة مع منضدة صغيرة لطيفة أمامها، ذكرت لي لافيدي أنها تساوي أجرتنا عن سنتين.

- قال الرسّام باسماً: هيّا يجب أن نتبهرج إذاً.

قالت السيّدة العجوز، بعد ذهاب غريت، مخاطبة زوجها: وبعد بماذا تفكر يا سيّد هوشون؟ ...

كان السيّد هوشون قد وضع رأسه بين يديه وأسند مرفقه إلى جانب أريكته وغرق في أفكاره.

رفع العجوز رأسه وقال: إنّكم تتعاملون مع داهية كالمعلم غونن[1]! ثم التفت إلى جوزيف وأضاف: بأفكارك البريئة لست على مستوى مجابهة ماكر جسوُر كماكسنس؛ ومهما أوصيتك، فسترتكب أخطاءً. لكن احرص على أن تستوعب جيّداً كل ما ستراه، وما ستسمعه، هذا المساء لتنقله لي بالتفصيل فيما بعد! ... وبعون الله! جرّب أن تنفرد بخالك. وإذا لم تتوصل إلى ذلك، رغم كل جهد تبذله، فهذا يسلّط بعض ضوء على خطتهما. لكن إذا تسنّى لك للحظة أن تحادثه دون أن يتنصّت عليك أحد، فيجب أن تستدرجه ليصرّح لك عن حالته غير السعيدة. وتعرض له وضع أمك..».

في الساعة الرابعة، اجتاز جوزيف المضيق الفاصل بين منزل آل هوشون ومنزل روجه، هذا النوع من ممرّ الزيزفون المتدلي بطول مئتي قدم وعرض شارع ناريت الكبرى. وعندما وصل ابن الأخت سبقه كوسكي بجزمته الملمّعة، وبنطلون من الجوخ الأسود، وصدار أبيض وسترة سوداء ليعلن عن قدومه، وكانت المائدة قد أعدّت في الصالة، وتقدّم جوزيف، مميّزاً بسهولة خاله، فعانقه بحرارة، ثم حيّا فلور وماكسنس.

قال الرسام بمرح: «إننا لم نلتق منذ أن وُجدتُ في هذه الحياة، يا خالي العزيز، ولكن أن يحصل هذا متأخراً خير من ألاّ يحصل أبداً.

قال العجوز وهو ينظر إلى ابن أخته كالأبله: على الرَّحب والسعة يا صديقي.

قال جوزيف لفلور ببشاشة الفنان: سيدتي، حسدت هذا الصباح خالي على حظوته بإمكان النظر إليك بإعجاب كل يوم.

---

(١) انظر الملاحظة عن المعلم غونن في الصفحة ٤٦.

قال العجوز وقد بدا شبه بريق في عينيه الذابلتين: أليست جميلة جداً.

- جميلةبحيث تصلح موديلاً لرسّام.

قال الأب روجه بعد أن ضغطت فلور على مرفقه: يا ابن أختي، هوذا السيد ماكسنس جيله، الرجل الذي خدم الامبراطور، كما خدمه أخوك، في الحرس الامبراطوري.

نهض جوزيف وانحنى له.

قال ماكسنس: كان السيد أخوك في سلاح الفرسان، على ما أعتقد؛ أما أنا فكنت بين ناقري الحصى[1].

قالت فلور: جازفتم بحياتكم، لا فرق بين من كان على حصان، ومن مشى على قدميه!».

تأمل جوزيف ماكس بقدر تأمَّل ماكس لجوزيف. كان ماكس في تمام أناقة شباب العصر؛ وهو من يوصي على ثيابه من باريس؛ بنطال من جوخ أزرق سماوي ذو ثنية واسعة لا تكشف إلا عن طرف جزمته المزيّنة بمهماز؛ وصدار أبيض بأزرار ذهبية موشاة يشدُّ على خصره، وقد رُبط من خلف كحزام، وسترة مزرّرة حتى العنق تبرز صدره العريض، وياقة من الساتين الأسود تلزمه برفع الرأس عالياً على طريقة العسكريين، كما كان يرتدي معطفاً قصيراً جيد التفصيل، وتتدلّى سلسلة ذهبية من جيب صداره الذي يكشف عن رأس ساعة مسطّحة، وهو يتسلّى بحاملة مفاتيح ذات جرادة، إحدى ابتكارات بريغه[2].

قال جوزيف في نفسه، وهو يتأمل بإعجاب الرسّام وجه ماكس النضر، ومظهره القوي، وعينيه الرماديتين الصافيتين، إرث والده النبيل: «هذا الفتى وسيم جداً، ويبدو أن خالي مزعج جداً، وهذه الفتاة فتشت عن تعويض، وجليٌّ أنهم يشكّلون العائلة الثلاثية الحميمة»[3].

---

(١) من الألفاظ العاميّة العسكرية: والمقصود بناقري الحصى: الجنود المشاة. استخدمها بلزاك في **الثائرين الملكين**.

(٢) بريغه: (١٧٤٧-١٨٢٣) ساعاتي سويسري شهير، استقرّ في باريس، له ابتكارات عديدة.

(٣) أي الزوج والزوجة وعشيق الزوجة.

في تلك اللحظة وصل باروخ وفرنسوا.

سألت فلور جوزيف: «ألم تشاهد حتى الآن برج إيسودون؟ إن ترد يمكننا أن نقوم بنزهة صغيرة بانتظار تحضير العشاء الذي لن يجهز قبل ساعة، وهكذا نريك طرفة المدينة الكبرى؟.

أجاب الفنان دون أن يرى في ذلك أي محذور: «بكلّ طيبة خاطر!»

بينما ذهبت فلور لتأتي بقبعتها وقفّازيها وشالها الكشمير، نهض جوزيف فجأة لمرأى اللوحات، ، كأن ساحراً لمسه بعصاه، وهتف وهو يتأمل اللوحة التي أثارت انتباهه: «آه! إن لديك لوحات يا خالي؟

أجاب الرجل الساذج: «نعم، إنّها انتهت إلينا من آل دكوان الذين اشتروا تَركة البيوت الدينية والكنائس في برّي».

لم يكن جوزيف يصغي، بل راح يتأمل بإعجاب كلّ لوحة وهو يهتف: رائع! أوه! هذه لوحة ... يجب ألا تتعرّض للفساد! فلنر من المدهش إلى الأشدّ ادهاشاً على مبدأ نيكوله[1].

قال جيله: هناك سبع أو ثماني لوحات كبيرة جداً حفظت في القبو بسبب الإطارات.

هتف الفنان وماكسنس يقوده إلى القبو: «هيّا لنراها».

نزل جوزيف متحمساً، وهمس ماكس كلمة في أذن المتصيّدة، فسارت مع روجه إلى قرب النافذة، وسمعها جوزيف تقول بصوت منخفض، ولكن بطريقة لا تضلّ طريقها إليه: «إن ابن أختك رسّام، وأنت لا تفعل شيئاً بهذه اللوحات، فاعطها له».

---

(١) جان باتيست نيكوله (١٧١٠-١٧٩٦) باني مسرح في باريس عرف نجاحاً متزايداً، وغدا مسرح «الغيته» وكانت هذه العبارة شعاره، مثلاً. وتذكرها بلزاك مرة أخرى على لسان غوديسار الشهير.

قال الرجل الساذج وهو يستند على ذراع فلور ليصل إلى المكان الذي كان ابن أخته فيه يتأمل بوجد لوحة لألبان[1]: يبدو لي، يبدو لي أنك رسّام.

قال جوزيف: ما أنا إلا مزوّق.

قالت فلور: ما معنى هذا؟.

أجاب جوزيف: تلميذ رسم مبتدىء.

قال جان جاك: حسن، إن كانت هذه اللوحات تفيدك وأنت في وضعك هذا فإنني أمنحك إياها، لكن بدون الأطر. أوه! إن الأطر مذّهبة، ثم هي غريبة؛ وسأضع فيها ...

هتف جوزيف فرحاً: طبعاً يا خالي، ستضع فيها النسخ التي سأرسلها لك وستكون بالقياس ذاته ...

قالت فلور: ولكن هذا يتطلب منك وقتاً، ويلزمك قماش وألوان. وبالتالي ستنفق أموالاً، هيّا، أيّها الأب روجه، قَدّم لابن أختك مئة فرنك مع كل لوحة، ولديك هنا سبع وعشرون، منها على ما أعتقد إحدى عشر لوحة بمقياس كبير يجب مضاعفة التعويض عنها... فلنضع لكل اللوحات مبلغ أربعة آلاف فرنك... نعم يمكن لخالك أن يقدم لك أربعة آلاف فرنك لقاء نسخ اللوحات بما أنه سيحتفظ بالأطر! وسيلزمك أنت بدورك أطراً، ويقال إنّها تكلّف أكثر من اللوحات في حال تهذيبها!»

ثم التفتت إلى روجه وهزته من ذراعه قائلة: هيه! ماذا تقول؟ إنه متهاود، ابن أختك، فأنت لن تدفع إلا أربعة آلاف فرنك وتستبدل بلوحاتك القديمة لوحات جديدة... ثم همست في أذنه: إنّها طريقة شريفه لتمنحه أربعة آلاف فرنك، ويبدو لي أنهُ ليس ميسوراً...

- حسن، يا ابن أختي، سأدفع لك أربعة آلاف فرنك لقاء النسخ...

قال جوزيف الشاب المستقيم: كلا! كلا، أربعة آلاف فرنك واللوحات هذا كثير، إذ كما ترون فإن لهذه اللوحات قيمة.

---

(١) ألبان Alban، فرنسيسكو، (١٥٧٨-١٦٦٠) رسّام ايطالي اشتهر بلوحاته ذات المواضيع الميتولوجية.

قالت فلور عاتبة: لكن اقبل أيُّها الغبي! فهذا خالك...

رد جوزيف وهو منذهل من هذا الكسب الذي حصل عليه، إذ أنه تعرَّف على لوحة من رسم بروغن[1]: «حسن، قبلت».

بدا الفنان بمنتهى الغبطة عند خروجه، وهو يقدم ذراعه للمتصيّدة، مما يخدم بشكل باهر أهداف ماكسنس. ولم تكن فلور، ولا روجه، ولا ماكسنس، ولا انسان في إيسودون يعرف القيمة الحقيقية لهذه اللوحات، وظن ماكس المكار انه اشترى بشيء تافه انتصار فلور التي راحت تتنزّه باعتزاز مستندة إلى ذراع ابن أخت معلمها في وفاق تام معه أمام أهل المدينة المنذهلين جميعاً، وقد وقفوا على الأبواب ليشاهدوا انتصار المتصيّدة على العائلة. فهذا الحدث غير المتوقّع أثار شعوراً عميقاً أراده ماكس، وهكذا كانت جميع العائلات تتحدّث عن الاتفاق التام بين ماكس وفلور وبين أخت الأب روجه عندما عاد هذا مع ابن أخته إلى المنزل نحو الساعة الخامسة. أخيراً كانت طرفة هدية اللوحات وأربعة آلاف فرنك لجوزيف قد انتشرت؛ وكانت حفلة العشاء التي شهدها لوستو، أحد قضاة المحكمة، وعمدة إيسودون، رائعة؛ إحدى هذه الحفلات التي تستمر في المقاطعات لمدة خمس ساعات؛ فالخمور الأطيب مذاقاً كانت تحيي المحادثات، وعند التحلية في الساعة التاسعة، كان الرسّام الجالس بين ماكس وفلور في مواجهة خاله قد غدا شبه صديق للضابط بعد أن وجده أفضل انسان على الأرض. وعاد جوزيف نحو الساعة الحادية عشر، وهو شبه ثمل. وحمل كوسكي العجوز روجه إلى سريره، سكراناً شبه ميت؛ فقد أكل كممثّل جوّال وشرب كرمال الصحراء.

قال ماكس بعد أن بقي وحده عند منتصف الليل مع فلور: «حسن، أليس هذا أفضل من أن نكشّر في وجهيهما؟ سنحتفي بآل بريدو، وسنقدم لهما بعض الهدايا الصغيرة، وسنغمرهما بالمحاباة، ولن ندع لهما مجالاً إلا للتغني بحمدنا،

---

(١) بروغن (١٤٤٥-١٥٢٣) أحد اساتذة رفاييل، وممن اشتهروا برسم اللوحات الدينية.

وسيذهبان مطمئين ويدعانا في اطمئنان بدورنا. وغدا صباحاً سأفكُّ أنا وكوسكي جميع هذه اللوحات، ونرسلها إلى الرسّام، بحيث يجدها أمامه عند استيقاظه، سنضع الأطر في القبو ونجدّد إكساء الصالة بهذا الورق المبرنق المزخرف بمشاهد من «تلِماك»[1] كتلك التي رأيتها لدى السيّد مويرن.

هتفت فلور: «طبعاً، هذا سيكون أكثر جمالاً».

في اليوم التالي لم يستيقظ جوزيف إلا عند الظهر. ومن سريره أبصر اللوحات وقد رصفت إحداها وراء الأخرى وحملت إلى غرفته دون أن يحسّ بحركة نقلها. وبينما كان يتأملها مجدّداً، ويتعرف فيها على تحف من أعمال كبار الرسّامين ويدرس طريقة رسمهم، ويفتش عن تواقيعهم، ذهبت والدته لترى أخيها وتشكره مدفوعة من قبل العجوز هوشون الذي علم بكل حماقات جوزيف في العشية وفقد الأمل بنجاح قضية آل بريدو.

قال: إن خصومكم من الدهاة، وأنا لم أصادف في حياتي مثل هذا التبرير يقوم به هذا الجندي، ويبدو أن الحرب تزيد من مراس الشباب؛ وقد تهاون جوزيف فوقع في فخه واندفع يتنزّه والمتصيّدة تتأبّط ذراَعه، وأغلقوا فمه دون شك بمزيد من الخمر، وبلوحات رديئة وأربعة آلاف فرنك؛ فرسّامك لم يكلف ماكسنس غالياً! وجّه العجوز الثاقب الفكر فليونة زوجته لمسايرة ماكسنس خلال زيارتها للكشف عن أفكاره وملاطفة فلور للوصول إلى نوع من الألفة معها بحيث تحصل على لحظات صغيرة من التدوال مع جان جاك. استقبلت السيدة بريدو بشكل ممتاز من قبل أخيها وفقاً للتعليمات التي تلقاها من فلور. كان العجوز في السرير مريضاً من إفراطه في سهرة الليلة السابقة. ولم تتمكن أغات في اللحظات الأولى من أن تتطرق إلى مواضيع جدّية؛ لكن ماكس رأى من المناسب والرحمة أن يترك للأخت

---

(١) ابن عولس في الأساطير الإغريقية. هذا الورق المبرنق الذي رسمه دلنيل من أجل منزل دوفورولروا في شارع بوڤيه. وسبق لبلزاك أن ذكره في رواية «**الأب غوريو**» كزخرفة لجدران نزل ڤوكه.

فرصة الانفراد بأخيها. وكان تخطيطه سليماً، فقد رأت أغات المسكينة أن حالة أخيها بلغت درجة من السوء لم ترد فيها أن تحرمه من عناية السيّدة برازيه.

قالت للعازب العجوز: «أريد أيضاً أن أتعرف على الإنسانة التي أدين لها بسعادة أخي».

هذه الكلمات غمرت العجوز بفرح ظاهر، فقرع الجرس ليطلب السيدة برازيه، التي لم تكن بعيدة كما هو متوقَع. وتبادلت المتنافستان التحيّة. وأبدت المتصيّدة عنايتها الفائقة وحنانها الخالص لسيّدها، ووجدت الوسادة منخفضة تحت رأسه، فصّححتها وركّزت وضعه في السرير وأبدت له بمزيداً من الاهتمام كأنَّها عروس الأمس فكاد المسكين ينفطر قلبه وجداً وتأثّراً.

قالت أغات: إننا مدينون لك يا آنسة بكثير من عرفان الجميل لمظاهر المودة التي تكنّينها لأخي وحرصك المستمر منذ مدة طويلة على توفير السعادة له.

قال الرجل الساذج: هذا صحيح يا عزيزتي أغات، إنّها تغمرني بالسعادة، وهي امرأة ممتلئة بالمزايا الطيّبة.

- إذا عليك يا أخي ألا تقصّر في مكافأة الآنسة، ويجب أن تجعل منها زوجتك شرعاً؛ نعم! إنني ورعة إلى درجة أتمنى فيها أن أراكما تمتثلان لقواعد الدين، ويكون كل منكما مطمئناً لعدم مخالفته الشرائع والأخلاق. جئت يا أخي لأطلب عونك وسط مصيبة كبيرة حلّت بي؛ ولكن لا تظن أبداً أننا نريد أن نوجّه لك أية ملاحظة حول الطريقة التي تتصرف وفقها بأموالك.

قالت فلور: سيدتي، نحن نعلم أن السيد والدك قد ظلمك، ويمكن للسيد أخيك أن يخبرك... وركّزت نظرها على ضحيتها: إن الجدل الوحيد الذي حدث بيننا كان فيما يتعلّق بك، فقد أكّدت على السيّد بأنه مدين لك بنصيب الثروة الذي حرمك منه محسني المسكين، نعم إن والدك كان المحسن إليّ (واتخذت لهجة متباكية) وسأذكر ذلك دائماً... وقد اقتنع أخوك يا سيدتي أخيراً...

قال روجه: نعم، عندما أعدُّ وصيتي، لن أنساك...

-« لا تتحدّث أبداً عن هذا، يا أخي، مازلت لا تعرف طبعي».

بعد هذه المقدمة، يمكن التصوّر بسهولة كيف انقضت هذه الزيارة الأولى، وانتهت بدعوة روجه أخته إلى العشاء ما بعد الغد.

خلال هذه الأيام الثلاثة تمكّن فرسان البطالة من اقتناص كميّة من الجرذان وفئران المنازل وفئران الحقول وصل عددها إلى أربعمئة وخمسة وثلاثين وتضمّنت نسبة لابأس بها من الفأرات الحوامل، أطلقت جميعها بعد أن جوّعت على مخزن حبوب فاريو، ولم يكتف الفرسان بهؤلاء الضيوف فثقبوا السقف وأطلقوا من خلال الفتحة عشر حمامات جاءوا بها من عشر مزارع مختلفة وعرَّست هذه الحيوانات والطيور وعيّدت، خاصة وأن فتى مخزن فاريو أغري من قبل أحد الفكهاء، بالسكرِ صبحاً ومساء دون أن يتفقد مخزن معلمه أو يعيره انتباهاً.

ظنّت السيدة بريدو، خلافاً لرأي العجوز هوشون، أن أخاها لم يعدّ وصيته، وفكّرت بأن تستوضح منه عن نواياه فيما يتعلق بالآنسة برازيه في أوّل فرصة تسنح لها للانفراد به، إذا أن فلور وماكسنس خدعاها بهذا الأمل الذي كان يخيب دائماً.

بالرغم من أن فرسان اللامبالاة فتشوا جميعاً عن وسيلة تدفع الباريسين للهرب، فإنهم لم يجدوا إلا بعض حماقات غير مجدية.

كما أن أغات وجوزيف، بعد أسبوع قضياه في إيسودون، وهو نصف المدة المتوقعة لإقامتهما، لم يجدا نفسيهما قد تقدما خطوة عما كانا عليه في اليوم الأوّل. قال العجوز هوشون للسيدة بريدو: «إن محاميك لا يعرف المقاطعات؛ فما تزمعين فعله لا يتمُّ في خمسة عشر يوماً ولا في خمسة عشر شهراً؛ ويجب ألا تتركي أخاك قبل أن تتمكني من الإيحاء إليه بأفكار دينية؛ فأنت لا تستطيعين تفجير قلاع فلور وماكسنس إلا بألغام الكهنوت ويجب ألا يفوت الوقت على هذه الوسيلة.

قالت السيّدة هوشون لزوجها: إنّ لك أفكاراً غريبة عن وسائل الكهنوت.

هتف العجوز: أوه! ها أنتن أيتها التقيّات!

قالت السيدة بريدو: «إن الله لا يبارك مشروعاً يعتمد على انتهاك حرمة المقّدسات أنستغلُّ الدين لأغراض دنيوية؟ ... أوه! هذا يجعلنا أكثر اجراماً من فلور».

كانت هذه المحادثة على مائدة الإفطار، وفرنسوا وباروخ يستمعان إليها ملء آذانهما.

هتف العجوز هوشون: «انتهاك حرمة المقدّسات! لكن إن وُجد كاهن جيّد يملك من الذكاء ما رأيت عند بعض منهم، ويدرك الورطة التي أنتم فيها فإنه لن يجد حراماً إعادةنفس أخيك الضالّة إلى الله، ويوحي إليه بتوبة حقيقية عن خطاياه بحيث يصرف المرأة التي تسبّب له الفضيحة بعد أن يضمن لها نصيباً مناسباً، ويبرهن له بأنّه يكسب راحة الضمير إن منح دخل عدة آلاف من الفرنكات لمدرسة المطرانية الدينية وترك باقي ثروته لورثته الطبيعيين ...»

كانت الطاعة العمياء، التي فرضها العجوز البخيل على أهل بيته، قد انتقلت من أولاده إلى أحفاده الموضوعين تحت وصايته، الذين يجمع لهم ثروة بأن يفعل لأجلهم مثلما يفعل من أجل نفسه، وفقاً لقوله، وهذا ما لم يسمح لباروخ أو فرنسوا بإبداء أيّة دهشة أو استنكار، لكنهما تبادلا نظرة معبّرة عما يخالج نفسيهما من شعور بضرر هذه الفكرة وشؤمها على مصالح ماكس.

قال باروخ: «الواقع ياسيدتي، أنّك إن أردت الحصول على ميراث أخيك فهذه هي الوسيلة الحقيقية الوحيدة، لكنها تتطلب أن تبقي المدة الضرورية لتطبيقها ...

قال جوزيف: اكتبي يا أمي إلى دروش عن كل هذه الأمور. أما فيما يتعلق بي، فأنا لا أطمح إلى أكثر مما أعطانيه خالي بملء إرادته ...»

بعد أن قدّر جوزيف القيمة الكبرى للوحات التسع والثلاثين، قَلَع عنها المسامير بعناية وألصق الورق الحافظ بصمغ مناسب ونضدها بترتيب فائق في صندوق، ووجَّهها بواسطة شركة نقل إلى عنوان دروش في باريس طالباً منه إشعاره باستلامها؛ بعد أن أرسلها مساء ذلك اليوم.

قال السيد هوشون: إنّك مسرور لرضاك بنصيب بخس

- إنني قانع بحصولي على لوحات يقدّر ثمنها بمئة وخمسين ألف فرنك.

نظر هوشون إلى جوزيف بطريقة غير المقتنع وقال: إنّها فكرة رسّام!

قال جوزيف لأمّه: سأكتب إلى دروش لأشرح له الوضع هنا، وإذا نصحك دروش بالبقاء، فستبقين. أما عملك في مكتب اليانصيب فيمكن دائماً أن نجد ما يعادله...

قالت السيّدة هوشون لجوزيف وهي تبتعد وإياه عن المائدة: يا عزيزي، أنا لا أعلم ما هي لوحات خالك، لكن يجب أن تكون جيّدة، إذا أخذنا بالاعتبار الأمكنة التي جاءت منها؛ وإذا كانت تساوي أربعين ألف فرنك، بمعدل ألف فرنك للوحة، فلا تقل لأحد شيئاً. وبالرغم من أن أحفادي كتومين، ومهذّبين، فيمكن دون تعمّد الأذى أن يتحدثوا عن هذه اللقيات المزعومة، وينتشر الخبر في كل إيسودون، بينما لا نريد أن نوهم خصومنا ونلفت انتباههم، فلا تتصرّف كطفل.

والواقع ما أن حلّت الظهيرة حتى كان كثير من الأشخاص في إيسودون، وخاصة ماكسنس جيله قد تنبهوا إلى قيمة اللوحات القديمة وراحوا يفتشون عنها مما أخرج كثيراً من اللوحات الرديئة الكريهة. وندم ماكس لأنه دفع العجوز إلى منح لوحاته لابن أخته، وازداد حنقه على الورثة عندما علم بخطة هوشون الجدّ، فالتأثير الديني على كائن ضعيف هو الشيء الوحيد الذي يخشاه. وهكذا فالتحذير الذي وجهه إليه صديقاه دفعه إلى الإسراع في تنفيذ قراره بتحصيل جميع ديون روجه، بل والاقتراض على أملاكه ليعَجل ما أمكنه بوضع هذا المال في سجّل

الدخل الثابت. لكنه اعتبر أيضاً ترحيل الباريسيين عن إيسودون أمراً عاجلاً، إنّما لم تتمكن عبقرية أمثال ماسكاريل وسكابن(*). حلّ هذه المشكلة بسهولة. وادّعت فلور، بناء على نصيحة ماكس، أن السيّد يتعب كثيراً من نزهاته على الأقدام، وتلزمه في هذا العمر عربة[1] برلينية تجول بها. كانت هذه الذريعة ضرورية لاضطراره للتنقل دون علم أهل المدينة بين بورج وفيرزون وشاتورو وڤاتان، وجميع الأماكن التي تستلزم تجوال روجه وفلور وماكس لجمع الأموال المستثمرة. ودهشت كل إيسودن عند معرفتها أن روجه ذهب لشراء عربة من بورج، وهو إجراء برّره فرسان البطالة في اتجاه ملائم للمتصيّدة، وجاء روجه وفلور ببرلينية صغيرة مربعة ذات تزجيج غشّاش، وستائر من جلد مشقّقة، يصل عمرها إلى اثنتي وعشرين سنة، وقد خاضت تسع معارك وبيعت بعد وفاة عقيد صديق للمارشال الكبير برتران[2] كان مكلّفاً عند غياب هذا الرفيق الأمين للامبراطور بإدارة أملاك المارشال في برّي. كانت هذه البرلينية مدهونة بلون أخضر، وقد عُدّل عريشها بحيث يقودها حصان واحد، وهي تعود إلى ذلك النوع من العربات التي سميت بلباقة «متوسطة الغنى»[3] بعد أن ساد استعمالها عقب تناقص الثروات وكانت تسمى أولاً «المحقن» لشبهها به بعد أن عُدِّل عريشها بحيث يمكن لحصان واحد أن يجرها. كانت الديدان قد قرضت فرش هذه العربة، وزخرفتها أشبه بأشرطة عريّف عاجز، وحديد عجلاتها يحدث جلبة عارمة؛ لكنها لم تكلّف إلا أربعمئة وخمسين فرنكاً، واشترى لها ماكس من كتيبة معسكرة في بورج فرساً ضخمة قوية حولّت للجرّ. وأعاد دهانها بلون بنيّ غامق. وحصل في مزاد رُخصة على عدّة مناسبة للفرس. وتحرّكت كل إيسودون في هرج ومرج عند سماع ضجيج عربة الأب روجه، وخرجت جميع النساء إلى الأبواب عند تجوّل هذه العربة لأول مرة في

(*) ماسكاريل: نموذج الخادم الماكر الدسّاس في مسرحيات القرنين السابع عشر والثامن عشر. سكابن: الخادم في مسرحية موليير: احتيالات سكابن.

(١) عربة برلينية ذات مقعد واحد، وعريش واحد، يجرها حصان، وهي أشبه بالمحقن.

(٢) المارشال برتران: «الكونت هنري» (١٧٧٣ - ١٨٤٤) من مواليد شاتورو، ومن أخلص قادة نابوليون تبعه إلى جزيرة إلبا ثم إلى القديسة هيلانة. وأشرف في العام ١٨٤٠ على إعادة رفاقه إلى فرنسة.

(٣) سميت بهذا الاسم لاقتنائها من قبل الأشخاص متوسطي الحال.

شوارع المدينة، وأطلّ الفضوليون من النوافذ؛ وفي المرة الثانية ذهب العازب حتى بورج؛ ولكي يتجنّب مشقة العملية التي نصحت بها فلور برازيه، أو بالأصح أمرت بها، فإنه وقّع لدى كاتب عدل وكالة لماكسنس جيله فيها بتصيفة جميع العقود المحدّدة في الوكالة، بينما عملت فلور مع السيّد على تصفية عقود إيسودون والنواحي المجاورة. وقام روجه بزيارة كاتب العدل الرئيس في بورج ورجاه أن يجد له قرضاً بمئة وأربعين ألف فرنك لقاء رهن أملاكه. جرت كل هذه الترتيبات بمنتهى الكتمان والمهارة دون أن يعلم بها أحد في إيسودون. وكان ماكسنس كفارس ماهر ينطلق بجواده إلى بورج في الساعة الخامسة ويعود في الساعة الخامسة مساء، بينما فلور لا تترك العازب العجوز، ورضي الأب روجه دون أيّة صعوبة بالعملية التي طلبت فلور إجراءها، لكنه أراد أن يتم تسجيل دخل الخمسين ألف فرنك باسمه كمالك صاف، مع حقّ الانتفاع للآنسة فلور برازيه. وأصر العجوز على هذا الرأي رغم الصراع الداخلي الذي أثارته هذه القضية في المنزل، مما أثار قلق ماكس معتقداً أن ذلك ناتج عن أفكار مستوحاة من مرأى الورثة الطبيعيين.

وسط هذه التحركات الكبيرة التي أراد بها ماكس أن يحتجب عن أعين أهل المدينة، نسي تاجرِ الحبوب. وعزم فاريو على بدء تسليم الحبوب المباعة، بعد أن قام بمناورات وأسفار هدفها رفع الأسعار. والحال انَّه لاحظ، في اليوم التالي لوصوله، سقف مركز الكبوشيين، وهو يسكن في مواجهته، أسود من أسراب الحمام. ولعن نفسه لأنه لم يتفقد السطح قبل سفره. وذهب بسرعة إلى مخزنه فوجد نصف حبوبه قد أُكلت وكشفت له آلاف بعر الجرذان والفئران المبعثرة في أرجاء المكان عن سبب آخر لهذا الدمار، فالمستودع كان كسفينة نوح. لكن الاسباني غدا شاحباً من شدّة الغضب عندما لاحظ، وهو يحاول التعرّف على مدى الخسائر والأضرار اللاحقة به، الحبوب التي في قاع المستودع وقد أُنتشَت من جراء كميّات من المياه خطر لماكس إدخالها إلى وسط أكوام الحبوب بواسطَة أنبوب من التنك. وإذا كانت الحمامات والجرذان قد اندفعت بفعل الغريزة الحيوانية، فإن يد الانسان ظاهرة في هذه البادرة الأخيرة من الشرّ. وجلس فاريو على درجة المذبح في الهيكل الكبوشي؛ ووضع

رأسه بين يديه، وبعد نصف ساعة من التفكير الاسباني، رأى السنجاب، الذي حرص غوده الابن على إضافته إلى نزلاء المستودع، وهو يتلاعب بذيله على طول الرافدة المعترضة التي تستند عليها صقالة السقف. نهض الإسباني ببرود وهو يظهر لفتى المستودع وجهاً هادئاً كوجه انسان عربي[1]، ولم تبدر منه أيّة شكوى، ودخل إلى منزله، ثم ذهب واستأجر بعض العمال لتكييس الحبوب الجيّدة، وتجفيف الحبوب المبتلة بوضعها في الشمس بحيث ينقذ ما أمكن منها، ثم اهتم بتسليم مبيعاته، بعد أن قدّر خسارته بخمسي مخزونه، لكن هذه العمليات وما استتبعها من نفقات رفعت مقدار الخسارة إلى النصف. ولما لم يكن للاسباني أعداء نسب هذا الإجراء الإنتقامي إلى ماكس جيله، دون أن يخطىء؛ وبرهن له هذا العمل أن ماكس مع آخرين هم أصحاب المقالب الليلية؛ وهم بالتأكيد من رفع عربته حتى قاعدة البرج في أعلى التلّ، وراحوا يتسلّون بتدميره: إذ خسر في الواقع ألف إكو، وهو كل ما ربحه منذ قيام السلم. وأبدى هذا الرجل مدفوعاً بعاطفة الانتقام، دهاء ومثابرة جاسوس وُعِدَ بمكافأة كبيرة؛ فكمن خلال الليل في إيسودون؛ وانتهى إلى التوصل إلى أدلة انحراف ومجون فرسان البطالة: ورآهم، وعدّهم، وترصّد مواعيدهم وولائمهم لدى كونييت؛ ثم اختبأ ليكون شاهداً على أحد مقالبهم من خلال متابعة تصرفاتهم الليلية.

لم يرد ماكسنس، رغم جولاته وأشغاله، أن يهمل قضايا الليل، فهي أولاً تلهي عن سرّ العملية الكبرى التي تعد للاستيلاء على ثروة الأب روجه، ثم تُبقي دائماً أصدقاءه على أهبة الاستعداد. والواقع أن الفرسان اتفقوا على القيام بأحد هذه المقالب التي تدفع للحديث عنها لمدى سنوات كاملة، إذ قرروا أن يُلقّموا في ليلة واحدة جميع كلاب الحراسة في المدينة والأرباض كريّات سامّة. وسمعهم فاريو، عند خروجهم من حانة كونييت يهلّلون سلفاً لهذا المقلب، وللحداد العام

---

(١) يعتبر بلزاك أن في عروق الإسباني بعض دم عرُب الأندلس.

الذي ستسببه هذه المذبحة الجديدة للأبرياء. ثم أية تخوّفات ستثيرها هذه المجزرة بإنذارها عن نوايا مشؤومة تتعمّد الاضرار بالمنازل التي حُرِمَت من حرّاسها.

قال غوده الابن: «هذا ما سيُنسي، على الأرجح، قصة عربة فاريو!»

لم يكن فاريو بحاجة إلى هذه العبارة التي تؤكد شبهاته، عدا عن اتخاذه لقراره.

اعترفت أغات، بعد ثلاثة أسابيع من الإقامة في إيسودون، وكذلك السيدة هوشون، بصحة توقّعات العجوز البخيل هوشون، فتهديم هيمنة المتصّيدة وماكس على أخيها يتطلب سنوات؛ وهي لم تحرز أي تقدّم في كسب ثقة جان جاك، ولم تستطع أبداً الانفراد به. بل بالعكس، فإن الآنسة برازيه انتصرت على الوريثين بإقناعها أغات بالتنزّه معها وهما جالستان في صدر العربة، بينما روجه وابن أخته على مقعد الحوذي. وكانت الأم والابن ينتظران بفارغ الصبر جواب الرسالة المرسلة إلى دروش. والواقع أن جوزيف، بعد أن كاد الملل يقضي عليه في إيسودون، تلقى، عشية اليوم الذي تقرّر فيه تسميم الكلاب، رسالتين، الأولى من الرسّام الكبير شينر، وهو من تربطه به علاقة أكثر حميمية من علاقته مع معلمه غرو، نظراً لتقاربهما في السن[1] أما الرسالة الثانية فهي من المحامي دروش.

هوّذا الرسالة الأولى المرسلة من بومون -سور- واز.

عزيزي جوزيف:

أنهيت لحساب الكونت دي سريزي اللوحات الرئيسة في قصر برسل، وتركت الإحاطات ورسوم الزخرفة، بعد أن رشّحتك سواء أمام الكونت أو لدى

(1) الرسام غرو: شخصية حقيقية، وهو من مواليد ١٧٧١ وشينر شخصية بلزاكية ولد نحو العام ١٧٩٠ وجوزيف من مواليد ١٧٩٩.

المهندس المعماري غريندو[1] للقيام بها. وهكذا فما عليك إلا أن تأخذ فراشيك وتذهب إلى هناك؛ وتمّ الاتفاق على أجور ترضيك. إنني مسافر إلى إيطالية مع زوجتي؛ ويمكنك أخذ ميستيغري لمساعدتك فهذا الفتى الفكه ذو موهبة، وأنا أضعه تحت تصرفك، إنّه يتراقص طرباً مؤملاً بأن يمرح في قصر برسل. وداعاً يا عزيزي جوزيف؛ إن لم أحضر، وتعذّر علي وضع شيء في المعرض القادم فستحلّ مكاني! نعم، يا عزيزي جوجو، إنني متأكد أن لوحتك قطعة فنّية، لكنها قطعة تنطق بالرومانسية. بينما أنت بعيد تحاول الخروج من ورطة. بعد كلّ حساب، كما يقول المهرِّج ميستيغري الذي يحورّ الأمثال إلى توريات فكهة: الحياة شيء نصرعه[2]. ماذا تفعل إذاً في إيسودون؛ وداعاً.

«**صديقك**»

«**شينر**».

وهذه هي رسالة دروش

عزيزي جوزيف:

يبدو لي أن هذا السيد هوشون عجوز مدرك خبير، وقد أعطيتني فكرة واضحة عن وسائله، وهو على صواب تام فيها، وما دمت تطلب رأيي فأنا أنصح بأن تبقى والدتك في إيسودون لدى السيّدة هوشون بعد أن تسدّد لمضيفيها تعويض إقامة رمزي -نحو أربعمئة فرنك سنوياً- وعليها أن تتصرّف وفق نصائح السيد هوشون. فوالدتك الطيبة ما تزال تتصرف بنيّة حسنة مع أناس لا يقابلونكم بالمثل بل إن سلوكهم هو قمة في الدهاء. هذا الماكسنس خطر وأنت على حق، وأنا أرى

---

(١) هو المهندس المعماري الذي زخرف في العام ١٨١٨ صالون سيزار بيروتو.

(٢) ميستيغري: هو الرسّام ليون دي لورا في فتّوته، وقد منحه الروائي هواية التلاعب بالألفاظ في جناس وتورية يحبهما بلزاك بالذات وخاصة في رواية **بداية في الحياة** وقدّم مثالاً عنها هنا في قوله la vie estun Q´on Bat بدلاً من القول la vie estun eomBat «الحياة شيء نصرعه بدلاً من الحياة صراع».

فيه رجلاً أسوأ من فيليب وأكثر قوة، فهو يستخدم نزعة الشرّ فيه لتحصيل ثروة، ولا يتسلى مجاناً كما يفعل أخوك في ارتكاب حماقات لا فائدة منها. كل ما ذكرته لي يثير القلق ولا أرى جدوى من مجيئي إلى إيسودون؛ فالسيد هوشون في توجيهه لوالدتك خفية أكثر فائدة مني. أما أنت فيمكنك العودة، لأنك لن تستطيع أن تفعل شيئاً في قضية تتطلب انتباهاً مستمراً، وملاحظة دقيقة، ونوايا خفية، وتكتّما في الكلام، ومواربة في الحركات، تتعارض كليّاً مع طباع الفنانين. وإن نُفي لكم وجود وصية مكتوبة، فمن المؤكد أنها معدّة منذ زمن طويل؛ لكن الوصايا قابلة للنقض، ومادام خالك الأحمق حيّاً فمن المحتمل أن يتأثر بتبكيت الضمير أو بالوازع الديني، وإرثكم معلّق على نتيجة الصراع بين الكنيسة والمتصيّدة؛ ستأتي بالتأكيد مرحلة تتجلى فيها قوّة الدين وتغدو فيها تلك المرأة فاقدة التأثير على هذا الإنسان الساذج؛ ومادام خالك لم يجر هبة بين الأحياء، ولم يغيّر طبيعة أملاكه، فكل شيء ممكن في الوقت الذي تحرز فيه العاطفة الدينية تقدّماً. لذلك عليك أن ترجو السيد هوشون بمراقبة وضع ثروة خالك، ما أمكنه ذلك، وهل رهنت بعض أملاكه، وكيف وظفت أمواله وباسم من؟. من السهل الإيحاء لعجوز بمخاوف على حياته في حال تنازله عن أملاكه لمصلحة الغرباء، بحيث يمكن لوريث، مهما قلّت حيلته، أن يوقف عملية اختلاس منذ بدايتها. لكن هل تتمكن أمك في ترفّعها، وأفكارها الدينية، وجهلها للمناورات في المجتمع أن تتصدّى لمثل هذه الماكنة الرهيبة؟... أخيراً لا أستطيع إلا تنبيهكم؛ وكل ما فعلتموه حتى الآن قد دقّ جرس الإنذار، وربّما عمد منافسوكم إلى التصرف وفق المتطلّبات القانونية!...»

هتف هوشون وهو مزهو لتقدير محام باريسي مرخّص له: «هيّ ذي ما أسميها استشارة قانونية جيّدة.

أجاب جوزيف: اوه! إن دروش محام ذائع الصيت.

قال العجوز البخيل: أرى من المفيد أن تطّلع هاتان السيّدتان على هذه الرسالة.

قال الرسام وهو يسلّم الرسالة للسيد هوشون: لك أن تفعل هذا، أما أنا فسأغادركم في الغد، ومن المناسب أن أذهب لوداع خالي.

قال السيد هوشون: آه! إن السيد دروش يرجو في حاشيته إحراق الرساله بعد قراءتها.

أجاب الرسام: يمكنك إحراقها بعد إطلاع والدتي عليها.

ارتدى جوزيف بريدو ثيابه، واجتاز الساحة الصغيرة، ودخل لوداع خاله حيث وجده قد أنهى فطوره بينما ما يزال ماكس وفلور على المائدة، فبادره بالقول:

«لا تغادر مكانك، يا خالي العزيز، فقد جئتك مودّعاً.

قال ماكس وهو يتبادل نظرة مع فلور: ستغادر؟.

- نعم، لدي أعمال في قصر السيد دي سريزي، وأنا مستعجل للسفر للعمل لدى الكونت خاصة وأنه ذو نفوذ في مجلس الأعيان بحيث يمكنه مساعدة أخي المسكين.

رد العجوز روجه بشكل أبله بدا فيه لجوزيف بأنه متغيّر بشكل غريب: حسن، اعمل، يجب أن تعمل، إنني متكدّر لذهابك...

استأنف جوزيف: أوه! إن أمي ستبقى أيضاً هنا لبعض الوقت.

. بدرت من ماكس حركة على شفتيه فهمتها فلور وهي تعني: «سيتمّ تنفيذ المخطط الذي حدّثني عنه باروخ».

قال جوزيف: إنّني سعيد لمجيئي إلى هنا وتعرفي عليكم، خاصة وأنك قد أغنيت، يا خالي العزيز، مرسمي...

قالت المتصيّدة: نعم، وبدلا من أن تبيّن لخالك قيمة هذه اللوحات التي تقدّر بأكثر من مئة ألف فرنك، فقد عمدت إلى إرسالها سريعاً إلى باريس... يا للرجل العزيز المسكين، إنه كطفل!... قيل لنا في بورج إن فيها صوصاً، كيف هذا؟نعم

صوصاً poussin[1] كان موجوداً، قبل الثورة، في مذبح الكاتدرائية، وهو يساوي لوحده ثلاثين ألف فرنك.

قال العجوز بناء على اشارة من ماكس لم يلحظها جوزيف: لم يكن هذا حسناً، يا ابن أختي.

تابع الجندي باسماً: صراحة، وبشرفك، كم تساوي هذه اللوحات في اعتقادك، يبدو أنك ابتززت خالك، وهذا من حقّك، فالأخوال والأعمام ما وجدوا إلا لينهبوا! إن الطبيعة حرَمَتني منهم، وأقسم لو أني حظيت بأحد منهم، لما ادَّخرت وسعاً في اختلاسه.

قالت فلور لروجه: هل تعلم أيّها السيّد كم تساوي لوحاتك... كم تقول يا سيد جوزيف؟

غدا الرسّام بحمرة الشوندر وأجاب: ولكن إن للوحات قيمة.

- يقال إنّك قدرت قيمتها للسيد هوشون بمئة وخمسين ألف فرنك.

قال الرسام ببراءة الأطفال: نعم هذا صحيح.

التفتت فلور إلى العجوز قائلة: هل كان في نيتك أن تمنح ابن أختك مئة وخمسين ألف فرنك ردّ الأبله وفلور تثبت فيه نظرها: أبداً! أبداً!

- هناك طريقة لإصلاح الأمر، وهي أن أردّها لك يا خالي.

- رد العجوز: كلا، كلا، احتفظ بها.

ردّ جوزيف وقد شعر بالإهانة في صمت ماكسنس جيله وفلور برازيه: سأعيدها لك يا خالي، إن لي من فرشاتي ما يهيء لي ثروة دون أن يمنّ علي أحد بشيء حتى خالي. أحييك يا آنسة، طاب يومك أيّها السيّد...»

---

(١) بوسَن poussin: (١٥٩٤-١٦٦٥) رسّام فرنسي شهير واسمه يعني «الصوص» والكلمة هنا تعني لوحة من صنعه، لكن المتصيّدة لجهلها خلطت بين اسم العلم واسم النكرة.

اجتاز جوزيف الساحة وهو في حالة من الهياج، يمكن للفنانين وحدهم تصوّرها. وكانت كل عائلة هوشون في الصالون؛ وعند رؤية جوزيف وهويترنَّح ويكلَّم نفسه، سألوه عمّا حدث له. وأمام باروخ وفرنسوا قصّ الرسّام بغاية الصراحة الأمر الذي حدث له، وهو ما غدا خلال ساعتين حديث كل المدينة حيث طرّزه كل امرىء بما عنَّ على خاطره، فمن قال إن ماكس قسا في معاملته، ومن قال: انه تصرّف بشكل سيّء مع الآنسة برازيه مما دعا ماكس إلى طرده.

قال السيد هوشون: «أي ولد هو ابنك. وصلت به الغباوة إلى أن ينساق إلى هذا المشهد المعدّ له ليوم رحيله، إنّ ماكس والمتصيّدة يعرفان قيمة اللوحات منذ اليوم الأول الذي بلغ به الحمق إلى التصريح عن ذلك هنا أمام حفيديّ اللذين نقلا تصريحه بارداً ساخناً إلى كلّ مكان. كان يجب على رسّامك أن يرحل متكتماً.

قالت أغات: يجدر بولدي، مادام للوحات هذه القيمة الكبرى أن يعيدها.

رد العجوز هوشون: إن كانت تساوي في رأيه، مئتي ألف فرنك، فمن الحمق التفكير بردّها؛ إذ أنكم تحصلون، على الأقل، على هذا الجزء من الميراث، بينما وفقاً لمجريات الأمور لن تحصلوا على شيء! ... وهاهي ذريعة لأخيك كي لا يراك أبداً ...».

بين منتصف الليل والساعة الواحدة، بدأ فرسان البطالة توزيعهم المجاني للمأكولات التي أعدوها لكلاب المدينة. هذه الغزوة المشهودة لم تنته إلا في الثالثة صباحاً، ذهب بعدها هؤلاء الماجنون السيّئون ليحتفلوا كعادتهم بالأكل والشرب لدى كونييت ليعودوا في الرابعة والنصف، مع الفجر، إلى منازلهم. وبينما كان ماكس ينعطف في شارع آفنيه ليصل إلى الشارع الكبير، خرج فاريو من زاوية يكمن فيها، وفاجأه بضربة سكين مباشرة في صدره، وسحب بسرعة نصل سكينه، وهرب عن طريق حفرة ڤيلات حيث مسح سكينه بمنشفته، وذهب إلى النهر الفرعي فغسلهما بكل طمأنينه وعاد إلى مستودعه فتسلّق نافذة كان قد تركها نصف مفتوحة وخلد إلى نوم عميق لم يستيقظ منه إلا بعد مجيء الفتى الجديد العامل لديه.

عند سقوطه، أطلق ماكس صيحة رهيبة لا يمكن أن يخطىء بصدقها أحد، وهرع لوستو -برنجن ابن القاضي، وهو نسيب بعيد لعائلة الوكيل الموفد، ومعه غوده الابن الذي يسكن في نهاية الشارع الكبير راكضين وهما يصيحان: «قتل ماكس! ... النجدة!» ولم ينبح أي كلب، ولم ينهض أي شخص لماسبق أن قام به روّاد الليل من حيل مماثلة. وعندما وصل الفارسان كان ماكس قد أغمى عليه، ووجب عند ذاك إيقاظ الأب غوده. وكان قد تعرّف على فاريو، لكنه عندما استعاد وعيه في الساعة الخامسة صباحاً، ورأى نفسه محاطاً بعدّة أشخاص، وأحسّ أن جرحه ليس مميتاً، فكرَّ أن يستغلّ محاولة القتل هذه، وهتف بصوت مثير للشفقه: «أظن أنني رأيت عيني ووجه هذا الرسّام اللعين! ...». عند ذاك هرع لوستو -برنجن إلى أبيه قاضي التحقيق، ونقل ماكس إلى منزله من قبل الأب كونيه، وغوده الابن وشخصين آخرين أوقظا من نومهما. وكانت كونييت وغوده الأب إلى جانب ماكس الذي حمل على فراش ركّز على خشبتين. ولم يشأ الأب غوده أن يأتي بحركة قبل إيصال ماكس إلى السرير، ونظر أولئك الذين نقلوا الجريح بشكل طبيعي إلى السيد هوشون، بينما كان كوسكي ينهض، ورأوا خادمة هوشون تكنس المنزل، كما جرت العادة في معظم منازل المقاطعات التي تفتح أبوابها باكراً. وكانت كلمة ماكس قد أثارت الشبهات ونادى الأب غوده قائلاً: غريت، أيكون السيّد جوزيف بريدو نائماً؟.

قالت: «آه! إنّه خرج منذ الساعة الرابعة والنصف، بعد أن كان يروح ويجيء في غرفته طيلة الليل ولا أدري مادهاه».

هذا الجواب الساذج أثار تمتمات رهبة وذهول، دفعت الفتاة إلى الاقتراب لترى ماذا يحملون إلى منزل الأب روجه.

قيل لها: «إيه! كم هو نقيٌّ رسامكم!» ودخل الموكب تاركاً الخادمة منذهلة: إذ رأت ماكس ممدّداً على فراش مخضب بالدم، وهو يبدو كالمحتضرين.

ما أغضب جوزيف وأقلقه طيلة الليل ليس غريباً على الفنانين: رأى نفسه

موضع سخرية بورجوازيي إيسودون، اعتبروه نشّالاً، وهو آخر ما يفكّر به شاب مستقيم، وفنان أصيل! آه! كم يتمنى لو يمنح لوحته الأثيرة لديه لمن ينقله على جناح طائر إلى باريس ليرمي لوحات خاله في وجه ماكسنس. أيكون هو المسروق، ويُعتَبر سارقاً؟ ... يا للمهزلة! وهكذا فمنذ الصباح انطلق في ممرّ الحور الموصل إلى تيڤولي لينفّس عن قلقه؛ وبينما كان هذا الشاب البرىء يَعدُ نفسه بألا يعود يوماً إلى تلك البلاد، كان ماكس يعدُّ إهانة رهيبة للنفوس المرهفة. فبعد أن فحص الأب غوده الجرح، ولاحظ أن السكين قد انحرفت لاصطدامها بمحفظة في الجيب، لحسن الحظ، مع إحداثها جرحاً بليغاً، فإنه فعل كما يفعل جميع الأطباء وخاصة جراحو المقاطعات، لإعطاء مزيد من الأهمية لأنفسهم، بعدم التصريح عن الحالة الصحية لماكس، ثم خرج بعد أن ضمد جرح المرتزق الماكر. وعُمّم قرار الطبّ من قبل الأب غوده على المتصيّدة، وجان جاك روجه، وكوسكي ولاڤيدي. وعادت المتصّيدة إلى قرب عزيزها ماكس باكية، بينما كان كوسكي ولا ڤيدي يعلمان الجمهور المحتشد على الباب أن المقدّم في خطر؛ وكان من جراء هذا الخبر أن تجمّع أكثر من مئتي شخص في ساحة سان جان وشارعي ناريت.

قال ماكس للمتصيّدة: «لن يمرّ علي شهر في السرير، وأنا أعلم من وجَّه لي هذه الضربة. لكننا سنستغلّ ذلك للتخلّص من الباريسيين. سبق أن ذكرت تعرّفي على الرسّام وهو يطعنني، وهكذا افترضي أنني سأموت، واعملي على أن يلقى القبض على جوزيف بريدو ويكفي القاؤه في السجن لمدة يومين، لتهرول الأم بعدها بسرعة مع رسّامها إلى باريس. وهكذا لن نخشى الكهنة الذين نووا إطلاقهم على هذا الأحمق الموجود لدينا.

عندما نزلت فلور برازيه وجدت الجمهور متهيئاً للتأثّر بالانطباعات التي تريد توليدها لديه؛ وظهرت والدموع تترقرق في عينيها، وأشارت وهي تنتحب إلى أن الرسّام، الذي ينبىء وجهه عن نزعة الإجرام فيه، تجادل بحدّة مع ماكس في العشيّة بخصوص اللوحات التي اختلسها من الأب روجه.

قالت: «يكفي أن ينظر إلى وجه هذا اللص للتأكّد من فعلته. إنه يعتقد أن خاله سيتنازل له عن ثروته إن غيّب ماكس. أليس الأخ أكثر قرباً من ابن الأخت! إن ماكس هو ابن الدكتور روجه. لقد صرّح لي الطبيب العجوز بذلك قبل موته.

قال أحد فرسان البطالة: آه! أراد أن يقوم بهذه الضربة ويهرب، خطّط جيّداً لمؤامرته، وسيغادر هذا اليوم.

وقال آخر: ليس لماكس أي عدو في إيسودون.

ردت المتصيّدة: عدا عن أنّ ماكس تعرّف على الرسّام وهو يهاجمه.

صرخ صارخ: أين هو هذا الباريسي اللئيم؟ جدوه!.

وكان الجواب: أين سنجده؟ خرج مع الفجر من منزل السيد هوشون.

هرع أحد فرسان البطالة إلى السيد مويّرون. وكان عدد الجمهور المحتشد يتزايد؛ وغدت جلَبَة الأصوات مهدّدة، وشغل شارع ناريت الكبرى بجموع البشر، بينما وقف آخرون أمام كنيسة سان جان، وشغلت فئة باب فيّلات حيث ينتهي شارع ناريت الصغرى، وتعرقل المرور ما بين أعلى وأسفل ساحة سان جان. فكأن الموكب زَياح كنسي. وتعذّر على السيّدين لوستو-برنجن ومويرون، ومفوّض الشرطة، وضابط الدرك والعريف المرافق له مع دركيين أن يمروا إلا بعد عناء إلى ساحة سان جان حيث وصلوا بين صفين من الناس يتعالى صراخهم وتحريضهم على الباريسي المتهم ظلماً لكن الظروف تشهد ضده.

بعد مواجهة بين ماكس والقضاة كلف السيّد مويرون مفوّض الشرطة وعريف الدرك بفحص ما يسمى بلغة النيابة العامة «مسرح الجريمة»، ثم انتقل السيّدان مويرون ولوستو-برنجن يرافقهما ضابط الدرك من منزل الأب روجه إلى منزل هوشون، الذي قام على حراسته دركيان من طرف الحديقة، ودركيان آخران من جهة الباب، وكان الجمهور يتزايد دائماً والمدينة في هرج عبر الشارع الكبير.

هرعت غريت إلى معلمها مذعورة وقالت له: « سيدي، سينهب بيتك! كلّ المدينة في ثورة، فقد طُعنَ السيد ماكسنس جيله! ... ويقال إن السيد جوزيف هو مرتكب الجريمة!».

ارتدى السيد هوشون ثيابه بسرعة ونزل، ولكنه أمام هذا الجمهور الغاضب عاد فدخل فجأة وأغلق بابه، وبعد أن سأل غريت، عرف أن ضيفه خرج من المنزل مع الفجر، بعد أن كان قلقاً في غرفته طيلة الليل، ولم يعد بعد ذلك. ذهب هوشون مذعوراً إلى امرأته التي أيقظتها الضجّة حول المنزل وأعلمها بالنبأ الذي حرك، دون التيقّن من صحته أو خطئه كل إيسودون نحو ساحة سان جان.

قالت السيّدة هوشون: «من المؤكّد أنه بريء. قال السيد هوشون وقد غدا شاحباً (فهو يمتلك ذهباً في قبوه): ولكن بانتظار إثبات براءته، يمكن للجمهور أن يدخل وينهب بيتنا.

- وأغات؟.

- إنّها في نوم عميق.

قالت السيّدة هوشون: آه! هذا أفضل، لوتنام إلى أن تنجلي هذه القضية. فمثل هذا الهجوم يقتل المرأة المسكينة!».

لكن أغات استيقظت، ونزلت بعد أن ارتدت ثيابها بسرعة لأن تحفظات غريت وهي تسألها شوّشت رأسها وقلبها. ووجدت السيّدة هوشون شاحبة، وعيناها ممتلئتان بالدموع، وهي واقفة قرب إحدى نوافذ الصالة مع زوجها.

قالت السيّدة العجوز: «كوني شجاعة ياصغيرتي، فالله يمتحننا بمآسينا. إن جوزيف متهم! ...

- بماذا؟

أجابت السيّدة هوشون: بعمل سيّء لا يمكن أن يكون قد ارتكبه.

بسماع هذه الكلمات وبرؤية ضابط الدرك والسيدين مويرون ولوستو-برنجن يدخلون غابت أغات عن الوعي.

قال السيد هوشون لزوجته ولغريت: «خذا السيدة بريدو، فالنساء لا يمكن أن يكنّ إلا مزعجات في مثل هذاه المواقف. احرصا على البقاء في غرفتك معها». ثم توجّه إلى القاضيين والضابط قائلاً: اجلسوا أيّها السادة، فسوء التفاهم الدافع لزيارتكم لن يلبث أن يتوضّح، على ما آمل.

قال السيّد مويّرون: هذا إن اقتصر الأمر على سوء تفاهم، فسخط الجماهير على أشدّه، والرؤوس في هياج شديد، حتى أنني أخشى على المتهم... وأريد أن احتفظ به في قصر العدل لتهدئة النفوس.

قال لوستو-برنجن: من يشكُّ بما يوحي به السيد ماكسنس جيله من مودة للجماهير؟

قال الضابط الدرك: أخبرني أحد عناصري أن نحو ألف ومئتي شخص انطلقوا الآن من ربض رومة وهم ينادون بموت المجرم.

قال السيّد مويرون للسيد هوشون: أين ضيفك إذاً؟.

- إنه يتنزه في الحقول المجاورة على ما اعتقد.

قال قاضي التحقيق برصانة: «استدع لنا غريت. آمل ألا يكون السيد بريدو قد غادر المنزل، أنت لا تجهل دون شكّ أن الجريمة ارتكبت على بعد خطوات من هنا، مع الفجر؟»

تبادل الموظفون الثلاثة نظرات معبّرة، بينما ذهب السيد هوشون ليستدعي غريت.

قال الضابط للسيّد مويرون: «لم يعجبني وجه هذا الرسّام أبداً[١]

قال قاضي التحقيق لغريت عند دخولها: يا ابنتي، رأيت هذا الصباح السيد جوزيف بريدو خارجاً؟

---

(١) منع الحكم المسبق على جوزيف من المعالجة المنطقية الواضحة. وبلزاك هنا يستخدم عناصر من قضية بيتل: وخاصة توقيف بيتل السريع من قبل ضابط درك منحاز.

أجابت وهي ترتعش كورقة في مهب الريح : نعم يا سيدي .

- في أي ساعة؟ .

- منذ نهوضي ؛ إذ أنه كان يروح ويجيء في غرفته خلال الليل ، وكان مرتدياً ملابسه عندما نزلت .

- مع ضوء النهار؟

- مع الفجر

- هل كان قلقاً؟ ...

- نعم، بدا لي على غير عادته تماماً .

قال لوستو-برنجن للضابط : أرسل أحد عناصرك ليأتني بكاتب المحكمة ، وليجلب معه مذكرات ...

قال السيد هوشون : يا الهي ! لا تستعجل ، فقلق هذا الشاب قابل للتفسير بغير التصميم على الجريمة : فهو مسافر اليوم إلى باريس ، بسبب قضية ارتاب جيله والآنسة برازيه بموجبها في استقامته .

قال السيّد مويرون : نعم ، قضية اللوحات ، وكانت موضوع جدل عنيف ليلة البارحة ، والفنانون ، على ما يقال ، سريعو الغضب .

سأل لوستو : مَن ، في كل إيسودون ، له مصلحة في قتل ماكسنس؟ لا أحد ، لا زوج غيور ، ولا أي انسان آخر ، فهذا الفتى لم يُسىء إلى أيّ كان .

قال السيد هوشون : ولكن ماذا كان يفعل السيد جيله في الساعة الرابعة والنصف في شوارع إيسودون؟ .

أجاب مويرون : دعك من هذا ، يا سيّد هوشون ، ودعنا نقم بمهمتنا ، أنت لا تعلم كلّ شيء ، فماكس قد تعرّف على الرسّام ... » .

في هذه اللحظة سمعت جلبة من طرف المدينة ، وراحت تتعاظم ، وهي ترد

من شارع ناريت الكبرى وكأنها هزيم الرعد. «هذ هو! ... ها هو! ... ألقي القبض عليه! ... »هذه الكلمات كانت تتضح بأصوات ذكورية بين جلبة شعبية مروّعة. والراقع أن جوزيف بريدو المسكين، لوحظ، وهو عائد بهدوء من طريق طاحون لاندرول ليكون على موعد الافطار في المنزل، ورأته الجموع عند وصوله إلى ساحة ميزير، ولحسن حظه ركض دركيان لاقتلاعه من جماهير ضاحية رومة الذين أمسكوه بقسوة من ذراعيه وهم يطلقون صرخات الموت.

هتف الدركيان بعد أن استدعيا رفيقين آخرين لهما ليكون أحدهما أمام المتهم والآخر خلفه: «مكانكم! مكانكم!»وقال أحد الدركيين المسكين به: «أترى أيّها السيّد، إن حياتنا مهدّدة كحياتك، بريئاً كنت أو مذنباً، يجب أن نحميك من هذه الفتنة التي سببها الاعتداء على حياة المقدّم جيله. وهذه الجموع غير متردّدة في اتهامك، وهم يعتقدون أنك المجرم، والسيد جيله معبودهم. ألا تراهم؟ إنّهم أكثر قسوة من الفولاذ، ، ملامحهم تشير إلى أنهم يريدون الاقتصاص منك. آه! رأيناهم في العام ١٨٣٠[١] يمعنون ضرباً في محصلي الضرائب ولم يتركوهم إلا في حالة سيئة. فهيّا بنا!».

غدا جوزيف بريدو شاحباً كالأموات، لكنه استجمع قواه ليتمكن من السير وقال: «بعد كل حساب، انني بريء، لكن لنمش».

كان ذلك درب الصليب[٢] للرسام! وتلقّى السخريات، والشتائم، والتهديد بالموت وهو يقطع المسافة الرهيبة بين ساحة ميزير، وساحة سان جان. واضطر الدرك إلى تهديد الجمهور الغاضب بسيوفهم بعد أن تلقوا منهم قذائف الحجارة التي كادت تجرحهم وأصاب بعض منها رجلي جوزيف وكتفيه وقبعته.

قال أحد رجال الدرك وهو يدخل إلى الصالة السيد هوشون: ها نحن! يا سيدي الضابط، لكننا لم نصل إلى هنا إلا بعد عناء.

---

(١) كان ذلك سهواً من بلزاك، فأحداث روايته تقع قبل العام ١٨٣٠ وإن كان قد كتبها في العام ١٨٤٢.

(٢) هو الدرب الذي حمل السيد المسيح فيه صليبه إلى الجلجلة وسط الجماهير الصاخبة.

قال الضابط للقاضيين: ينبغي الآن أن نفرّق هذه الجموع، ولا أرى إلا طريقة واحدة، وهي أن نضعه بينكما، ونحيط أنا ورجال الدرك بكم؛ إذ لا يمكن أن نفعل شيئاً في مجابهة ستة آلاف شخص غاضب.

قال السيد هوشون ومايزال على ارتياعه خشية مداهمة بيته وسرقة ذهبه: أنتم على حق.

علّق جوزيف بقوله: إذا كانت هذه هي الطريقة لحماية الأبرياء في إيسودون، فلكم تهاني. فقد كدت أرجم بالحجارة...

قال الضابط: هل تريد أن تقتحم الجماهير منزل مضيفك لتنهبه، وتلقي القبض عليك عنوة. هل يُمكن لسيوفنا مقاومة هذا الجمع الزاخر، ووراءه كل هذه الحشود التي لا تعرف إجراءات العدالة؟...

قال جوزيف مستعيداً هدوء أعصابه: أوه! هيّا أيّها السادة، سنتفاهم فيما بعد صرخ الضابط موجّهاً كلامه إلى الجموع: مكانكم! يا أصدقائي، لقد ألقي القبض عليه، وسنسوقه إلى قصر العدل!

قال السيّد مويّرون: احترموا العدالة يا أصدقائي.

قال أحد الدرك لمجموعة تهدّد وتتوعّد: ألا تفضّلون أن تروه على المقصلة؟

ردّ أحد الغاضبين: نعم! نعم! يجب قطع عنقه.

ردّدت جموع النساء: «لنأخذه إلى المقصلة».

وفي طرف شارع ناريت الكبرى سرت هذه العبارات: «إنّه يُقاد إلى المقصلة، وقد وجدت معه السكين! أوه! يا للوغد!- هوذا الباريسيون. - لكن هذا يحمل دلائل الجريمة على وجهه!»

بالرغم من حنق جوزيف العارم، فإنه اجتاز المسافة من ساحة سان جان إلى قصر العدل محافظاً على هدوء ورباطة جأش متميّزين. غير أنه اعتبر نفسه

محظوظاً لوصوله إلى مكتب السيّد لوستو- بنغرن. وقال موجّهاً كلامه للسيد مويّرون والسيد لوستو- بنغرن، كاتب المحكمة: «لا حاجة بي، على ما أعتقد، أيّها السادة، لأقول لكم إنني بريءوكل ما أرجوه هو مساعدتي على إظهار براءتي. وأنا لا أعلم شيئاً عن هذا الموضوع ...» وعندما عرض القاضي مفصّلاً على جوزيف جميع الشبهات التي تحيط به، ومنها تصريح ماكس.

ذهل جوزيف وقال: ولكنني خرجت من المنزل بعد الساعة الخامسة(١)؛ وسرت في الشارع الكبير، وفي الخامسة والنصف كنت أنظر إلى واجهة خورنية سان سير، وتحدّثت مع قارع الجرس الذي جاء يقرع جرس صلاة البشارة، وطلبت منه بعض معلومات عن هذا البناء الذي بدا لي غريباً وغير مكتمل. ثم اجتزت سوق الخضار حيث وجدت بعض النساء، ومن هناك وعبر ساحة ميزير وصلت إلى جسر الحمير فطاحون لاندرول، حيث تأمّلت البطّات لخمس أو ست دقائق، وأعتقد أن الطّحانين لاحظوا وجودي. كما رأيت بعض النساء ذاهبات إلى مواقع الغسل، وتهامسن ضاحكات وهنَ يقُلن إنني غير وسيم وأجبتهن بأن بين تكشيراتهن تظهر أسنان كاللآلىء. واعتقد أنهن ما يزلن في مواقعهن. ومن هناك مشيت عبر الممر الطويل حتى تيفولي؛ حيث تحدّثت مع البستاني. أرجو أن تتحققوا من هذه الوقائع، وعدم اعتباري موقوفاً، ولكم مني وعد بالبقاء في هذا المكتب إلى أن تقتنعوا ببراءتي».

هذه الكلمات الرشيدة، المقالة دون تردّد، وبيُسر رجل واثق من براءته، كان لها تأثير طيب على القاضيين.

قال السيد مويرون: «علينا استدعاء جميع هؤلاء الأشخاص، والعثور عليهم، وهذا لا يتمّ في يوم واحد، فكر إذاً، لمصلحتك، في أن تبقى ضمن أمان جدران قصر العدل.

---

(١) المؤلف الحديث للروايات البوليسية يكون أكثر تدقيقاً في تحديد الوقت. فجيله طعن في الرابعة والنصف وغريت قالت عن جوزيف إنّه خرج في الرابعة والنصف. فتبريرات الرسّام لا تزيل عنه الشبهات إذاً.

- «شرط أن أتمكن من الكتابة لأمي لأطمئنها، يا للمرأة المسكين... أوه! ستقرؤون الرسالة».

كان هذا الطلب معقولاً جداً بحيث لا يمكن رفضه. وكتب جوزيف هذه البطاقةالصغيرة: «لا تقلقي أبداً، يا أمي العزيزة، سيكشف بسرعة الخطأ الذي أنا ضحيته الآن، وقد قدّمت الوسائل الميّسرة لذلك. غداً، أو ربّما هذا المساء سأكون حراً. أقبّلك، بلّغي السيد والسيدة هوشون أسفي الشديد لهذه البلبلة التي لا يد لي لي فيها وهي وليدة مصادفة لم أتوصل إلى فهمها حتى الآن».

كانت السيّدة بريدو عند وصول هذه الرسالة فريسة نوبة عصبيّة كادت تقضي عليها. وأدوية السيد غوده التي جرّب تجريعها إياها لم تُجد، لكنّ هذه الرسالة كانت كالبلسم. وبعد بعض ارتعاشات، وقعت أغاث فريسة الإرهاق الذي يلي مثل هذه النوبات، وعندما عاد السيد غوده ليرى مريضته، وجدها في غاية الأسف لمغادرة باريس.

قالت والدموع في عينيها: «هذه عقوبة الله، أما كان من الأجدى أن أتكل عليه يا عرابتي العزيزة وأترك لمشيئته ميراث أخي... !

همس السيد هوشون في أذنها: سيدتي، إن كان ابنك بريئاً، فماكسنس أثيم غادر، ولن نكون نحن الأكثر قوّة في هذه المجابهة، لذا أرى عودتكما إلى باريس.

سألت السيّدة هوشون الطبيب غوده: ما الوضع الصحي للسيّد جيله؟.

أجاب الطبيب: «بالرغم من خطورة الجرح، فإنه ليس مميتاً، وسيعود إلى كامل صحته بعد معالجة ستدوم شهراً كاملا». ثم توجّه إلى مريضته السيّدة بريدو قائلا: «تركته يكتب رسالة للسيد مويرون ليطلب منه إطلاق سراح ولدك. أوه! إن ماكس شاب طيّب. ذكرت له الحالة التي أنت فيها؛ فتذكر عندئذ شيئاً يعود إلى الحذاء الذي كان ينتعله القاتل، وهو من خيوط القنب المجدول، وبالتالي فلا يمكن أن يعود لولدك، إذ من المؤكّد أنه كان ينتعل جزمته عند خروجه...

- «آه! . فليغفر الله له ما سبّبه لي من أذى... »

خلال الليل حمل رجل إلى جيله رسالة مكتوبة بأحرف طباعية هذا نصّها:

«على النقيب جيله ألا يترك بريئاً بين يدي العدالة. ومن وجّه إليه الطعنة يعده بعدم تكرارها إن عمل السيد جيله على اطلاق سراح السيد جوزيف بريدو، دون أن يذكر شيئاً عن الجاني».

بعد أن قرأ ماكس هذه الرسالة وأحرقها، كتب إلى السيّد مويرون الرسالة الحاوية على الملاحظة التي سبق أن ذكرها الطبيب غوده راجياً منه إطلاق سراح جوزيف والمجيء لرؤيته ليشرح له القضيّة. وفي اللحظة التي وصلت فيها هذه الرسالة إلى السيد مويرون، كان السيّد لوستو-بنغرن قد تحقق لدى استنطاق قارع الجرس، وبائعة البقول، والغسّالات، وطحاني مطحنة لاندرول، وبستاني فرابسل، من صحة تصريحات جوزيف، وأنهت رسالة ماكس البرهان على براءة المتهم الذي أوصله السيد مويرون بنفسه إلى منزل السيّد هوشون. واستقبل جوزيف من قبل أمّه بانبثاق عاطفة ملؤها الحنان، ردّها هذا الفتى الذي لم يعرف قدره إلى مصادفة مضايقة جعلته يستحق هذه البراهين من المودّة، كمثال ذلك الزوج في حكاية لافونتين «الزوج والزوجة واللص».

قال السيد مويرون بمظهر الرجل الحصيف: «أوه! لاحظت من الطريقة التي نظرت فيها إلى الجمهور الغاضب أنك بريء، لكن رغم قناعتي، كانت أحسن وسيلة لحمايتك -ومن يعرف جيّداً إيسودون يؤيدني فِي ذلك- هي أن نسوقك إلى قصر العدل كما فعلنا. آه! لقد أظهرت رباطة جأش تُحسد عليها.

أجاب الرسّام ببساطة: كنت أفكر بشيء آخر. إنّني أعرف ضابطاً حدّثني عن توقيفه في دلماسية ضمن ظروف مشابهة، عند عودته من نزهة في الصباح، ومن قبل جمهور ساخط[1]. هذا التشابه شغلني فنظرت إلى جميع هذه الرؤوس وأنا أفكر برسم لوحة عن إحدى فتن ١٧٩٣ ... أخيراً قلت في نفسي: «أيّها الوغد، نلت ما تستحق لمجيئك تسعى وراء ميراث بدلاً من أن تنصرف إلى فنّك وتعمل في مرسمك ... •

---

(١) في رواية «**بداية في الحياة**» يدّعي جوزيف بريدو بأنه شينر ويقصُ هذه الحادثة كأنها وقعت له هو بالذات

قال وكيل النيابة: ان سمحت بإعطائك نصيحة: في رأيي أن تأخذ هذا المساء عند الساعة الحادية عشرة عربة يعيرك إياها وكيل البريد تقلُّك إلى بورج ومنها تأخذ العربة العامة إلى باريس.

قال السيد هوشون الذي تتملّكه رغبة عارمة في رحيل ضيفه: هذا هو رأيي أيضاً.

أجابت أغات وهي تقبّل يد السيدة هوشون: وهذه أحرّ رغبة لي الآن في أن أترك إيسودون رغم شدة أسفي على فراق صديقتي الوحيدة. آه! متى سأراك؟

همست السيّدة هوشون في أذن فليونتها: آه يا صغيرتي، لن نلتقي إلا في السماء! ... لقد تألّمنا ما فيه الكفاية على الأرض بحيث يتحنّن علينا الخالق يأخذنا إلى جواره.

بعد ذلك ببرهة، وبعد أن ذهب السيّد مويرون وتحدّث مع ماكس، أدهشت غريت السيد والسيّدة هوشون، وأغات وجوزيف وأدولفين بإعلانها عن زيارة السيد روجه. وقد جاء جان جاك ليودّع أخته ويعرض عليها عربته لتقلهما إلى بورج.

قالت له أغات: «آه! إن لوحاتك سبّبت لنا ضرراً كبيراً!»

قال الرجل الساذج وهو مايزال غير مقتنع بقيمة هذه اللوحات: احتفظي بها يا أختي.

قال السيد هوشون: يا جاري، إن خير أصدقائنا، وأخلص المدافعين عنا هم أهلنا، وخاصة إن كانوا مثل أختك أغات وابن أختك جوزيف.

أجاب العجوز كالأبله: هذا ممكن.

قالت السيدة هوشون: يجب أن تفكر بأن تنهي حياتك بطريقة مسيحية.

وقالت أغات: آه! يا جان جاك. يا لهذا اليوم المرّ!

سألها روجه: ألا تقبلين الذهاب بعربتي؟

أجابت السيدة بريدو: «كلا يا أخي، أشكرك وأتمنى لك الصحة الجيّدة!»

استسلم روجه لعناق أخته وابن أخته مودعين، ثم خرج بعد أن تمنى لهما سلامة الوصول ببرود. وتوجّه باروخ، بناءً على كلمة جدّه، سريعاً إلى مركز البريد، وفي الساعة الحادية عشرة مساء كان الباريسيان يجلسان في عربة صغيرة من قصب السوحر يجرها حصان ويقودهما حوذي، ويغادران إيسودون وأدولفين والسيّدة هوشون في وداعهما والدموع في عيونهما، فهما وحدهما المتأسفتان على أغات وجوزيف.

قال فرنسوا هوشون وهو يدخل مع المتصيّدة إلى غرفة ماكس: «لقد رحلا.

أجاب ماكس وهو صريع الحمى: إيه! وبعد، انتهى هذا الدور

سأله فرنسوا: ولكن ماذا قلت للأب مويرون؟

- قلت له إنني أعطيت تقريباً لقاتلي حقّ انتظاري في ركن الشارع. وأن هذا الرجل به من الحزم ما يدفعه لقتلي كالكلب قبل أن يلقى القبض عليه، إن توبعت هذه القضية. وبالتالي فقد رجوت مويرون وپرنجن أن ينصرفا في الظاهر إلى أنشط التحريات، شريطة أن يتركا المعتدي عليّ مطمئناً، إلا إذا كانا يريدان رؤيتي مقتولاً.

قالت فلور: آمل يا ماكس أن تتوقف خلال بعض الوقت عن نشاطك الليلي.

هتف ماكس: «أخيراً تخلّصنا من الباريسين، ومن طعنني لم يكن يدرك أنه يقدم لي هذه الخدمة الكبرى».

في اليوم التالي احتفلت كل المدينة، باستثناء الأشخاص الهادئين والمتحفظين الذين يشاطرون السيد والسيدة هوشون آراءهما، برحيل الباريسين، واعتبروه انتصاراً للمقاطعات على باريس، بالرغم من أنه ناتج عن سوء تفاهم يؤسف له. وقام بعض أصدقاء ماكس بالتعبير عن آرائهم بقسوة التهم إلى آل بريدو. قالوا:

«هؤلاء الباريسيون يتصوّرون أننا حمقى، وما عليهم إلا أن يمدّوا قبعتهم لتمطر فوقها المواريث! ...»

- جاؤوا يسعون لجزّ الصوف، لكنهم عادوا مجزوزين؛ لأن ابن الأخت لم يرق للخال.

- ومن فضلك، فإن مستشارهم محام باريسي.

- آه! وهل كان لديهم خطة؟

- طبعاً، خطة أن يسيطروا على الأب روجه؛ لكنهم لم يكونوا بالقوة الكافية لذلك.

ولم يستطع المحامي أن يَسخَرَ من البرّيين

- هل تعلم أن هذا التصرف بغيض؟

- هي ذي أنباء باريس! ...

- رأت المتصيّدة نفسها تُهاجَم، فدافعت عن نفسها.

- ونِعمَ ما فعلت ...»

كان آل بريدو بالنسبة لكل المدينة باريسيين، غرباء: وفُضِّل عليهم ماكس وفلور. يمكن أن نتصوّر الارتياح الذي أحسّ به جوزيف وأغات وهما يدخلان شقتهما الصغيرة، في شارع مازارين، بعد تلك الحملة. فالفنان استعاد في رحلة الطريق بهجته التي تعكَّرت بتوقيفه، ومنعه خلال عشرين ساعة من الاتصال بأحد، لكنه لم يستطع الترويح عن أمّه؛ فأغات لم تستطع بمثل تلك السهولة أن تخفّف من انفعالاتها القلقة خاصة وأن محكمة مجلس الأعيان ستبدأ قريباً النظر في المؤامرة العسكرية، وسلوك فيليب، رغم مهارة المدافع عنه المعتمد على نصائح دروش، أثار شبهات في غير مصلحته. وهكذا فما أن أطلع جوزيفُ دروشَ على كل ما حدث لهما في إيسودون، حتى اصطحب بسرعة مسيتيغري إلى قصر سريزي[1] ليبتعد عن جوّ هذه القضية التي دام النظر فيها عشرين يوماً.

(١) يقص بلزاك رحلة جوزيف وميستغري في رواية «**بداية في الحياة**».

لاجدوى من العودة هنا إلى وقائع مثبتة في التاريخ المعاصر. وسواء لعب فيها فيليب دوراً اتفق عليه، أم أنه كان أحد من أفشى سرها، فإنه بقي مشبوهاً، وحكم عليه بالوضع تحت مراقبة سلطات الأمن السياسي لمدة خمس سنوات، وبإلزامه بمغادرة باريس والسفر إلى أوتن[1] المدينة التي قرر مدير عام أمن المملكة أن تكون مكاناً لإقامته لمدة خمس سنوات. هذه العقوبة تعادل اعتقالاً مماثلاً لتعهد يعطيه سجين تحدد له مدينة لايغادرها كسجن. وعندما علم دروش أن الكونت دي سريزي أحد الأعيان المكلفين من قبل المجلس للتحقيق في القضية، هو صاحب قصر برسل الذي كلف جوزيف بأعمال الزخرفة فيه؛ طلب مقابلته، ووجد وزير الدولة هذا راغباً في مساعدة جوزيف بعد أن تعرف عليه مصادفة. وشرح دروش الوضع المالي للأخوين، مذكّراً بالخدمات التي قام بها والدهما، واللامبالاة التي حلت بالعائلة في ظل الملكية الثانية.

قال المحامي: مثل هذا الجور يا صاحب المعالي يخلق أسباباً مستمرة للتحسس والنقمة! إنك عرفت الأب، فهيء للأولاد جواً يستطيعون فيه أن يسعوا لكسب رزقهم.

ووصف باختصار الوضع المتعلق بأمور العائلة في إيسودون طالباً من نائب رئيس مجلس الوزراء توسطه لدى مدير عام الأمن ليستبدل بأوتن إيسودون مكاناً لإقامة فيليب. أخيراً ذكر العوز الرهيب الذي يعاني منه فيليب، ملتمساً إعانة ستين فرنك شهرياً من وزارة الحرب تمنح لعقيد سابق في الجيش احتراماً لرتبته.

قال وزير الدولة: سأحصل على كل ما طلبت لأنه يبدو صحيحاً.

بعد ثلاثة أيام ذهب دروش، بعد أن حاز على الأذون الضرورية لإخراج فيليب من سجن محكمة مجلس الأعيان، والذهاب به إلى منزله في شارع بوسي. وهناك وجه المحامي الشاب لهذا الجندي الفظّ إحدى هذه العظات التي لاتدحض،

---

(١) أوتن: مركز منطقة في جنوب وسط فرنسة في مقاطعة ساون ولوار.

والتي يعرف المحامون كيف يعطون فيها للأشياء قيمتها الحقيقية مستخدمين تعابير قاسية لتقدير السلوك، وللتحليل والإحالة إلى أبسط التعبير عواطف زبائنهم الذين يهتمون بأمورهم إلى حد متابعتهم بالإرشاد والعظة. وبعد أن أخجل الضابط السابق المرافق للامبراطور بتوجيه اللوم إليه على مجونه الأخرق، وكونه سبباً في موت العجوز دكوان وفي تعاسة أمّه؛ حدثَه عن الوضع الذي آلت إليه الأمور في إيسودون مسلطاً عليها الضوء وفقاً لطريقته ومحللاً بعمق ماكسنس جيله والمتصيدة وطباعهما.

أصغى المحكوم السياسي الذي وهب فهماً يقظاً جداً في هذا المجال، بكل انتباه لهذا القسم من خطبة دروش متناسياً تأنيبه، واستأنف المحامي حديثه بالقول: بناء على ما سبق ذكره، يمكنك إصلاح ما هو قابل للإصلاح من الأخطاء التي ارتكبتها تجاه عائلتك الطيبة، وإذا كان من المتعذر أن تعيد إلى الحياة المرأة المسكينة التي سببت موتها، فأنت وحدك يمكنك...

سأله فيليب مقاطعاً: ولكن كيف سأتصرف؟.

- تمكنت أن استبدل لك بأوتون إيسودون مكاناً لإقامتك الجبرية.

انقلب وجه فيليب الهزيل، شبه المخيف، المنهَك بالأمراض، والآلام، والحرمان، فجأة منوراً ببارقة من السرور.

تابع دروش: أنت وحدك من يستطيع استعادة ميراث خالك الذي يكاد يطبق عليه شدقاً هذا الذئب المسمى جيله. أنت تعرف الآن كل التفاصيل، وعليك الآن أن تتصرف وفق المقتضى. لن أضع لك خطة، وليس لديَ فكرة حول هذا الموضوع، وكل شيء قابل للتغيير في الموقع. أمامك خصم مخيف، فهذا الجسور داهية محتال، والطريقة التي أراد فيهااستعادة اللوحات الممنوحة لجوزيف من قبل خالك، والجرأة التي ألبس فيها أخاك المسكين جريمة لاعلاقة له بها تنبئان عن عدو لايتورّع عن ارتكاب أي شيء. وهكذا عليك أن تكون حذراً؛ وجرب أن تكون

حكيماً تحقيقاً لغاية، إذا لم تتمكن أن تكون كذلك بناء على طبع ودون أن أصرح لجوزيف الذي ستثور أنفته كفنان؛ أعدت اللوحات للسيد هوشون وكتبتُ له ألا يسلمها إلا عن طريقك[1]. وماكسنس جيله هذا مقدام...

قال فيليب: هذا أفضل، فأنا اعتمد على جرأة هذا المستهتر لأحقق النجاح، إذ أنه سيغادر إيسودون في حال اتصافه بالجبن.

- إيه وبعد، فكر بأمك، وحنانها نحوك أقرب إلى العبادة، وبأخيك الذي جعلت منه بقرة حلوباً لك.

صاح فيليب: آه! هل حدثك عن هذه الحماقات؟...

- هيا، ألستُ صديق العائلة؟.. ألست أعرف عنك أكثر مما يعرفون؟...

ـ قال فيليب: ماذا تعرف؟.

- لقد خنت رفقاءك.

ـ صاح فيليب: أنا! أنا! الضابط المرافق للامبراطور! قطعاً!... خدعنا مجلس الأعيان، والعدالة، والحكومة، وكل هذه الطغمة؛ ولم يتمكن رجال الملك أن يفقهوا شيئاً.

رد المحامي: جيد جداً، إن كان الأمر هكذا، لكن ألا ترى أن من الصعب إزاحة آل بوربون، فأوروبة كلها معهم، ويجب عليك أن تفكر بالتصالح مع وزارة الحرب... أوه! ستفعل ذلك عندما تجد نفسك غنياً. ولتغتني أنت وأخوك، استمل إليك خالك؟ وإذا أردت أن تنجح في هذه القضية التي تتطلب كثيراً من المهارة، والكتمان، والصبر، فعليك أن تعمل بأناة خلال سنواتك الخمس هناك.

---

(١) يشير بيير سيترون بحق إلى لاشرعية إجراء دروش. لكن يلاحظ أن بلزاك كان بحاجة لوضع اللوحات بين يدي فيليب في صيغته الروائية.

قال فيليب: كلا، كلا، يجب التعجيل في هذا الأمر، إذ يمكن لجيله هذا أن يغير من طبيعة ثروة خالي بوضعها باسم تلك الفتاة ويضيع بذلك كل شيء.

- أخيراً فالسيد هوشون رجل سديد الرأي، ويعي جيداً الموضوع فاستشره. لديك الآن تصريح الإذن بالسفر، ومقعدك محجوز في عربة أورليان المنطلقة في السابعة والنصف، وحقيبتك معدة. ألا تأتي للعشاء؟.

قال فيليب وهو يفتح أزرار معطفه الأزرق المريع: لاأملك شيئاً ألبسه. إنما ينقصني ثلاثة أشياء أرجو منك أن تطلب من جيرودو، خال فينو، إرسالها لي، وهي خنجري وسيفي ومسدسي.

قال المحامي وهو يتأمل بارتعاش زبونه: ينقصك جيداً أشياء أخرى. ستتلقى تعويض ثلاثة أشهر لتكتسي بشكل لائق.

هتف فيليب وهو يتعرف على شقيق ماربيت الذي يعمل كاتباً أولاً لدى دروش: عجباً، هذا أنت يا غودشال!

- نعم إنني أعمل لدى السيد دروش منذ شهرين.

هتف دروش: وسيبقى على ما أرجو إلى أن يتعاقد على مكتب لحسابه الخاص.

وسأل فيليب وهو متأثر من تداعي ذكرياته: وماربيت؟!

- انها تنتظر افتتاح الصالة الجديدة[١].

- لن يكلفها تخفيف عقوبتي إلا جهداً قليلاً[٢]... أخيراً كما تشاء.

---

(١) خطأ في التأريخ: نحن في العام ١٨٢٢، وقد سبق لبلزاك أن ذكر أن ماربيت ستعمل في الأوبرا كوميك التي أفتتحت في العام ١٨٢١.

(٢) فكر فيليب أن ماربيت بحكم علاقتها مع الدوق دي موفر ينيوز يمكنها إعفاءه من جزء من اقامته الجبرية، وهنا يهيء بلزاك لإمكانية تقصير إقامة فيليب في إيسودون.

بعد عشاء هزيل قدّم لفيليب من قبل دروش الذي يقدّم المأكل أيضاً لكاتبه الأول، رافق المحاميان المدان السياسي حتى العربة راجين له الحظ الطيب.

في الثاني من تشرين ثاني، وهو يوم سبت الأموات، مثل فيليب بريدو لدى مفوُض شرطة إيسودون ليؤشر على الوثيقة المثبتة ليوم وصوله، ثم ذهب للسكن بناء على تعليمات هذا الموظف في شارع آفنيه. وأحدث انتشار خبر إبعاد أحد الضباط المتهمين في المؤامرة الأخيرة إلى إيسودون مزيداً من الإثارة، خاصة عندما علم أن هذا الضابط هو شقيق الرسام الذي أتهم ظلماً في المدينة. وكان ماكسنس جيله قد شفي تماماً من جرحه وأنهى العملية الصعبة في جمع الرساميل الرهنية للأب روجه وإيداعها في السجل الكبير. كما أن اقتراض مئة وأربعين ألف فرنك من قبل هذا العجوز مقابل رهن أملاكه أحدث إثارة كبيرة لأن ما من شيء يخفى في المقاطعات. ولمصلحة آل بريدو.

سأل السيد هوشون المتأثر من هذه الكارثة العجوز هيرون كاتب عدل روجه عن الهدف من حركة هذه الرساميل.

قال السيد هيرون: إن ورثة الأب روجه، إن غيَّر يوماً رأيه، مدينون لي بمعروف كبير، فدون مشورتي، كان يزمع الرجل أن يسجل دخل خمسين ألف فرنك باسم ماكسنس جيله... لكنني طلبت من الآنسة برازيه وجوب التقيد بالوصية خشية التعرض لدعوى اختلاس؛ نظرا للبراهين العديدة التي تعطيها النقليات المختلفة الجارية من جميع الجهات لمناوراتهم. ونصحت كسباً للوقت، ماكسنس وخليلته، نسيان هذا التغير المفاجىء في عادات الرجل الساذج.

قال السيد هوشون الذي لم يغفر لجيله قلقه خشية نهب منزله، لهيرون: «كن المحامي والمدافع عن حقوق آل بريدو، الذين لايملكون شيئاً».

راح ماكسنس جيله وفلور برازيه، وقد أحسّا أنهما في مأمن، يسخران عندما علما بوصول ابن الأخت الثاني للأب روجه. فعند أول بادرة مقلقة من فيليب،

يمكنهما بتوقيع وكالة من الأب روجه، نقل التسجيل إلى ماكسنس أو إلى فلور. وإذا نقضت الوصية، فإن دخل خمسين ألف فرنك كاف كبطاقة مواساة خاصة بعد أن رهنت الأملاك بمئة وأربعين ألف فرنك.

تقدم فيليب في اليوم التالي لوصوله نحو الساعة العاشرة صباحاً لإجراء زيارة لخاله، وحرص على أن يظهر بثيابه البالية، وهكذا فعندما دخل خريج مشفى ميدي، وسجين اللوكسمبورغ إلى الصالة، أحست فلور برازيه برعشة في القلب من هذا المظهر المنفر. كما أحس جيله في نفسه بهذا الارتجاج في الفكر والإحساس، الذي تنذر الطبيعة فيه عن كراهية كامنة أو خطر قادم. وإذا كانت مصائب فيليب الأخيرة تخلع عليه شيئاً من الشؤم فإن ثيابه تزيد من هذا المظهر المشؤوم، ولئن أبقى معطفه الأزرق البالي مزرراً عسكرياً حتى العنق لأسباب تحزن، فإنه أظهر أكثر مما رغب أن يخفي، وكان أسفل بنطاله المهترىء كثوب عاجز يعبر عن بؤس عميق، وحذاؤه يترك آثاراً رطبة، وهو يقذف بماء موحل من نعله المنشق. والقبعة الرمادية التي يمسك بها العقيد بيده تعرض للأنظار بطانة وسحنة تثير الإشمئزاز؛ وعصاه من الأسل التي تقشر بريقها تشهد على أنها عرفت جميع زوايا المقاهي الباريسية وانغرزت في طرفها الملتوي في كثير من المستنقعات أما رأسه فانتصب فوق ياقة من مخمل ظهرت حشوتها وبدا كالرأس الذي ظهر فيه فردريك لميتر من الفصل الأخير من مسرحية **حياة مقامر**(١)، حيث يبدو إنهاك رجل، احتفظ ببعض بأسه، بهذا اللون النحاسي المزنجر بين مكان وآخر. هذه الألوان ترى على وجه الداعرين الذين قضوا كثيراً من الليالي في المقامرة: وعيناه متهججتان بدائرتين فحميتين، وأجفانه محمرّة أكثر منها حمراً؛ أخيراً يبدو جبينه منذراً بكل ما عاناه من

(١) الممثل فردريك ليتر (١٨٠٠-١٨٧٦) الذي أوجد دور فوترن؛ اهتم بالمشاريع المسرحية لبلزاك بين عامي ١٨٤٠-١٨٤٢، وهنا يوجه له بلزاك التقدير على دوره الذي مثل به جورج دي جرماني في مسرحية من تأليف دوكانج ودينو (١٨٢٧) بعنوان: **ثلاثين سنة أو حياة مقامر.**

انهيار، ووجنتاه، وهو لما ينته من معالجة دائه، تبدوان غائرتين خشنتين؛ وقحف رأسه دون شعر باستثناء بعض خصلات بقيت على جوانب رأسه وتهالكت على أذنيه. أما زرقة عينيه، وقد كانتا مثال الصفاء والبريق، فقد أخذت لون الفولاذ البارد.

قال بصوت أبح: «طاب يومك يا خالي، أنا ابن أختك فيليب بريدو، أترى كيف يعامل آل بوربون عقيداً، عريقاً من الأزمنة العريقة، رافق الأمبراطور في معركة مونترو، إنني أخجل إن فككت أزرار معطفي، خاصة بوجود الآنسة. بعد كل حساب؛ هذا قانون اللعب، أردنا معاودة الكرة، لكننا خسرنا! إنني أسكن مدينتكم بناء على أمر من الشرطة، بعد أن خصص لي راتب كبير يصل إلى ستين فرنك شهرياً! وهكذا لن يخشى البورجوازيون زيادة أسعار المواد الاستهلاكية. إنني أرى أنك في صحبة طيبة وجميلة.

قال جان جاك: آه! أنت ابن أختي.

قالت فلور: ولكن ادع السيد العقيد للإفطار.

- أجاب فيليب: كلا يا سيدتي، شكراً، سبق أن تناولت فطوري. عدا عن أنني أقطع يدي إن طلبت قطعة خبز أو فلساً واحداً من خالي بعد ما حدث في هذه المدينة لأخي ولوالدتي... إنما بدالي من غير اللائق أن أكون في إيسودون دون أن أحيي بشكل عابر بين وقت وآخر خالي. ثم مد يده إلى خاله، فتناولها هذا مصافحاً واستأنف العقيد: «ماعدا هذا، يمكنك أن تفعل ما تشاء، فليس لي أي شأن بذلك، ما دامت كرامة آل بريدو محفوظة..».

أمكن لجيله أن يتأمل العقيد على هواه، لأن فيليب تجنب أن ينظر إليه بتصنع ظاهر. وقد كان من مصلحة ماكس الكبرى، بالرغم من أن الدم يغلي في عروقه، أن يتصرف بحرصٍ، على طريقة كبار السياسيين، بحيث يبدو أقرب إلى الجبن؛ وبدلاً من أن يظهر الغيظ كشاب أرعن، بقي هادئاً وبارداً.

قالت فلور: «ليس ملائماً، ياسيدي، أن تعيش بستين فرنكاً في الشهر، بحضور خالك ذي دخل الأربعين ألف فرنك سنوياً، والذي قام بواجبه نحو المقدم جيله، نسيبه بحكم الطبيعة، هذا الماثل أمامك. . .

ردّ الخال: نعم، يافيليب، سنرى هذا.

وبناء على تعريف فلور تبادل فيليب وجيله تحية شبه وجلةً.

استأنف فيليب: إني مكلف يا خالي بإعادة لوحات لك، وهي لدى السيد هوشون، ويسعدني أن تأتي في يوم ما للتحقق منها». ثم خرج العقيد فيليب بريدو بعد أن قال هذه الكلمات بلهجة جافة.

هذه الزيارة تركت في نفس فلور وجيله انفعالاً أكثر خطورة مما انتابهما لدى نظرتهما الأولى لهذا الجندي المريع. وما أن أغلق فيليب الباب خلفه بعنف الوريث المسلوب؛ حتى اختبأ جيله وفلور بين الستائر ليرقباه وهو ينتقل من منزل خاله إلى منزل آل هوشون.

قالت فلور وهي تسأل جيله بطرف عينها: "أيُ وغدٍ!

قال جيله: نعم للأسف، وُجد بعض أفراد مثل هذا في جيوش الامبراطور؛ وقد أهلكت سبعة منهم على زوارق التجسير.

ردت الآنسة برازيه: آمل يا ماكس ألا تسعى إلى شجار مع هذا

ردَ ماكس: أوه! هذا كلبٌ كَلِبٌ ثم التفت إلى الأب روجه قائلاً: إنَه يريد عظمة، وإذا كنت وأنت خاله تثق بي، فإنك تتخلّص منه بهبة ما، لأنه لن يتركك هادئ البال، بابا روجه.

قال العجوز: إنه ينشر رائحة التبغ.

رَدت فلور بلهجة حاسمة: وهو يشمُ رائحة نقودك أيضاً، وفي رأيي أن تستغني عن استقباله.

ردَ روجه: أنا لا أطلب شيئاً أفضل.»

قالت غريت وهي تدخل إلى الغرفة التي تجتمع فيها كل عائلة هوشون بعد الافطار: «سيَدي، هوذا السيد بريدو، وهو يريد أن يتحدث إليك.».

دخل فيليب بكل تهذيب وسط صمت عميق ساده الفضول العام؛ وارتعشت السَيدة هوشون، من رأسها حتى قدميها، وهي ترى مسّبب كل تلك الأحزان لأغات، وقاتل المرأة الطّيبة دكوان؛ كما ذعرت أدولفين؛ وتبادل فرنسوا وباروخ نظرة مندهشة، بينما احتفظ العجوز هوشون بهدوء أعصابه، وقدم كرسيّاً لابن السيدة بريدو.

قال فيليب: «جئت يا سيدي أطلب نصحك، إذ أنني بحاجة إلى اتخاذ ترتيباتي بطريقة يمكنني العيش فيها في هذه البلاد، لمدة خمس سنوات، براتب ستين فرنك شهرياً منحته لي فرنسة.

أجاب الرجل الثمانيني: هذا ممكن

تكلّم فيليب عن أشياء مختلفة، وبتمام التهذيب؛ واعتبر كنسر في الصحافة السيد لوستو ابن أخ السيدة العجوز، فحاز على عطفها عندما سمعته يعلن أن اسم لوستو غدا شهيراً. ثم لم يتردد بالاعتراف بأخطاء حياته عندما وجهت إليه السيدة هوشون، همساً، عتاباً ودياً، ذاكراً أن السجن دفعه إلى مراجعة أفكاره والعزم على أن يكون في المستقبل رجلاً آخر.

وبناءً على تلميح من فيليب خرج السيد هوشون معه؛ وعندما وصل الجندي والبخيل إلى مكان لا يسمعهما فيه أحد من شارع بارون، قال الكولونيل للعجوز: إذا أردت يا سيدي الاقتناع معي، فلن نتكلم أبداً في أي موضوع عمل، ولا عن أي إنسان إلا ونحن نتنزه في الريف أو في أماكن لا تصل فيها كلماتنا إلى أذن أحد، فالاستاذ دروش شرح لي جيداً تأثير الإشاعات في مدينة صغيرة؛ وأنا لا أريد أن

يشتبه بأنك تساعدني بنصائحك، بالرغم من أن دروش حثني على أن أطلب مشورتك دائماً، وأنا أرجو ألا تبخل بها عليَ. أمامنا عدوٌ قوي التفكير فيجب أن نتخذ كل احتياطاتنا للتوصل إلى دحره. وأولَ ما يجب فعله هو ألا أترددَ عليك، فإظهار البرود في علاقتنا يجعلك بعيداً عن كل شبهة في التأثير على تصرفاتي؛ وعندما احتاج إلى استشارتك أمر في الساحة عند الساعة التاسعة والنصف، في اللحظة التي تدخل فيها إلى قاعة طعامك لتناول الإفطار، فإذا، رأيتني أحمل عصاي كالبندقية على كتفي، فهذا يعني وجوب لقائنا، بمحض المصادفة، في مكان نزهة تشير إليه.

قال العجوز: يبدو لي هذا تصرفُ رجل حذر يبغي النجاح.

- وسأنجح يا سيدي، وقبل كل شيء أرجو أن تدلني على ضباط الجيش الامبراطوري الذين عادوا إلى هنا، وليسوا من حزب ماكسنس جيله، ويمكنني إقامة علاقات معهم.

- هناك أولاً نقيب مدفعية من الحرس، السيد مينيونه، وهو خريج البوليتكنيك، وعمره أربعون عاماً، ويعيش ببساطة، محافظاً على الكرامة والشرف، ولا يعجبه تصرف ماكس، وهو يراه غير لائق بعسكري.

بدرت من العقيد إشارة استحسان واستأنف السيد هوشون: لا يوجد كثير من العسكريين بهذه الصفات، إذ أنني لا أتذكر هنا إلا نقيباً سابقاً في سلاح الفرسان.

قال فيليب: إنَه السلاح الذي خدمت به. أكان في الحرس الامبراطوري.

تابع هوشون: نعم، كان كاربنتيه في العام ١٨١٠ رقيباً في الحرس، وخرج منه ليلتحق بالجيش المقاتل ملازماً، ووصل بعدها إلى رتبة نقيب.

قال فيليب في نفسه: إن جيرودو يعرفه على الأرجح.

استأنف هوشون: حلَّ السيد كاربنتيه محلَ ماكسنس في دار العمدية، وهو صديق النقيب مينيونه.

- ماذا يمكنني أن أفعل هنا لأكسب عيشي؟...

- سيتمُ إنشاء دائرة لشركة تأمين مقاطعة شير، ويمكن أن تحصل على وظيفة فيها، لكن راتبها ضئيل، وهو لا يتجاوز خمسين فرنكاً في الشهر...

- هذا يكفيني»

خلال أسبوع إمتلك فيليب معطفاً وبنطالاً وصداراً جُدُداً من جوخ إلبوف الأزرق إشتريت بتقسيط شهري، وكذلك جزمة، وقبعة، وقفازين. وتلقى من جيرودو في باريس بياضاته وأسلحته، ورسالة إلى كاربنتيه الذي خدم سابقاً تحت إمرته؛ مما دفع هذا الأخير إلى التودّد للعقيد والسعي لصداقته، وتقديمه إلى المقدّم مينيونه كضابط ذي تقدير كبير، وخلق طيّب، واستطاع فيليب أن يحوز علي إعجاب الضابطين السابقين ببعض مسارّات عن المؤامرة التي حوكم بها، وكانت كما هو معلوم آخر محاولة من الجيش السابق ضد آل بوربون؛ إذ أن قضية رقباء لاروشل[1] تعود إلى حزب ذي أفكار أخرى. وبدءاً من العام١٨٢٢ وبعد أن استنار الضابط بمصير مؤامرة ١٩ آب ١٨٢٠، وقضيتي بروتون وكارون[2] اكتفوا بانتظار تطورُ الأحداث، فهذه المؤامرة الأخيرة التي تلت ١٩ آب، تمّت من قِبَل أفضل العناصر، وكانت مثلها خفيّة تماماً عن الحكومة الملكية؛ وما أن كشفت حتى اضطر الناقمون إلى تقليص نشاطهم والاقتصار على بعض تمّردات هزيلة في الثكنات.

تمّت تلك المؤامرة التي أيّدتها عدة فيالق من الخيالة، والمشاة والمدفعية، في

---

(١) رقباء لاروشل الأربعة وهم بوريس، وغوبن، وبوميه، وراوول؛ أعدموا في باريس في ٢٠ أيلول ١٨٢٢ وكانوا من المنتسبين لحزب الكاربوناري (الفَحامين).

(٢) سبق ذكر مؤامرة الجنرال برتون في سومور العام ١٨٢٢. أما العقيد كارون فكان متورطاً في مؤامرة آب ١٨٢٠، ونَفَذ به حكم الإعدام في استراسبورغ في تشرين أوَل ١٨٢٢، وهذا ما يعطي لشخصية فيليب أبعاداً جديدة.

شمال فرنسة وكان هدفها الاستيلاء بسرعة على الأماكن الحصينة على الحدود، وفي حال النجاح نقض معاهدات ١٨١٥ بإقامة اتحاد مع بلجيكة التي ستنتزع من الحلف المقدس[١] بميثاق بين ضباط الجيشين، وبذلك يتحطّم عرشان في لحظة بفعل هذا الإعصار. ولم يُعرَف عن هذه الخطة البارعة التي تصورَتها رؤوس كبيرة، واشتركت بها شخصيات هامّة إلا تفاصيل بسيطة وصلت إلى محكمة الأعيان. وعمل فيليب بريدو على أن يتكتَمَ على رؤسائه، الذين اختفوا في اللحظة التي اكتشفت فيها المؤامرة، إمّا لخيانة حدثت، أو عن طريق المصادفة[٢]. هذه الشخصيات الموجودة في المجلسين لم تعد بتعاونها إلا لتتمم نجاح الإنقلاب داخل الحكومة.

التحدّث عن هذه الخطة التي بسطت، منذ العام ١٨٣٠، اعترافات الليبراليين تفاصيلها بكل عمقها وتشعباتها الواسعة التي خفيت على المبتدئين الثانويين، يعني التطاول على الدراسة التاريخية والخوض في استطراد طويل[٣]. ومثل هذه اللمحة كافية لفهم الدور المضاعف الذي ارتضاه فيليب. فالضابط السابق، مرافق الامبراطور، كان مكلّفاً بقيادة حركة في باريس، الهدف منها التغطية على المؤامرة الحقيقية، وإشغال الحكومة عن مركزها الرئيس. وعندما تفجرت في الشمال؛ كلّف فيليب بقطع اللحمة بين المؤامرتين، وعدم الكشف إلا عن أسرار ثانوية. وهكذا فإن إملاقه المريع وملابسه شاهد عليه، وحالته الصحية، دفعا بشدّة إلى التقليل من شأن مؤامرة باريس في نظر السلطة. هذا الدور تلاءم مع رقّة حال هذا المقامر العديم المبادئ، فبشعوره أنه الرابح بلعب دور مضاعف، تظاهر فيليب الماكر

---

(١) الحلف المقدّس: هو الحلف الذي تمّ بعد سقوط نابوليون بين بروسية والنمسة وروسية لدعم معاهدات ١٨١٥.

(٢) يعطي بلزاك للجنرال فاسي ذات الدور في باميلا جيرود التي كتبها في العام ١٨٤٠.

(٣) يُذكر أن بلزاك كتب رواية قضية غامضة، وكانت لديه على الأرجح معلومات دقيقة عن هذا الموضوع ويذكر سيترون أن مذكرّات رموزا تشهد على هذا الاحتمال إذ ذكر فيها(الجزء الثاني ص ٥٥) أن سياسيين لعبوا دوراً أكبر مما عرف في تلك المؤامرة. وأن شبكة مبيعات خفية امتدت في كل فرنسة، دون علم الحكومة رغم أنها كانت مطلعة على بعض التفاصيل(ص ٥٢ الجزء الثاني).

بالصلاح لدى الحكومة الملكية، وضمن تقدير كبار رجال حزبه على أن يلقي بنفسه فيما بعد فى الاتجاه الذي يحقّق له مكاسب أكثر.

هذا الكشف عن المدى الواسع للمؤامرة الحقيقية، وعن مساهمة بعض القضاة فيها، جعلت فيليب في نظر كاربنتيه ومينيونه رجلا ذا مكانة عالية، إذ أن تضحيته بيَنت عن قدرة سياسية جديرة بأيام الجمعية التأسيسية المشهورة. وهكذا تمكن البونابرتي المراوغ أن يغدو خلال بضعة أيام صديق الضابطين اللذين انعكس عليه احترام الناس لهما. وهكذا تمكّن أن يحصل سريعاً بناءً على توصيتهما بالوظيفة التي أشار إليها العجوز هوشون في شركة التأمين. وكلّف بأن يمسك سجلات كأحد الجباة، وأن يملأ رسائل مطبوعة بأسماء وأرقام وإيداعها البريد، وتنظيم وثائق تأمين، مما لا يشغله أكثر من ثلاث ساعات يومياً. وعمل مينيونه وكاربنتيه على قبول ضيف إيسودون ضمن نادي حلقتهم، حيث كان موقفه وتصرفاته، بانسجامها مع تقدير الضابطين لهذا المتآمر السياسي، قد اكسبته ما تستحقه المظاهر الخدّاعة من احترام. وكان فيليب الذي عدّل سلوكه جذرياً، قد فكّر خلال سجنه بمحاذير حياة مبتذلة، ولم يكن بحاجة إلى تأنيب دروش ليدرك ضرورة السعي إلى كسب ودّ البرجوازية بممارسة حياة شريفة ولائقة ورصينة؛ وفتنه أن يكون موضع سخرية ماكس بتصرفه على طريقة مينيونه؛ وحرص على أن يعتبر غبّياً بإظهار التسامح والترّفع مع تطويق خصمه والطمع بميراث خاله؛ بينما أُتهِمَ أخوه وأمّه، المترفَعان حقيقة، والمتسامحان والكبيران، بالتخطيط لغاية لتصرفهما ببساطة ساذجة. وتوقّد جشع فيليب بناءً على ما عرفه من ثروة خاله بعد أن فصّلها له السيد هوشون، وفي أوّل محادثة له مع الرجل الثمانيني تمَّ الاتفاق بينهما على التزام فيليب بعدم إيقاظ احتراس ماكس لئلا يضيع كل شيء باقتياد ماكس وفلور لضحيتهما فقط إلى بورج. وكان العقيد يتعشى مرة في الاسبوع لدى مينيونه، ومرّة أخرى لدى كاربنتيه، ويوم الخميس لدى آل هوشون؛ ومن ثم أخذ يدعى إلى بيتين أو ثلاثة بعد مضي أقل من ثلاثة أسابيع من وجوده في المدينة، وهكذا لم تعد تترتب عليه سوى نفقة إفطاره. ولم يكن يذكر خاله أو المتصيّدة، أو

جيله في أي مكان، إلا إذ أراد معرفة شيء يتعلق بإقامة أمه وأخيه. أخيراً أخذ الضباط الثلاثة، وهم الوحيدون الحائزون على أوسمة، مع تميز فيليب بحيازته على الورُيَدة مما يمنحه تفوقاً ملحوظاً في أعين جميع سكان المقاطعة، يتنزهون معاً، في ذات الساعة من كل يوم قبل موعد العشاء، مشكلين وفقاً لتعبير شائع «عصبة معتزلة» وأحدثت تلك التصرفُات، والاحتياطات ومظاهر السكينة تأثيرهاالفائق في إيسودون. ورأى جميع مشايعي ماكس في فيليب سيافاً، وهو تعبير أطلقه العسكريون على الشجاعة المبتذلة لكبار الضباط الذين أنكروا فيهم القدرات المطلوبة لحسن القيادة.

قال غوده الأب لماكس: إنه رجل يستحق الاحترام

ردَ المقدم جيله: باه! إنَّ سلوكه في محكمة الأعيان يشير إلى غفلة أو وشاية، وهو كما قلت عنه من الغباء بحيث كان الغر« بين كبار اللاعبين».

بعد أن حصل فيليب على وظيفته أراد أن يحجب ما أمكن معرفة بعض الأشياء عن المدينة، الكثيرة الأقاويل، فسكن في بيت يقع في طرف ضاحية سان باترن، وقد ألحقت فيه حديقة واسعة، بحيث يستطيع بسريّة كبيرة أن يتدرّب على مختلف فنون السلاح مع كاربنتيه الذي كان مدرباً في ميادين القتال، وبعد أن استعاد فيليب سراً تفوقّه السابق، تعلّم من كاربنتيه أسراراًجعلته لا يهاب أي خصم من الدرجة الأولى في المهارة وراح يتمرّن مع مينيونه وكاربنتيه على إطلاق النار من المسدسات للتسلية في حال المبارزة. كان فيليب عندما يلتقي بجيله ينتظر منه التحية، ويجيبه برفع طرف قبعته بطريقة فروسية كعقيد يردّعلى تحية جندي. ولم يبدر من ماكسنس جيله ما يشير إلى نفاد صبره أو تضايقه ولم ينطق بكلمة حول هذا الموضوع لدى كونييت حيث مازال يقوم بوجبات منتصف الليل! لكنه أوقف موقتاً المقالب السيئة منذ طعنة سكين فاريو. وبعد مضي بعض الوقت غدا ازدراء العقيد بريدو للمقدم جيله واقعاً مثبتاً راح يتحدّث عنه بعض فرسان البطالة ممن لا يرتبط معهم ماكس بمثل رابطته الوثيقة مع باروخ، وفرنسوا، وثلاثة أو أربعة آخرين،

وسادت الدهشة بشكل عام لرؤية ماكس العنيف الجموح يتصرّف بمثل هذا الحذر. ولم يجرؤ أحد في إيسودون، حتى ولا بوتل أو رنار من التطرّق إلى هذه النقطة الحسّاسة مع جيله. وبوتل المتأثر بهذا الخلاف العام بين ضابطين باسلين من ضباط الحرس الامبراطوري، بيّن أن ماكس قادر جداً على تدبير مؤامرة تودي بالعقيد، ويمكن توقّع شيء جديد. بعد ما فعله ماكس لطرد الأم والأخ، إذ أن قضيّة فاريو لم تعد سرّاً، فالسيد هوشون لم يفته شرح حيلة جيله الخبيثة لكلّ الرؤوس العريقة في المدينة. كما أن مويرون، بكل «المقولة البورجوازية» أعلن في مسارّة اسم المعتدي على جيله، بدافع البحث عن أسباب العداوة القائمة بين فاريو وماكس، ولتنبيه العدالة لما يمكن أن يحدث مستقبلاً، وبتحدّث المدينة عن وضع العقيد بالنسبة لماكس، وبالبحث عن تخمين ما سينتج عن هذه الخصومة، فإنّهما وضعا مسبقاً كعدوّين. ففيليب كان يبحث باهتمام عن تفاصيل توقيف أخيه، وعن سوابق جيله والمتصيّدة مما انتهى به إلى إقامة صلات صداقة مع فاريو، جاره. إذ أنّه بعد أن درس جيّداً الإسباني بدا له إمكان الوثوق برجل بهذه الطبيعة، ووجد الاثنان حقدهما يوجههماإلى الاتفاق، ووضع فاريو نفسه تحت تصرف فيليب، وقصّ عليه كل ما يعرفه عن فرسان البطالة. ووعد فيليب فاريو بأن يعوّضه عن خسارته عندما يتوصل إلى التأثير على خاله بمثل تأثير جيله، وجعل بذلك فاريو تابعاً أميناً له. وهكذا لقي ماكس في مواجهته عدوّاً رهيباً أو وفقا لتعبير المنطقة رجلاً يتصدّى له». وأحسّت مدينة إيسودون، وقد نشطت بها الأقاويل، بنشوب الصراع بين هاتين الشخصيتين بعد أن ازداد ازدراء كل منهما للاخر.

في لقاء بين فيليب والسيد هوشون ظهر أحد أيام نهاية شهر تشرين الثاني(١)،

---

(١) كانت صحيفة «غازيت دي فرانس» الملكية، تقود في العام ١٨٤٢ حملة ضد الرواية المسلسلة، وتهاجم بصورة خاصة بلزاك وأوجين سو، وقد كتبت في ١٢ تشرين ثاني ١٨٤٢ « يوجد شيء يثير الفضول في الرواية المسلسلة التي تنشرها حاليا «لابرس» فكل اهتمام القصة يقوم على ميراث مهدّد باغتصاب وهل سيعود إلى الورثة الشرعيين. فمن جهة: الاحتيال، والخداع، والإغواء، والنميمة، والعنف والجسارة ومن جهة أخرى: الاستقامة والبساطة، والإخلاص، ولا يمكننا أن نمنع أنفسنا من الاعتراف بأن الاهتمام في هذه الرواية منصب على الأحداث السياسية الحالية. إذ بتوسيع إطار الأحداث التي تتمّ في إيسودون نصل إلى ما توحي به أعمدة صحيفتنا. فلابرس توجه اهتمام قرّائها إلى موضوع الميراث! ... وهكذا يعطي هذا الارتكاس فكرة عن السياق الذي كانت تقرأ به الروايات في ذلك العصر! ...

في ممر فرابسل الطويل، قال فيليب : «اكتشفت أن حفيديك باروخ وفرنسوا صديقان حميمان لماكسنس جيله، وهذان العابثان يشاركان ليلاً في جميع المقالب التي تتمُّ في المدينة. وهكذا عرف ماكسنس بواسطتهما كل ما قيل في منزلك عند وجود أمي وأخي لديكم.

-وكيف حصلت على دليل هذا التصرّف الشنيع؟ ...

-سمعتهم يتحدّثون خلال الليل عند خروجهم من حانة، وحفيداك مدين كلٌّ منهما لماكس بألف إكو، وقد طلب الشقيّ من هذين المسكينين أن يسعيا لمعرفة نوايانا، مذكّرا إياهما بأنك وجدت وسيلة لتطويق خالي سابقاً بالكهنوت، وقال لهما إنك وحدك القادر على توجيهي، لأنه لحسن الحظ يعتبرني سيّافاً فقط.

- كيف ؟ أحفيداي؟ ...

تابع فيليب: راقبهما، وستراهما يعودان من ساحة سان جان في الثانية أو الثالثة صباحاً ثملين من خمرة شمبانية وبرفقة ماكسنس.

قال السيد هوشون: لهذا السبب إذن أراهما مساءً زاهدين في الطعام والشراب؟!

تابع فيليب: قدم لي فاريو معلومات عن حياتهما الليلية، ولولاه لما علمت بذلك. وخالي تحت تأثير تعسُّف رهيب، استناداً للكلمات القليلة التي قالها ماكس لحفيديك وسمعها الإسباني. إنني أعتقد أن ماكس والمتصيدة أعدّا خطة «لنشل» دخل خمسين ألف فرنك المودعة في السجل الكبير، والذهاب للزواج في مكان ما، بعد أن يكونا قد نتفا ريش حمامتهما. لقد حان الوقت لمعرفة ما يجري في منزل خالي، لكنني لاأعرف ما يجب على فعله!

قال العجوز : سأفكرّ بذلك.

افترق فيليب والسيد هوشون عند رؤيتهما قدوم بعض الأشخاص.

لم يسبق لجان جاك روجه في أي لحظة من حياته، أن تألم مثل ألمه منذ الزيارة

الأولى لابن أخته فيليب. ففلور المذعورة أحسّت بالخطر المهدّد لماكسنس، وملّت من عِشَرة سيدها، وهي تخشى أن يعمرّ طويلاً لما تراه من مقاومته الطويلة لممارَساتها الجرمية. ونَوت على خطة بسيطة جداً تقوم على ترك المنطقة والذهاب مع ماكسنس ليتزوّجها ويقيما في باريس، بعد أن تتمكن من الحصول على قيد دخل الخمسين ألف فرنك باسمها في السجل الكبير. لكن العازب العجوز كان يرفض دائماً منح فلور هذا القيد، مدفوعاً بهواه الجامح لها، لا بمصلحة ورثته الحقيقيين، ولا ببخله الشخصي، فهو يعلم رغم أنه جعلها وريثته الوحيدة، مدى حبّها لماكس، وعزمها على الزواج به، ما أن تغدو على قدر من الغنى يمكنها من هجر منزله. وعندما رأت فلور إصرار معلمها على الرفض بعد أن استخدمت الملاحظات الأكثر وداً، لجأت إلى أساليبها القاسية، فلم تعد تكلمه، وتركت تقديم طعامه للطاهية فيدي، ولم تبال ببكائه طوال الليل، وأبقته لمدة أسبوع يفطر وحيداً على المائدة، وبطريقة لايعلمها إلا الله!.

في اليوم التالي لمحادثة فيليب مع هوشون، أراد أن يقوم بزيارة ثانية لخاله، ووجده متغيّراً تماماً. وبقيت فلور قرب العجوز، وهي تلقي عليه نظرات متودّدة، وتحدثه بحنان، وتمثّل دوراً أجادت اتقانه بحيث أحسّ فيليب بخطر الوضع من هذا المزيد من الإهتمام الذي يتمّ بحضوره. ولما كان جيله يتجنّب كلّ اصطدام مع فيليب فإنّه لم يحضر.

رأى العقيد بعد أن لاحظ بعين نفّاذة الأب روجه وفلور أنّ من الضروري أن يضرب ضربة مؤثّرة. فقال وهو ينهض بحركة تظهر رغبته بالخروج: «وداعاً، ياخالي العزيز». صرخ العجوز وقد ارتاح لحنان فلور الكاذب: أوه! لا تذهب الآن، ابق للعشاء معنا يافيليب.

رد فيليب: سأبقى، إذا أردت أن تتنزه لنحو ساعة معي.

قالت الآنسة برازيه: إن السيّد عليل». ثم أضافت وهي تلتفت إلى العجوز وتنظر إليه تلك النظرة التي يُروَّض بها المجانين: «لم يُرد منذ لحظة أن نتنزه في

العربة أمسك فيليب بذراع فلوروألزمها على أن تنظر إليه، وهو يحدّق بها بمثل النظرة التي وجهتها لخاله وسألها: «قولي ياآنسة، أيكون من قبيل المصادفة إلا يتمكّن خالي من التنزه معي بمفرده وبملء الحرية.

أجابت فلور مكرهة: بلى، يمكنه ذلك، أيها السيّد.

- حسن، تعال إذن ياخالي، هيّا ياآنسة، آته بعصاه وقبعته ...

- لكنه في العادة لا يخرج دون أن أرافقه، أليس كذلك ياسيدي؟

- رد العجوز: نعم يافيليب، نعم، إنني أحتاج دائما إليها ...

- قالت فلور: من الأحسن الذهاب في العربة.

هتف العجوز محاولا التوفيق بين طاغيتيه: نعم، لنذهب في العربة.

ردّ فيليب: ياخالي، ستأتي على القدمين ومعي فقط، أو أنني لن أعود أبداً، إذ سأوقن عندها أن مدينة أيسودون على حق في قولها إنك واقع تحت هيمنة الآنسة فلور برازيه.

ثم التفت إلى فلور ورماها بنظرة ساحقة وقال: جيّد جداً أن يكنّ لك خالي حبّاً كبيراً، وقد يكون طبيعياً ألاّ تبادليه هذا الحبّ. لكن أن تحولّي هذا الرجل الطيب إلى انسان تعس؟! ... قفي هنا! من يُرد الحصول على ميراث يجب أن يكسبه. أتاتي ياخالي؟ ... »

رأى فيليب انذاك تردداً حائراً يرتسم على وجه ذلك الأبله المسكين وعيناه تنتقلان ما بين فلور وابن أخته فقال العقيد عندها: آه! إن كان الأمر كذلك، فوداعاً ياخالي. أما أنت ياآنسة، فتستحقين تقبيل اليدين».

ودار بسرعة باتجاه الباب، لكنه فاجأ مرّة أخرى حركة متوعدة من فلور باتجاه خاله فقال:

«ياخالي إن أردت المجيء للتنزه معي فسأجدك على باب منزلك: إنني ذاهب لزيارة السيد هوشون، وسأعود بعد عشر دقائق ... وإذا لم نتنزه معاً، فأنا كفيل بأن أرسل بعض الناس في نزهة طيبة ... ».

اجتاز فيليب ساحة سان جان للذهاب إلى منزل آل هوشون.

في ذلك المنزل آنئذ، يمكن لكل واحد أن يستشعر المشهد الذي نتج عن تصريح فيليب للسيد هوشون حول تصرُف حفيديه. وفي الساعة التاسعة صباحاً كان كاتب العدل السيّد هيرون قد استدعي وحضر مجهزاً بأوراقه، ووجد في الصالة التي أوقد بها العجوز النار خلافاً لعادته في تلك الساعة، السَيدة هوشون وقد ارتدت ثيابها وجلست على أريكة قرب المدفأة. وكان الحفيدان المنذران من قبل أدولفين بالزوبعة التي تعصف فوق رأسيهما منذ المساء قد حجزا في المنزل، فاستدعيا بواسطة غريت وذهلا من هذا الموقف الذي يبديه جداهما بعد أن أحاطاهمابالبرود والغضب منذ أربع وعشرين ساعة.

قال العجوز الثمانيني للسيد هيرون عند وصولهما: «لا تزعج نفسك بتحيتهما، فهما شابان تعسان غير جديرين بالاحترام أو المغفرة.

قال فرنسوا: أوه! ياجدي!

تابع العجوز بلهجة آمرة: اصمتا، إنني أعرف حياتكما الليلية، وعلاقتكما مع ماكسنس جيله، لكنكما لن تخرجا من هنا أبداً بعد الآن لتلتقيا به لدى كونييت في الساغة الواحدة ليلاً، إذ سيتوجّه كل واحد منكما مباشرة إلى المكان المحدّد له. آه! سببتُما خراب فاريو؟! آه! آه! كدتما لعدة مرّات تتعرَضان للمثول أمام محكمة الجنايات....

وعندما لاحظ أن باروخ يحاول الكلام ألزمه بإشارة على الصمت واستأنف: اخرسا، أنتما مدينان للسيد ماكسنس، وهو يقدّم لكما المال منذ ست سنوات لإفسادكما. وليستمع كل منكما إلى تفاصيل حساب وصايتي عليه، وسنتناقش فيما بعد. وسترون بعد هذه الإجراءات إن كان بإمكانكما الاستخفاف بي. استهترتما بالعائلة وقوانينها بكشفكما عن أسرار بيتي، وإبلاغكما ماكسنس جيله ما قيل وما جرى هنا... من أجل ألف إكو غدا كل منكما جاسوساً؛ إذاً من أجل عشرة آلاف إكو سترتكبان جرائم قتل دون شك؟... لكن أماكدتما تقتلان

السيدة بريدو؟ إذ أن السيد جيله كان يعرف جيداً أن فاريو هو الذي وجّه إليه طعنة السكين لكنه ألقى تبعة هذه الجريمة على ضيفي جوزيف بريدو. وألقى هذا المستحق للشنق اتهامه الكاذب لأنه علم من قبلكما بنيّة السّيدة بريدو البقاء هنا. أنتما! يا حفيدي تغدوان جاسوسين لمثل هذا الرجل؟ أنتما، مغيران نهّابان؟!... ألاتعلمان أن زعيمكما قتل في بدء حياته، لعام١٨٠٦، مخلوقة شابة مسكينة؟ لا أريد أن أرى قتلة أو لصوصاً في عائلتي، أعَدا أمتعتكما وهيئا نفسيكما للشنق في مكان آخر! غدا الشابان شاحبين ساكنين كتمثالين من جبصين.

قال البخيل لكاتب العدل «هيا يا سيد هيرون، أتلُ ما لديك».

قرأ العجوز محضراً عن الوصاية على الولدين بورنيش، تبيّن منه أن ثروتهما الصافية التي تمثّل دوطة والدتهما تبلغ سبعين ألف فرنك. لكن السيد هوشون كان أقرض ابنته مبالغ لا بأس بها تحسم من المبلغ المذكور ويقسم الباقي بين باروخ وأخته ادولفين، ويكون نصيبه عشرين ألف فرنك.

قال العجوز: ها أنت غني، خذ ثروتك، وسر بمفردك! وسأبقى أنا هنا سيداً أعطي أموالي وأموال السَيدة هوشون، التي توافقني في هذه اللحظة على جميع إجراءاتي، لمن أريد، لعزيزتنا أدولفين: نعم، سنجعلها تتزوج ابن أحد أعيان فرنسه، إن أردنا، إذ بإمكاننا منحها جميع ما لدينا.

علّق السيد هيرون: لا شكّ أنها ستكون ثرية عندئذ!

قالت السيدة هوشون: وسيعوضك السيّد ماكسنس جيله.

هتف هوشون: اجمعي إذا قطعاً من ذات العشرين فلساً لهؤلاء الفاسدين!...

تمتم باروخ: أرجو الصفح!

ردَد العجوز بسخرية مقُلداً صوت الأطفال: «اصفحوا عني وسأكَرر فعلتي وأزيد». إن صفحت عنكما ستذهبان لتنذرا السيد ماكسنس عما جرى لكما ليأخذ

حذره. . . كلا! كلا! أيها السيّدان الصغيران. لديَ الوسائل لأعرف كيف تتصرَفان. وسأقابلكما بالمثل. لن أحكم عليكما باتباع سلوك قويم ليوم أو لشهر إنّما لعدة سنوات! . . . قدمي راسخة، وعيني نفَاذة، وصحتي جيّدة؛ وآمل أن أعيش المدة الكافية لمعرفة الطريق الذي ستسلكانه. وأولاً ستذهب أنت أيُها الرأسمالي إلى باريس لتدرس المعاملات المصرفية لدى السيد مونجنو[١].

ويالتعاستك إن لم تذهب مباشرة: سأعرف كل شيء عنك، ومالك موجود لدى السيدين مونجنو وابنه؛ هو َذا إشعار بالمبلغ المترتب لك، وعليك أن تبرئ ذمتي بتوقيع ضبط الوصاية المنتهي بإيصال.» وتناول الضبط من يدي هيرون وناوله لباروخ.

وقرأ هيرون الضبط وسط صمت عميق. وبعد أن أنهى كاتب العدل قراءته قال الجدّ: «ستذهب لدراسة الحقوق في بواتيه، وسأخصص لمعيشتك ستمئة فرنك سنوياً. سأهيّء لك مستقبلاً جيداً الآن بتوجيهك للمحاماة لتكسب عيشك. آه! أيّها العابثان! ضلّلتماني مدة ست سنوات؟ فاعلما أنه لم يلزمني إلا ساعة واحدة لأردكما عن ضلالكما. إن جزمتي قادرة على حرق المراحل».

في اللحظة التي خرج بها السيد هيرون وهو يحمل ضبطي الوصاية الموقّعين؛ أعلنت غريت زيارة العقيد فيليب بريدو؛ بينما كانت السيدة هوشون تقود حفيديها إلى غرفتها للإدلاء باعترافاتهما لها، وفقاً لتعبير العجوز هوشون، ولمعرفة الأثر الذي تركه هذا المشهد في نفسيهما[٢].

---

(١) في القسم الأول من «الوجه الآخر للتاريخ المعاصر» وهو بعنوان «السيدة دي لاشنتري» ظهر لأول مرة المصرفي مونجنو.

(٢) يمكن أن نرى في هذا المشهد حيث أوقفت سلطة ربّ العائلة الشابين عن الاستمرار في الطريق السيء الذي تورّطا فيه، المقابل العكسي لما حدث مع فيليب بريدو الذي حرم من سلطة الأب. وفي ذلك توضيح للأفكار التي عبرَ عنها بلزاك في إهدائه لشارل نوديه الذي كتب استدلالياً. ويبدو أن بلزاك أراد أن يبرز هنا مقولة لم يستطع أن يفصل فيها بشكل كافٍ.

وقف فيليب والعجوز هوشون قرب نافذة وتبادلا الحديث همساً؛ قال العجوز وهو يشير إلى بيت روجه« فكرت جيداً في قضيتكم، وتحدّثت بشأنها مع السيد هيرون. إن تسجيل دخل الخمسين ألف فرنك لا يمكن أن يباع إلا من قبل صاحب الحق بالذات أو وكيله الرسمي؛ والواقع أن خالك لم يوقع منذ وجودك هنا أي وكالة لأحد في أي مكتب هنا، وبما أنه لم يخرج من إيسودون، فإنه لم يوقع في مكان آخر. إن أعطى وكالة هنا سنعرف في الحال، وإن أعطاها في مكان آخر فسنعرف أيضاً إذ يجب أن تسجّل هنا، والسيد هيرون الموثوق لديه من الوسائل ما يكفي لإخطاره في الوقت المناسب. وإذا ترك خالك إيسودون فاحرص على أن تعرف وجهته، وسنجد الطريقة الملائمة للاطلاع على ما يقوم به.

قال فيليب: الوكالة لم تعط، رغم محاولة أخذها، وامل أن أحول دون إعطائها». ثم هتف وهو يرى خاله على عتبة باب بيته، ويشرح للسيد هوشون باختصار الأحداث التي مرّت معه خلال زيارته لخاله، وهي صغيرة وكبيرة في آن معاً« ولن تعطى أبداً!» ثم استأنف: إن ماكسنس يخافني، لكنه لا يستطيع أن يتجنبني. وقد ذكر لي مينيونه أن جميع ضباط الجيش الامبراطوري السابق يحتفلون كل سنة في إيسودون بذكرى تنصيب الامبراطور؛ والواقع فخلال يومين سنتقابل أنا وماكسنس وسنرى!

– إن حصل على الوكالة صباح الأول من كانون أول، فسيأخذ عربة البريد للذهاب إلى باريس ويستغني جيداً عن احتفالكم بهذه المناسبة.

– قال فيليب وقد أبرقت عيناه بنظرة أرعشت السيد هوشون: حسن، يجب حجز خالي لكن لي نظرة تسحق الحمقى.

ردَ العجوز البخيل: لئن سمحا لخالك بالتنزه معك، فهذا يعني على الأرجح، أنّ ماكس وجد وسيلة للفوز بهذه القضية.

عقب فيليب بالقول: أوه! إن فاريو ساهر يقظ، وليس هو الوحيد في ذلك، فهذا الإسباني عثر لي في جوار فاتان على أحد جنودي القدماء، ممن يدينون لي

بالفضل، وبنجامن بورده، دون أن يشكّ أحد بأمره، يتصرف وفق تعليمات الإسباني، الذي وضع تحت تصرفه أحد خيوله.

- إن قتلت هذا الغول الذي أفسد حفيديّ، فحسناً تفعل.

- في هذا اليوم، وبفضلي، ستعلم كل إيسودون ما كان يفعله ماكسنس خلال الليل منذ ست سنوات وحتى الآن، ووفقاً لتعبيرك، ستنطلق« الأقاويل» عن أفعاله في كل مكان. فهو قد انتهى معنوياً! . . . ».

كانت فلور قد دخلت إلى غرفة ماكسنس، منذ أن خرج فيليب من منزل خاله، وقصت عليه في أقل التفاصيل الزيارة التي قام بها ابن الأخت الجريء.

قالت: «ما العمل».

- أجاب ماكس: قبل اللجوء إلى الوسيلة الأخيرة وهي مبارزة هذا الرّمة الكبيرة، يجب المغامرة بكل شيء بمحاولة القيام بضربة كبيرة. دعي هذا الأبله يذهب إلى ابن أخته!

صاحت فلور: ولكن هذا الإنسان الفظّ لن يتردّد في مصارحة خاله، وسيسمي له الأشياء بأسمائها الحقيقية.

قال ماكس بصوت ثاقب: اسمعيني، أتعتقدين انني لم أنصت على الأبواب إلى مادار من حديث، ولم أفكر بوضعنا؟ اطلبي حصاناً وعربة مقفلة من الأب كونيه؛ يجب أن يتهيّأ هذا في الحال! وأن يتدارك كلّ شيء خلال خمس دقائق، ضعي في العربة كل حوائجك، واصحبي لاڤيدي، واهرعي إلى ڤاتان، وانزلي هناك كامرأة تريدأن تستقر فيها بشكل دائم، وخذي معك العشرين ألف فرنك الموجودة في مكتبه، وإذا قدت لك هذا الأبله إلى ڤاتان فلا ترضي بالعودة معه إلى هنا إلا بعد أن يوقّع لك الوكالة، وعندها سأتوجّه أنا إلى باريس بينما تعيديه إلى إيسودون.

«عندما سيعود جان جاك من نزهته مع ابن أخته ولن يجدك، سيفقد صوابه، وسيريد أن يلحق بك... وعندها سأتكفّل بالحديث معه...»

خلال هذا الشرح للمؤمراة كان فيليب يصحب خاله في نزهة إلى جادة بارون.

قال العجوز هوشون في نفسه وهو يتابع بنظره العقيد يعطي ذراعه لخاله: «احتدمت المعركة بين الداهيتين، كم يستفزني الفضول لمعرفة النهاية التي سيترتب عليها كسب دخل سنوي بمقدار تسعين ألف فرنك.

قال فيليب للأب روجه وأسلوب كلامه ينطق بارتباطاته بباريس: «خالي العزيز، إنّك تحب تلك الفتاة، وأنت على حقّ تماماً، فهي في غاية الجمال! لكنها بدلاً من أن تدلّلك تعاملك كخادم، وهذا أمر بسيط إلى جانب ما تتمناه من رؤيتك تحت ستة أقدام من الأرض لتتمكن من الزواج بماكسنس الذي تعبده...

- إنّني أعلم هذا يا فيليب، ومع ذلك فإنني أحبّها.

تابع فيليب: وبعد، أقسم لك بصدر أمي، وهي أختك التي تحنو عليك بأن أرد إليك متصيّدتك طيّعة بين يديك كالقفاز، وكما يجب أن تكون قبل أن يأتي هذا المتسكّع غير الجدير بالخدمة في الحرس الامبراطوري، ويستقر في بيتك.

قال العجوز: أوه! وكيف ستفعل ذلك؟.

أجاب فيليب وهو يقطع الكلام على خاله: الأمر بسيط جداً، سأقتل لك ماكسنس كالكلب. ولكن... على شرط.

ردّ العجوز روجه وهو ينظر إلى ابن أخته ببلاهة: وما هو؟.

- لا توقّع الوكالة التي يطلبانها منك قبل الثالث من كانون الأوّل. أجّلهما

حتى ذلك التاريخ. هذان الماكران يريدان الأذن ببيع دخل الخمسين ألف فرنك للذهاب إلى باريس والزواج بالمليون الذي سلباه منك.

أجاب روجه: هذا ما أخشاه.

- وبعد، مهما فعلا بك، أجّل الوكالة إلى الأسبوع القادم.

- نعم، ولكن عندما تكلّمني فلور فإنّها تهزّ روحي بحيث أفقد عقلي، وعندما تنظر إليّ بطريقة ما، تبدو لي الجنّة في عينيها الزرقاوين، ولا أتمالك نفسي، وخاصة عندما تمرُّ بضعة أيام وهي مستاءة مني.

- حَسَنٌ، إن أظهرت لك الملاطفة، فاكتفِ بأن تعدها بالتوكيل، وانبئني عشية يوم التوقيع. فهذا يكفيني، إذ لن يكون ماكسنس وكيلك إلا إذا قتلني، وإن قتلته، فستأخذني مكانه، وسأجعل تلك الفتاة الجميلة تسير بإشارة من إصبعك أو نظرةمن عينك. نعم سأجعل فلور تحبك حبّاً لا مثيل له! وإن لم تمتثّل لذلك فالجلد نصيبها!

- أوه! لن أتحّمل ذلك، فأيّة ضربة تلحق بفلور تصيبني في قلبي.

- ومع ذلك فهذه هي الطريقة الوحيدة للسيطرة على النساء وعلى الخيول. وهكذا ينّمي الرجل مهابته وحبّه واحترامه. هذا ما أريد أن أهمس به في أذنك».

عندها صادف مينيونه وكاربنتيه فالتفت إليهما قائلاً: طاب يومكم، أيّها السيدان، إنّني أنزّه خالي كما تريان، وأحاول أن أدرّبه، إذ أننا في عصر يضطر فيه الأبناء إلى تثقيف ذويهم».

وتبادل الرجال التحية، واستأنف العقيد حديثه:

«إنكم ترون في خالي العزيز تأثير هوى تعيس، إنهم يريدون تجريده من

ثروته، وتركه كالأهبل، أنتم تعرفون من أقصد بكلامي. والرجل الطيب لا يجهل هذه المؤمراة، لكنه لا يقوى على الإستغناء عن «حلوته» لعدة أيام، لإحباطها».

شرح فيليب بصراحة وضع خاله والظروف المحيطة به.

قال منهياً كلامه: هكذا تريان أيّها السيّدان أن ليس هناك إلا أحد أمرين لتحرير خالي: يجب أن يقتل العقيد بريدو المقدّم جيله، أو أن يقتل المقدم جيله العقيد بريدو. وسنحتفل بعد غد بذكرى تتويج الامبراطور، وأنا أعتمد عليكما لترتيب الأمكنة على مائدة الاحتفال بحيث أكون في مواجهة المقدّم جيله، وأرجو أن تشرفاني بأن تكونا شاهديّ في المبارزة.

- قال مينيونه: سنسميك رئيساً، وسنكون إلى جانبك، فماكس هو نائب الرئيس وسيكون في مواجهتك.

قال كاربنتيه: أوه! هذا الماجن سيكون إلى جانبه المقدّم بوتل والنقيب رنار. ورغم ما يقال في المدينة عن غزواته الليلية، فإن هذين الجريئين بقيا على إخلاصهما له، ومساعدتهما إياه.

قال فيليب: أترى يا خالي، هكذا يُعدُّ الأمر، فلا توقّع شيئاً قبل الثالث من كانون الأوّل، إذ في غداته ستكون حراً، سعيداً، محبوباً من فلور، ودون هذا المعين المقدام(١).

ردّ العجوز مذعوراً: إنك لا تعرفه يا ابن أختي، إذ سبق لماكسنس أن قتل تسعة رجال في مبارزاته.

أجاب فيليب: نعم، لكن الأمر لم يكن يتعلق بسرقة مئة ألف فرنك.

علّق مينيونه بحكمة: إن الإحساس بالخطأ يرعش اليد.

---

(١) تلاعب رديء بالألفاظ، يشير إلى وجود رجل آخر إلى جانب الزوج يشاركه في إرضاء الزوجة.

تابع فيليب: خلال بضعة أيام، ستعيش أنت والمتصيّدة كعروسين، بعد أن تقضي فترة حدادها، إذ أنّها ستتلوّى كدودة، وستُعوِل، وستذرف الدموع؛ لكن... اترك المياه فستعود إلى مجراها!».

ساند العسكريان أدلّة فيليب، وعملا على تشجيع الأب روجه ورافقاه مع ابن أخته في نزهة لنحو ساعتين. أخيراً صحب فيليب خاله، وقال له ككلمة أخيرة: «لا تقم بأيّ إجراء دوني، إنني أعرف النساء، فقد كلّفتني إحداهن ما لا يمكن لفلور أن تكلّفك إياه[1]!... لكنها علمتني أن أعرف كيف أتصرف مع الجنس اللطيف طيلة حياتي. إن النساء أطفال سيّئون، إنّهن وحوش أدنى من الرجل؛ ويجب بثّ الرعب في نفوسهن، وأسوأ الظروف لنا في تركهن يسيطرن على إرادتنا!»

كانت الساعة حوالي الثانية بعد الظهر عندما دخل الرجل الساذج إلى بيته، وفتح له كوسكي الباب باكياً، أو متظاهراً بالبكاء وفقاً لأوامر ماكس.

سأل جان جاك: «ما الأمر؟

- آه! يا سيدي، إن سيدتي قد رحلت مع لافيدي!

قال العجوز بصوت مختنق: رحلت؟...».

كانت الضربة من العنف على روجه بحيث جلس على إحدى درجات سلّمه، وبعد لحظة نهض، ونظر في الصالة، وفي المطبخ، وصعد إلى شقتها، وتجوّل في جميع الغرف وعاد إلى الصالة، وألقى بنفسه على أريكة، وراح يذرف الدموع.

صاح وهو ينتحب: «أين هي؟ أين هي؟ أين ماكس؟.

أجاب كوسكي: لا أعلم، فقد خرج المقدّم دون أن يقول لي شيئاً».

---

(١) لعلّ المقصود بذلك مرضه.

رأى جيله كداهية ماكر أنّ من الضروري أن يتجول لبعض الوقت في المدينة، تاركاً العجوز وحده مع قنوطه، فيشعر بهجره ويغدو أكثر انصياعاً لنصائحه. لكنه طلب من كوسكي ألا يفتح الباب لأحد ليمنع فيليب من أن يعين خاله في محنته. ففي غياب فلور، لن يتمالك العجوز أعصابه، وسيغدو وضعه في غاية الحرج.

لكن ماكسنس جيله لاحظ خلال جولته في المدينة أن كثيراً من الناس يتجنبونه، بينما كان معظمهم في العشية يهرعون لتحيّته ومصافحته؛ فهناك ردُّ فعل عام معاكس له. ومقالب فرسان البطالة على كل الألسنة؛ وقصة توقيف جوزيف بريدو توضّحت الآن وشوّهت سمعة ماكس، وبدا أن حياته وأعماله ستلقى يوماً جزاءها. والتقى جيله بالمقدّم بوتل وهو يفتش عنه ويبدو على غير ما عهده به.

سأله: «ما بك يا بوتل؟»

أجاب بوتل: يا عزيزتي، إن الحرس الامبراطوري يشتم في كل المدينة!... والجماهير تهاجمك بطريقة غير مباشرة. إنّ هذا يدمي قلبي.

ردّ ماكس: وممَّ يشكون؟.

- من أفعالك في الليالي السابقة.

- ألا يحق لنا أن نتسلى قليلاً؟...

قال بوتل: «ليس هذا كلّ شيء»

كان بوتل ينتمي إلى هذا الصنف من الضابط شبيه العمدة في المانية، فلم يتأثّر كثيراً بهرَجات فرسان البطالة. بل قال: «إيه! سننتقم لك من مدينتك، حتى ولو تطلب الأمر حرقها!»

قال جيله: «لكن ماذا هناك أيضاً؟.

- الحرس ضد الحرس! هذا ما يحزُّ في قلبي. إنّ بريدو هو من هيّج هؤلاء

البورجوازيين ضدك. أيعادي الحرسُ الحرسَ؟ ... كلا، هذا ليس جيّداً! ولا يمكنك أن تتراجع يا ماكس، ويجب أن تتهيّأ لمبارزة بريدو. كم أرغب في أن أسعى إلى نزاع مع هذا الوغد الكبير لأقتله، وهكذا لا يرى عندئذ بورجوازيو المدينة الحرس ضد الحرس. في الحرب، لا اعتراض لي: يتخاصم مقدامان، ويتبارزان، دون وجود رعاع يسخرون منهما. كلا هذا الغريب الأطوار لم يخدم أبداً في الحرس، فرجل الحرس لا يتصرف أبداً هكذا أمام البورجوازيين ضد رجل حرس آخر! أوه! إن الحرس متضايق جداً، وفي إيسودون بالذات! المدينة التي يكرّم بها! ...

أجاب ماكسنس: هيّا، يا بوتل، لا تتكدّر، حتى أنّك قد لا تراني في مأدبة الذكرى السنوية.

صاح بوتل وهو يقاطع صديقه: ألن تحضر لدى لاكروا بعد غد؟ ... أتريد أن تُعدّ جباناً، وتظهر كخائف من بريدو؟ كلا، كلا، إن نخبة مشاة الحرس الامبراطوري لا تتراجع أمام فرسان الحرس. رتّب شؤونك بطريقة أخرى، وكن موجوداً.

قال ماكس: «هكذا أيضاً يجب الحجر على شخص آخر هيّا، أعتقد أن بإمكاني الحضور، وتأمين شؤوني الخاصة!» إذ قال في نفسه «يجب ألا تكون الوكالة باسمي، فكما قال العجوز هيرون، هذا ما يعطي القضية مظهر السرقة».

أحسّ هذا المستأسد بأنّه واقع بين شباك فيليب بريدو المنصوبة له، فصرَّ على أسنانه؛ وتجنَّب أنظار جميع من صادفهم، وعاد عن طريق جادة ڤيلات، وهو يكلّم نفسه قائلاً: «قبل أن أقاتل، يجب أن أحصل على الدّخل؛ فإن متّ لن تعود أموال السجّل على الأقل إلى فيليب؛ سأعمل على وضعها باسم فلور. ووفقاً لتعليماتي ستعود الفتاة مباشرة إلى باريس، ويمكنها إذا شادت، أن تتزوج ابن أحد مارشالات الامبراطورية الذين طواهم النسيان. سأجعل الوكالة باسم باروخ الذي لن ينقل أموال السجلّ إلا بناءً على أمر مني...» يجب الاعتراف لماكس بميزة كبرى، هي أنه

لا يكون بمظهر هادىء إلا عندما يفور الدم في رأسه، وتتزاحم الأفكار في خاطره؛ وهذا ما لا يرى في أعلى درجاته إلا لدى كبار القادة من العسكريين، لو لم يوقف الأسر سيرته العسكرية، لكان من المؤكد أن يرى الامبراطور في هذا الفتى أحد الرجال الضروريين له في المهام الكبرى.

عندما دخل إلى القاعة، حيث يبكي روجه باستمرار وهو ضحية هذه المشاهد الهزلية والمأساوية في آن؛ سأل ماكس عن سبب هذا الأسى: وتظاهر بالدهشة، وعدم درايته بشيء، وأبدى ذهولاً مدروساً لسفر فلور، وراح يسأل كوسكي عن سبب هذا السفر غير المتوقع.

ردّ كوسكي: «طلبت مني السيّدة أن أبلغ السيّد أنها أخذت من مكتبه العشرين ألف فرنك الموجودة فيه، مقدّرة أن السيّد لن يبخل عليها بهذا المبلغ كأجور لها خلال اثنتي وعشرين سنة.

هتف روجه: أجورها؟ ...

تابع كوسكي: نعم، قالت للافيدي المتعلّقة جيداً بالسيّد، والتي حاولت أن تثنيها عن السفر «كلا، كلا، لن أعود أبداً، فهو لا يكنّ لي أيّة مودّة، وسمح لابن أخته أن يهينني كأدنى الخلق!» وبكت! ... وكم كانت دموعها حارّة ...

صاح العجوز وماكس يلاحظه: إيه! لا يهمّني أبداً فيليب! أين فلور؟ كيف يمكن أن نعرف أين هي؟

أجاب ماكس ببرود: يمكن لفيليب الذي تتّبَع نصائحه، أن يرشدك إليها.

قال العجوز: بماذا يمكن لفيليب أن يؤثّر على هذه الفتاة المسكينة؟ ... ما من أحد غيرك يا عزيزي الطيّب ماكس يعرف أن يجد فلور، وهي تستمع إليك، ويمكنك إعادتها لي ...

رد ماكس: لا أريد أن أدخل في مجابهة مع السيد بريدو.

صاح روجه: إن كان هذا ما يضايقك؛ فهو قد وعدني بقتلك.

هتف جيله ساخراً: آه! سنرى ...

قال العجوز: يا صديقي، جدلي فلور وأخبرها أنني سأفعل ما تريده! ...

قال ماكس لكوسكي: «لا شكّ أنها رؤيت تمرّ في مكان ما من المدينة. ضع العشاء على المائدة، واذهب واستفهم في المدينة بين مكان وآخر عن الوجهة التي سلكتها الآنسة برازيه، أريد منك خبراً قبل انتهاء العشاء».

هذا الأمر هَدَّأ للحظة الرجل المسكين الذي كان ينوح كطفل فقد مرضعته، وبدا له في تلك اللحظة ماكس، رغم كرهه له واعتباره سبب جميع مصائبه، ملاكاً. وهوى كهوى روجه لفلور يشبه إلى حدّ بعيد الطفولة. وفي الساعة السادسة، عاد البولوني، الذي اقتصر عمله على التنزّه، وأعلن أن المتصيّدة سلكت طريق ڤاتان.

قال كوسكي: واضح أن السيّدة تعود إلى موطنها الأصلي.

قال ماكس للعجوز: أتريد أن تذهب هذا المساء إلى ڤاتان. إن الطريق سيئة، لكن كوسكي يجيد قيادة العربة، وتجري في الساعة الثامنة مساءً مصالحتك بدلاً من الانتظار إلى صباح الغد.

صاح روجه: «هيّا بنا».

همسَ ماكس في إذن كوسكي: اقرن الخيل بهدوء، وجرّب ألا تعرف المدينة شيئاً عن هذه الحماقات، حفظاً لكرامة السيد روجه. واسرج لي حصاني، فسأسبقكم.

كان السيد هوشون قد أبلغ فيليب بريدو برحيل الآنسة برازيه، فترك هذا مائدة السيّد مينيونه ليهرع إلى ساحة سان جان، لأنه خمّن تماماً هدف هذه الخطة الماهرة. وعندما أراد الدخول إلى منزل خاله أجابه كوسكي من نافذة في الطابق الأوّل أن روجه لا يمكنه استقبال أحد.

قال فيليب للاسباني الذي كان يتجول في شارع ناريت الكبرى: «فاريو، اذهب واطلب من بنجامن أن يأتي على جواد، يجب أن أعرف بسرعة ماذا سيفعل خالي وماكسنس.

قال فاريو وهو يراقب منزل روجه: لقد قرن الحصان بالعربة.

رد فيليب: إن كانا ذاهبين إلى ڤاتان فجد لي حصاناً اخر، وعد مع بنجامن إلى منزل مينيونه.

قال هوشون وهو يخرج من منزله ليرى فيليب وفاريو في الساحة: ماذا تنوي أن تفعل؟

ردّ فيليب: إن موهبة القائد ياسيدي العزيز هوشون لا تقتصر فقط على ملاحظة حركات العدو، وإنما يجب أيضاً تقدير نواياه بناءً على تحركاته، وأن يعدّل في خطته وفقاً لما يفاجئه العدو بخطوة غير متوقعة. والمثل أمامنا، فإن توجه خالي وماكسنس معاً في العربة، فهما ذاهبان إلى ڤاتان؛ ويكون ماكسنس قد وعده بمصالحته مع فلور الهاربة في قفزة، وفق اصطلاح فيرجيل. وفي هذه الحال لا أعلم ما ينبغي علي فعله؛ لكن أمامي الليل بطوله؛ لأن خالي لن يوقع وكالة في العاشرة ليلاً، فكتاب العدل نيام. أما إذا عمد ماكس إلى أن يسبق خالي، وإسراج الحصان الثاني ينبىء عن ذلك، عدا عما يحتمل من ضرورة اعطائها التوجيهات اللازمة، فقد ضاع هذا العابث! وسترى كيف سنأخذ زمام المبادرة في لعبة الميراث، نحن الجنود القدامى... وبما أنني أحتاج في هذه الجولة الأخيرة إلى مساعد، فأنا عائد إلى مينيونه للتفاهم مع صديقي كاربنتيه.

هبط فيليب شارع ناريت الصغرى، بعد أن صافح السيد هوشون، وانطلق باتجاه بيت المقدم مينيونه. وبعد عشر دقائق، لاحظ السيد هوشون ماكسنس ينطلق مندفعاً بكل سرعة حصانه في الجري؛ ودفعه فضول العجوز المستثار بشدّة إلى أن يبقى واقفاً قرب نافذته ينتظر حركة العربة، وبعد عشرين دقيقة، كان جان جاك يتبع

ماكسنس في العربة بنفاد صبر، خاصة وأن كوسكي بناء على تعليمات معلمه الحقيقي كان يسير بعربته متمهلاً، على الأقل في المدينة.

قال السيد هوشون في نفسه: «إن ذهبوا إلى باريس، ضاع كل شيء».

في تلك اللحظة وفد ساع صغير من ضاحية رومة إلى منزل هوشون يحمل رسالة للسيد باروخ. وكان حفيدا العجوز المرتبكان منذ الصباح قد حجرا على نفسيهما مختارين في منزل جديهما، وهما يفكران بمستقبلهما؛ واعترفا ضمنا كم وجب عليهما أن يراعيا جدَّهما. فباروخ لا يمكنه أبداً أن يتجاهل تأثير جده هوشون على جدّيه والدي أبيه بورنيش. والسيد هوشون لن يتأخر في إفادة أدولفين من جميع أموال آل بورنيش إن سمح له سلوكها بتركيز آماله في زواج موفّق كما هدّد هذا الصباح. وبذلك سيخسر باروخ كثيراً، وهو الأكثر غنى من فرنسوا. لذلك كان مستعداً لخضوع مطلق لذويه، دون أي شروط إلا تسديد ديونه لماكس. أما فرنسوا فمستقبله بين يدي جده، فهو لا يأمل بثروة إلا منه، وهو وفقاً لحساب الوصاية مدين له. وهكذا دفع الندم الناتج عن مصالحهما المهدّدة الشابين إلى إعلان وعود صريحة لجدتهما بسلوك الطريق القويم، كما أن السيّدة هوشون طمأنتهما بدورها حول موضوع ديونهما لماكسنس.

قالت لهما: «ارتكبتما حماقات فأصلحاها بسلوك حسن، وسيهدأ غضب السيد هوشون».

وهكذا عندما قرأ فرنسوا الرسالة الموجّهة إلى باروخ من فوق كتفه همس في أذنه: «اطلب نصيحة جدّنا».

ناول باروخ الرسالة إلى جده قائلاً: إليك ما جاءني

قال الجدّ: اقر أهالي فأنا لا أحمل نظاراتي.

وقرأ باروخ:

- «صديقي العزيز

آمل ألا تتردّد في الظروف الحرجة التي أمرّ بها في أن تقدّم لي خدمة بقبولك أن تكون الوكيل المفوّض من قبل السيّد روجه، لذلك عليك أن تحضر إلى ڤاتان غداً في الساعة التاسعة صباحاً. وسأرسلك بعدها إلى باريس، لكن كن مطمئناً، فسأقدم لك الدراهم اللازمة لنفقات الرحلة، وسألحق بك سريعاً، إذ أنني متأكّد تقريباً بوجوب اضطراري لمغادرة إيسودون في الثالث من كانون أوّل. وداعاً، أنا أعتمد على صداقتك. فاعتمد بدورك على مودة صديقك.

«**ماكسنس**».

قال السيد هوشون: الحمد لله، إن ميراث هذا الأبله قد أنقذ من براثن هؤلاء الشياطين!

قالت السيدة هوشون: سيتمّ ذلك إن عملت له، وأنا أشكر الله الذي استجاب دون شك لصلواتي، إن انتصار الأشرار مؤقت دائماً.

قال العجوز لحفيده باروخ: اذهب إلى ڤاتان، واقبل وكالة روجه؛ فالأمر متعلّق بوضع دخل خمسين ألف فرنك باسم الآنسة برازيه. وستتوجّه بعدهما إلى باريس، ولكن ابق في أورليان وانتظر تعليماتي. لا تقل لأحدٍ أين ستنزل، وتوجّه إلى آخر نُزُل في ضاحية بانيه، رغم تواضعه فهو خاص بالحوذيين.

قال فرنسوا بعد أن دفعته ضجة إحدى العربات إلى النافذة: آه! ها هو من جديد الأب روجه والسيد فيليب بريدو عائدين معاً في العربة، وبنجامن وكاربنتيه يتبعانهما على الخيل! ...

هتف السيد هوشون بدافع فضولٍ تغلّب على كل عاطفة لديه: «سأذهب لأرى ما الأمر!».

وجد السيّد هوشون العجوز روجه في غرفته يكتب الرسالة التالية التي يمليها عليه ابن أخته.

«يا آنسة: إن لم تعودي عند قراءتك هذه الرسالة إلى منزلي، فسأعتبر تصرّفك دليل جحود أفضالي بحيث ألغي الوصية المعدّة لمصلحتك وأهبُ ثروتي لابن أختي فيليب. يجب أن تدركي أيضاً أن السيّد جيله لن يكون بعد الآن نزيل بيتي لمجرد وجوده معك في ڤاتان. إن النقيب كاربنتيه مكلّف بتسليمك هذه الرسالة وآمل أن تستمعي إلى نصحه لأنه يتكلم عما يجب فعله».

المخلص لك

ج. ج. روجه

قال فيليب للسيد هوشون بتعبير ساخر عميق: «صادفت أنا والنقيب كاربنتيه خالي مزمعاً التوجّه بحماقة للاجتماع بالآنسة برازيه والمقدم جيله. وأفهمت خالي أنه سائر بكل غباء للوقوع في فخّ: ألن تهجره تلك الفتاة، ما أن يوقع الوكالة التي تطلبهاالتحولّ لنفسها تسجيل رأسمال بدخل خمسين ألف فرنك سنوياً؟ وبكتابة هذه الرسالة ألن تعود الهاربةُ الفاتنةُ في هذا الليل، إلى تحت سقفه؟... وعدت أن أجعل له الآنسة برازيه طيّعة كغصن أسل إن أراد خالي أن يحلّني في منزله محل السيّد جيله الذي لا أرى له مكاناً هناك. ألست على حقّ؟ وخالي يتأوّه.

قال السيد هوشون مخاطباً روجه: يا جاري، إنّك تلجأ إلى أفضل وسيلة لإحلال السلام في منزلك. وإن تستمع إلى نصحي تلغ وصيتك وستجد فلور تعود إليك كما كانت في أيامها الأولى.

رد العجوز باكياً: كلاّ، إنّها لن تغفر لي ما سببته لها من عناء، ولن تحّبني أبداً.

قال فيليب: ستحبُّك وبحقّ، سأتكّفل بذلك.

قال السيد هوشون: ولكن ألا تفتح عينيك. إنّهما يريدان سلبك والتخلي عنك...

صرخ الأبله: آه! لو أتأكد من هذا!.

قال العجوز: خذ، هاهي رسالة كتبها ماكسنس إلى حفيدي بورنيش، اقرأ.

هتف كاربنتيه بعد أن سمع روجه يقرأ الرسالة وهو يبكي: يا للفظاعة!

سأل فيليب: أيكفي هذا الوضوح يا خالي؟ امسك هذه الفتاة برابطة المصلحة، وستلقى منها غاية المودة...

قال العجوز والذعر يتجلى على سحنته: إنّها تحبّ ماكسنس، وستتركني.

ردّ فيليب: ولكن يا خالي، بعد غدٍ، ستمسح آثار أقدام أحدنا- أنا أو ماكس-عن طرقات إيسودون...

تابع روجه: حسن، اذهب يا سيد كاربنتيه؛ إن تَعِدْ بأنّك ستعيدها، فهيّا إنّك رجل شريف، قل لها ما ينبغي قوله باسمي.

قال فيليب بريدو: «سيهمس النقيب كاربنتيه في أذنها بأنني سآتي من باريس بامرأة في مطلع الشباب والفتنة، وستأتي تلك العابثة زاحفة على بطنها!»

انطلق النقيب وهو يقود بنفسه العربة القديمة، وصحبه بنجامن على حصان، إذ لم يعثر على كوسكي بالرغم من أنه هُدِّد من قبل الضابطين بقضية ضده وبتسريحه من عمله. لكن البولوني أسرع إلى ڤاتان على حصان مستأجر ليعلن لماكسنس وفلور هجوم خصمهم على عربته وإعادة خاله إلى منزله.

تقرّر بعد أن ينهي كاربنتيه مهمته في ڤاتان أن يعود على حصان بنجامن إلى إيسودون. وقال فيليب لبنجامن بعد أن علم بهرب كوسكي: «أما أنت، فستحلّ محل البولوني منذ هذا المساء، فجرّب أن تتعلّق خلف عربة فلور دون علمها لتصل وإياها في الوقت ذاته إلى هنا.

التفت العقيد فيليب الى هوشون: ارتسمت المعالم وبعد غدٍ ستكون مأدبة الذكرى السنوية مرحة.

قال البخيل العجوز: عليك أن تقيم هنا، في منزل خالك.

- طلبت من فاريو أن يرسل لي جميع أمتعتي. وسأنام في الغرفة التي يطلُّ بابها على شقّة جيله، ووافق خالي على هذا الإجراء.

قال الأبله مذعوراً: ماذا سينتج عن كل هذا؟

أجاب السيد هوشون: سينتج أن تصل إليك خلال أربع ساعات الآنسة فلور برازيه طيّعة كحمل الفصح.

رد روجه وهو يمسح دموعه: إن شاء الله!

قال فيليب: الساعة الآن السابعة، ومليكة قلبك ستكون هنا حوالي الساعة الحادية عشر والنصف، ولن تشاهد بعد الآن جيله، ألست سعيداً كالبابا؟»

ثم همس فيليب في أذن هوشون: «إذا أردت انتصاري، ابق معنا حتى وصول هذه القردة، وستساعدني على رفع معنويات خالي، كما سنفهم المتصيّدة أين تكمن مصالحها الحقيقية»، بقي السيد هوشون مع فيليب مقتنعاً بصحّة طلبه، لكن مهمتهما كانت شاقة، فالأب روجه منصرف الى النحيب كطفل، وفيليب يكرّر عليه تأكيده بالقول:

«إن عادت فلور يا خالي، وعاملتك برقة كالسابق، فستعترف إنني على حقّ ستكون مدلّلاً، وستحتفظ بدخلك، وستتبع من الآن فصاعداً نصائحي، وسيتم كل شيء كأنك في النعيم».

عندما سمعت في الساعة الحادية عشر والنصف جلبة العربة في شارع ناريت الكبرى، كان السؤال هل هي ملأى أم فارغة، وبدا قلق رهيب على وجه روجه، أعقبه فرح عارم عندما رأى المرأتين في اللحظة التي كانت فيها العربة تزمع على دخول الفناء.

قال فيليب وهو يعين فلور على النزول: «كوسكي، لم تعد في خدمة السيد روجه، ولن تنام هذا المساء فاجمع أمتعتك وارحل، وها هو بنجامن سيحلّ محلك.

قالت فلور بسخرية مُرَّة: أنت هنا السيد اذن؟

أجاب فيليب وهو يقبض على يد فلور بيد كالكماشه: «من بعد إذنك، تعالي! علينا أن «نتصيد القلب»، نحن الاثنان».

وقاد تلك المرأة المنذهلة بضع خطوات حتى ساحة سان جان وقال: «يا جميلتي، بعد غد، سيغيب جيله تحت الثرى بهذه اليد -ومدّ يده اليمنى- أو أنه سينهي أيام حياتي، فإن مُتُّ ستكونين السيّدة على هذا الأبله المسكين خالي: فقرّي عينا. أما إن بقيت واقفاً على قدميّ، فسيري باستقامة، وأمّني سعادته بالدرجة الأولى وإلا فإنني أعرف في باريس متصيّدات، هنّ دون تجنٍّ عليك، أكثر جمالاً منك، لأنهن ما زلن في السابعة عشر من العمر، وهن مستعدات أن يؤمّن مزيداً من السعادة لخالي، عدا عن حرصهن على مصالحي. ابدئي بخدمتك منذ هذا المساء، فإن لم أر صباح غد رجلك يزقزق طروباً كعصفور، فلن أقول لك إلا كلمة واحدة، فاسمعيها جيداً! لا توجد إلا طريقة واحدة لقتل رجل دون أن يكون للعدالة أقل كلمة تقولها، وهي الدخول في مبارزة معه؛ لكنني أعرف على الأقل ثلاث طرق للتخلص من امرأة. أفهمت يا ظبيتي!»

كانت فلور خلال ذلك الخطاب ترتعش كشخص تنتابه الحمى، وقالت وهي تنظر إلى فيليب على ضوء القمر: «أتقتل ماكس؟..

- هيّا، هوذا خالي آت إليك...».

والواقع أن الأب روجه هرع، رغم كل ما أمكن للسيد هوشون أن يقوله له، الى حيث فلور وأخذ يدها كبخيل يمسك بكنزه، ودخل بها الى المنزل وقادها الى غرفته وأغلق عليهما الباب.

قال بنجامن للبولوني: «اليوم عيد القديس لامبر، من يترك مكانه يخسره.

رد كوسكي: سيأتي معلمي ويسدّ أفواهكم كلكم» وحمل متاعه وذهب ليلتحق بماكس الذي استقر في فندق البريد.

في اليوم التالي من الساعة التاسعة حتى الحادية عشر، كانت النساء على أبواب منازلهن يتناقلن الأخبار، فما من حديث في كلّ المدينة إلا عن الانقلاب الغريب الذي حدث بالأمس في منزل الأب روجه. وكانت خلاصة جميع الأحاديث واحدة في كل مكان: «ماذا سيحدث نهار الغد على مأدبة ذكرى تتويج الامبراطور بين ماكس والعقيد بريدو؟»

قال فيليب للافيدي كلمتين: «ستمئة فرنك دخل لمدى الحياة، أو الطرد؟!» وهذا ما أبقاها على الحياد، موقتاً، ما بين القوّتين الرهيبتين فيليب وفلور.

عندما علمت فلور أن حياة ماكس في خطر، غدت لطيفة مع العجوز روجه بمثل أيام عشرتهما الأولى: وللأسف ففي تبادل الغرام تفوق الخديعة المنتفعة الحب الحقيقي، ولهذا السبب فإن كثيراً من الرجال يدفعون غالياً للمخادعات الماهرات. لم تظهر المتصيدة إلا في وقت الإفطار ونزلت وهي تتأبط ذراع روجه. لكن عينيها اغرورقت بالدموع عندما رأت الجندي الفظّ بعينه ذات الزرقة القاتمة، ووجهه العبوس ببرود يحتل مكان ماكس.

سألها فيليب بعد أن حيّا خاله: «ما لك يا آنسة؟».

أجاب روجه: إنّها يا ابن اختي لا تتحمّل فكرة مبارزتك مع المقدّم جيله.

أجاب فيليب: لست راغباً أبداً في قتل هذا الجيله، وما عليه إلا أن يرحل عن إيسودون فليبحر إلى أمريكة مع شحنة تجارية، وسأكون أوّل من ينصحك بأن تقدّم له رأسمال أفضل البضائع الممكنة، ، وتتمنى له رحلة سعيدة! سيجمع ثروة هناك، وهذا أشرف له من قيامه بإجراء المقالب في إيسودون ليلاً، وتحريك ذنب إبليس في بيتك.

قال روجه مخاطباً فلور: ايه! هذه فكرة حسنة!

قالت وهي تنتحب: إلى أمريكة!

رد العقيد: أليس الأفضل له أن يحرّك ساقيه في نيويورك، بدلاً من أن يأكلهما الدود في تابوت في فرنسة... وبعد كل حساب، قلت لي إنّه ماهر، ويمكنه قتلي!

قالت فلور بصوت ضعيف وكأنها تتوسّل إلى فيليب: أتسمح لي بأن أكلمه.

أجاب فيليب: بكل تأكيد، يمكنه أن يأتي ليأخذ أمتعته، وسأبقى خلال ذلك الوقت مع خالي إذ أنني لن أترك الرجل الطيّب أبداً.

صاحت فلور: ڤيدي، أسرعي يا ابنتي إلى فندق البريد وقولي للمقدم انني أرجوه..

قاطعها فيليب متمماً العبارة: بالمجيء ليأخذ حوائجه من هنا.

استأنفت فلور: نعم، نعم، يا ڤيدي، فهذه هي الذريعة الأكثر لياقة من أجل رؤيتي، فأنا أريد أن أكلّمه..»

كانت الرهبة تكبت بشدّة الحقد لدى تلك الفتاة، وهي تصادف، بعد تدللّها طبيعة قويّة لا ترحم، وبلَغت الهزّة التي شعرت بها من العنف ما دفعها الى الإذعان لفيليب بمثل الإذعان الذي اعتاده روجه المسكين أمامها؛ وانتظرت بقلق عودة لا ڤيدي، لكن هذه عادت تحمل رفضاً قاطعاً من ماكس، مع رجائه بأن ترسل له الآنسة برازيه حوائجه الى فندق البريد.

سألت جان جاك روجه: «هل تسمح لي بالذهاب لأنقل إليه أمتعته؟»

ردّ العجوز: نعم، ولكنك ستعودين.

قال فيليب وهو ينظر الى فلور: إنّ لم تعد الآنسة حتى الظهر، فستعطيني توكيلاً عند الساعة الواحدة لبيع دخل السجّل. اذهبي مع فيدي، لتنقذي المظاهر يا آنسة، إذ يجب من الآن وصاعداً مراعاة شرف خالي».

لم تستطع فلور إقناع ماكس بشيء، فالمقدم، وهو في قنوط يدفعه الى التخلص من وضع مذلّ في أعين جميع سكان المدينة، كان من الأنفة بحيث رفض الهروب من أمام فيليب، وجربت المتصيّدة أن تتغلب على هذا الرأي بأن اقترحت على خليلها الهرب معاً الى أمريكة؛ لكن جيله، غير الراغب بفلور دون ثروة الأب روجه، لم يُرد أن يكشف للفتاة عن خفايا قلبه، وأصرّ على نيّته قتل فيليب.

قال لها: ارتكبنا خطأ جسيماً، كان علينا نحن الثلاثة أن نذهب لقضاء الشتاء في باريس. لكن كيف يمكن أن نتصوّر منذ أن رأينا هذه الرمّة الكبيرة أن القضية ستأخذ هذا المجرى؟ في سير الأحداث تسارع يُخبل، اعتبرت العقيد أحد هؤلاء السيّافين الذين لا يستوعبون فكرتين: هوذا خطئي. وبما أنني لم أستطع في الوقت المناسب أن أقوم بضربة سريعة، سأعتبر الآن في غاية الجبن إن تراجعت موطئ قدم أمام العقيد بعد أن فضحني أمام الرأي العام في المدينة، ولا يمكنني أن استرد مكانتي إلا بموته...

- ارحل الى امريكة مع أربعين ألف فرنك، وسأعرف كيف أتخلص من هذا المتوحش وألحق بك فهذا أكثر تعقلاً..

هتف مدفوعاً بأحكام «الأقاويل»: ماذا سيقال عني؟ كلا، عدا عن أنّه سبق لي أن قتلت تسعة؛ فإن هذا الفتى لا يبدو لي قوياً جداً: إذ أنه خرج من المدرسة ليلتحق بالجيش، وأستمر فيه حتى العام ١٨١٥، ثم فرّ الى أمريكة، وهكذا فهذا الفظّ الوقح لم يضع قدمه يوماً في قاعة تدريب على السلاح؛ بينما لا مثيل لي في المهارة باستخدام السيف، فالسيف سلاحه، وسأبدو شهماً عندما أعرض عليه المبارزة به، إذ سأعمل على أن أكون المُهان[١]؛ وسأغرز سيفي في قلبه. هذا أفضل بالتأكيد. اطمئني سنغدو السادة بعد غد.

هكذا كانت النخوة الحمقاء لدى ماكس أقوى من التصرّف الحاذق السليم؛ وعند عودة فلور الى منزل روجه في الساعة الواحدة أغلقت عليها باب غرفتها

---

(١) من تقاليد المبارزة أن يختار الشخص المهان السلاح الذي تتمُّ به.

وانصرفت الى البكاء على هواها؛ بينما شاعت «الأقاويل» طيلة ذلك اليوم في إيسودون، واعتبرت المبارزة بين فيليب وماكس أمراً محتوماً.

قال مينيونه وبرفقته كاربنتيه للعجوز هوشون عندما التقيا به في جادة بارون: «آه يا سيّدي، إننا قلقان فجيله هو الأقوى في كل أنواع الأسلحة».

أجاب دبلوماسي المقاطعة العجوز: لا يهمّ ففيليب تصرّف جيّداً في هذه القضية، ولم أكن اعتقد أن هذا الجسور الكبير سيصل بسرعة الى هذه الدرجة من النجاح. هذان المقدامان سيهاجم أحدهما الآخر كإعصارين.

- علّق كاربنتيه بالقول: أوه! إن فيليب رجل عميق فسلوكه في محكمة الأعيان قمّة في الدبلوماسية.

من الطرف الآخر، قال أحد البورجوازيين لرنار: وبعد أيّها النقيب، يقال أن الذئاب لا ينهش أحدها الآخر، لكن يبدو أن ماكس سيناوش بضراوة العقيد بريدو. والخلاف جدّيّ بين ركنين من الحرس الامبراطوري القديم.

علّق المقدّم بوتل بقوله: «إنكم مغتبطون لذلك، أنتم الآخرون، لأن هذا الفتى المسكين قام ببعض المقالب المزعجة لكم ليلاً، وأنتم حاقدون عليه، لكن جيله رجل لا يستطيع أبداً أن يبقى في جحر كإيسودون دون أن يشغل نفسه بأمرٍ ما.

وقال رابع: أخيراً، أيّها السادة، إن العقيد يردُّ على لعبة قذرة لماكس، ألا يجب عليه أن ينتقم لأخيه جوزيف؟ ألا تذكرون تهمة ماكس الغادرة تجاه هذا الفتى المسكين؟

ردّ رنار: باه! الفنان!

- لكن الأمر يتعلّق بميراث الأب روجه، ويقال أن السيد جيله كان موشكاً على الاستيلاء على دخل خمسين ألف فرنك في اللحظة التي حل فيها العقيد في منزل خاله.

صاح بوتل: متى كان جيله يسرق دخل شخص آخر لاتنتقده مرّة ثانية يا سيّد جانيڤه، وإلا قطعنا لسانك!»

في كل البيوت البورجوازية، كان الناس يتمنون التوفيق للعقيد بريدو.

في الساعة الرابعة من مساء اليوم التالي تجمع ضباط الجيش الامبراطوري السابق الموجودون في إيسودون والمناطق المجاورة لها في ساحة السوق أمام مطعم لاكروا وهم ينتظرون فيليب بريدو، وتحدّد ميعاد المأدبة المقامة للاحتفال بالذكرى السنوية لتنصيب الامبراطور في الساعة الخامسة، بالدقة العسكرية، والحديث كلّه يدور حول قضية ماكس وطرده من منزل روجه بين الضباط وحتى الجنود الذين تجمّعوا بدورهم لدى تاجر خمور في الساحة. وبوتل ورنار وحدهما بين الضباط يحاولان الدفاع عن صديقهما ماكس.

قال رنار: هل يجب علينا التدخل بما يحدث بين وريثين؟

وعلّق بوتل الصلَِف بقوله: إن ماكس ضعيف أمام النساء.

وقال ملازم يستغل حقلاً في بلتان العليا: ستخرج السيوف من أغمادها بعد قليل؛ وإذا كان السيد ماكسنس جيله ارتكب حماقة المجيء للسكن في منزل العجوز روجه فسيعتبر جباناً إن سمح بطرده كأنه خادم دون أن يردَّ الإهانة أو يُعتَذر له عنها.

أجاب مينيونة بجفاف: «طبعاً، إن الحماقة التي لا تنجح تغدو جريمة».

استقبل ماكس عند حضوره للانضمام الى عسكريي نابوليون القدامى بصمت له مغزاه. فأخذ كل من بوتل ورنار بذراعه وانتحيا به جانباً يتشاوران معه. وفي تلك اللحظة رؤي فيليب من بعيد قادماً في غاية الأناقة، يمشي برصانة ورباطة جأش مستنداً إلى عصاه بشكل يتباين كلياً مع الانتباه العميق الذي اضطر ماكس أن يوليه لحديث صديقيه الاخيرين. وتقدّم مينيونه وكاربنتيه وآخرون يستقبلون فيليب مصافحين. هذا الاستقبال المختلف عما لقيه ماكس بدّد من خاطر هذا الفتى بعض

أفكار الجبن، أو إن شئتم العقل، التي ولّدتها ترجيّات وتودّدات فلور له، وخاصة بعد أن انصرف الى نفسه يراجع الأمر وحيداً.

قال ماكس للنقيب رنار: «سنتبارز حتى موت أحدنا! فلا تحدّثني عن شيء الآن، ودعني أتهيأ جيّداً لدوري».

بعد هذه العبارة الأخيرة التي قيلت بلهجة محمومة، عاد البونابرتيون الثلاثة فاختلطوا بمجموعة الضباط، وبادر ماكس فيليب بريدو بالتحيّة فرد هذا تحيته متبادلاً معه نظرة باردة.

قال المقدّم بوتل: هيّا أيّها السادة إلى المائدة

هتف رنار: لنشرب نخب المجد للحليق الصغير[1] الذي هو الآن في جنة البواسل.

بالشعور العام أنّ الوضع سيكون أقل إرباكاً على المائدة، فهم كل واحد نيّة نقيب المشاة وهرع الجميع الى القاعة الطويلة في مطعم لاكروا الذي تطلّ نوافذه على السوق؛ وأسرع كل مدعو ليأخذ مكانه على المائدة حيث تمّ، بناء على طلب فيليب، جلوس الخصمين أحدهما في مواجهة الآخر. وتجمّع بعض شباب المدينة، وخاصة من فرسان البطالة السابقين، وهم قلقون مما سيحدث على هذه المائدة، وأخذوا يروحون ويجيئون خارج المطعم وهم يتداولون في الوضع الحرج الذي عرف فيه كيف يحشر ماكسنس. كانوا يأسفون لهذا التصادم، مع قناعتهم بأن المبارزة ضرورية. تمّ كل شيء بهدوء حتى التحلية، بالرغم من أن البطلين حافظا، في جوّ العشاء المرح ظاهرياً، على نوع من الاحتراس أقرب الى القلق. وبانتظار المشاحنة التي بدا أن كلا منهما يضمرها، بدا فيليب برباطة جأش تدعو الى الاعجاب، وماكس في بهجة مذهلة. لكن كان كل منهما، في نظر العارفين، يظهر غير ما يبطن. عندما قدّمت أطباق التحلية قال فيليب: «ألا تملؤون كؤوسكم يا أصدقائي؟ وأرجو أن تسمحوا لي بشرب النخب الأوّل»

همس رنار في أذن ماكس: «لا تملأ كأسك إذ أنه يخاطب أصدقاءه فقط»

(١) الحليق الصغير: هو اللقب الذي أطلقه جنود نابليون عليه في أولى معاركه الظافرة في إيطالية.

لكن ماكس ملأ كأسه.

هتف فيليب بحماس حقيقي: نخب الجيش الكبير.

في تلك اللحظة ظهر على عتبة القاعة أحد عشر جندياً، كان بينهم بنجامن وكوسكي فرددوا جميعاً: «نخب الجيش الكبير!»

قال المقدّم بوتل: «ادخلوا يا أبنائي سنشرب نخب صحته!»

قال كوسكي لرقيب كان ينبئ بأسف، دون شك، رفقاءه بأن مرض الامبراطور انتهى به الى الموت[1] في المنفى: «أنت ترى جيّداً أنّه لم يمت».

قال المقدّم مينيونه: «أطلب شرب نخب ثان»

جمعت بعض أطباق التحلية للمناسبة، ونهض المقدّم مينيونه ورفع كأسه قائلاً: «لنشرب نخب من حاولوا تنصيب ابنه مكانه».

وحيّا الجميع، باستثناء ماكس، فيليب بريدو، وهم يمدون نحوه كؤوسهم.

نهض ماكس وقال: «جاء دوري»

سرى الهمس في الخارج: هذا ماكس! هذا ماكس!» وساد صمت عميق في الصالة وفي الساحة، إذ أن من طبع ماكس جيله التحدّي.

رفع ماكس كأسه وقال: «نخب أن نجتمع كلّنا في مثل هذا اليوم من العام القادم!»

وحيّا فيليب بسخرية.

قال كوسكي لجاره: «بدأ النفير للمعركة».

قال المقدّم بوتل موجهاً كلامه لفيليب: إن شرطة باريس لا تسمح لكم بإقامة مآدب كهذه.

---

(١) هذه المأدبة الاحتفالية كانت في كانون أول١٨٢٢، وكان نابوليون قد توفي في٢١ أيار١٨٢١ بعد اعتقال في جزيرة القديسة هيلانة دام ست سنوات. واعتبر هذا الأسر في فرنسة تعذيباً طويلاً.

علّق ماكسنس جيله بوقاحة على عبارة رفيقه: يا للشيطان لماذا تريد أن تذكر العقيد بريدو بالشرطة

قال فيليب وهو يبتسم بمرارة: إن المقدّم بوتل لا يعني ضيراً في كلامه! . . »

وعم صمت عميق في القاعة، حتى ليكاد يُسمَع طيران الذباب، لو أن فيها ذباباً.

وتابع فيليب كلامه: «لكن الشرطة تخشاني لدرجة أنّها أرسلتني الى إيسودون حيث أسعدني أن أحظى بلقاء بعض رفقائي القدماء، لكن ألا تري معي عدم وجود وسائل تسلية كبري لرجل لا يكره معاشرة النساء، وأنا محروم من ذلك هنا. أخيراً، فإنني أجرّب أن أجمع بعض الوفر لأولئك الآنسات، لأنني لست من أولئك الذين تعود عليهم أَسِرَّة الريش بالمداخيل السنوية، بل إن مارييت راقصة الأوبرا الكبرى كلّفتني مبالغ هائلة.

قال ماكس وهو يوجّه إلى فيليب نظرة كأنّها تيّار كهربائي: أتوجّه هذا الكلام لي يا عزيزي العقيد؟

أجاب فيليب: فسّره كما تشاء يا مقدّم جيله.

- أيّها العقيد، إن شاهدي اللذين تراهما: رنار وبوتل سيتوجّهان للتفاهم غداً مع . .

ردّ فيليب مقاطعاً: مع شاهديّ مينيونه وكاربنتيه وأشار الى الضابطين بجواره.

قال ماكس: «والآن فلنتابع شرب الانخاب!»

لم يخرج أي من الخصمين عن اللهجة العادية في المحادثة، وخيّمت الرهبة والجميع يستمعون.

قال فيليب وهو يلقي نظرة على الجنود البسطاء: «آه! أيّها الشجعان، فكروا

أن لا علاقة للبورجوازيين بأمورنا! . . . ولا كلمة من كل ما حدث هنا . هذا ما يجب أن يبقى ضمن الحرس القديم .

قال رنار : سيحافظون على هذا السرّ، أنا أجيب عنهم .

هتف بوتل : يحيا ابن الامبراطور! وليسدُ على فرنسة

هتف كاربنتيه : «الموت للانكليز!»

كان لهذا النخب صدى كبير؛ قال بعده النقيب رنار : «العار لهودسون لُو!»(١)

انتهت المأدبة بشكل جيّد جداً، وتدفقت الخمور بسخاء؛ واعتبر الخصمان وشهودهم الأربعة أن هذه المبارزة التي ستجري بين ضابطين تميّزا بشجاعتهما لاتعود إلى خصومة عادية، بل إن ثروة هائلة دفعت اليها، وتصرف ماكس وفيليب كنبيلين؛ وخاب أمل الشباب والبورجوازيين المتجمعين في الساحة، فجميع المدعوين، كعسكريين حقيقيين حافظوا على ما جرى في مشهد التحلية وكأنّه سرّ عميق .

في الساعة العاشرة بلّغ الشهود الخصمين أن السلاح الذي تمّ الاتفاق عليه هو السيف، والمكان المختار للمبارزة هو فناء كنيسة الكبوشيين، وموعدها الساعة الثامنة صباحاً، وطُلب من غوده، وقد كان من مدعوي الحفلة باعتباره جرآحاً سابقاً في الجيش، أن يحضر بصفة طبيب . وقرّر الشهود ألا تستغرق المبارزة، مهما حدث، أكثر من عشر دقائق . وفي الحادية عشر ليلاً، وأمام دهشة العقيد، وصل هوشون وزوجته الى غرفة فيليب في اللحظة التي كان يستعد فيها للنوم .

قالت السيدة العجوز وعيناها مغرورقتان بالدموع : «علمنا بما حدث، وجئت أرجوك ألا تخرج صباح غد دون القيام بصلواتك . . . توجّه بروحك الى الله .

---

(١) هودسون لو(١٧٦٩-١٨٤٤) جنرال انكليزي، كان سجّان نابليون في جزيرة القديسة هيلانة، ونسبت اليه مضايقات قاسية في معاملته للامبراطور، لكنه نفى ذلك ودافع عن نفسه في «مذكراته»

أجاب فيليب السيدة الورعة، والسيّد هوشون يشجعه بإشارة من وراء ظهر زوجته: نعم يا سيدتي، سأفعل.

قالت عرابة أغات: ليس هذا كلّ شيء، فأنا الآن في مكان أمك المسكينة، وسأتنازل لك عن أغلى شيء في حوزتي، خذ. . . » وناولت فيليب كيساً صغيراً من المخمل الأسود المطرّز بالذهب والمربوط بشريطين خضراوين وأرته فيه سناً ملفوفاً بعناية وقالت: «هذه ذخيرة من القديسة صولانج شفيعة مقاطعة برّي، تمكنّت من انقاذها وحفظها من الضياع خلال الثورة؛ ضعها على صدرك غداً صباحاً.

سألها فيليب: هل لهذه الذخيرة أن تحمي من ضربات السيف.

أجابت السيّدة العجوز: نعم

هتف ابن أغات: لا يمكنني يا سيّدتي أن أضعها على صدري، فستعتبر بمثابة درع وهذا محظور في المبارزة.

سألت السيّدة هوشون زوجها: ماذا يقول؟

اجاب العجوز هوشون: يقول ليس الأمر لعبة.

ردّت العجوز: حَسَن، فلندع هذا، وسأصلي من أجلك.

قال العقيد وهو يقلّد حركة رأس السيف ينغرز في قلب السيد هوشون: لكن، يا سيدتي، صلاة مع ضربة جيّدة من سيف لا تضرّ»

قبّلت العجوز فيليب على جبينه، وعند نزولها أعطت بنجامن عشرة إكوات وهي كلّ ما تملك من مال لقاء وعد منه بأن يخيّط الذخيرة على جيب حزام بنطال سيّده. وهذا مافعله بنجامن ليس لإيمانه بقدسية تلك السن، فهو يعتقد أن لدى سيّده ما هو أفضل منها ضد جيله وإنّما ليفي بمهمة تلقى عنها مكافأةسخية. وانسحبت السيّدة هوشون وملؤها الإيمان بقدرة القديسة صولانج.

في الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي، الثالث من كانون الأول، وتحت سماء ملبّدة وصل ماكس يرافقه شاهداه والبولوني إلى المرج الصغير المحيط بفناء كنيسة الكبوشيين القديمة، ووجد فيليب وشهوده مع بنجامن. وقاس بوتل ومينيونه أربعاً وعشرين خطوة ووضعا خطاً على كل طرف من هذه المسافة بواسطة معزقة. وعلى كل واحد من المتبارزين أن يقف على خطّه، ويتقدم نحو خصمه، وفق ما يريد، في اللحظة التي يصيح فيها الشهود: «هيّا!» ولا يجوز لأي منهما في أيّ لحظة تجاوز خطّه تحت طائلة اتهامه بالجبن والهروب.

قال فيليب لجيله ببرود: «فلنتخلص من ثيابنا!»

أجاب ماكسنس بثقة المسايف: «بكل طيبة خاطر يا عقيد»

لم يحتفظ الخصمان إلا ببنطاليهما والقميص القطني الداخلي الرقيق الشفاف وقد بدت من خلاله عضلات صدريهما بلونها الوردي. كان كل منهما مجهز بسيف خاص بالضباط من ذات النوع، وقد اختيرا بوزن واحد هو ثلاث ليبرات وطول واحد وهو ثلاثة أقدام.

وقفا ورأس السيف يلامس الأرض منتظرين الإشارة. كان كل منهما هادئاً، لا ترتعش أي من عضلات أحدهما، رغم البرد، كأنهما قُدّا من برونز. وشعر غوده والضباط الأربعة بهزّة انفعالية لا إرادية وانطلقت من فم المقدّم بوتل هذه العبارة: «يا لهما من فطّان أنوفان!» في اللحظة التي أعطيت فيها الإشارة «هيّا» أبصر ماكسنس رأس فاريو المشؤوم ينظر إليهما من الثقب الذي أحدثه الفرسان في سقف مستودعه لإدخال الحمامات. هاتان العينان اللتان ينبثق منهما الحقد والانتقام كشلالي نار بهرتا ماكس، وذهب العقيد مباشرة إلى خصمه وهو محترس لأخذ زمام المبادرة. وخبراء فن القتل يعرفون أن الأمهر من الخصمين يمكن أن يتصدّر، وهو تعبير يفسّر بالصورة تأثير اليقظة العالية. هذا الوضع يسمح بطريقة ما، بإدراك مقاصد الخصم، ويعلن جيّداً عن مبارز من الدرجة الأولى. أحس ماكس بشعور النقص يتغلغل إلى روحه، ويحدث فيها تلك البلبلة في القوى التي توهن عزيمة اللاعب أمام المعلم أو الرجل السعيد الحظ، فيقوم بحركات أسوأ من المعتاد.

قال ماكس في نفسه: «آه! يا للداهية، إنّه في الدرجة الأولى من القوة، لقد ضعت!» جرّب ماكس إحداث دورة لولبية، مناوراً سيفه برشاقة لاعب العصا، محاولاً إبهار فيليب ومصادمة سيفه لإيقاعه من يده، لكنه لاحظ من الصدمة الأولى، أن للعقيد قبضة بمتانة الحديد ومرونة نابض من فولاذ. وجب على ماكسنس أن يلجأ إلى شيء آخر، وأراد التعس أن يفكر! بينما فيليب، وعيناه تطلق عليه بريقاً أشد وهجاً من لمعان سيفيهما، يتقي جميع الضربات برباطة جأش المعلم المجهز بدرع واق في صالة.

بين رجلين بمثل قوّة المصارعين تحدث ظاهرة مماثلة تقريباً لتلك التي تحصل بين الرعاع في معركة رهيبة بالأرجل[1] يقوم النصر فيها على حركة خاطئة، زلة في ذلك التقدير السريع كالبرق، الذي يجب اللجوء إليه غريزياً؛ خلال زمن يبدو للمشاهدين قصيراً بقدر ما يبدو للخصوم طويلاً، ويقوم الصراع على ملاحظة تستغرق فيها قوى الروح والجسم مخفية تحت ضربات خادعة تدفع بهدوئها وحذرها الظاهري الى الاعتقاد بأن أيّا من الخصمين لا يريد القتال. ويتبع هذه اللحظة هجوم سريع، حاسم ورهيب في نظر العارفين. وفي حركة سيئة لماكس أسقط له العقيد سيفه من يده.

قال له وقد توقّف عن هجمته: «التقطه! لست الرجل الذي يقتل عدواً أعزل».

كان هذا قمة الشراسة. هذا الكبر أنبأ بتفوّق اعتبر الأكثر مهارة من جميع الحسابات في نظرة المشاهدين، والواقع ما أن أمر ماكس بالتقاط سلاحه حتى فقد رباطة جأشه، ووجد نفسه بالضرورة تحت سيطرة تلك اليقظة الكبرى التي تهدّده

---

(١) في بداية رواية «**أسرار باريس**» لأوجين سو، يصف لنا معركة بالأرجل بين رودولف وشورينور، ثم بين رودولف ومعلم المدرسة، ويبدو لنا هنا أن بلزاك أراد أن ينافس أوجين سو، إذ أننا نقرأ في **أسرار باريس** خاصة: «لبعض النظرات قوة مغناطيسية لا تقاوم، فبعض المتبارزين الشهيرين يدينون، على ما يقال، بانتصاراتهم الدامية لفعالية نظرتهم الساحرة التي توهن عزيمة الخصم، وتجمد قواه» ويبدو أن فيليب يمتلك هذه القوة التي «تجمد الحمقى»

بينما تحمي الخصم، وأراد آنذاك أن يصحّح إخفاقه المعيب بحركة جريئة، ولم يعد يفكر بالاحتراس، وتناول سيفه بكلتا يديه وهجم بغضب على العقيد محاولا اصابته بجرحٍ مميت حتى لو عرّض حياته للخطر. وإذا كان فيليب تلقى ضربة شقّت جبينه وجزءاً من وجهه[1]، فإنه شقّ رأس ماكس قطرياً بضربة لولبية رهيبة أراد فيها أن يخمد الضربة الرهيبة التي وجهها إليه ماكس. هاتان الضربتان الصاعقتان أنهتا المعركة في دقيقتها التاسعة. ونزل فاريو وراح يتملّى النظر الى عدوه في اختلاجات الموت، إذ أن عضلات الجسم في رجل بقوة ماكس كانت تتحرّك بشكل مريع. بينما حمل فيليب إلى منزل خاله.

هكذا هلك أحد الرجال المقدّر لهم أن يحققوا أشياء كبيرة لو أنهم بقوا في الوسط الملائم لهم، رجل عاملته الطبيعة كطفل مدلل، لأنها أعطته الشجاعة، ورباطة الجأش، والحسّ السياسي كسيزار بورجيا[2]. لكن التربية لم تؤمّن له ذلك النبل في الأفكار وفي السلوك الذي لا يحقّق دونه أي مستقبل زاهر، ولم يؤسف عليه نتيجة فضح عيوبه التي عرف خصمه، وهو أكثر سوءاً منه، كيف يستغلها، ويفقده كل اعتبار. ووضع موته حداً لمقالب فرسان البطالة، وسط غبطة أهل إيسودون. وهكذا لم يتعرض فيليب لأي انزعاج بسبب هذه المبارزة، التي بدت

---

(١) سبق لبلزاك أن ابتلى العقيد شابير بجرح مماثل «انظر قصة العقيد شابير».

(٢) هذه الصيغة دفعت صحيفة غازيت دي فرانس في١٨ تشرين الثاني إلى كتابة التعليق التالي: «تفوّقت الرواية المسلسلة على ذاتها صباح البارحة. فلابريس المستمرة في نشر أوديسة المتصيّدة مجّدت بهذه العبارات أحد أبطالها: «رجل عاملته الطبيعة كطفل مدلّل، لأنها أعطته الشجاعة، ورباطة الجأش والحسّ السياسي كسيزار بورجيا». والواقع إليكم صورة سيزار بورجيا: (تربّي في دولة، كل بلاط صغير فيها هو مدرسة في سوء الأخلاق والتزوير والمكر حيث كثرة الجرائم السياسية أزالت كلّ خجل تقريباً، والمعاهدة لا تعطي أيّة ضمانة، وعهود الولاء لا توحي بأي ثقة، فحولّ الجريمة الى قاعدة متبعة وانتقل بالتهاون وسوء النيّة إلى درجة لم تعرف قبله فبورجيا يخطّط لكل شيء حتى الشراسة، يحولّ كلّ شيء الى نفسه، ويضحي بكل شيء، من أجل مصالحه، لا يعرف الأخلاق ولا الدين ولا العاطفة إلا كأدوات يمكن أن تخدمه، ويحطمها ما أن يجدها تضايقه». ولا ننسى بعد ذلك أن الصحيفة المحافظة وفقاً لهذاالمديح تنسب لبطلها» اتجاهاً سياسياً على نسق بورجيا)

وكأنها انتقام الهي وجرى الحديث عنها في كل المقاطعة بثناء إجماعي على كلا الخصمين.

قال السيّد مويرون: ليت الموت حلّ بكليهما، لاستراحت الحكومة جيّداً منهما.

أما وضع فلور برازيه فكان مشوّشاً جداً، إذ أصيبت بنوبة حادة عقب سماعها بموت ماكس، وانتابها نوع من الهذيان اختلط مع التهاب خطر نتج عن الطوارئ المستجدة خلال تلك الأيام الثلاثة، ولو أنّها تمتعت بصحتها لهربت على الأرجح من المنزل حيث يرقد على فراش ماكس وفي شقته قاتل ماكس. وبقيت بين الموت والحياة مدةثلاثة أشهر[1] يعنى بها وبفيليب الطبيب السيد غوده.

ما أن تمكّن فيليب من إمساك الريشة حتى كتب الرسالتين التاليتين:

إلى السيّد دروش، المحامي

«قتلت الأكثر سميّة من الوحشين، لكن هذا لم يتمّ دون أن يُشجّ رأسي بضربة سيف؛ لكن الضربة التي تلقاها خصمي من يدي كانت قاتلة لحسن الحظّ. تبقى الأفعى الأخرى التي سأحاول التفاهم معها، لأن خالي متمسّك بها تمسّك الدجاجة بحوصلتها، كنت أخشى أن تهرب هذه المتصيّدة، وهي الفائقة الجمال، فيتبعها خالي، لكن الانفعال الذي هزّها في لحظة حرجة سمرّها في السرير. وإذا أراد الله حمايتي فسيستدعي تلك النفس الى قربه بينما تتوب عن أخطائها. وبالانتظار، فإنّ إلى جانبي بفضل السيد هوشون (وهذا العجوز مايزال بصحةجيّدة) الطبيب المسمى غوده، وهو رجل صالح يعتبر

(١) يدمج بلزاك، المحتاج لهذا المرض ليبقي فلور في إيسودون، سبباً فيزيائياً وسبباً معنوياً ليبرّر خطورته ففي المخطوطة يذكر بوضوح أ «الخصمين لم يستشيرا التقويم الزمني لتحديد مبارزتهما» وباختصار يفهم أن الصدمة المعنوية لموت ماكس ضربت فلور في فترة «الطمث الشهري» مما أحدث لديها انقطاعاً فيه. هذا هو الحال أيضاً في رواية «فراغوس» حيث أصيبت السيدة جول بذات العارض.

مـواريث الأخـوال أكـثـر أمـاناً في يد أبناء الأخت منهـا بين أيدي العابثات. كـما أن السيد هوشـون ذو تأثير على رب عـائلة آخر اسمه فيشه له ابنة غنية يريدها غوده زوجة لابنه، بحيث أن ورقة الألف فرنك النقدية التي لوّحنا له بها من أجل معالجة فجّ رأسي لا تدخل إلا قليلاً في إخلاصه لي. عدا عن أن هذا الغوده، وهو جرّاح رئيس سابق في الفيلق الثالث من الجيش المقاتل محاط باثنين من أصدقائي هما الضابطان الباسلان مينيونه وكاربنتيه مما يدفعه ليهدي إلى الصلاح «المتصيّدة» التي يعالجها في ذات الوقت مع معالجتي ويقول لها وهو يجسّ نبضها: «ألا ترين وجوب العودة الى الله، يا ابنتي؟ كنت سبباً في مصيبة كبرى، يجب التكفير عنها. إنّ إصبع الله في هذا (كم هو عجيب كل هذا الذي ينسب إلى اصبع الله!) والدين هو الدين، فسيري وفق تعاليمه، وتقيّدي بها، وهذا ما يعيد الصفاء لروحك ويساعد على شفائك قدر مساعدة أدويتي. ابقي هنا خاصة، اعتني بمعلمك، أخيراً انسي، وسامحي، فهذه هي الشريعة المسيحية».

«وعدني هذا الغوده أن يبقي المتصيّدة قيد العلاج في السرير لمدة ثلاثة أشهر. وبالتدريج ستعتاد تلك الفتاة، على الأرجح، على معيشتنا تحت سقف واحد. استملت الطاهية الى صفي، وتعمل هذه العجوز البغيضة بدورها على تغيير أفكار سيّدتها، وقد قالت لها البارحة: «إن ماكس لو بقي حياً لحوّل حياتها الى جحيم، وأنها سمعت المرحوم يقول: إنّه إن اضطر الى الزواج بفلور بعد وفاة العجوز، فهو لا يريد أن توقف فتاة طموحه. وتوصلت هذه الطاهية أن توحي لسيّدتها أن ماكس كان سيتخلّص منها. وهكذا فكل شيء على ما يرام. وخالي مزق وصيته السابقة بناءً على نصح الأب هوشون».

وكانت الرسالة الثانية:

إلى السيّد جيرودو (بواسطة الآنسة فلورنتين) شارع ڤندوم، في الماريه.

استفهم لي إن كانت سيزارين، هذه الراقصة المبتدئة حرّة، واقنعها بالتهيوء للحضور الى إيسودون عندما أطلبها. وستصل فتاة اللهو عند ذاك عقب تبادل رسائلنا. عليها أن تبدو بمظهر محترم، وتمحو كل آثار الكواليس عنها. إذ يجب أن تظهر في المنطقة كابنة عسكري شهم، استشهد في ميدان القتال، وهكذا عليها التقيّد بعادات تلميذة داخلية وتلبس ملابسها وتبدو مثال الفضيلة. هذا هو الشرط: فإن احتجت لسيزارين، وإذا نجحت في مهمتها، فلها عند موت خالي خمسون ألف فرنك. وإن كانت مشغولة فاشرح هذه المهمة لفلورنتين، وجد لي بمعونتها ممثلة صغيرة قادرة على لعب هذا الدور. إن رأسي مشجوج في مبارزتي مع مفترس ميراثي، الذي انفتل بعينيه الى القبر. سأحدثك عن هذه الواقعة. آه! يا صديقي؛ سنرى مجدّداً أياماً جميلة، وسنلهو، وإلا لما كان نابليون[1]. أرسل لي إن استطعت خمسمئة فرنك. وداعاً يا عزيزي، ليكن مفهوماً مجيء «ابنة الضابط» عن طريق شاتورو، وعليها مظهر من يبغي العون. آمل ألا اضطر إلى اللجوء إلى هذه الوسيلة الخطرة. اذكرني بما هو حسن لدى ماريت ولدي جميع الأصدقاء».

أنبئت أغات بما حدث، فهرعت إلى إيسودون، واستقبلت من قبل أخيها الذي أنزلها في غرفة فيليب السابقة، واستعادت هذه الأم المسكينة كل حنان الأم في عنايتها بالابن الضال، وقضت بضعة أيام سعيدة وهي تسمع بورجوازيي المدينة يثنون على العقيد.

قالت لها السيّدة هوشون عند وصولها: «بعد كل حساب يا صغيرتي، يجب أن ينقضي طيش الشباب. فحماقات العسكريين في

(١) تورية استخدمها البونابرتيون في ذلك العصر للسخرية من الملكيين.

زمن الامبراطور لا يمكن أن تصلح لأبناء العائلات المراقبين من قبل آبائهم. آه! لو تعلمين ما كان يفعله هذا التعس ماكس، هنا، ليلاً! . . . وإيسودون، بفضل ولدك تنفست الصعداء، وهي تنام مطمئنة. وفيليب عاد الى رشده، وإن متأخراً؛ فاهتدى كما ذكر لنا، وسجن ثلاثة أشهر في اللوكسمبورغ ركز عقله. وسلوكه هنا يبهج السيد هوشون، ويحظى بالتقدير العام. وإذا أمكن لابنك أن يبقى لبعض الوقت بعيداً عن مغريات باريس، فسينتهي الى فعل ما يدخل السرور الى نفسك».

بسماع هذه الكلمات المواسية ترقرقت دموع السعادة في عيني أغات أمام عرابتها العجوز. تظاهر فيليب بالصلاح أمام أمّه، فهو بحاجة إليها. وهو لم يفكر بتحقيق خطته الماكرة واللجوء الى سيزارين إلا في الحالة التي يكون فيها موضع كره الآنسة برازيه. أما وقد تعرّف مجدّداً في فلور على أداة مدهشة كيّفها ماكسنس، وألفها خاله، فقد فضّل أن يستخدمها بدلاً من باريسية قادرة أن تتزوّج الخال العجوز، وكما أن فوشه[1] نصح لويس الثامن عشر بأن ينام في سرير نابليون بدلاً من أن يمنح دستوراً، فإن فيليب نصح نفسه بأن يبقى نائماً في سرير جيله، إنّما دون أن ينال من السمعة الحسنة التي وطّدها لنفسه في برّي. والواقع، سيكون أمراً شنيعاً منه ومن المتصيّدة أن يحتلّ مكان ماكس لديها. إن بإمكانه أن يعيش لدى خاله، وعلى حساب خاله بمقتضى أحكام القرابة، لكنه لا يستطيع أن يحظى بفلور إلا مستعيدة الاحترام. ووسط العديد من الصعوبات المستثارة بالرغبة في الاستيلاء على الميراث، وضع خطة باهرة هي أن يجعل المتصيدة زوجة خاله. وهكذا طلب في إطار هدفه الخفي، من أمه أن تذهب لرؤية تلك الفتاة، وتعبّر لها عن بعض مودّة بمعاملتها وكأنها نسيبة لها.

---

(١) فوشه: (١٧٥٩-١٨٢٠) وزير الشرطة في عهد الامبراطورية. خان نابليون بعد حكم المئة يوم واحتفظ بوزارته في عهد الملكية الثانية. نصح لويس الثامن عشر باتباع ذات السياسة التي اتبعها نابليون.

قال وهو يظهر الحزن وينظر إلى السيد والسيّدة هوشون المرافقين لأمه: «اعترف يا أمي العزيزة أن طريقة عيش خالي غير ملائمة ويكفيه أن يسوي وضعه وفق الشرائع لتحظى الآنسة برازيه بتقدير المدينة. أليس من الأبسط اكتساب حقوق محدّدة بعقد زواج بدلاً من تهديد عائلة بحرمانها من ميراثها؟ إذا أردتم أنت، والسيد هوشون، وأي كاهن ورع التحدّث في هذا الموضوع فإننا نوقف فضيحة تنال من أشخاص شرفاء. ثم ان الانسة برازيه ستكون سعيدة برؤيتك تنظرين إليها كأخت وانظر إليها كامرأة خال».

في اليوم التالي أحيط سرير فلور بأغات وبالسيدة هوشون اللتين كشفتا للمريضة عن عواطف فيليب الرائعة. وجرى الحديث في كل إيسودون عن العقيد كرجل ذي خلق كريم وخاصة في معاملته لفلور. وخلال شهر سمعت المتصيدة من غوده الأب، طبيبها ذلك الرجل الشديد التأثير على نفس مريض، ومن السيدة المحترمة هوشون المندفعة بورع ديني، ومن أغات الناعمة التقيّة محاسن زواجها من روجه، ولما أغرتها فكرة أن تكون السيّدة روجه، البورجوازية الشريفة المحترمة؛ فإنها رغبت بحرارة أن تتعافى سريعاً لتحتفل بهذا الزواج. ولم يكن من الصعب إفهامها أنها لا تستطيع الدخول في عائلة روجه العريقة إن طردت فيليب من المنزل.

قال لها الأب غوده يوماً: «ألا يعود الفضل لفيليب لتمتعك بهذا الحظ الكبير؟ فماكس لم يكن ليتركك تتزوجين الأب روجه». ثم همس في أذنها: «وإذا رزقت أولاداً، ألا تكونين قد انتقمت لماكس، إذ لن يعود الميراث عندها لآل بريدو».

بعد شهرين من المبارزة المشؤومة، وفي شهر شباط ١٨٢٣، وبعد نصح كل من أحاطوا بالمريضة ورجاء روجه استقبلت فلور فيليب، وأبكاها مرأى الندبة في وجهه، لكن أسلوبه الهادئ وشبه المتودّد هدّأها، وبناءً على رغبة فيليب، بقي منفرداً مع زوجة خاله المستقبلية.

قال لها: «يا ابنتي العزيزة، إنني أنا من نصح بزواجك من خالي، منذ البدء، وإن وافقت، فسيتم هذا الزواج، ما أن تتعافي من مرضك. . .

أجابت: قيل لي هذا.

- لئن كانت الظروف أجبرتني على أن أسبب لك الألم، فطبيعي أنني أريد ما وسعني العمل لخيرك. فالثروة والتقدير والعائلة أفضل كثيراً مما خسرت. وقد عرفت من أصدقاء ذلك الفتى أنّه لم يكن يضمر لك مصيراً طيّباً، ولم يكن ينوي إبقاءك زوجة له ما أن يموت خالي. فهيّا يا فتاتي العزيزة، ألا نتفاهم ونعيش جميعاً سعداء؟ ستكونين امرأة خالي ولا شيء آخر إلا هذه القرابة، وستحرصين ألا ينساني خالي في وصيته. ومن جهتي سأرتب أمرك في عقد الزواج. . فاطمئني، وفكري بذلك، وسنتحدث عنه مستقبلاً. وكما رأيت فإن الأشخاص الأكثر حصافة، وكل المدينة تنصحك بالتخلّص من هذا الوضع غير الشرعي، وما من أحد يحقد عليك لاستقبالك لي. يجب أن ندرك أن المصالح في الحياة تأتي قبل العواطف. وستكونين في يوم زواجك أكثر جمالاً مما كنت. إن مرضك بما خلعه عليك من شحوب جعلك تبدين متميّزة. وإذا لم يحبّك خالي بجنون، فاقسم لأجعلنّك زوجة العقيد بريدو» ونهض وقبل يدها، ثم غادر الغرفةليترك في نفس فلور هذه الكلمة الأخيرة، التي أيقظت فيها فكرة مبهمة للانتقام دفعت تلك الفتاة إلى الابتسام وهي تشعر بشبه سعادة وقد تخيلت هذا الشخص مرتاعاً عند قدميها. ففيليب لعب بشكل مصغّر الدور الذي لعبه ريتشارد الثالث مع الملكة التي جعل منها أرملة[1]. ومغزى هذا المشهديبيّن أن النيّة الخفيّة المغلّفة بعاطفة تدخل مسبقاً الى القلب وتبدّد منه الحزن الأكثر صدقاً. وهكذا تسمح الطبيعة بأن يتحقق في الحياة

---

(١) ريتشارد الثالث(١٤٥٢-١٤٨٥) ملك انكلترة لسنتين فقط(١٤٨٣-١٤٨٥) بعد قتله ابن أخيه ادوارد الرابع، وكان وصياً عليه. والتلميح يتعلّق بالمشهد الثاني من الفصل الأول من مسرحية شكسبير ريتشارد الثالث(١٥٩٣) ويرى بيير سيترون في هذه المسرحية مصدراً من مصادر رواية بلزاك.

الخاصةما هو قمة الفن في نتاج العبقرية؛ ووسيلة الطبيعة المصلحة التي هي عبقرية المال.

في بداية شهر نيسان١٨٢٣ قدّمت صالة جان جاك روجه، دون أن يدهش أحد، مأدبة عشاء رائع أقيم بمناسبة توقيع عقد زواج الآنسة فلور برازيه على العازب العجوز، وكان المدعوون السيّد هيرون، والشهود الأربعة، السادة مينيونه وكاربنتيه وهوشون وغوده الأب وعمدة المدينة والكاهن؛ ثم أغات بريدو، والسيدة هوشون وصديقتها السيدة بورنيش أي السيدتين العجوزين الأكثر سلطة في إيسودون. وهكذا كانت العروس متأثرة جداً لتسامح هاتين السيدتين الذي أمّنه لها فيليب معبّرين بذلك عن الحماية الواجب منحها لفتاة تائبة. وبدت فلور رائعة الجمال، وكان الكاهن قد أعطى دروساً في مبادئ الدين للمتصيدة الجاهلة دامت خمسة عشر يوماً. وأعدّها لتجري مناولتها الأولى في اليوم التالي وكان هذا الزواج موضوع مقال ديني نشر في «مجلة شير» في بورج، وفي مجلة الإندر في شاتورو، وهذا نصه.

إيسودون

تتقدّم الحركة الدينية بنجاح في برّي؛ فكل أصدقاء الكنيسة والأشخاص الشرفاء في مدينة إيسودون، كانوا شهوداً ليلة البارحة على احتفال أنهى بموجبه أحد ملاكي المنطقة الرئيسين وضعاً معيباً يعود الى العصر الذي كان فيه الدين دون قوة في مقاطعاتنا. هذه النتيجة تدين بالفضل الى غيرة الكهنوت الواعية في مدينتنا، ونأمل أن تعقبها نتائج مماثلة توقف أخطاء الزيجات غير المحتفل بها كنسياً، والتي أبرمت في الظروف الأكثر شؤماً للنظام الثوري. ما يميّز الحدث الذي نشير إليه هو أنه تمَّ بناءً على ترتيبات نفّذها عقيد ينتمي الى الجيش السابق أرسل الى مدينتنا بقرار من محكمة الأعيان، ومن شأن هذا الزواج أن يفقده ميراث خاله. هذا الترفّع نادر في أيامنا هذه مما يستوجب الاشارة إليه». بموجب عقد الزواج، اعترف روجه لفلور بدوطة مئة ألف فرنك، ودخل عمري مقداره ثلاثون ألف فرنك. بعد

العرس، وكان فائق البذخ، عادت أغات وهي أسعد الأمهات الى باريس وأبلغت جوزيف والمحامي دروش ما تسميه الأخبار الطيّبة.

بعد أن استمع المحامي إلى السيدة بريدو أجابها: «إن ابنك رجل عميق جداً بحيث لا يتخلى عن ذلك الميراث. وهكذا فأنت وهذا المسكين جوزيف لن تنالا فلساً واحداً من ثروة أخيك.

قالت الأم: ستبقى إذاً دائماً، كما جوزيف، غير منصفين لهذا الشاب المسكين؛ رغم أن سلوكه في محكمة الأعيان برهن عن كفاءة كبيرة فقد أنقذ رؤوساً عديدة!.. كانت أخطاء فيليب ناتجة عن البطالة التي بقيت فيها قدراته الكبيرة معطلة، لكنه أدرك كم يضرُّ سوء السلوك برجل يريد الوصول، وهو ذو طموحٍ. هذا مؤكد، ولست الوحيدة التي تتوقع له مستقبلاً زاهراً. والسيد هوشون يعتقد جازماً بأن الحظوظ الطيّبة تبسم لفيليب.

قال دروش: أوه! إن أراد تطبيق ذكائه المنحرف بشدّة لجمع ثروة فسيصل، فهو قادر على كلّ شيء، وهؤلاء الاشخاص ينطلقون بسرعة.

سألت السيّدة بريدو: ولماذا لا يصل بالوسائل الشريفة؟

استأنف دروش: سترين! سيبقى فيليب دائماً رجل شارع مازارين، سعيداً كان أو تعيساً. سيبقى قاتل السيّدة دكوان، واللصّ المنزلي، ولكن كوني مطمئنة: سيبدو رجلاً شريفاً جداً أمام الناس!»

في اليوم التالي للزواج، وبعد الإفطار، أمسك فيليب بذراع السيّدة روجه، عندما توجّه خاله لارتداء ثيابه، إذ أن الزوجين الجديدين نزلا بمبذلين الى قاعة الطعام؛ وقال لها وهو يسير بها نحو ركن النافذة: «يا امرأة خالي الجميلة، أنت الآن من العائلة، وبفضلي تمّ الاستغناء عن كل كتاب العدل. آه! ليست هذه فكاهات. وآمل أن نتصرف باستقامة، أنا أعرف ما يمكن أن تعديه لي من مقالب، لكن رقابتي ستكون شديدة عليك. وهكذا فلن تخرجي أبداً إلا بصحبتي، أما ما

يحدث في المنزل فسأشرف عليه وكأنني عنكبوت داخل شبكته. هوذا ما يبرهن لك أن باستطاعتي وأنت راقدة في سريرك، دون أن تتمكّني من تحريك يد أو رجل، أن أضعك خارج المنزل طريدة، خالية الوفاض، اقرئي!

ومدّ لفلور المنذهلة الرسالة التالية:

صديقنا العزيز

لم تنقطع فلورنتين التي بدأت عملها في الأوبرا، برقصة ثلاثية مع مارييت وتوليا في القاعة الجديدة عن التفكير بك، كذلك فلورين التي تخلّت عن لوستو نهائياً لتلتحق بناتان[1]. وهاتان الداهيتان وجدتا لك المخلوقة الأكثر عذوبة في العالم. فتاة صغيرة في السابعة عشر من العمر، جميلة كانكليزية، بمظهر رزين كأنها نبيلة تقوم بتهريجاتها، ماكرة مثل دروش، مخلصة مثل غودشال؛ وقد دربّتها مارييت متمنية لها حظاً طيباً. ما من امرأة يمكنها أن تصمد أمام هذا الملاك الصغير الذي يخفي في أردانه شيطاناً: يمكنها أن تلعب كل الأدوار، وأن تسيطر على خالك، وتجعله يُجنُ حبّاً. لها المظهر السماوي للمسكينة كورالي، وتعرف البكاء، ولها صوت يمكنها فيه أن تدفع القلب المتحجر كالغرانيت لدفع ألف فرنك من أجل سماعه، وهذه العابثة أكثر قدرة على عبّ كؤوس الشمبانية من أي منا. إنّها عنصر ثمين، ولمارييت أفضال عليها، وهي ترغب في ردّ جميلها. وبعد أن التهمت ثروة انكليزيين، وروسي، وأمير روماني تعاني الآنسة استير[2] المستعدة لخدمتك من ضيق شديد حالياً، وستكون مسرورة إن قدّمت لهاعشرة آلاف فرنك. وقد قالت ضاحكة: «عجباً! لم يسبق لي أن أغويت بورجوازياً، ستكون بداية تدريب طيّبة». فينو، وبيكسيو،

---

(١) هذا الحدث يتمّ في رواية **أوهام ضائعة**، لكنه يعود فيها الى العام١٨٢٢.

(٢) ظهرت استير في العام١٨٣٥ في قصة **غوبسك**، وفي١٨٣٧ لعبت الدور الأوّل في **أوهام ضائعة**.

ودي لوبو وكل شلّتنا يعرفونها جيّداً. آه! لو أن في فرنسة ثروات، لغدت أشهر مومس في الأزمنة الحديثة. في إنشائي نَفَس ناتان وبيكسيو وڤينو الذين يردّدون حماقاتهم مع استير في أبهى شقة يمكن أن تقع عليها العين، وهي خاصة بفلورين، وقد أعدّها لها اللورد العجوز دودلي الوالد الحقيقي لدي مارسي، الذي عرفته الممثلة المرهفة بعد دورها الجديد. توليا في صحبة الدوق دي رتوره دوماً، كذلك مارييت مع الدوق دي موفرينيوز، وهكذا فهاتان الاثنتان، وحدهما، تستطيعان أن تحصلا لك على إعفاء من إقامتك الجبرية خلال عيد الملك. جرّب أن تدفن الخال تحت الورود قبل حلول عيد سان لويس. وعُد مع الميراث. وستأكل شيئاً ما مع استير وأصدقائك القدامى الذين يوقعون جميعاً ليستعيدوا الذكريات معك.

ناتان، فلورين، بيكسيو، فينو، مارييت

فلورنتين، جيرودو، توليا.

كانت الرسالة ترتعش بين يدي السيدة روجه منبئة عن ذعر روحها وجسمها. ولم تجرؤ امرأة الخال أن تنظر إلى نسيبها، وعيناه تحدقان فيها بتعبير رهيب.

قال: «انني واثق منك كما ترين، لكنني أريد مقابلاً. جعلت منك امرأة خالي لأستطيع الزواج منك يوماً. أنت تعادلين استير بالقرب من خالي. وخلال سنة يجب أن نكون في باريس، البلد الوحيد الذي يمكن للجمال أن يعيش فيه، ويمكنك اللهو بشكل أفضل من هنا، إذ أنها كرنفال متجدّد. وأنا سأدخل الجيش وستغدين سيّدة كبيرة. هوذا مستقبلك، فاعملي له... لكنني أريد ضماناً لتحالفنا. ستعطيني خلال شهر من الآن، وكالة عامة عن خالي بذريعة تخلصك وإياه من متاعب إدارة شؤون الثروة. وأريد بعد ذلك بشهر وكالة خاصة لنقل أموال السجل العام. وما أن تغدو هذه الأموال باسمي حتى تقتضي مصلحتنا المشتركة الزواج يوماً. كلّ هذا يا امرأة خالي الجميلة واضح جلي لا غموض فيه. يمكنني

الزواج من امرأة خالي بعد سنة ترمّلها، بينما لا يمكنني الزواج من فتاة ذات سيرة شائنة».

وترك المكان دون انتظار جواب، وبعد ربع ساعة دخلت لافيدي لرفع الأطباق فوجدت سيّدتها شاحبة، مقشعرّة، رغم الفصل المعتدل. كانت تعاني من إحساس امرأة سقطت في قعر هاوية، لا ترى إلا غياهب الظلام في مستقبلها، حيث ترتسم في عمق بعيد أشباح غريبة غير متميّزة ترعبها. وأحسّت كأنها في مكان بارد رطب تحت الأرض. وبخوف غريزي من هذا الرجل، غير أن صوتا كان يصرخ بها بأنها تستحق مثله سيّداً لها. وهي لا تستطيع فعل شيء أمام ما قدّر لها. كان لفلور برازيه حفاظاً على اللياقة جناح مستقل في منزل الأب روجه، أما الآن وهي السيّدة روجه فتحت تصرف زوجها، وهي ترى نفسها وقد حرمت من حرية الاختيار الثمينة التي كانت تحتفظ بها كخادمة-خليلة. وفي الوضع الحرج الموجودة فيه داعبها الأمل في أن ترزق بطفل؛ لكنها في السنوات الخمس الأخيرة، جعلت من جان جاك أكثر العجزة خوراً. وهذا القران سيكون له بالنسبة للرجل المسكين تأثير الزواج الثاني على لويس الثاني عشر[1]. كما أن رقابة رجل كفيليب ليس لديه ما يفعله بعد أن ترك عمله تجعل كل انتقام مستحيلاً؛ وبنجامن جاسوس ساذج مخلص، ولافيدي ترتعش أمام فيليب، ورأت فلور نفسها وحيدة ودون عون من أحد! أخيراً خشيت الموت، ففيليب قادر على قتلها دون أن تعرف بأيّة طريقة، وخمنّت أن أيّ اشتباه بحمل هو قرار بموتها. فنبرة هذا الصوت، والبريق الغامض في نظرة هذا الرجل البارد الأعصاب، وأقل حركات هذا العسكري الذي يعاملها بالعنف الأكثر تهذيباً، يجعلها ترتعش. أما الوكالة المطلوبة من قبل هذا العقيد الضاري، المعتبر بطلاً من قبل كلّ إيسودون، فسيحصل عليها عندمايحتاجها؛ لأن

(١) لويس الثاني عشر: (١٤٦٢-١٥١٥): تزوّج بعد أن ترمّل وهو في الرابعة والخمسين من العمر، ابنة ملك انكلترة هنري السابع، ماري وكانت في الثامنة عشر من العمر. ومات بعد عدة أشهر من هذا الزواج. وقد تزوّجت من بعده الدوق سوفولك.

فلور واقعة تحت سيطرة هذا الرجل كما وقعت فرنسة تحت سيطرة نابليون؛ بينما روجه كالفراشة التي غرقت قوائمها في الشمع المنصهر المتأجج حول ذبالة مصباح تتشتت بسرعة آخر قواه.

أمام هذا الاحتضار بقي ابن الأخت هادئ الأعصاب، بارداً كالدبلوماسيين في العام ١٨١٤ أمام اختلاجات فرنسة الامبراطورية.

عندئذ كتب فيليب، غير المؤمن مطلقاً بإمكانات نابوليون الثاني[١]، إلى وزير الحرب الرسالة التالية التي سلّمتها مارييت للدوق دي موفرينيوز

«معالي الوزير

«أردت أن أبقى أميناً لقسمي لنابليون حتى بعد تنازله عن العرش، أما الآن وقد مات فإنني حرٌّ، وأعرض خدماتي على صاحب الجلالة الملك. وإذا تكرم معاليكم بشرح سلوكي لجلالته، فسيرى إنه منسجم مع قوانين الشرف إن لم ينسجم مع قوانين المملكة. والملك الذي رأى من الطبيعي أن يبكي الجنرال راپ[٢] معلمه القديم، سيكون دون شكّ متسامحاً معي: فقد كان نابليون وليّ نعمتي.

«أرجو إذاً من معاليكم أن يأخذ بعين الاعتبار الطلب الذي أوجهه إليه لإعادتي إلى الخدمة برتبتي، مؤكداً هنا عن طاعتي الكليّة، ويكفي أن أعاهد معاليكم بأن جلالة الملك سيجدني أحد أخلص رعاياه.

---

(١) نابليون الثاني: (١٨١١-١٨٣٢) ابن نابليون الأوّل من ماري لويز أعلن ملكاً على رومه منذ ولادته، ونودي به امبراطوراً من قبل مجلسي النواب والأعيان عند تنازل نابليون الأوّل عن العرش في العام ١٨١٥، قضى كل حياته في بلاط قصر شونبرون في ڤيينا، توفي شاباً. نقل جثمانه الى باريس في العام ١٩٤٠ ودفن قرب أبيه في الإنفاليد.

(٢) الجنرال راپ (١٧٧٢-١٨٢١) جنرال فرنسي انضم الى لويس الثامن عشر في العام ١٨١٤، وخلال حكم المئة يوم أعلن ولاءه لنابليون-ثم هرب الى سويسرة وعاد الى فرنسة في العام ١٨١٩ معلناً ولاءه للملكية الثانية وسمي عضواً في مجلس الأعيان.

تفضّلوا بقبول أسمى آيات الاحترام التي يشرفني أن أصرح من خلالها

لمعاليكم

بأن أكون خادمكم الأكثر إطاعة وتواضعاً

فيليب بريدو

قائد كتيبة سابق في سلاح فرسان الحرس الامبراطوري

ضابط في جوقة الشرف-تحت رقابة سلطات الأمن في إيسودون

أرفق بهذه الرسالة طلب سماح بالإقامة في باريس لأسباب عائلية، أرفق به السيد مويرون رسائل من عمدة المدينة، ومدير المنطقة، ومفوّض شرطة إيسودون وكلّها حافلة بالثناء على فيليب بالاعتماد على المقال المنشور في الصحف بمناسبة قران خاله.

بعد خمسة عشر يوماً، وفي فترة معرض الرسم تلقي فيليب الأذن المطلوب، ورسالة من وزير الحرب يعلمه فيها، أنه بناءً على أوامر الملك، حظي بعفو أولّ وأعيد الى كوادر الجيش برتبة عقيد عاد فيليب إلى باريس مع خاله وامرأة خاله، وبعد ثلاثة أيام من وصوله صحب العجوز روجه الى وزارة الخزانة حيث وقع له على نقل تسجيل الدخل باسمه. وأغرق هذا المشرف على الموت وكذلك المتصيدة من قبل ابن الأخت في المباهج المفرطة لمجتمع الممثلات غير القابلات للتعب والصحفيين، والفنانين، والنساء الغامضات، حيث كان فيليب قد قضى وقت شبابه، وحيث وجد العجوز روجه متصيّدات حتى الموت، وتكفّل جيرودو بأن يدبّر للأب روجه الميتة الهانئة التي اشتهرت، فيما بعد، لأن أحد مارشالات فرنسة[1] لقي، على ما يقال مثيلتها، وكانت لولوت إحدى أجمل الراقصات الإيمائيات هي

(١) هو المارشال المركيز دي لورستون(١٧٦٨-١٨٢٨). وقد توفي بين أحضان راقصة الأوبرا الآنسة لغالوا. تعرض بلزاك لهذه النهاية في «**بهاء وتعاسة الغانيات**» أيضاً.

القاتلة اللطيفة لهذا العجوز. ومات روجه بعد عشاء فاخر دعت اليه فلورنت. لذلك تصعب معرفة أي من السببين كان له النصيب الأكبر في إخماد النفس الأخير لهذا العجوز البرّي أهو عشاء فلورنتين أم حضن لولوت. ولولوت تلقي تبعة الموت على شطيرة من كبد الأوزّ الدسم. ولما كان هذا النتاج الفاخر من مدينة استراسبورغ لا يتمكن من الردّ، اعتبر موت العجوز عائداً لسوء الهضم[1]. ووجدت السيدة روجه نفسها في هذا العالم متجرّدة كأنّها في أحد أثوابها الأكثر ابتذالاً، لكن فيليب كلّف ماريت بمصاحبتها تجنباً لبعض الحماقات، إذ أن حداد تلك الأرملة لم يخلُ من بعض ملاحظات متغزلة.

عاد فيليب في تشرين أول ١٨٢٣ الى إيسودون يحمل توكيلاً من امرأة خاله بتصفية ميراث خاله، وهي عملية تمّت بسرعة إذ أنه في آذار ١٨٢٤ كان في باريس يحمل مليوناً وستمئة ألف فرنك هي الناتج الصافي لأرزاق المرحوم خاله دون أن تدخل في الحساب قيمة اللوحات الثمينة التي لم تترك أبداً بيت العجوز هوشون. ووضع فيليب رأسماله في مصرف مونجنو وولده، حيث يوجد باروخ بورنيش الشاب، وقد قدّم له العجوز هوشون معلومات مرضية عن ملاءته واستقامته. وحسب له المصرف المذكور الفائدة بمعدّل ستة بالمئة شريطة أن يعلم قبل ثلاثة أشهر من موعد سحب رأس المال.

في أحد الأيام، وفد فيليب على أمّه يرجوها حضور حفل زواجه، وكان شهوده جيرودو، وفينو، وناتان، وبيكسيو، ونصّ عقد الزواج على أن السيّدة الأرملة روجه المقدّر مهرها بمليون فرنك، تهب زوجها جميع أملاكها في حال وفاتها دون أولاد. ولم توزّع أي بطاقات دعوة، ولم يُقَم أي احتفال، ولم تبدر أيّة بهرجة، إذ كان لفيليب مقاصده:

---

(١) في رواية «جلد الحبب» يشير بلزاك خلال نقاش حول طريقة قتل العم الى «شطائر كبد الأوزّ الدسمة» وإلى «الفتاة الفاتنة» كما أنه في دفتر مذكرات «أفكار ومواضيع وشذرات» يضع ملاحظة عن ابن أخ شاب يدفع خليلته الى أحضان عمه؛ ويتزوجها بعد موت العم مستولياً على كامل ميراثه وحرمان الورثة الباقين.

أسكن زوجته في شارع سان جورج في شقة باعتها له لولوت مؤثثة بكاملها، ووجدتها العروس السيّدة بريدو في غاية الذوق، أما العريس فنادراً ما وضع قدميه فيها؛ بل اشترى دون علم أحد في شارع كليشي، قصراً بمبلغ مئتين وخمسين ألف فرنك في فترة لم يكن يشك فيها أحد بأن ذلك الحي من باريس سيزدهر وترتفع قيم عقاراته. ودفع من مدّخرات دخله خمسين ألف إكو على أن يسدّد المبلغ المتبقى خلال سنتين. وأنفق مبالغ هائلة على ترتيباته الداخلية وأثاثه، وكانت لوحات خاله الرائعة المؤطرة والمرممة تلتمع في كل مكان بكامل بريقها، وقدرّت قيمتها بنحو ثلاثمئة ألف فرنك.

لقيت عائلة الدوق دي شوليو مزيداً من الحظوة باعتلاء شارل العاشر العرش[1] وكان ابن العائلة البكر الدوق دي رتوره يرى غالباً فيليب لدى توليا. وخيل لفرع آل بوربون البكر دوام العرش نهائياً له آنذاك، فتبع نصيحة المارشال غوفيون سان سير[2] التي أعطاها سابقاً بضمّ عسكريي الامبراطورية للجيش الملكي. وسمي فيليب، بناء على ما كشفه من معلومات عن مؤامرتي ١٨٢٠ و١٨٢٢ دون شك، عقيداً في فيلق الدوق دي موفرينيوز. ورأى هذا السيّد النبيل الظريف أن من واجبه حماية رجل انتزع منه مارييت، ولم تكن هيئة الباليه غريبة عن هذه التسمية؛ عدا عن أنه قرّر في المجلس الاستشاري السري للملك شارل العاشر أن تعطى مسحة من الليبرالية لسلوك صاحب السمو ولي العهد[3]. وقُدّم السيد فيليب المرافق شبه الدائم للدوق دي موفرينيوز إلى ولي العهد وصاحبة السمو الأميرة قرينته التي لم تزعجها الطباع الفظّة، والعسكريون المعروفون بإخلاصهم. وقدّر فيليب جيّداً مقام ولي العهد ودوره، واستغل المظهر الأوّل من هذه الليبرالية المصطنعة ليتسمّى مرافقاً لأحد المارشالات ذوي الحظوة في البلاط. وفي كانون

---

(١) تمّ تنصيب شارل العاشر في العام١٨٢٤.

(٢) المارشال سان سير(١٧٠٤-١٨٣٠) سمي مارشالاً في العام١٨١١، ثم انضم الى لويس الثامن عشر وسمي وزيراً في الفترة ١٨١٥-١٨١٩. اهتم بإعادة تنظيم الجش ونصح بضم ضباط الامبراطورية.

(٣) هو الدوق آنغوليم الابن البكر لشارل العاشر.

ثاني من العام١٨٢٧ انتقل فيليب العقيد في فيلق الدوق دي موفرينيوز الى الحرس الملكي، والتمس حظوة منحه لقب نبالة. وكان ذلك شبه حقّ للضباط من أبناء الشعب العاملين في الحرس. وطلب العقيد بريدو الذي اشترى أرض برمبورغ أن يقيمها إقطاعية للحصول على لقب كونت، ومنح هذا الانعام الملكي باستغلاله لعلاقاته الطيّبة مع مجتمع النخبة حيث راح يظهر في أبّهة من العربات والخدم ذوي البزات الرسمية وهو بكامل أناقته كنبيل كبير، وما أن ظهر اسم العقيد فيليب الضابط في أجمل فيلق من فرسان الحرس تحت لقب الكونت دي برمبورغ في تقويم أصحاب الرتب والمناصب حتى راح يتردّد على منزل اللواء قائد المدفعية الكونت دي سولانج مغازلاً ابنته الشابة الآنسة آملي دي سولانج[1].

طمح فيليب بجشعه، وبدعم خليلات الأشخاص ذوي النفوذ، في أن يكون أحد مرافقي ولي العهد؛ وبلغت به الجرأة أن قال لصاحبة السمو قرينته: «إن ضابطاً قديماً جرح في عدة معارك، ويعرف جيّداً فن الحرب سيكون مفيداً، إن سنحت الفرصة، لصاحب السمو». وفيليب الذي يعرف كل أساليب التملّق سلك في مجتمع النخبة هذا بالأسلوب الملائم له. وكما عرف أن يكون كمينيونه في إيسودون، عرف هنا أن يأخذ وضعاً باذخاً فأقام الحفلات، ودعا الى المآدب العامرة، ولم يقبل في قصره أيّاً من أصدقائه القدامى الذين يؤثر وضعهم على مستقبله؛ وهكذا كان عديم الشفقة على أصدقاء فجوره، ورفض توسّط بيكسيو بشأن جيرودو الذي أراد العودة إلى الجيش بعد أن تخلّت عنه فلورنتين.

قال فيليب: «إنه رجل دون أخلاق!»

صاح جيرودو: «آه! هكذا تحدّث عني، بعد أن خلّصته من خاله!»

قال بيكسيو: «سنتلقفه ولن يفلت منا»

أراد فيليب أن يتزوّج الآنسة آملي دي سولانج، وأن يرتقي إلى لواء، ويقود

---

(١) تظهر شخصية آملي دي سولانج في رواية «الفلاحين» حيث يطلب مونكورنه يدها وترفضه.

أحد الفيالق في الحرس الملكي؛ وطلب أشياء كثيرة، رؤي من أجل اسكاته عنها الإنعام عليه بوسام كومندور في جوقة الشرف، وكومندور سان لويس(١). وفي ذات مساء، كانت أغات وجوزيف راجعين إلى المنزل على الأقدام في طقس ماطر، فرأيا فيليب يمر مرتدياً بزّته العسكرية، متزيّناً بأشرطة رتبته، متصدّراً عربته الجميلة المفروشة بالحرير الأصفر وعليها شعار النباله يعلوه تاج الكونتيه، وهو ذاهب الى حفلة في الإليزه-بوربون(٢)، فلطخ بالوحل المتناثر وراء عجلات عربته أمه وأخاه وهو يحييهما بحركة متعطفة.

قال جوزيف لأمّه: ألا يبتعد، ألا يبتعد عنا هذا الماجن؟ وإلا فإنه سيرمي وجوهنا بشيء غير الوحل.

قالت السيدة بريدو: إنّه في مركز كبير، عال جداً، مما يوجب ألا نحقد عليه لأنه نسينا. وهو بارتقائه السريع ينشغل بالتزامات كثيرة، وعليه تضحيات عديدة، بحيث لا يستطيع الحضور لزيارتنا رغم تفكيره بنا».

في إحدى الأمسيات قال الدوق دي موفرينيوز للكونت الجديد دي برمبورغ: «يا عزيزي إنني متيّقن بأن طلبك سينظر إليه نظرة طيّبة، ولكن ينبغي أن تكون حراً لتتمكن من الزواج بآملي دي سولانج، فماذا ستفعل بزوجتك؟...

قال فيليب مع إشارة، ونظرة، ولهجة عرف كيف يتقنها فيما بعد فردريك ليتر وفي أحد أرهب أدواره: زوجتي؟ للأسف، إنني على يقين مكدّر بفقدانها سريعاً، لن تعيش أكثر من ثمانية أيام. آه! يا عزيزي الدوق، إنك تجهل وضع الزواج غير المتكافئ! امرأة كانت طاهية، ولها ذوق طاهية، وهي تعيبني فأنا جدير بالشفقة. لكن كان لي الشرف أن شرحت وضعي لصاحبة السمو وليّة العهد. فالأمر في حينه كان يتعلق بإنقاذ مليون تركه خالي في وصيته لتلك المخلوقة ولحسن

(١) يعود هذا الوسام الى العام١٦٩٣ وحاملوه من رتبة كوماندور محدودون، وقد ألغي في عهد الثورة وأعيد في العام١٨١٤ ثم ألغي نهائياً في العام١٨٣٠.

(٢) هو قصر الإليزه الحالي، وكانت آخر مالكة له قبل الثورة الدوقة دي بوربون.

الحظ فإن زوجتي انصرفت الى تعاطي الكحول. وعند موتها سأغدو سيّد مليون مودعة في مصرف مونجنو إضافة الى دخل ثلاثين ألف فرنك من سندات الخمسة بالمئة، وإقطاعيتي التي تدرّ دخل أربعين ألف فرنك سنوياً. وكما تشير جميع الدلائل فإن السيد سولانج سيحصل على عصا المارشالية[1]، وأنا مع ترقيتي إلى لواء سأكون عينا من أعيان فرنسة عندما يحين موعد تقاعد مرافق لولي العهد.

بعد معرض رسم العام١٨٢٣، حصل رسّام الملك الأول، أحد أفضل رجال ذلك العصر[2] لوالدة جوزيف على مكتب ياناصيب في جوار الهال. وفيما بعد، تمكّنت أغات، لحسن الحظ ودون دفع أي فرق أن تستبدل به مكتباً واقعاً في شارع السين في منزل أخذ به جوزيف مرسماً له، وبدورها وضعت الأرملة مديراً لمكتبها ولم تعد تكلّف ابنها شيئاً. والحال أنّها في العام١٨٢٨، وبرغم كونها صاحبة مكتب ياناصيب ممتاز يعود الفضل في الحصول عليه إلى شهرة جوزيف وتفوقه، فإن السيدة بريدو ما زالت غير مؤمنة بهذا التفوق، فهو موضع جدل كبير كجميع الأمجاد الحقيقية. والرسّام الكبير المصارع باستمرار لأهوائه تترتب عليه نفقات كبرى، ولا يربح ما فيه الكفاية ليدعم الترف الذي تلزمه به علاقاته الاجتماعية، وكذلك وضعه المميز في المدرسة الناشئة[3] بالرغم من الدعم القوي الذي يلاقيه من أصدقائه في النادي، ومن قبل الآنسة دي توش[4] لكنه لا يعجب البورجوازيين. وهذا الكائن الذي يكسب المال حالياً، لا يحل عقدة كيسه للدفاع عن المواهب المعرضة للنقد؛ وهكذا وجد جوزيف الكلاسيكيين من جهة، والمجمع من جهة ثانية يقفون ضده، ومن وراء هاتين القوتين، النقاد التابعون لهما. أخيراً كان الكونت دي برمبورغ يتظاهر بالدهشة عندما يرد ذكر جوزيف. وبقي هذا الفنان

---

(١) في رواية «**الفلاحين**» غدا الكونت دي سولانج مارشالاً في العام١٨٢٦، بينما يبدو أننا هنا في العام١٨٢٨ دون نوالها.

(٢) اشارة هنا الى البارون جيرار، وكان صديقاً لبلزاك، وذكر مراراً في **الملهاة الانسانية**.

(٣) ينسب بلزاك هنا لجوزيف بعض مزاياه الشخصية.

(٤) الآنسة دي توش: -وهي الآنسة كميل موبن في الأدب- إحدى الشخصيات الرئيسة في رواية بلزاك«**بياتريس**».

الجريء رغم مساندة غرو وجيرار له بالعمل على منحه وسام جوقة الشرف بعد معرض ١٨٢٧ لا يحظى إلا بقليل من الإقبال على لوحاته. وإذا كانت وزارة الداخلية، وبيت الملك يأخذان بصعوبة بعض لوحاته الكبرى، فإن التجار والهواة الأجانب الأغنياء لا يهتمون بها كثيراً. عدا عن أن جوزيف كان منصرفاً، كما هو معروف، بشكل مبالغ فيه، إلى الفانتازية، مما أنتج تفاوتاً استغله أعداؤه لإنكار موهبته.

قال صديقه بيير غراسو الذي كان يجري تزويقات ملائمة لذوق البورجوازيين الذين لا يضحّون بدفع مبالغ كبيرة لتزيين منازلهم بلوحات شهيرة: «إن الرسم الكبير يعاني المرض وكان شينر يردّد على مسامعه: تلزمك كاتدرائية كاملة لتزينها برسومك وزخارفك فبالعمل الكبير يخرس النقاد».

كان هذه الآراء تروّع أغات الطيّبة، وتعزّز الحكم الذي أعطته في البدء نسبة لجوزيف وفيليب، فالوقائع أثبتت أن تلك المرأة التي بقيت ريفية كانت على حقّ: ألم يَغدُ فيليب ابنها المفضل رجل العائلة الكبير أخيراً؟ وكانت ترى في الأخطاء الأولى لهذا الفتى انحرافات العبقرية، بينما بدا لها جوزيف، وهي لا تتحسّس كثيراً بنتاجه الفني لرؤيته مراراً في مراحل العمل به بحيث لا يبهرها بعد الانتهاء منه، ما يزال في العام ١٨٢٨ كما كان في العام ١٨١٦، فالمسكين يرزح تحت وطأة ديونه، وقد اختار مهنة قاسية لا تدرّ عليه شيئاً، أخيراً فأغات لا تتصورّ تماماً المزايا التي منح من أجلها جوزيف الوسام؛ بينما غدا فيليب كونتاً، وهو من القوّة بحيث امتنع عن التردّد على صالات المقامرة، وغدا أحد مدعوي الدوقة[1] في حفلاتها. هذا العقيد اللامع الذي يختال في الاستعراضات العسكرية والمواكب الرسمية، ببزّته العسكرية الرائعة، متزّيناً بشريطين حمراوين، حقق أحلام أغات الأمومية.

---

(١) هي الدوقة دي برّي، كارولين دي نابولي، (١٧٨٩-١٨٧٠) استمرت بعد اغتيال الدوق في العام ١٨٢٠ من قبل لوڤل في إقامة الحفلات والاستقبال في قصرها وجرّبت في العام ١٨٣٢ أن تشعل ثورة في ڤانده ضد لويس فيليب.

وفي أحد أيام الاحتفالات العامة محا فيليب مشهد شقائها المهين على رصيف السين عندما مرّ من أمامها في ذات المكان في استعراض لولي العهد بعمرته البولونية المزخرفة بالريش وسترته البرّاقة بالأشرطة الذهبية والفراء! وهكذا شعرت أغات أنّها بالنسبة لجوزيف الفنان راهبة مخلصة شفوق بينما هي أم بالنسبة لفيليب الجريء مرافق صاحب السمو الملكي ولي العهد! وهي معتزة بفيليب وتتوقع منه أن يؤمّن لها اليُسر، ونسيت أن الفضل في حيازتها على مكتب الياناصيب الذي تعيش منه يعود الى جوزيف.

في يوم رأت أغات فنانها المسكين يتألم من مجموع الفواتير التي ترتبت عليه لتاجر الألوان ومواد الرسم الأوليّة، ورغم كرهها للفنون أرادت تحرير ابنها من ديونه، لكن المرأة المسكينة التي كانت تنفق على البيت من أرباح مكتب الياناصيب، حرصت ألا تطلب فلساً من جوزيف، وهكذا لم تدّخر شيئاً، لكنها اعتمدت على طيبة قلب فيليب وعلى محفظته. وكانت تنتظر منذ ثلاث سنوات، يوماً بعد يوم زيارة ولدها، متوقعة أن تراه وافداً إليها وهو يقدم لها مبلغاً كبيراً من المال، اغتبطت مسبقاً بامكان تقديمه لجوزيف، الذي كان مستمراً مع السيد دروش في رأي مفاده أن لا خير يرجى من فيليب.

ودون علم جوزيف، كتبت الى فيليب الرسالة التالية:

«إلى السيد الكونت دي برمبورغ

«عزيزي فيليب، خلال خمس سنوات لم تقدّم لأمّك أي تذكارٍ مهما صغر! وهذا ليس جيّداً، إذ يجب أن تستذكر قليلاً الماضي، وخاصة بالنسبة لأخيك الفائق الطيبة. فجوزيف اليوم بحاجة، بينما ترتع أنت بالرخاء، إنه يشقى كدّاً بينما تنتقل أنت بين حفلة وأخرى، بعد أن استوليت لوحدك على ثروة أخي. إنّك تملك وفقاً لما يذكره بورنيش الصغير[1] مئتي ألف فرنك دخلاً سنوياً، وبعد، تعال لرؤية جوزيف!

(١) هو باروخ بورنيش حفيد هوشون الذي يعمل لدى مونجنو مصرفي فيليب.

وخلال زيارتك، ضع في جمجمة الميت[1] عشرين ورقة من ذات الألف فرنك: إنك مدين لنا بها يا فيليب، ومع ذلك سيدين لك أخوك بالفضل، غير البهجة التي تدخلها الى قلب أمّك.

أغات بريدو (ابنة عائلة روجه)

بعد يومين حملت الخادمة الى المرسم حيث كانت أغات المسكينة تتناول إفطارها مع جوزيف الرسالة الرهيبة التالية:

أمي العزيزة

«لا يمكن الزواج بآملي دي سولانج بحمل قشور الجوز إليها، عندما يكون تحت لقب الكونت دي برمبورغ اسم ابنك

فيليب بريدو»

تهالكت أغات على ديوان المرسم شبه غائبة عن الوعي، وسقطت الرسالة من يدها، وأحدثت ضجة الورقة الخفيفة بسقوطها، وآهة أغات الصماء، هزة رعب لدى جوزيف، الذي كان في تلك اللحظة قد نسي وجود أمه وانصرف بحماس يخطط رسماً تمهيدياً. ومدّ رأسه من خلف لوحته ليرى ما حدث، وعند مظهر أمّه الممدة ترك الرسّام لوحة ألوانه وفراشيه، وهرع يرفع جسماً كالرمّة، واحتضن أغات بذراعيه وحملها الى سريره في شقته، وأرسل يطلب صديقه بيانشون. وما أن تمكّن جوزيف من سؤال أمه حتى اعترفت له برسالتها إلى فيليب، وبجوابه إليها. وذهب الفنان يلتقط ذلك الجواب، الذي حطم بفظاظته الموجزة قلب هذه الأم المسكينة المرهف، بتقويضه البناء الفخم الذي رفعته بتفضيلها الأمومي. وعاد جوزيف الى قرب سرير أمه، مصمّماً على الصمت، لم يتحدث أبداً عن أخيه خلال الأسابيع الثلاثة التي لم تقضها تلك المرأة المسكينة في المرض

---

(١) جمجمة الميت: هي الجمجمة التي في مرسم جوزيف والتي سبق لفيليب أن استولى مراراً على ما فيها من نقود.

وإنّما في الاحتضار. والواقع أن بيانشون الذي كان يحضر كل يوم ويعنى بالمريضة، بتفاني الصديق الحقيقي، بيّن لجوزيف حالتها منذ اليوم الأول؛ بقوله: في هذا العمر، وفي الظروف التي توجد بها أمك، يجب أن ينحصر التفكير في تخفيف مرارة الموت عنها فقط»[1].

شعرت أغات أنها مدعوة قريباً إلى ملكوت الله حتى أنّها طلبت في اليوم التالي بالذات أن يقدّم لها القربان المقدّس من قبل الكاهن العجوز الأب لورو معرفها منذ اثنين وعشرين عاماً، وما أن غدت وحيدة معه، حتى عبّرت أمام قلب هذا الكاهن الورع عن كل أحزانها، وكرّرت ما سبق أن قالته أمام عرابتها، وما تردّده دائماً: «أي ذنب ارتكبته إذاً أمام الله؟ ألم أحببه بكل روحي؟ ألم أسر على درب الخلاص؟ ما هي خطيئتي؟ وإن كنت ارتكبت خطيئة أجهلها، فهل لديّ الوقت لأصلحها؟

قال الكاهن العجوز بصوت عذب: «كلا، للأسف! فحياتك تبدو نقيّة، وروحك لا شائبة فيها، لكن عين الله، أيتها المخلوقة المتألّمة، أكثر نفاذاً من عين خدمة أسراره، وأنا أرى دخيلة نفسك بوضوح إنّما بعد فوات الأوان، إذ أنّك موّهت الحقائق بحيث خُدعت أنا بالذات».

بسماع هذه الكلمات ينطق بها فم لم يعبر حتى حينه بالنسبة لها إلا بكلمات مطمئنة معسولة، انتصبت أغات في سريرها وفتحت عينين مملؤتين رعباً وقلقاً.

صاحت: قل! قل!

تابع الكاهن العجوز: تأسّي! فبالطريقة التي عوقبت فيها يمكن أن يُستَشفّ الغفران. فالله لا يقسو على الأرض إلا على مختاريه. وويل لأولئك الذين تجد آثامهم مصادفات مؤاتية فسيدعكون في الطبيعة البشرية إلى أن يعاقبوا بدورهم

---

(١) يشبه مرض اغات المميت ذلك الذي أصاب العجوز دكوان، وهو وفقاً لموس لي ياوانك السكتة الدماغية: أي الحالة المرضية الناجمة عبر آفة وعائية في الدماغ كالنزف أو الخثار أو الصمامة.

عقاباً قاسياً على أخطاء بسيطة عندما سيصلون الى نضج الثمار السماوية. حياتك، يا ابنتي، لم تكن إلا خطأً طويلاً، وأنت تقعين في الحفرة التي حفرتها بنفسك، إذ أننا لا نُنال إلا من الجهة التي أضعفناها فينا. منحت قلبك لوحش رديء رأيت فيه فخرك، وتجاهلت الابن الآخر وهو فخرك الحقيقي. كنت جائرة لدرجة لم تلاحظي فيها هذا التناقض البيّن. تدينين بعيشك لجوزيف بينماابنك الآخر ينهبك باستمرار. الابن المسكين الذي يحبّك دون أن يحظى بحنان مكافئ يحمل لك خبزك اليومي؛ بينما الموسر، الذي لم يفكّر بك يوماً ويزدريك، يتمنى موتك.

قالت: أوه! من أجل هذا![1]

تابع الكاهن: «نعم، فأنت تعيقين بحالتك المتضعة تطلّعات غطرسته. . أيّتها الأم هذه هي خطاياك! أيتها المرأة، آلامك ومعاناتك تنبئ بأنك ستحظين بالنعمة الالهية. وكان كبر ابنك جوزيف أسمى من أن يتأثر حنانه بجور انحيازك الأمومي، أحبّيه إذاً جيّداً! أمنحيه كلَّ قلبك في هذه الأيام الأخيرة؛ أخيراً صلّي من أجله، فأنا ذاهب لأصلي من أجلك».

كشفت هاتان اليدان القادرتان عيني تلك الأم فعانقتا بنظرة مرتدّة حياتها الماضية، مستنيرة بهذا القبس من الضوء، وأبصرت خطاياها اللا إرادية، فانهمرت دموعها. وشعر الكاهن بتأثّر كبير من مشهد هذا الندم لدى مخلوقة خاطئة عن جهل فقط، فخرج حتى لا يدعها ترى إشفاقه. ودخل جوزيف إلى غرفة أمّه بعد نحو ساعتين من ذهاب المعرّف؛ بعد عودته من زيارة صديق اقترض منه المال اللازم لتسديد ديونه الأكثر إلحاحاً، ودخل على رؤوس قدميه معتقداً أن أغات نائمة، وتمكّن أن يصل الى مقعد دون أن تراه المريضة.

بدرت عن المريضة انتحابة تقطعها هذه الكلمات: «هل سيغفر لي؟»؛ مما دفع

---

(١) سبق لبلزاك أن كتب هنا عبارة «اه! يا أبت، لا يمكنني الاعتقاد بأن ابني الذي محضته كل حبّي يتمنى موتي». وهذا ما يفسر تأكيد الكاهن: «نعم، فأنت تعيقين تطلّعات غطرسته». لكن الروائي حذف عبارة أغات لدلالتها على استمرارها في الخطأ، ولم يحذف عبارة الكاهن لأنه مصرٌّ على إدانة فيليب.

جوزيف إلى أن ينتفض، والعرق البارد يتسرّب الى ظهره، إذ اعتقد أن أمّه فريسة هذيان يسبق الموت.

سألها مذعوراً لرؤية عينيها محمرّتين من الدموع، ووجهها مضنى من المرض: «ما لك يا أمّي؟»

تأوّهت قائلة: آه! يا جوزيف! أتغفر لي يا ولدي؟

ردّ الفنان: إيه! ماذا؟

- لم أحببك الحبَّ الذي تستحقه..

صاح: يا للوهم! تتصوّرين أنّك لم تمنحيني الحبّ؟.. ألا نعيش منذ سبع سنوات معاً؟ ألست منذ سبع سنوات المرأة التي تعنى بشؤوني؟ ألا أراك، وأسمع صوتك في كلّ يوم؟ ألست الرفيقة الناعمة، الحليمة، في حياتي البائسة؟ أنت لا تدركين عناء الرسم؟.. إيه! إنّه لا يفصح عن معاناة صاحبه! وأنا من كان يقول البارحة لغراسّو: «ما يشدُّ من أزري في غمرة كفاحي، هو أن الي جانبي أمّاً طيّبة؛ إنّها المرأة اللازمة للفنان، تعنى بكلّ شيء، وتسهر على جميع احتياجاتي المادية، دون أيّ إرباك».

- كلا يا جوزيف، كلا، أنت تحبّني بحقّ! أمّا أنا فلم أقابلك بمثل حبّك. آه! كم أودّ أن أعيش!.. ألا تعطني يدك؟

تناولت أغات يد ابنها، وقبّلتها، وضمّتها إلى قلبها، وتأمّلتها طويلاً وهي تبدي له لازورد عينيها المتألّقتين بالحنان الذي كانت تحتفظ به حتى ذلك الحين لفيليب. واشتد تأثّر الفنان الذي يتجسّد به التعبير، من هذا التغيّر، ورأى فعلاً أن قلب أمّه ينفتح له، فأخذها بين ذراعيه، وضمّها إليه للحظات وهو يردّد ببالغ الانفعال: يا أمي! يا أمي!

قالت: آه! أشعر بغفرانك! والله سيؤكّد غفران الابن لأمه!

- هتف جوزيف وهو يصحّح وضع الوسادة تحت رأس أمه: يلزمك

الهدوء، فتأسّي، وتأكّدي أنّك منحتني من الحبّ في هذه اللحظة ما يغمر كلّ أيام عمري الماضية» خلال الاسبوعين اللذين دام فيهما صراع تلك المخلوقة الورعة بين الموت والحياة، كانت لها التفاتات إلى جوزيف، ومشاعر روح، وبوادر حنان تتدفّق حبّاً، حتى لتبدو في كل انبثاقة منها حياة كاملة . .

لم تكن الأم تفكر إلا بابنها، ولم تعد تبالي بشيء، ونسيت آلامها وهي مدعومة بحبّها! فكانت تصدر عنها كلمات ساذجة كتلك الصادرة عن الأطفال. وكان دارتز، وميشيل كريستيان وفولجنس ريدال، وبيير غراسو، وبيانشون، يأتون لمجالسة جوزيف غير المفارق لأمّه، ويتناقشون غالباً بصوت مخفض في غرفة المريضة.

هتفت يوماً وهي تسمع نقاشاً حول لوحة: «أوه! كم أريد أن أعرف قيم الألوان!»

من جهته كان جوزيف سامياً في رعاية أمه، لا يترك غرفتها، يدلّلها وهو يضمّها إلى صدره، يردُّ على حنانها بحنان مماثل؛ وكانت تلك المشاهد في نظر أصدقاء الرسّام الكبير من أجمل ما يذكرونه دائماً. وكان هؤلاء الرجال الذين يتجلّى فيهم الخُلُق الطيّب والموهبة الحقّة[1] بالنسبة لجوزيف وأمّه كالملائكة الذين يُصلّون ويبكون معه، ليس بالجثو، وذرف الدموع، وإنّما بالانسجام معه بالفكر والعاطفة المعبّرة.

أحسّ جوزيف كفنان كبير، بالعاطفة والموهبة، من بعض نظرات أمه، برغبة دفينة في هذا القلب. وقال يوماً لدارتز: «أنّها أحبت كثيراً هذا الشرير فيليب حتى لا يعقل أنّها لا تريد رؤيته قبل موتها ...».

---

(١) يثير الفضول هنا وضع اسم بيير غراسو، بينما يعتبره بلزاك في القصة التي تحمل هذا الاسم ضعيفاً وانتهازياً.

رجا جوزيف بيكسيو الذي كان مندفعاً في العالم البوهيمي الذي يخالطه أحياناً فيليب، بأن يقنع هذا الوصولي الرديء، بداعي الرحمة، في أن يقوم بدور حنان مايمكن به إحاطة قلب تلك الأم المسكينة بكفن مطرز بالأوهام. ولم يكن بيكسيو، بصفته ملاحظاً، وساخراً مبغضاً للبشر، ينتظر أفضل من هذا الرجاء ليفي بمثل هذه المهمة.

وعندما عرض الحالة التي وصلت إليها أغات للكونت دي برمبورغ، الذي استقبله في غرفة نوم مفروشة بدمقس حريري أصفر، بدأ العقيد بالضحك وهتف:

«ايه! بأيّة دعوة إبليس تدفعني للذهاب إلى هناك. إن الخدمة الوحيدة التي يمكن أن تقدمها لي المرأة البلهاء هي أن تَنْفُقَ بأسرع ما يمكن، فإنها ستكون وجهاً كئيباً أمام زواجي بالآنسة دي سولانج. بقدر ما ينقص أفراد عائلتي بقدر ما يتحسّن وضعي. أنت تدرك جيّداً أنني أريد دفن اسم بريدو تحت جميع أضرحة مقبرة الأب لاشيز! ... إنّ أخي يذبحني وهو يسجّل اسم العائلة على لوحات يسلّط عليها الضوء! وأنت على درجة من الذكاء، تجعلك تقدّر المرتبة العليا التي وصلت إليها! ولنر؟ لو غدوت نائباً، وأنت بفصاحتك المعهودة تُرهبُ كشوڤلن[1] ويمكنك أن تصل إلى لقب الكونت بيكسيو، ومدير الفنون الجميلة. بوصولك إلى تلك المرتبة، هل ستكون مسروراً لو بقيت جدتك دكوان حيّة، وأن تكون إلى جانبك تلك المرأة الجسور وهي أشبه بالسيّدة سان ليون[2]؟ هل كنت ستتنزه معها وهي تتأبط ذراعك في التويلري؟ هل كنت ستقدّمها إلى العائلة النبيلة التي تجرّب أن تتقرّب منها؟ قسماً ستتمنّى أن تراها على عمق ستة أقدام تحت الأرض، ترفل مغلّفة بقميص من رصاص. فَكِّرْ بقولي، وتعال لتناول طعام الفطور معي، ولنتحدث بشيء آخر.

---

(١) المركيز دي شوڤلن (١٧٦٦-١٨٣٢) نائب ليبرالي من ١٨١٧ إلى ١٨٢٤ ومن ١٨٢٧ إلى ١٨٢٩ اشتهر ببلاغته القارصة.

(٢) سيّدة رغم كونها من وسط وضيع تظهر أنها من النبلاء وتتخذ اسماً مستعاراً مسبوقاً بدي سان: وهن كثر في روايات بلزاك.

إنّني محدث نعمة يا عزيزي، وأنا أعرف ذلك. لا أريد أن أكشف عن قماطاتي الحقيرة! ... سيكون ابني أكثر سعادة مني، وسيتمنى ذلك الخبيث موتي، أنا أتوقع جيّداً ذلك، وإلا فلن يكون ابني».

وقرع الجرس، فجاء الوصيف، فقال له: «إن صديقي سيفطر معي فهيء لنا إفطاراً شهيّاً».

تابع بيكسيو وساطته قائلاً: «إن مجتمع النخبة لن يراك في غرفة أمّك! فماذا سيكلفك التظاهر بحبّ المرأة المسكينة لمدة عدّة ساعات؟ ...

غمز فيليب بعينه وقال: عجباً! ألست آت من طرفهم، إنني جمل عتيق يعرف نفسه عندما يُطلب منه الركوع. إنّ أمي تريد أن تبتزَّ مني وهي تلفظ النفس الأخير شيئاً لجوزيف.

عندما قصّ بيكسيو هذا المشهد على جوزيف، أحسّ الرسّام بقشعريرة حتى العظم.

قالت أغات بصوت منتحب مساء اليوم الذي حضر فيه بيكسيو لينبىء عن فشل مهمته:

«هل يعلم فيليب بأنني مريضة؟».

خرج جوزيف وعبراته تخنقه، وأخذ الكاهن لورو الموجود قرب سرير تائبته بيد المريضة وشدّ عليها وأجابها: «للأسف يا ابنتي، لم يكن لك يوماً إلا ولد واحد! ...»

بسماعها هذا القول أدركت أغات كل شيء، وانتابتها أزمة قلبية بدأ بها احتضارها. وماتت بعد ذلك بعشرين ساعة.

في هذيانها قبل موتها أفلتت منها هذه العبارة: «ممن ورث فيليب هذا السوء؟»[1].

---

(١) هذا السوء في نظر بلزاك وارد من جده والد أمه الدكتور روجه.

اهتم جوزيف لوحده بجنازة أمه، وذهب فيليب بداعي مهمة طارئة إلى أورليان مبتعداً عن باريس نتيجة الرسالة التالية التي وجهها إليه جوزيف في اللحظة التي لفظت فيها أمه النفس الأخير:

أيّها الوحش

توفيت أمّي من الهزّة التي سبّبتها رسالتك لها. الزم الحداد، وتظاهر بالمرض: فأنا لا أريد أن أرى قاتلها إلى جانبي أمام نعشها.

جوزيف. پ

لم يستطع الرسام العودة سريعاً إلى الرسم بالرغم من أن ألمه العميق يتطلب، على الأرجح، مثل هذه التسلية الميكانيكية التي يوفرّها العمل. وأحاط به أصدقاؤه الذين اتفقوا على ألا يتركوه منفرداً أبداً. وانضم بيكسيو، الذي يحبّ جوزيف بقدر ما يتمكن الساخر من الحب، إلى الأصدقاء المجتمعين في المرسم، ممن لازموا جوزيف لمدة خمسة عشر يوماً بعد المأتم.

وفي يوم دخلت الخادمة فجأة وسلمت جوزيف رسالة محمولة ذكرت أن امرأة عجوزاً أتت بها وهي تنتظر جواباً لدى البواب.

بدأت الرسالة:

«سيدي

أنت الذي لا أجروء على أن أناديه باسم أخي، أريد أن أتوجه إليك، على الأقل بسبب الاسم الذي أحمله ...».

قلب جوزيف الصفحة، ونظر إلى التوقيع في أسفل الصفحة التالية فرأى: الكونتة فلور دي برمبورغ؛ وارتعش إذ شعر بأمرٍ كريهٍ مبتكر من قبل أخيه. قال: هذا الشرير يمكنه أن يلعب على الشيطان بالذاتً! ومعً هذا يعتبر رجلاً شريفاً! وتبرق على ياقة بزته العسكرية صدَف الزخارف، ويتبختر كالطاووس في البلاط الملكي، وكان الأجدر لو يوضع على دولاب التعذيب، لا أن يمنح لقب السيد الكونت.

قال بيكسيو : ومثله كثيرون !

- وتابع جوزيف : وبعد ذلك، فإن هذه المتّصيدة تستحق أن تصاد بدورها، إنّها أسوأ من الجرب، كادت أن تسبب قطع عنقي، دون أن تبدر منها كلمة : إنه بريء ! ... »

ورمى جوزيف الرسالة، لكن بيكسيو التقطها، وقرأها بسرعة على صوت عال :

«هل من اللائق أن تذهب الكونتة بريدو دي بمبورغ، أيّاً كانت ذنوبها، لتموت في مشفى؟ إن كان هذا قدري، وهذه إرادة الكونت، وإرادتك، فليتمّ ذلك. ولكن، احصل لي وأنت صديق الدكتور بيانشون، على توسّط منه لإدخالي أحد المشافي. فالمرأة التي ستحمل لك هذه الرسالة، ذهبت للمرة الحادية عشر إلى قصر برمبورغ، في شارع كليشي، دون أن تستطيع الحصول على مساعدة زوجي. والحالة التي أنا فيها لا تسمح لي باستخدام محام، ليباشر لي بالحصول قضائياً على ما أستحق لأموت بسلام. عدا عن أن ما من شيء يمكن أن ينقذني، وأنا أعرف ذلك. وهكذا ففي الحالة التي لا تريد أن تهتم بزوجة أخيك التعسة، أعطني بعض الدراهم الضرورية لأحصل على شيء أنهي حياتي به، إذ أنني أعرف أن السيد أخاك يريد موتي، وقد أراده دائماً. وبالرغم من أنه قال لي : إن هناك ثلاث وسائل مضمونة لقتل امرأة، لكن ذكائي لم يتمكن من الإهتداءإلى الوسيلة التي يستخدمها الآن.

« في حال رغبتك بأن تشرفني بمساعدة، وبأن تحكم بنفسك على ما أنا فيه من بؤس، فإنني أسكن في شارع هوساي، على زاوية شارع شانترين، في الطابق الخامس. وإذا لم أسدد يوم غد أجور سكني

المتأخرة، فيجب أن أغادر المنزل! لكن إلى أين، يا سيدي؟ ... هل يمكنني القول.

زوجة أخيك

الكونتة فلور دى برمبورغ.

قال جوزيف: «أي حفرة مليئة بالفضائح! ماذا يوجد تحتها؟»‹ قال بيكسيو: «فلنأت أولاً بالمرأة، إذ يمكن أن تكون مقدمة شهيرة للحكاية».

بعد لحظة حضرت امرأة وصفها بيكسيو بهذه الكلمات: أسمال تسير!. والواقع كانت مجموعة من قطع قماشية وأثواب قديمة تراكم بعضها فوق بعض الآخر وأحاط بها الوحل، فالفصل شتاء، وكل ذلك فوق ساقين ثخينتين وقدمين سميكتين صنعبت إحاطتهما بجوربين مرقّعين، وحذاء يفرغ الماء من شقوقه. وفوق هذه الكومة من الأسمال يرتفع أحد هذه الرؤوس، التي أعطاها شارله[1] لكنّاساته، وهو مجلّل بمنديل رث مهترىء حتى في طيّاته.

سألها جوزيف بينما كان بيكسيو يخطّ صورة كاريكاتورية للمرأة وهي تستند إلى مظلّة تعودإلى السنة الثانية من الجمهورية، ما اسمك؟

- السيدة غروجه في خدمتك».

ثم التفتت إلى بيكسيو، وقد أغاظتها ضحكته الساخرة وقالت له: «عرفت المداخيل أيّها السيد الصغير، ولو لم يشأ سوء الطالع أن تحبّ ابنتي شخصاً ألقت بنفسها في الماء من أجله لكنت في غير هذا الحال الذي تراه يا لإيدا المسكينة[2]! عدا

(١) شارله (١٧٩٢-١٨٤٥) تلميذ غرو انصرف إلى طباعة الرسوم الحجرية، وصور كنّاسيه ومتسكعيه شهيرة استشهد بها بلزاك مرات عديدة.

(٢) السيّدة غروجه: هي والدة إيدا المنتحرة في السين في قصة فراجوس، وغروجه عملت أيضاً ممرضة في «**المستخدمين**».

عن أنّني ارتكبت حماقة تغذية رباعية في اليانصيب، لذلك تراني ياسيدي العزيز، وأنا في السابعة والسبعين أخدم المرضى لقاء عشرة فلوس في اليوم مع إطعامي.

قال بيكسيو: ولكن بدون تقديم لباس. بينما كانت جدتي تكتسي رغم تغذيتها لثلاثية ياناصيب لدى رجلها الصغير.

- لكنني أدفع من فلوسي العشرة أجرة الغرفة المفروشة.

- وما لها هذه السيّدة التي تخدمينها؟.

- إن كنت تعني الدراهم فليس لديها شيء ياسيدي. !. لكنّ لها مرضاً أعيا الأطباء... وهي مدينة لي بخدمة ستين يوماً، ولذلك فأنا مستمرة على العناية بها. وهي كونتة، والزوج الكونت سيسدّد لي فواتيري، دون شك، بعد موتها. لذلك أقرضتها كل ما معي، ولم يعد معي شيء، ورهنت أغراضي! ... إنّها مدينة لي بسبعة وأربعين فرنكاً واثني عشر فلساً، عدا الثلاثين فرنكاً أجرة خدمتها خلال ستين يوماً، وهي تريد أن تنتحر بالفحم، وقد قلت لها: هذا عمل سيء. كما أخبرت البوابة بأن تراقبها خلال غيابي، لأنها قادرة على أن ترمي بنفسها من النافذة.

سألها جوزيف: ولكن مالها؟.

قالت السيدة غروجه وهي تتصنّع الحياء: آه! ياسيدي، حضر طبيب الراهبات، وذكر أن مرضها يستدعي نقلها إلى الملجأ... وحالتها مميتة.

قال بيكسيو: سنذهب إليها».

قال جوزيف للمرأة: إليك، هذه عشرة فرنكات.».

بعد أن أخرج جوزيف من جمجمة الميت الشهيرة كل ما لديه من نقود، ذهب إلى شارع مازارين، حيث استقلّ عربة، وتوجّه إلى منزل بيانشون، بينما ركض بيكسيو من جهته إلى شارع بوسي يبحث عن صديقهما دروش. وبعد نحو ساعة التقى الأصدقاء الأربعة في شارع هوسيه.

قال بيكسيو لأصدقائه الثلاثة وهم يصعدون السلّم: «هذا الشيطان على

حصان المسمى فيليب بريدو، قاد زورقه بشكل غريب ليتخلّص من امرأته. أنتم تعرفون أن صديقنا لوستو، السعيد جداً بتلقي ورقة نقدية من ذات الألف فرنك كل شهر، حافظ على السيّدة بريدو في مجتمع فلورين، وماربيت، وتوليا، ولاڤال نوبل. وعندما رأى فيليب متصيدته وقد ألفت الزينة والمباهج المكلفة، قطع عنها المال، وتركها تحصل عليه... وأنتم تدركون كيف؟ وعمل فيليب خلال ثمانية عشر شهراً على الحطّ من امرأته، فصلاً بعد فصل، ودائماً إلى مستوى أحقر؛ أخيراً وبواسطة صف ضابط شاب وسيم جعلها تستلذ المشروبات الكحولية القويّة، وكلّما كان يرتفع، كانت امرأته تنحطُّ وهي الآن في الوحل. هذه الفتاة، المولودة في الحقول، عرفت شظف العيش، ولا أعلم كيف تصرّف فيليب ليتخلّص منها، وينتابني الفضول لدراسة هذه المأساة الصغيرة، لأنني سأنتقم من صديق لي».

تابع بيكسيو بلهجة تركت أصدقاءه بين الشك واليقين أهو يمزح أم يتكلم بجد؟! «للأسف يا أصدقائي! يكفي إكساب شخص عادة سيّئة للتخلّص منه. وقد سبق لفيكتور هوغو أن قال: «إنّها تحبُّ المرقص كثيراً وهذا ما قتلها [١]».

هاهي جدتي أحبّت اليانصيب، فقتلها فيليب في اليانصيب! والأب روجه أحبّ العبث والمجون، فقتلته لولوت؛ والسيّدة بريدو، المرأة المسكينة، أحبّت فيليب، وهَلَكت من قبَله!... العادة السيّئه! العادة السيّئه! يا أصدقائي!... هل تعرفون ما هي النقيصة؟ إنّها بونُّو [٢] الموت.

---

(١) فيكتور هوغو في قصيدة «أشباح» من «الشرقيّات».

(٢) بونو: شخصية رئيسة في قصيدة فولتير الملحمية - الهزلية «البكر أو جان دارك» وبونو هو الخادم المسخّر لأغراض غراميات الملك شارل السابع (١٤٢٢-١٤٦٠) وعشيقته آنيس سوريل وفيه يقول فولتير:

كانت لديه مهمّة، ليست هيّنة بالتأكيد
ففي البلاط حيث يتلوّن كل شيء بالجمال
أُطلقت عليه صفةُ صديق الأمير.
ولكن في المدينة، وخاصة في المقاطعة كلّها
أطلق عليه الماجنون اسم القوّاد

وغدا الاسم مضرب المثل.

قال دروش لبيكسيو باسماً: ستموت أنت إذاً من الفكاهة!».

بدءاً من الطابق الرابع الذي يشبه السلالم التي يتسلّق بها إلى بعض السقائف في بيوت باريس؛ وبالرغم من أن جوزيف، الذي سبق أن رأى فلور في منتهى الجمال، توقّع تبايناً مريعاً، لكنه لم يتصوّر المشهد الشنيع الذي بدا أمام عينيه كفنان: تحت الزاوية الحادة لسقيفة، دون ورق جدران، وعلى سرير ميدان ضيق، فوقه فراش هزيل، حشي على الأرجح بالقش، أبصر الشباب الثلاثة امرأة، خضراء كثمرة جوز في اليومين الأولين من ظهورها، وهزيلة كمسلول قبل ساعتين من موته. هذه الرّمة النتنة بدت بمنديل من قماش رث ذي مربّعات على رأس تساقط شعره، وقد احمرَّ محيط محجري عينيها حول أجفان غدت كالرقاقة تحت قشرة البيضة، ولم يبق من جسمها، الممتلىء الرائع القامة سابقاً، إلا رسم هيكل عظمي مقزّز. وعند مرأى الزائرين ضمت فلور على صدرها قطعة من الموسلين كانت على الأرجح ستارة نافذة صغيرة إذ أنها ملطخة بصدأ حديد القضبان. واقتصر أثاث السقيفة على كرسيين، وخزانة مخلوعة وضعت فوقها شمعة غرزت في درنة بطاطا. وانتشرت على أرض الغرفة بضع أطباق وموقد صغير من آجر ترابي إلى جانب مدفأة لا نار فيها. ولاحظ بيكسيو بقية ورق الدفتر المشترى من البقال لكتابة الرسالة التي اجترتّها دون شكّ المرأتان بالتعاون بينهما. وكلمة مقزّز ليست إلا الصفة البسيطة للتعبير عن هذا البؤس، ولا حاجة للبحث في قواعد النحو عن صيغة أفعل تفضيل لها، إذ لن يوجد بؤس أشدّ منه.

عندما أبصرت المحتضرة جوزيف سالت دمعتان ثخينتان على خديها؛ فقال بيكسيو: «مازال يمكنها أن تبكي، هوذّا مشهد لا يخلو من غرابة: دموع تخرج من لعبة دومينو! هذا يفسّر لنا أعجوبة موسى.

قال جوزيف: ما الذي جعلها بمثل هذا اليباس؟.

قالت فلور: نار الندم، إيه، لا يمكن أن أطلب كاهناً لتناول القربان الأخير، فليس لدي شيء، حتى ولا شكل صليب أرى عليه صورة المخلِّص! ...».

ثم صرخت وهي ترفع ذراعيها الشبيهين بقطعتين من خشب محفور: «آه ياسيدي، إنني مذنبة تماماً، لكن الله لم يعاقب إنساناً كما عاقبني! ... قتل فيليب ماكس الذي نصحني بأشياء رهيبة، وها هو يقتلني أيضاً، إن الله يستخدمه كسوط الجلاّد! ... فأحسنوا التصرّف، فإنّ لنا جميعاً فيليبنا [1].

قال بيانشون: اتركوني لوحدي معها، أريد أن أفحصها لأعرف إن كان مرضها قابلاً للشفاء.

قال دروش: إن شفيت سيموت فيليب بريدو غيظاً؛ لذلك سأتحقق من الوضع القانوني الذي توجد فيه امرأته، إنّها غير محكومة كزانية، وهي تتمتع بكل حقوقها كزوجة؛ سيتعرض لعار دعوى فاضحة. سنعمل أولاً على نقل الكونتة إلى مشفى الدكتور دوبوا، في شارع فوبور سان دنيس، حيث سيعنى بها بكل ترف. ثم سأستحضر الكونت أمام القضاء للعودة إلى البيت الزوجي.

هتف بيكسيو: مرحى! يا دروش. أي متعة في ابتكار عمل خير يضرب الظالم بما هو أظلم منه!»

بعد عشر دقائق نزل بيانشون وقال لصديقيه: «سأهرع إلى دسبلن، إذ يمكنه

---

(١) في ١٩ تشرين الثاني ١٨٤٢. نشرت «غازيت دي فرانس» المقال التالي: أنهت صحيفة «لابرس» اليوم، روايتها المتصيّدة، بوفاة تلك المرأة نتيجة ما حلّ بها من بؤس بعد أن تزوّجت بطل الرواية، فيليب بريدو، الذي هجرها وهيأ الوسائل لإنهاء حياتها، ليتمكن من الزواج من ابنة مركيز. وتضمّنت «لابرس» هذه العبارة الغريبة «على لسان المتصيدة (... أحسنوا التصرف، فإن لنا جميعاً فيليبنا» هل يلزم القول بأية نيّة سجلّت الصحيفة الملكية الكبيرة المعارضة للويس فيليب هذه العبارة!».
كما أن غازيت دي فرانس ذكّرت أيضاً بتلك العبارة المذكورة في الاهداء الموجّه لنوديه: «فليرتعش المجتمع القائم فقط على قدرة المال، بملاحظته عجز العدالة أمام تركيبات نظام يؤلّه النجاح بتبرير جميع الوسائل المؤدية إليه».

أن ينقذ هذه المرأة بعملية جراحية. آه! قد تجدي العناية بها، إذ أن الإفراط في الشراب سبّب لها مرضاً عجيباً كنا نخاله قد انقرض [1].

علّق بيكسيو ساخراً: أيّها الطبيب المضحك، اعتن! أتعتقد أن مرضاً واحداً قد ألمَّ بها؟!».

لكن بيانشون كان قد غدا خارج الفناء لتلهفه في إعلان هذا النبأ الكبير لدسبلن. بعد ساعتين كانت المسكينة زوجة أخ جوزيف تنقل إلى المشفى اللائق الذي أنشأه الدكتور دوبوا، والذي اشتُري َفيمابعد من قبل مدينة باريس. وبعد ثلاثة أسابيع حوت « صحيفة المشافي» وصفاً لإحدى محاولات الجراحة الحديثة الأكثر جرأة التي تمّت على مريضة أشير إليها بالحرفين ف. ب. وتوفيت بعدها، رغم نجاح العملية، نتيجة الضعف الذي أوصلها إليه الشقاء.

ذهب العقيد الكونت دي برمبورغ، في مظهر حداد كبير إلى الكونت دى سولانج ينبئه بالمصيبة التي حلّت به. وساد الهمس في مجتمع النخبة أن الكونت دي سولانج سيزوّج ابنته إلى مُحَدث نعمة ذي مقدرة كبيرة يمكن أن يُعيّن قائد معسكرات، وقائد فيلق في الحرس الملكي. نقل دي مارسي هذا النبأ إلى راستينياك الذي تحدّث به خلال وجبة ليلية في مطعم **صخرة كانكال**، بحضور بيكسيو.

قال الفنان الفكه بينه وبين نفسه «لن يتمّ هذا!».

إن كان بين الأصدقاء الذين تجاهلهم فيليب، بعضاً منهم مثل جيرودو، ممن لا يمكنهم الإنتقام، فإنه كان من الرعونة بحيث أهان بيكسيو الذي يستقبل في كل مكان بفضل روحه المرحه، كما أنه لا يغفر الأساءة، وقد قال له فيليب وسط

---

(١) الواقع أن هذا التعبير وجد لدى العديدين من الكتاب في ذلك العصر، فقد ذكره ديدرو، ودوغاست سان جوست، وأكدّ عليه بلزاك مرة أخرى على لسان بيانشون في النسيبة بت. وفي رأي لي ياوانك يمكن أن يكون هذا المرض ناسوراً من منشأ زهريٍّ.

مجموعة من الأشخاص الرصينين وخلال، عشاء في «**صخرة كانكال**» عندما عرض بيكسيو زيارته في قصر برمبورغ: «ستزورني عندما تسمى وزيراً! ...

ردّ بيكسيو بهزلٍ يحمل الجد: هل يجب أن يغيّر الراغب في زيارتك مذهبه لتستقبله؟

لكنه قال بينه وبين نفسه: «إن كنت جليات، فإنني أملك مقلاعاً ولن تنقصني الحجارة»[1].

في اليوم التالي لجأ المخادع الساخر إلى صوان ملابس مُمثلٍ من أصدقائه حيث اختار البزّة الأكثر جبروتاً، ، تحوّل إلى كاهن بنظارات خضراء، واستأجر عربة أوصلته إلى قصر آل سولانج. فبيكسيو الذي وُصفَ بالمهرج من قبل فيليب، أراد أن يبرهن له عن قدرة تهريجه؛ واستقبل من قبل الكونت دي سولانج بناءً على طلب منه لأمر هام يريد ككاهن أن يفضي له به، ولعب بيكسيو بمهارة دور الرجل الوقور المثقل بأسرار هامة؛ فروى بصوت مزّيف قصةّ مرض الكونتة المتوفاة وفق السرّ الرهيب الذي عرفه من بيانشون، وقصة وفاة أغات، ووفاة الرجل العجوز روجه التي يتباهى بها الكونت دي برمبورغ. ثم قصة وفاة دكوان، والاختلاس الذي ارتكبه في صندوق الصحيفة وأحداث ماضي فيليب بكل مساوئها؛ وأنهى كلامه بالقول: «سيدي الكونت، لا تعطه ابنتك قبل أن تتحقق من كلّ هذه المعلومات، اسأل عنه أصدقاءه القدامى، بيكسيو، والنقيب جيرودو الخ. . ».

بعد ثلاثة أشهر كان العقيد الكونت دى برمبورغ يقيم حفل عشاء في منزله لدوتيّه، ونوسنجن، وراستينياك، ومكسيم دى تراي، ودي مارسى، وارتضى المضيف بكثير من اللامبالاة الآراء نصف المواسية التي أدلى بها ضيوفه حول فشل تقرّبه إلى آل سولانج.

---

(١) تلميح إلى قصة جليات الفلسطيني في التوراة ومقتله من قبل داوود بضربة مقلاع أصابه حجرها في جبينه.

قال له مكسيم: « يمكنك أن تجد من هم أفضل.

سأل فيليب دى مارسي: أي ثروة تلزم للزواج بآنسة من آل غرانليو.

أجاب دى مارسي بسفاهة: لكَ أنتْ؟ لن تُعطى الأكثر دمامة من الستة[1] بأقلّ من عشرة ملايين.

قال راستينياك: باه! بمئتي ألف فرنك دخل سنوي، تحظى بالآنسة دي لانجه[2]، فابنة المركيز يمكن أن تناسبك: فهي دميمة، وفي الثلاثين من العمر، دون أية دوامة: وهذا يناسبك

أجاب فيليب بريدو: سيكون لديّ خلال سنتين عشرة ملايين فرنك.

هتف دي تيّه باسماً: نحن في ١٦ كانون الثاني، وأنا أعمل منذ عشر سنوات، ولم أصل إلي هذا المبلغ.

أجاب بريدو: سنتشاور وسترى كيف أفهم الشؤون المالية.

سأله نوسنجن: كم تملك في المجموع؟.

رد فيليب: ببيع سندات دخلي، وباستثناء أرضي وقصري اللذين لاأستطيع، ولا أريد المجازفة بهما لأنهما يدخلان في إقطاعية حق البكارة، يمكن أن أصل إلى ثلاثة ملايين ... ».

تبادل نوسنجن ودوتيه النظرات، وبعد نظرة ماكرة قال دوتيه لفيليب: «ياعزيزي الكونت، يمكننا العمل معاً، إذا أردت . ».

أدرك دى مارسي مغزى النظرة التي وجهها دوتيه لنوسنجن وهي تعني: «لنا

---

(١) في الملهاة الانسانية ذكر لخمسة فقط، وفي العام ١٨٢٨ كانت كلوتيلد وهي الثانية في السادسة والعشرين من العمر، وفي العام التالي ١٨٢٩، ورد ذكر قرب زواجها بلوسيان دي روبمبرة. أما الابنتان الاخيرتان سابين وماري أتنايس فكانتا في التاسعة والثامنة من العمر.

(٢) هذه هي المرة الأولى التي تذكر فيها هذه الشخصية في الملهاة الإنسانية.

الملايين» والواقع أن هاتين الشخصيتين، صاحبي المصارف الكبرى، كانا في قلب الأحداث السياسية، بحيث يمكنهما التلاعب في البورصة، في وقت معين، وبضربة مؤكدّة ضد فيليب عندما تبدو له أن جميع الاحتمالات لمصلحته، بينما هي في الواقع لمصلحتهما. وحدثت تلك الحالة. ففي تموز ١٨٣٠ عمل دوتيّه ونوسنجن على إكساب مليون وخمسمئة ألف فرنك للكونت دي برمبورغ، الذي لم يحترس منهما أبداً، ووجدهمامستقيمين يخلصان النُصح. وأعتقد فيليب المغتني بمحاباة الملكية الثانية، المخدوع خاصة بازدرائه العميق للبورجوازيين بنجاح مراسيم الزجر(١) فضارب على غلاءأسعار الأسهم بينما آمن نوسنجن ودوتيّه بثورة فراهنا على هبوطها. هذان المتواطئان الماكران أظهرا للكونت دي برمبورغ مشاركته في الرأي، وبدا عليهما مقاسمته قناعته، وولّدا لديه الأمل بمضاعفة ملايينه، وأظهرا له العمل على إكساب هذه الأضعاف؛ وقاتل فيليب كرجل يساوي النصر لديه أربعة ملايين فرنك. وكان إخلاصه متميّزاً بحيث تلقى الأمر بالعودة إلى سان كلو مع الدوق دى موفرينيوز للاستشارة؛ وبادرة الثقة هذه أنقذت فيليب، إذ أنه أراد في ٢٨ تموز أن يقوم بهجوم لإبعاد الثائرين عن الجادات، ولو فعل لتلقى رصاصة ما من صديقه جيرودو الذي كان يقود مجموعة من المقتحمين.

بعد شهر لم يَعُد العقيد بريدو يمتلك من ثروته الواسعة إلا قصره، وأرضه، ولوحاته، وأثاثه. وارتكب وفقاً لما قاله حماقة الاعتقاد بعودة الفرع البكر من آل بوربون إلى العرش فبقي مخلصاً له حتى العام ١٨٣٤، وبرؤية جيرودو عقيداً تملكته غيرة يمكن إدراكها، فاندفع في القوات العاملة في ميدان القتال، وحصل

(١) كانت مراسيم الزجر الصادرة في ٢٥ تموز ١٨٣٠ (والتي نشرتها المونيتور في ٢٦ تموز) أحد أسباب ثورة تموز ١٨٣٠، هذه المراسيم التي نصت على حلّ البرلمان قبل انعقاده، وتعديل الدستور، وتقييد حرية الصحافة أدّت إلى الثورةالتي اضطرت شارل العاشر إلى التنازل عن العرش وحلول لويس فيليب ممثل الفرع الثاني من آل بوربون مكانه ملكاً على فرنسة.

لسوء الحظ على قيادة كتيبة عاملة في الجزائر [1] حيث بقي ثلاث سنوات في المركز الأكثر خطورة مؤمّلاً الحصول على الترفيع إلى رتبةلواء. لكن نفوذاً ماكراً، هو نفوذ اللواء جيرودو حال دون ذلك، وغدا قاسياً وأفرط في القسوة على مرؤوسيه فكرهوه رغم شجاعته أبداها على طريقة مورا[2]. وفي بدء العام الحاسم ١٨٣٩، وفي هجوم معاكس على العرب، خلال تراجع أمام قوى أكبر عدداً، انطلق ضد الأعداء تتبعه كوكبة من الفرسان أحيطت بقوات عربية أكبر، وكانت المعركة دامية، مروعة، رَجُلٌ لرجلٍ قاتلٌ أو مقتول؛ والخيالة الفرنسيون لا يستطيع إلا أقلّهم الخلاص؛ وعندما لاحظ أولئك البعيدون قليلاً عقيدهم مطوّقاً، لم يروا تعريض أنفسهم للخطر والمجازفة عبثاً لتخليصه. وسمعوا هذه الكلمات: «عقيدكم! إنّه لي! عقيد من الامبراطورية!» وتبعت ذلك زمجرات مرعبة. لكن من على البعد التحقوا بفيلقهم. ولقي فيليب موتاً رهيباً إذ قُطِعَ رأسُه بعد أن سقط مثخناً بالجراح تحت ضربات اليطقانات. [3].

تزوج جوزيف خلال ذلك الوقت، تحت رعاية الكونت دى سريزي من ابنة

---

(١) بدأ غزو فرنسة للجزائر في العام ١٨٣٠ واقتصر الاحتلال الفرنسي حتى العام ١٨٣٤ على المنطقة الساحلية فقط، وتمّت معاهدة تافنا مع الأمير عبد القادر الحاج (الجزائري) على أن يبقى أميراً على المناطق الداخلية في العام ١٨٣٧، لكن سرعان ما نقضت تلك المعاهدة في العام ١٨٣٩ وعادت الحرب مع الفرنسيين حتى استسلام الأمير عبد القادر في العام١٨٤٧ واستيلاء الفرنسيين على جميع المناطق الداخلية بقيادة بوجو ثم لا موريسيير. سجن الأمير عبد القادر في فرنسة (طولون ثم بُو، ثم امبواز) إلى أن أطلق سراحه في العام ١٨٥٢ فجاء إلى دمشق مع عائلته وعاش فيها حتى وفاته في العام ١٨٨٣.

(٢) مورا (١٧٦٧-١٨١٥) مارشال فرنسي، زوج كارولين بونابرت، نُصّب ملكاً على نابولي، لكنه خلع عن العرش بعد سقوط نابليون. جرّب استعادة ملكه بثورة مع أنصاره وبقايا جيشهم، وقبض عليه في بيزو وأعدم رمياً بالرصاص.

(٣) **اليطقان**: سيف تركي قصير عريض ومعوّج عند رأسه، كان مع السيف الآخر الفارسي المعروف **بالسمطرة** من الأسلحة التقليدية في الشرق.

مزارع مليونير عجوز، وورث قصر برمبورغ وأرضه التي لم يستطع أخوه التصرّف بهما رغم حرصه على حرمان عائلته من نصيبها من الميراث؛ وأكثر ما أدخل السرور على نفس الرسّام تلك المجموعة من اللوحات الجميلة التي عادت إليه أخيراً.

امتلك جوزيف إرثاً، من حميّه الريفي الثري، المشابه لهوشون في ادخار النقود، يدرُّ عليه ستين ألف فرنك دخلاً سنوياً. ورغم اللوحات الرائعة التي رسمها، والخدمات الكبيرة التي يقدّمها للفنانين فإنّه لم ينتخب حتى الآن عضواً في المجمع[١]. لكنه وفقاً لشرط إنشاء إقطاعة البكورية ورث أيضاً لقب الكونت دي برمبورغ الذي يثير ضحكه وسط أصدقائه في محترفه وخاصة عندما يقول له صديقه الرسّام ليون دي لور[٢]ا الذي لم يتخل عن عادته القديمة في تحوير الأمثال: «للكونتات الطيّبين الألبسة الجيّدة»[٣]والذي علّق خاصة على تواضع جوزيف عندما تلقّى عودة ميراث أجداده بحظوة من القدر بعد اغتصاب أخيه له:

«باه! إن الظمأ يأتي خلال الأكل[٤]!».

باريس، تشرين الثاني ١٨٤٢

---

(١) لعلّ في ذلك تلميح من بلزاك إلى أنه بدوره لم ينتخب عضواً في هذا المجمع رغم شهرته الأدبية. ومن المعروف أن المجمع Institut يتألف من خمس أكاديميات هي:
١ - الأكاديمية الفرنسية ٢ - أكاديمية علوم اللغات والمخطوطات ٣ - أكاديمية العلوم وفيها ١١ فرعاً
٤ -أكاديمية الفنون الجميلة وفيها خمسة أقسام ٥ - أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية وفيها ستة فروع.

(٢) ليون دي لورا: هو ميستيغري في رواية بداية في الحياة.

(٣) للكونتات الطيّبين الألبسة الجيّدة LesBons Comptes Ont Les Bon Habits هو تحوير للمثل: الحسابات الجيّدة تكسب الأصدقاء الجيدين: أو المعاملة الطيبة تخلق العواطف الصادقة: Les Bons Comptes Font Les Bons Amis

(٤) الظمأ يأتي خلال الأكلLa Pépie Vient En mangeantهو تحوير للمثل: الشهية تأتي خلال الأكل، أو كلّما زاد ملك المرء كلّما طالب بالمزيد. L'Appetit Vient En Mangeant

دراسة حول الرواية والمؤلّف

إعداد رينه غيز

إن دراسة التكوّن هي غالباً أفضل مقدمة لقراءة رواية لبلزاك، ويجب وضع تاريخ نص[1] المتصيّدة في الإطار الخاص للعلاقات بين الكاتب والصحف اليومية في مرحلة ١٨٤٠-١٨٤٢، وهي المرحلة التي بدأ بهابلزاك يشعر بثقل ضغوط نمط النشر الجديد، أي نشر الروايات في مسلسلات، والمجازفة، بعد فترة من التأقلم، بتجاوز الأقصوصة، واللجوء إلى تقطيع الرواية بحيث تنشر على شكل حلقات؛ وفي هذا الوضع بالنسبة لبلزاك شيء من الخصوصية؛ فطريقته لا تتناسب أبداً مع ما يرغب به مدراء الصحف، لكثرة التفاصيل وندرة الأحداث المفاجئة، وأيضاً الجرأة في الحصة المخصصة لمعطيات التشريح، والتلميح، بل واتخاذ المواقف السياسية التي لم تكن لتستهوي الجرائد مثل صحيفة لابرسLAPRESSE، والسيكلLe Siécle؛ وما يلزم للصحف وفقاً لقول بلزاك، «هو شيء بين الموعظة والأدب، شيء يصنع أعمدة لاتوجد فيها فضائح[2]».

هل سيصل الأمر إلى مقاطعة بينه وبين الصحافة؟ كان الوضع متوتراً. فهناك

(١) بحث لرينه غيز بعنوان «بلزاك والرواية المسلسلة» في السنة البلزاكية ١٩٦٤.

(٢) مقدمة المرأة السامية (المستخدمون).

في العام ١٨٣٩ قضية بيتل، وموقف بلزاك فيها لا يخلو من غموض، وهناك في آذار ١٨٤٠ النقد العنيف الموجّه **لفوترن** من قبل جميع النقّاد أو الصحفيين المختصين تقريباً، وهناك أيضاً نشر **رجل كبير من المقاطعات في باريس** الرواية التي لم يراع فيها بلزاك أبداً الصحفيين. لكن بلزاك لا يستطيع الاستغناء عن الصحف: ليس فقط لأن النشر في مسلسلات يعطي دخلاً مادياً إضافياً معتبراً، وإنما أيضاً لأن من الصعب أن ينشر، أو يباع خاصة للمكتبات، مؤلّف لم يعرف الشهرة في المسلسلة، وتلزم بالتالي الصحف الصمت حياله. أخيراً فبلزاك مدين للبرس والسيكل: فقد قبض منهما سلفاً لقاء تسليم نسخ. كما أن الصحف من جهتها حريصة على بلزاك: فلاسمه قيمة دعائية، وهو يظهر في الدعايات الأدبية كضمانٍ للنوعيّة الجيدة. فالطرفان إذاً يعيان هذا الوضع، ، كلّ منهما يجرّب أن يستغله لمصلحته.

كان دو جاريه مسؤول القسم الأدبي في **لا برس** يريد أن يحصل من بلزاك على قصص قصيرة ويريد هكذا أن يحدّ من مجازفات إغاظة جمهوره، واستثمار شهرة بلزاك مرات عديدة. وفي شباط ١٨٤٠، يذكّر الروائي بأنه ملزم بموجب عقد، أن يقدم للصحيفة خمسين حلقة مسلسلة، تشكل على الأقل ثمان قصص، أي ما يقرب من ست حلقات لكل قصة. والواقع أن بلزاك لم تكن لديه أيّة نيّة في الامتثال لهذه الشروط؛ فهو من جهة سيصدر صحيفته الخاصة: **المجلة الباريسية**، ويعتمد على القصص التي يمكن أن يكتبها ليؤمن لها النجاح (ونشر فيها ز. **ماركاس** في تموز ١٨٤٠، **ونزوات كلودين** التي غدت **أمير من بوهيمية في آب**) وهو لا يتمنى أن يسلمها لصحف يومية لا يأتيه منها إلا النزر اليسير، ومن جهة أخرى يفكر بنشر **الملهاة الانسانية**، ولإتمامها يجب أن يكتب مؤلّفات تتميّز بالنفس الطويل.

يبدو من الطرافة تتبعُ المناورات التي قام بها الروائي، ومسؤولو البرس والسيكل، كلّ من جهته. فبلزاك راح يفتش عن صحف أخرى واتصل **بالفالانج** من أجل مؤلّف بجزئين؛ وقنع بنشر رواياته في صحفٍ من الدرجة الثانية: **الكومرس**

(التي نشـرت **قضية غامضة**) و**المساجه** (التي استقبلت **أورسول ميروه**)؛ أراد أن يبرهن بذلك **للبرس والسيكل** أن بإمكانه منافسة أوجين سو على الأقل، ويحملهما على الانتظار؛ وألحّ دوجاريه على موقفه في آب ١٨٤٠ وذكّره بتقديم مخطوطات بقيمة ٣٠٥٠ فرنك مترتبة عليه **للابرس**؛ ووعد بلزاك بالعمل على ذلك، في ٩ آب، وتقديم مخطوطة «خلال أيام قليلة» لكنه لم يقدّم للتنضيد الملازم الخمسة عشـرة الأولى إلا في ١٩ أيلول، وتحت عنوان **الأخوين** من الرواية المستقبلية **المتصيدة**؛ ولم يتابع تسليم التتمة إلا في تشرين ثاني، وراحت الرواية تتضخّم وتتجاوز الحدود المقرّرة. ولم ترق هذه الطريقة في الضغط لدوجاريه فجعل بلزاك ينتظر حتى شباط ١٨٤١ لنشر مؤلّفه.

في تلك الفترة لجأت لسيكل إلى ذات الطريقة من أجل **آل لكاموس(المعذب الكالفني)**؛ ولا شك أن الإقبال على **قضية غامضة** التي نشرتها الكومرس من ١٤ كانون الثاني حتى ٢٠ شباط ١٨٤١، دفعت لابرس إلى نشر الأخوين، وهذا ما شجَّع **لسيكل** بدورها على نشر **آل لكاموس** (كتب فيكتور هوغو في ٥ آذار لبلزاك: إن عائلة بريدو لوحة معلم).

قد تدفعنا هذه النزاعات، وهذه المناورات إلى الابتسام، لكن هذا التأخير في النشر سبَّط من همّة بلزاك، وهو من نعرفه يحتاج إلى الملاحقة حول مؤلَّف، بعد أن يشعر أن الوقت قد أدركه لإنجازه بالشكل النهائي، وهكذا لزمه نحو سنتين للعودة إلى المتصيّدة، فقسمها الثاني: **عائلة عازب في المقاطعات** لم يظهر في إحدى وعشرين حلقة إلا بين ٢٧ تشرين أول إلى ١٩ تشرين الثاني ١٨٤٢؛ لكن بلزاك كان قد كتب بين الجزئين الروايات التالية: **قضية غامضة، أورسول ميروه، مذكّرات زوجتين شابتين، أليير سافاروس، بداية في الحياة**، كما بدأ بتنظيم نشر **الملهاة الانسانية** مع مقدّمة **الوجه الآخر للتاريخ المعاصر** واستفاد من هذا النتاج الهائل المؤلَّف المتوقف في تشرين ثاني ١٨٤٠ ليستأنَف في تموز- آب ١٨٤٢؛ كما أن أوجين سو بدأ بنشر **أسرار باريس** في الفترة التي ظهرت فيها **عائلة عازب في المقاطعات**.

لا تدين رواية بلزاك إلا بالقليل لأسرار باريس، لكن هذا التوافق في الزمن يفسّر لنا العناوين المعتمدة، وقد كان طبيعياً أن يختار عنوانين مختلفين، هما **الأخوان، وعائلة عازب في المقاطعات** للقسمين المنشورين في مسلسلة **لابرس**؛ وبالمقابل فممّا يثير الدهشة أنه لم يحتفظ من أجل النشر في المكتبة، في كانون أول ١٨٤٢، لدى سوڤرن بعنوان **المتصيّدة**، المسجّل منذ نيسان ١٨٤١، في العقد الناظم للنشر، وهو عنوان موفق، حتى أن **غازيت دي فرانس** وجدت من الطبيعي أن تشير للمؤلَّف تحت هذا الاسم في سلسلة ملاحظات نشرتها في تشرين أول -تشرين ثاني ١٨٤٢ لمهاجمة الرواية المسلسلة، تلك التي ينشرها بلزاك في **لابرس**، أو الأخرى التي ينشرها أوجين سو في **جورنال دي دِبا**. حملت طبعة سوڤرن في العام ١٨٤٢ عنوان **الأخوين**، بينما سميت الرواية في طبعة فورن من الملهاة الانسانية **عائلة عازب في المقاطعات**، ولم يعطها بلزاك العنوان الذي تعرف به حالياً إلا على نسخة شخصية من طبعة فورن المصحّحة. كل ذلك، ببساطة، لأن هذا العنوان يذكّر مباشرة بشخصية في **أسرار باريس**؛ فنقاد ذلك العصر، وخاصة الصحفيان الملكيان، ألفريد نتَمن وتيودور موره وجدا تقارباً بين **المترنمة** وهو لقب **فلُور- دي -ماري** في رواية سو، والمتصيّدة لقب **فلُور برازيه** في رواية بلزاك؛ حتى أن نتمن كتب «إن مترنّمة السيد سو تمنع السيّد بلزاك من النوم».

ففي الفترة ١٨٤٢-١٨٤٣ كانت مغامرات **المترنمة** مستمرّة في إشغال الناقدين، واستهواء القرّاء مما دفع بلزاك للتخلّي مؤقتاً على الأقل عن عنوان «المتصّيدة»، وهو ردّ فعل بسيط دون شكّ لكنه يدلّ على تأثير طراز النشر في مسلسلة على تأليف بلزاك ونشره لهذه الرواية.

كانت النتيجة الأكثر وضوحاً من شروط العمل هذه أنه أطال أكثر من سنتين تحرير مؤلّف متصوّر في مجمله منذ مدّة طويلة، مما أعطاه سعة وغنى وتنوعاً، كثافة مدهشةً. و**المتصّيدة**، وهي نتاج زمن النضج الكامل لبلزاك، تبدو كمجموعة مسائل بلزاكية كبرى وكملتقى التيارات الكبرى التي تحرّك **الملهاة الانسانية**. وسنحاول أن نبرز الجذور العميقة لهذا المؤلّف، ونبيّن بأي مسلك وصل إلى هذا المدى.

يعود اهتمام بلزاك بقضية المواريث إلى زمن بعيد جداً، فمنذ العام ١٨٢٤، وفي حق البكورية بيّن أن إلغاء هذا الحق يقود إلى تفكّك العائلة، وبالنتيجة إلى تفكك المجتمع، وأغرته فكرة التصدي لهذه المشكلة في مؤلف روائي، وفي وقت مبكّر في الواقع، منذ ١٨٣٠-١٨٣١، تظهر في ملاحظاته، في بداية مجموعته: **أفكار، ومواضيع، وشذرات**؛ هذا الموضوع: «الميراث- ابن أخ في مشهد- له خليلة فاتنة -يمنحها العم العاشق ثروته- يملّ منهاابن الأخ فيتركها للعم -وينتحر العم بعد أن يلوم ابن أخيه- وتتزوج الخليلة والعاشق بعد موت العمّ -كل شيء كان مرتباًفي سقيفة- الغرض تجريد شركاء الميراث من أنصبتهم». مثل هذا المخطّط يتضّمن شخصية من نوعية فيليب بريدو، الذي نراه في القسم الأخير من **المتصيدة** يستخدم وسيلة قريبة جداً مما ذكر لتجريد جوزيف، شريكه في الميراث، من نصيبه؛ وللإستئثار بكامل ميراث جان جاك روجه. يمكن اعتبار هذه الملاحظة، دون شك، نقطة الانطلاق البعيدة في تكوين هذه الرواية.

ومنذ الفترة ١٨٣٢-١٨٣٣، تطرق بلزاك في مناسبات عدة للموضوع المتصورّ: **فالميراث** بدا وكأنه يقدّم في تلك الفترة **مشهد الحياة الخاصة**، لكن في آب ١٨٣٣، تطوّرت الفكرة البدائية، دون شك، في فكر الروائي، وتحوّل المشروع إلى **ورثة بواروج**، جزء من التاريخ العام مخصّص **لمشاهد من حياة المقاطعات**. وهو تحوّل منطقي، ففي المقاطعات تتكوّن الثروات التي تنفق في باريس (وبلزاك يأسف لذلك في مقدمة **حجرة العاديات القديمة**) وفي المقاطعات يجب أن تقع معظم أحداث القصّة. كما تم تغيير آخر: فالمؤلّف سيشترك مع مجموعة **العازبين**، وهو تطورّ منطقي أيضاً: فالخال ذو الميراث عازب، لكن هذا التطور مرحلة هامة في تكوين **المتصّيدة** إذ قرن منذ العام ١٨٣٣ الفكرتين الرئيستين في المؤلّف: الإرث والعزوبيّة.

لا يتسع المجال لمتابعة تاريخ المشروع الجديد، **وورثة بواروج** تندرج في برامج بلزاك من ١٨٣٣ إلى ١٨٤٧، لكن استمرار العنوان قد يخدعنا: ويبدو لنا أنه لا

يتضمّن دائماً المحتوى ذاته. ويبدو واضحاً بصورة خاصة، منذ العام ١٨٣٩، أن المشروع قد أُجّل. ففي مقدمة **حجرة العاديات القديمة** (المنشورة في آذار) التي تركّز على مشاريع **مشاهد من حياة المقاطعات** يصرّح بلزاك بأنه لم يَعدُل عن هذا المؤلّف الذي أعلن عنه مراراً. لكنه يتطلّب: «دراسات طويلة تقتضيها أهمية الموضوع، فهو على الأقل يجب أن يبيّن الفوضى التي تسببها روح القوانين الحديثة في قلب العائلات». وفي الفترة نفسها يظهر للقسم ذاته من المجموع مؤلفان آخران يعطيهما بلزاك إلى جانب **العازبين** (قصة **كاهن تور** الحالية) الموقع الموقوف في البدء **لورثة بواروج**، الذي انقضت سنوات دون التطرّق إليه: وهما**بييريت** والرواية التي غدت **المتصّيدة**، إذ ورثتا دون أدنى شك قسماً من المواضيع التي أراد بلزاك أن يبحثها في **ورثة بواروج**؛ وعلى الأقل موضوع الإرث. يوجدإذاً، كما نرى، مرحلة نضوج طويل للموضوع من ١٨٣١ إلى ١٨٣٩ قبل أن يبدأ تحرير المؤلَّف المذكور حصراً، في تموز ١٨٣٩.

نحو شهر تموز ١٨٣٩ إذاً، ولدت في ذات الوقت تقريباً **بييريت والمتصّيدة**: وهو توافق يجب الاشارة إليه؛ إذ ذُكِر هذان المؤلّفان لأوّل مرة في وثيقة مؤرّخة هي رسالة للسيدة هانسكا؛ كما يبدوان مرتبطين أيضاً في ورقة منعزلة تحمل سلسلة من العناوين منسوخة بعناية: **بييريت**، **الأبله پيدفر**، **لافرلور** الخ... والواقع أن لافرلور ذُكِرَت منذ منتصف العام ١٨٣٩، وفي زاوية من الورقة نفسها، جمع بلزاك تحت عنوان جمعي: **العازبون: الأبله پيدفر**، **بييريت**، **وكيل الكاتدرائية**، والنص الذي سبقت عنونته **العازبين** ثم تحوّل إلى **كاهن تور**. أما الأبله **پيدفر** فهو العنوان الأوّل **للمتصّيدة**. ونجد أيضاً في ملاحظة أخرى لبلزاك، ثلاثة «أسماء لأشخاص: ماكسنس جيري، فلور بروده، پيدفر، ومن السهل التعرف على أنّها أسماء الشخصيات الأساسية في **عائلة عازب في المقاطعات**. وبين تموز ١٨٣٩ وكانون ثاني ١٨٤٠ يتحوّل العنوان ويغدو **الأبله روجه**؛ ويشغل عند ذاك في مخطّط المؤلَّف مكان الأبله پيدفر في الملاحظة السابقة التي تعتبر متعلّقة **بالمتصّيدة** في **الملهاة الإنسانية**. وهكذا فإن **بييريت** و**المتصّيدة** مقترنتان في خاطر بلزاك.

مؤلَفان إذاً يولّدان كتوأمين، وفقاً لتعبير بلزاك بالذات نسبة لقصتي **سيزار بيروتو** و**بيت نوسنجن**. والواقع أن الأمر يتعلّق بشخصين توأمين: روغرون وروجه، المقدّر لهما أن يمثّلا معاً وبطريقة متكاملة نموذج العازب؛ والتوازي بينهما واضح؛ وبلزاك يمنحهما عملياً الطبع نفسه، فالاثنان «فَدْمان» بالمعنى البلزاكي للتعبير، ولهما أمام النموذج النسوي ردّة الفعل نفسها؛ فهوى روغرون لباتيلد دي شارجبُف بمثل عنف وخجل هوى روجه لفلور برازيه. وباتيلد بالرغم من نبل محتدها، وثقافتها، لا تختلف كثيراً عن فلور، وبلزاك يحدثنا عن جمالها كفتاة حانة، ويبيّن لنا دلعها أمام روغرون، والطمع بمال كلّ منهما دفع إلى الزواج به، وكان الزواج شؤماً على كليهما. وبلزاك يؤكّد على هذه الحقيقة بالنسبة لروغرن، في مقدمة **بييريت** عندما يقول: «يجب عدم اعتبار زواجه خاتمة، فسيبقى روغرون، ولن تطول حياته، فالزواج سيقتله». وكأنَّه يريد أن يشير إلى وحدة مصيرهما فيستشفُّ للأرملة روغرون أن تغدو المركيزة دي مونتريفو، زوجة لواء امبراطوري، والسيدة الأرملة روجه تغدو الكونتة دي برمبورغ زوجة عقيد امبراطوري. وبهاتين الشخصيتين اللتين يميّز فيهما خاصة فرق السن، أراد بلزاك أن يبيّن أن قدر العازب هو أن يغدو بعد زمن، طال أو قصر، فريسة أولئك الذين يطمعون بثروته.

غير أن بلزاك شدّد زيادة على هذه القرابة بين الشخصيتين بتعداد نقاط التماس بين المؤلَّفين، ولا نستطيع هنا أن نضع قائمة بكل ما يذكّر **ببييريت** في **المتصّيدة**، لكن لنشر إلى التشابه بين منزل روغرون في بروڤنس، ومنزل روجه في إيسودون: الأصل «غير الصافي» نفسه)في الحالتين، يقوم بحرمان شركاء في الميراث من أنصبتهم). والغنى ذاته المقترن بغياب الذوق. ولنشر إلى توسط الأب هابِر، وتحوّل سيلفي روغرون في **بييريت**؛ ومخطط العجوز هوشون لتحويل روجه عن رأيه في **المتصّيدة** ولنشر أيضاً إلى التقارب في الأسماء، مما يقيم روابط بين الشخصيات في المؤلفين: تشابه اسمي روغرون وروجه، وغورو وجيرودو، وبريغو وبريدو... والنجار بريغو يغدو ضابطاً في جيش ملكية تموز، في الجزائر، في ذات الفترة التي يجد فيليب الموت هناك. وكان بلزاك، على ما يبدو، حريصاً

على أن يقرن القارئ هذين المؤلَّفين المخصصين على أن يتتابعا في الملهاة الإنسانية، واللذين ظهرا في فترة اهتم فيها الروائي على بسط سلسلة من مشاهد حياة المقاطعات وكأنها صحيفة دوّارة؛ فنحن في **بييريت** وموضوع السياسة في المقاطعات، نقارب **نائب آرسي**، وفي **المتصّيدة** يتمُّ التركيز على فكرة الإرث مما يوجهنا إلى **أورسول ميروه**، غير أن في أصل **المتصّيدة** نقطتي نظر يجب التنبّه لهما: فالعمل متصورّ بالعلاقة مع مجموعة تمّ لبلزاك إنجازها، عدا عن رابطته الوثيقة **ببييريت**.

غير أن **بييريت** سابقة **للمتصّيدة**، لذلك يبدو لنا أنها تلعب في إعداد **المتصّيدة**، الدور الذي يؤول غالباً في ولادة روايات بلزاك إلى مصادر كتيبة. ومن المعروف أن الخلق الروائي لدى بلزاك ينبثق غالباً من انعكاس نقدي لحالة روائية أو مأساوية؛ وكلّ شيء يجري وكأنَ بلزاك أمام حالة معيّنة يطرح على نفسه السؤال التالي: ماذا يحدث لو أن أحد عناصر المشكلة قد تغيّر؟ ونحن نعتقد هنا بأن تحرير **المتصّيدة** ينطلق من انعكاس من هذا النوع على الحالة التي خلقها بلزاك نفسه في **بييريت**. في **بييريت** لدينا عازب كهل، في بيت آوى فتاة يتيمة جميلة جداً، لكن فيه أيضاً سيلفي، وروغرون ينسخ موقفه من بييريت على نسق موقف أخته. ماذا سيحدث لو أن روغرون كان وحده في مواجهة بييريت؟ إن فكرة عازب كهل يغري مراهقة هي بين ملامح **بييريت** في مناورة غورو مدفوعاً من قبل ڤينه. وتظهر حالة أخرى، يهتم بلزاك بجعلها ممكنة ومحتملة الوقوع، ويبدو أن فكره كان منشغلاً بها بدءاً من الحالة التي خلقها في قصة **بييريت**. وهي تتعلق بفصل الأخ والأخت؛ فالأب روغرون، وفيه بعض الملامح الموجودة لدي الأب روجه يرسل على التتابع ابنته ثم ابنه إلى باريس، أما الأب روجه فلا يرسل إلا ابنته؛ ولتبرير هذا الفرق في المعاملة؛ يبتكر بلزاك، والفكر لديه ينتقل بسرعة من النتائج إلى الأسباب، شكوك روجه حول أبوّته لأغات. والواقع إنه يغيّر وضعاً في رواية **بييريت**، حيث يوجد على مستوى الجيل ذاته، قصة ولدين في أخوة من جهة الأب، يحرم أحدهما من

نصيبه في الميراث. كما يتعلق الأمر أيضاً بإدخال فلور، هذه النسخة عن **بييريت**، في عائلة العازب الكهل، مما يتطلّب من جهة ماضياًوتربية مختلفين بالنسبة للفتاة الصغيرة -رغم أن بييريت تصل أيضاً لدى روغرون بمثل جهل فلور في الواقع، فهي مثلها لم تعرف إلا الحياة الحرّة في الحقول- ومن جهة أخرى رد فعل لا يمكن أن ينسب بوجه الاحتمال إلى جان جاك روجه، هذا النسخة عن الفَدْم روغرون: إذ من غير المحتمل أن يجرؤ على إدخال فتاة إلى بيته، ويجد بلزاك الحلّ في إدخال الأب لهذه الفتاة.

هوذا إذا بلزاك مع عازب وهُب خادمة -خليلة: سيدخل إلى منزله عاشقاً يخدع العازب الكهل؛ وهكذا يعود إلى المخَطَّط المتصورّ منذ مدة طويلة، أي من العام ١٨٣١، ابن الأخ الذي يتزوج الفتاة ويرميها في أحضان عمّه ليقتنص ثروته. في تلك الفترة دون شك خلَقَ الثلاثي: ماكسنس جيري، وفلور برودي، وبيدفر. وهكذا وُجد لدى الروائي مخطط ذو وجهين: أحدهما يظهر كيف أبعد الأب ابنته، وأدخل إلى منزله مراهقة. والآخر تبدو فيه المراهقة شابة تقتنص ثروة الابن العزب الأبله بالتواطوء مع عشيقها. لكن في مخطط ١٨٣١ يكون العاشق أيضاً نسيباً ويحرم شركاءه من الميراث. والعنصر الأول سيسمح لبلزاك بضمّ الوجهين: يغدو العاشق ابن الأخت المرسلة إلى باريس، ويوجد له بلزاك أخاً ليتمكن من توضيح كيفية حرمان شريك من ميراث. ونرى هنا كيف عمل بلزاك بالعودة إلى مخططه على ترجح روايته من قصة عازب إلى قصة ميراث؛ وكيف أيضاً تطوّر القسم الأول هنا، بحيث لم يعد يقتصر هنا على إبعاد أغات، وإنّما على تتبّع حياتها حتى اللحظة التي سيذهب فيها أحد ولديها «لاستعادة» الميراث؛ وأكثر من ذلك، لإظهار الولدين بطريقة شديدة التباين بحيث يبدو سلوك من سيسلب الآخر محتمل الوقوع. وهكذا تمّ تصورّ الفكرة الرئيسة في **الأخوين**، وتحدّد الإطار الأولّي لهذا القسم في خطوطه الرئيسة؛ ورسمت الرواية في مجموعها، ورأى بلزاك عندئذ فيها موضوعاً بسعة موضوع بييريت.

بعد التصوّر والتحضير، وهما عمل لا يترك لدى بلزاك أي آثار مكتوبة، يبدأ طور التحقيق، وهو طور رئيس ليس فقط لأنه، كما أشار اليه بلزاك غالباً، انتقال من عذوبة الخيال إلى مشقّة التنفيذ، وإنّما أيضاً وبصورة خاصة لما يتمّ فيه من تحويل للأشـخـاص، الذين لم يتعدّوا الدور المحدّد لهم في المخطط الروائي، إلى شخصيات حيّة. ومن المهم، على ما نظن، الإشارة أولاً إلى هذه السيرورة قبل التساؤل عن النماذج الممكنة لهذه الشخصية أو تلك: فابتكار الشخصية يتم لدى بلزاك بالاستعارة من الحقيقة الملاحظة أو المعاشة في الأغلب، أو من نماذج أدبية أحياناً، انطلاقاً من وظيفة محدّدة، أو من تمثيل طراز أو دور سيُلَعب، في فعل روائي حُدّدت خطوطه الكبرى.

تمّ تحقيق **المتصيّدة** كما رأينا، في مرحلتين متميزتين، فصلت بينهما سنتان تقريباً ولعبت شروط النشر دوراً في هذا التأخير، سبق أن أشرنا إليه. لكن من الواضح أيضاً أن بلزاك في وقت ما، وعلى وجه التحديد في تشرين ثاني ١٨٤١، أخرّ بنفسه تتمة الرواية بعد أن كانت من مشاريعه المباشرة، وأحل محلها **أورسول ميروه** لدى سوڤرن، **ومذكرات زوجتين شابتين** في لابرس. لماذا؟ السبب بسيط، وهو أن القسم الأول من المؤلَّف، في هذا الطور من التنفيذ، نما بشكل دفع بلزاك لأن يعيد التفكير في المخطط المرسوم لتتمة الرواية. وسنبيّن بفحص متعاقب لماذا وكيف نما القسم الأوّل، وهو الأخوان، وكيف أدى هذا النمو إلى إعادة النظر في القسم الثاني خلافاً لما كان متصوّراً.

من ملاحظة المخطوطة وفحصها يبدو بوضوح أن نص القسم الأوّل غدا ضعفي ما توقعه بلزاك والأسباب الممكنة لهذا الإسهاب عديدة، يبدو لنا منها سببان رئيسيان، الأوّل يعود إلى اهتمام بلزاك المستمر في تلك المرحلة التي ينشىء فيها **الملهاة الانسانية** في أن ينسج ما أمكنه روابط بين مختلف رواياته، والحال أنه أوجد حديثاً في رواية **رجل كبير من المقاطعات في باريس** مجموعة من الشباب مازالوا دون ماض أو شخصية مثبتة. ومن بين هؤلاء الممثلين الذين مازالوا دون عمل حقيقي، والذين ينتظرون أن ينسب لهم دور في **الملهاة الانسانية** الرسّام جوزيف بريدو، وفي مخطط الرواية يوجد دور الأخ الذي حرم من نصيبه في الميراث؛ فينسبه بلزاك إلى جوزيف بريدو.

لماذا هذا الاختيار الذي سيثقل على تطورُ العَمَل؟ عدة فرضيات ممكنة. فالفنان، كنموذج بالنسبة لبلزاك، كائن على حدة، قليل التأثر بالحقيقة الماديّة، وبقيمة المال، فهو مؤهل إذا للعب دور من يسهل انتزاع ميراثه؟ هذا التوافق بين نموذجِ الشخصية، والدور الذي تلعبه يدخل دون شك في الاختيار. لكن هناك واقع حدوث الرواية في إيسودون. وبلزاك منذ ١٨٣٤-١٨٣٥، وبناءً على اقتراح أصدقائه في إيسودون، آل كارو، وپريمه، وبورجه يفكّر في أن يمركز فيها إحدى رواياته من مشاهد المقاطعات. والحال أن بوَرجه، الرسّام، كان قد عاد مجدّداً من رحلة حول العالم؛ وبلزاك يلتقي به غالباً. إذا فهناك تسلسل فكري ممكن بين بورجه، وإيسودون، والرسم، وبريدو خاصة وأن بلزاك يحب أن يوجّه التحية لأصدقائه عبر مؤلفاته. وفي **المتصيّدة** يتطرق إلى فرابسل حيث يعيش أصدقاؤه آل كارو، وفي إيسودون اكتشافات أثرية لبريمه. وبإدخاله رسام في قصته يستطيع أن يحيي صديقه بورجه. أخيراً هناك تسلسل ممكن، رغم صعوبة حصره بين اسم برُوده المنسوب إلى فلور فترة، واسم بريغو في **بييريت**، واختيار بريدو: ومازلنا لا ندرك كثيراً الدور الهام لاختيار الأسماء في الإبداع البلزاكي. وأيا كان الأمر، فإن اختيار جوزيف بريدو لهذا الدور، يوجّه كلَّ التوجيه تحقيق العمل؛ إذ أن المنظور البعيد ليس هذه الرواية فقط، وإنّما مجموع **الملهاة الإنسانية**ومنح هذا الشخص سيرة ذاتيةو وشخصية متميزة؛ ومن هنا جاء التطور الضروري لهذا الدور الثانوي، مؤدياً بالنتيجة إلى تطوير مماثل في العرض، الذي أمكن أن يكون سريعاً لبطل الرواية، الأخ، في الدور الأساسي في المخطط المجمل، إذن فاختيار جوزيف بريدو يمكن اعتباره السبب الأولّ للإسهاب في القسم الأولّ.

بخلق أخوين، أحدهما فنان يقوم دوره الروائي على أن يُسلَب من قبل أخيه، يجد بلزاك نفسه مجدّداً أمام موضوع يكنُّ له مودّة خاصة؛ وهناك مواضع متسلطة في نتاجه تجد فرصة لتتجلّى. ونحن نعرف منذ مقال بيير سيترون[1] أهمية موضوع الأخوين في نتاج بلزاك، من **الولد الملعون** حتى **المتصيّدة**؛ وما يعود إلى وجود أخيه ابن الزنا هنري. وتجب هنا دراسة مطولّة حول الانطباع الخاص الذي

(١) «منطقتان غامضتان في سيكولوجية بلزاك» السنة البلزاكية ١٩٦٧.

يأخذه الموضوع في هذه الرواية، حيث أن جوزيف وفيليب ليسا انعكاسين بسيطين، صرفين لأونوره وهنري. ففي **المتصيّدة** لا وجود لابن علاقة حبّ محرم؛ ولم تُصغ أيّة شبهة حول شرعية ولادة أيّ من الأخوين، وبلزاك يعبّر عن جرحه العميق بالصورة التي يعطيها للأم أغات بريدو؛ تلك الأم التي تفضل أحد الولدين، فهي من نواح عدّة، أم بلزاك، مما يقود الروائي لإعطائها دوراً لا يقارن بالدور المحدّد لها في البدء.

وشروط حياة بلزاك في الفترة التي كتب فيها **الأخوين** بالذات، تساهم أيضاً في إعطاء أهمية كبرى لهذه الدراسة عن عائلة بريدو. فبين أيلول وتشرين ثاني ١٨٤٠ وجب على بلزاك أن يترك جاردي ليقيم في شارع پاسي مع لويز، ويستضيف أمّه. ومن هنا هذا الانتقال المفسّر بسوء الحظّ، ومن هنا تساؤل بلزاك لنفسه عن وضع أمّه. ألا يعكس بجوزيف، الفنان، صورة الابن الطيب الذي أراد أن يكونه، الذي اعتقد أن بإمكانه أن يكونه، وبفيليب، الابن السّيء؛ وجهاً آخر، آثماً عن ذاته؟ جليٌّ أن جوزيف وفيليب يشكّلان، الأولُ «الطيف»(١) في المرأة. والثاني «الصورة المشوّهة»(٢) في المرآة. أي مخلوقان يصوّر بلزاك نفسه فيهما. هذا الحضور لبلزاك نفسه، ولأمه، في شخصيات جوزيف وفيليب وأغات، سبب آخر هام لتوسُّع القسم الأوّل من الرواية خلال التنفيذ.

من هنا نرى ما أعطى لبسط هذا القسم الأوّل ترابطه الداخلي العميق، ونرى كم من العَبَث والمشكوك به محاولة تفسير التكوين بتركيب موزاييك واستعارات حقائق من مصادر كتبية، فاللجوء إلى هذه العناصر لا يجري إلا لإعطاء الشخصيات المختلفة الملامح المميّزة لمهنتها. ومن الممكن أن يأخذ بلزاك من دلاكروا أو شيفر أو سيغالون تفصيلاً ما عن الطبع أو المهنة ليجعل من جوزيف رسّاماً؛ ومن هذا الضابط أو ذاك بنصف راتب العناصر الموثّقة للخاصّة العسكرية لدى فيليب بريدو. ولا يخلو من فائدة استعراض النماذج التي اقترحها المنقّبون لتقدير العناية التي يبذلها بلزاك في هذا العمل ليكسب شخصياته مظهرها الواقعي، ولكن لا يمكننا في هذه العجالة التطرق إليه. كما يجب الإشارة إلى الانتباه الذي يوليه بلزاك

---

(١) صيغة لبيير أبرهام في: «المخلوقات لدى بلزاك» ١٩٣١.

(٢) بيير سيترون: «المخلوقات المشوّهة في المرآة» مجلة أوروبا -كانون ثاني- شباط ١٩٦٥.

لربط أحداث الحياة الخاصة لأشخاصه مع وقائع الحياة السياسية أو الثقافية للعصر الذي نصب نفسه مؤرخاً له ومدوّناً لوقائعه. وهذا الارتباط بتاريخ المرحلة يساهم بشكل واسع، مثلما اللجوء إلى نماذج حقيقية في اصالة ابتكاره.

يبقى مع ذلك عنصر هام لم نتطرق إليه في هذا القسم الأول من الرواية: وهو شخصية السيدة دكوان ودور المقامرة في حياة آل بريدو، ويبدو ذلك لنا عنصراً من المخطّط البدائي؛ فبلزاك كان بحاجة للتحضير لشخصية ابن الأخت من القسم الأول تبعاً للدور المحدّد له في القسم الثاني، وهو دور غير مشرّف فكّر الروائي أن ينسبه لهوى المقامرة. وفيليب بريدو مقامر لكنه ليس مهووساً بالمقامرة، وفي النص الذي نقرؤه، يعود هذا الميل إلى حياته العسكرية والأوساط التي يخالطها؛ وكان يمكن لبلزاك في مرحلة سابقة أن يخلع على شخصيته الهوس المكتسب من الاقتداء بدكوان. مما يتيح له في ذات الوقت أن يتصدّى لليناصيب ولشخصيات هواته في **الملهاة الانسانية** ويبدو أنه بحث في هذا الاتجاه، وبحث كما يفعل غالباً في ذكرياته العائدة للمسرحيات. وفي **بييريت** يوجد إشارة إلى مسرحية **بيت اليناصيب** لبيكار ورادِه وهي تعود للعام ١٨٣٨ ويذكر بيير سيترون أن الموظفة في **مكتب اليناصيب**؛ وهي مسرحية لمازير وروميو (١٨٢٣)؛ تسمى أغات، وفيها يتطرق إلى عمّة تغذي باستمرار ثلاثية في اليناصيب، وإلى ضرورة عدم تجاوز ساعة الإغلاق في يوم السحب. ونحن نعتقد أن هذه العناصر تمّ تصوّرها قبل أن يأخذ القسم الأول، للأسباب التي سبق ذكرها، أهميته وانطباعه العام؛ ثم تعدلّت بدورها بتطور المؤلَّف. وعندما أوقف بلزاك القسم الأول، كان قد كتب نصاً بلغ طوله ضعف ما توقّعه خاصة وأن الشخصيات أخذت أهمية تجاوزت بكثير الدور المحدّد لها في البدء، دور أغات وجوزيف بالتأكيد، إنّما دور فيليب أيضاً، ولم يعد بالمستطاع المحافظة على التتمة كما كان مخططاً لها دون اخلال بالتوازن: أي بوصول فيليب إلى إيسودون لإنقاذ ثروة خاله، واكتفائه بأن يغدو عشيقَ فلور، وتزويجها لخاله، ثم الزواج منها بعد موت الخال، والاستئثار هكذا بالثروة لنفسه. وضرورة وضع مخطط جديد لهذه التتمة من الرواية، على ما نعتقد، يفسر تأخّر بلزاك في تحقيقها خلال تشرين ثاني ١٨٤١.

وفي المخطّط الجديد للقسم الإيسودوني، وجب على الروائي أن يخصص

دوراً لأغات وجوزيف؛ فهو لا يستطيع أن يترك أو يهمل بجلاء شخصيتين منحهما بروزاً ظاهراً في القسم الأوّل، كما يجب أن يعطي لفيليب دوراً يتوافق بشكل أكبر مع طبعه ولا يقتصر فقط على إغوائه الخادمةالخليلة لروجه. وجب في المُجَمل أن يعطي لروايته طابعاً مأساوياً. وهذا العمل الجديد في التحقيق، الذي يتمّ لدى بلزاك ببعض البطء، وفي قسم منه في اللاشعور، هو بالبديهة عمل دقيق البنيان؛ نقتصر ما أمكن على محاولة استخلاص العناصر التي ساهمت دون شكّ، في نسخ اللحمة الجديدة لهذه التتمة من الرواية. فهناك في البدء مضاعفة شخصية فيليب بماكنس جيله، وبلزاك يعود مجدّداً إلى الاسم الذي اختاره في البدء لعشيق فلور، فماكسنس ابتكر فعلاً بالرجوع إلى شخصية فيليب، لتقديم خصم على قياس بُكْر آل بريدو. وهو يرث قسماً من الدور المخصّص في البدء لفيليب: فهو الذي يغدو عشيقاً لفلور ويحاول بهذه الطريقة اقتناص ثروة الخال؛ لكن فيليب هو من سيتابع الدور بتزويجه فلور لروجه، ثم الزواج منها بعد أن تغدو أرملة. وماكس يرث أيضاً، وهذا ما هو أكثر إثارة، وأكثر تعبيراً، من السيرورة التي أدت إلى خلقه، طبع «ابن حبّ محرّم»؛ والولادة غير الشرعية التي يُشَعر بها مضمرة في فكرة التضاد بين الأخوين بريدو. ومن خينها، فالحدث بالذات في هذا القسم الثاني يتضاعف؛ فهناك مرحلة جيله، ومرحلة بريدو، وبين المرحلتين المبارزة التي أتاحت لفيليب إزاحة صنوه.

عناصر أخرى تدخل في تحقيق هذا المخطط الجديد: هي المعلومات التي يقدّمها لبلزاك أصدقاؤه الإيسوديون، فعدا تلك التي تسمح له بوصف المدينة، والتصدي لتاريخها؛ هناك تلك التي تتعلّق بفرسان البطالة، وبصورة خاصة تلك التي تتعلّق بشخصية النقيب فيكس، وقصة مبارزته. وقد قدّم غاستون إمبو بفضل تنقيبات في الوثائق معلومات ثمينة حول هذا الشخص، وحول مبارزته[1]. لكن بلزاك أراد أن يرى في فيكس النموذج المباشر لماكس وفي هذه المبارزة المصدر المباشر أيضاً لمبارزة ماكس وأصدقائه مع الضباط الملكيين، وهكذا حدّ من الفائدة، وزيّف قليلاً تفسير عناصر المعلومة التي ينقلها لنا. والواقع أن مجموعتين من ثلاثة ضباط بونابرتيين مقيمين في إيسودون تواجهتا في هذه المبارزة. فجعل منها بلزاك مبارزتين: فمن جهة تلك التي يتواجه بها ماكس، والضباط البونابرتيين، مع

(١) انظر السنة البلزاكية ١٩٦٥: «حول المتصيّدة: النقيب فيكس ومبارزه فرابسل».

الضباط الملكيين المارين في إيسودون. ومن جهة أخرى تلك التي سمحت لفيليب أن يتخلص من ماكس. وتسهل رؤية طريقة استخدامه في الواقعتين للمعلومات التي قدّمت إليه، وهي دون شك، أقل دقة بكثير من تلك التي ندين بها لتقصّيات غاستون إمبو.

عنصر هام آخر في هذا الإعداد: ذكرى مأساة سان لو، حيث لَقِي آخر أمراء كونده الموت، والخطوط الكبرى للحكاية معروفة؛ فالأمير الكهل الأرمل، الداعر إلى حدّ ما، التقط من الأوساط اللندنية البائسة ابنة صيّاد، صوفي دوز، جعل منها عشيقته ووريثته، وزوّجها من البارون دي فوشر. وقد بيّن بلزاك بنفسه التقارب بين فلور برازيه وصوفي دوز، كما أنَ السيّدة آن -ماري منينجه أظهرت كل ما يعود في المتصيّدة إلى هذه الواقعة الحقيقية[1]. ويتوقّع أن يكون بلزاك قد فكّر بهذه القصة في وقت مبكّر نسبياً؛ أي منذ تصورّ الرواية: فالتلميحات إليها عديدة في **الملهاة الانسانية**، لكن يتوقع ألا يكون قد لاحظ كل ما يمكن أن يستغلّه من هذه الحكاية إلا خلال الفترة التي تفصل تحرير القسمين. وبيّنت السيّدة مينينجه أن موت السيّدة فيشر في كانون ثاني ١٨٤١، أي بعد تحرير **الأخوين** قد أعاد هذه الواقعة الجارية في العام ١٨٣٠، إلى واجهة الأحداث. ووجّهت انتباه بلزاك دون شكّ إلى هذه القضية، وواقعة غراميات فلور وماكس ومساعيهما لاستلاب قسم من ثروة روجه على الأقل، مستوحاة بشكل مباشر تقريباً من تلك القصة. يوجد أخيراً في الحادثة المزعجة التي تعرّض لها جوزيف في إيسودون ذكريات قضية بيتل؛ وفي الأهمية المعطاة خلال القسم الثاني من الرواية للمؤامرة التافهة تقريباً التي أتهم فيها فيليب في القسم الأوّل ذكريات من **قضية غامضة**؛ كما ترد عناصر أخرى **من بداية في الحياة**، ومن **أوهام ضائعة**، ومن **بيت نوسنجن**. كل هذا أتاح لبلزاك أن يطوّر القسم الثاني من الرواية ويعطيه ذات الأهمية التي اتخذها القسم الأوّل.

هذه المحاولة السريعة لإعادة تصورّ ولادة **المتصيّدة**، أيا كانت محدوديتها، تبدو لنا ذات عون في قراءة أكثر غنى لهذه الرواية الكبيرة، التي لم تنل الشهرة التي تستحقها. وقد جرّبنا أن نبين المسار المتدرج لهذا المشهد من حياة المقاطعات، المخصّص في البدء لحياة العزوبية، ثم اتخذ سعة مدهشة بحيث غدا أحد الأحجار

---

(١) مقال «واقعية ووقائع» في مجلة أوروبة: كانون ثاني-شباط ١٩٦٥.

الزاويّة في **الملهاة الإنسانية** وهو يشهد على المهارة المدهشة التي حققّها بلزاك في هذه المرحلة من النضج التام ويقدّم لنا نظماً متكاملاً للأفكار الرئيسة في هذه الجوقة الكاملة. سنترك للقارىء أن يكتشف ويقدّر الفن الذي عرف بواسطته بلزاك أن يبني رواية لا تعيبها إلا بعض هفوات بسيطة (كان بإمكان تصحيح أخير أن يمحوها دون شك) لكن نحب أن نشير إلى الطريقة التي انتظمت بها هنا الأفكار الرئيسة لبلزاك.

في البدء إذن كان موضوع العزوبة. «ووضع العازب وضع مضاد للمجتمع» كما يؤكد بلزاك في مقدمة **بييريت**. إذ أن العازب يرفض أن يؤسس عائلة؛ والعائلة هي خلية الأساس في المجتمع؛ وبالموضوع البدائي للعزوبة، يستبدل بلزاك في الواقع، سريعاً جداً، هذا الموضوع المركزي للعائلة، العائلة التي تهدّمها، دون انقطاع، التقاليد، التقاليد الحديثة؛ وما هو ذو مغزى أن من النادر وجود العائلة الكاملة في روايات بلزاك، أي العائلة التي يقوم كلّ من الأب والأم فيها بدوره تماماً. وهنا، في هذه الرواية يغيب دور الأب، وهو غياب خطير، لم يكن الموت الذي أفقد العائلة معيلها، وهو في الأربعين من العمر إلا دلالته الأولى؛ فهو لم يؤمن الحماية للإرث العائلي وترك النصيب العائد لزوجته يفلت منه، ولم يترك لأرمتله وولديه الموارد الكافية؛ والعائلة في نظر بلزاك قبل كل شيء هي الاستقرار المالي الذي هو أساس الاستقرار في المجتمع؛ فمأساة عائلة بريدو هي، قبل الموت المبكر لربّها، خسارة ميراث روجه.

من المهم أن يُرى أيضاً، وربّما قبل كل شيء، في رواية **المتصيّدة**، تاريخ ثروة ثلاثة أجيال. ومن المهم أن نشير إلى اهتمام بلزاك في اعتبار نقطة انطلاق روايته من الجدين دكوان، اللذين لا يقول لنا عنهما، مع ذلك، إلا النزر اليسير، ما عدا جمعهما للثروة، والطريقة التي جمعاها بها: بتجارة الأصواف، ثم شراء العقارات الوطنية. فإن حذفت هذه الثروة الأولّية، فلا وجود للرواية. فنقطة الإنطلاق هي: لماذا تزوّج الدكتور روجه ابنة دكوان؟. وفي سياق الرواية لا يفتأ بلزاك يبيّن لنا تزايد هذه الثروة بين يدي الطبيب الماهرتين أولاً؛ ثم بين اليدين الخرقاوين لابنه الأبله جان جاك نفسه، وبعد ذلك، وكأن الثروة اعتباراً من مستوى معيّن لها تتزايد من تلقاء نفسها؛ إذ لُنشر جيّداً إلى مايلي، أبداً ليس العمل هو مصدر الأرباح، بل المال؛ فهو بالربا، وبالتوظيفات، وبأعمال الآخرين، يأتي بأموال أخرى. وكم هو ذو

دلالة، انتقال القسم الأعظم من تلك الثروة، بحركة البورصة، والمضاربة، إلى صناديق المصرف القوي، إلى نوسنجن ذئب المالية الجشع، وإلى المنتمين إليه! ومن استعراض تاريخ نصف قرن، ومن خلال رواية، يبيّن لنا بلزاك تطوّر مجتمع كامل. وتتويج المال مرمّزاً له باعتلاء الملك البورجوازي العرش، نتيجة أحداث العام ١٨٣٠، وهو نقطة الوصول في الرواية، وهو أيضاً بالنسبة لبلزاك دلالة انحلال المجتمع.

ذلك أن المال المُنَصَّب هنا كقيمة جوهرية مُفسد. وامتلاك المال يؤدي للبخل لدى آل دكوان أولاً، ثم لدى العجوز هوشون، الذي نجد فيه بعض ملامح الأب غرانده. والرغبة في المال تقود إلى هوس المقامرة، والسرقة، والبغاء، والقتل، وجميع مناورات المضاربة: وغياب التكالب على المال يؤدي إلى تناقص الشقاء كلّ هذا موضّح في هذه الرواية، وباختصار أخّاذ. لكن بلزاك لا يكتفي بالوصف؛ فتصديه للموضوع مقترن كليّاً بقناعاته الراسخة، والسبب البدائي لكل أذى هو إلغاء حق البكورية، وذلك دلالة تحوّل في الأفكار أعطى الأفضليّة للفرد على العائلة، ومن حينها وجب البدء من جديد مع كلّ جيل، ولم يعد المجتمع إلا ميداناً مغلقاً تتصارع فيه الأنانيات: والعائلة نفسها تفجّرت بالأنانية، وفرديّة أعضائها.

بعد أن وضح بلزاك ما يعتبره أسباب البلاء، يقترح أيضاً العلاج، وهو يراه في تركيز السلطة الأبويّة المبيّنة أهميتها هنا بطرائق متعدّدة: بالقدر المشؤوم لفيليب وماكس المحرومين من الأب؛ وبحياة الابنين دروش وكلابارون التي تأتي كبرهان مقابل على تأثير توجيه أبويهما؛ وبسلوك العجوز هوشون، وقد أنقذت سلطته، قبل فوات الأوان، حفيديه؛ والذي يضع أحدهما تماشياً مع العصر، في المصرف. كما يرى من أنواع العلاج أيضاً نظام تأسيس إقطاعية، هذا البديل الجزئي لحقّ البكورية، الذي أنقذ جزءاً من ثروة روجه من براثن المضاربين، ويراه أخيراً على المستوى الأخلاقي والديني، في العودة إلى المبادىء المسيحية. وكما كتب في نهاية **بييريت**: «لنعترف ضمناً أن الشرعية بالنسبة للاحتيالات الاجتماعية مستند جميل لو أن الله غير موجود» أراد هنا أيضاً أن يبرهن على: «أن إصبع الله، المسماة غالباً القدر، تنوب عن العدالة الإنسانية».

لكن ما من مكان، دون شكّ، مثل هذه الرواية، تبدو فيه هذه الفكرة بمثل

هذا التكلّف فهي سيّئة التطابق مع العالم الذي عرف بلزاك كيف يعيد تكوينه ويحييه. وتدخّل القدر، في نهاية الرواية، يبدو متصنّعاً بقدر الوسائل التي لجأ إليها الروائي لينزل العقاب بفيليب. واللحظة الوحيدة التي تتدخل فيها ضربة إبهام القَدَر -أو إصبع الله- هي في فشل مشروع زواج فيليب مع آملي دي صولانج، وكان بعملية انتقام، بحيلةمن بيكسيو الماكر! هل يمكن أن نرى في هذه الوشاية، وسببها الأول رعونة فيليب وسيلة القدر؟ هنا كما في كل مكان آخر، يدفع فيليب ثمن أخطائه، أخطاء رجل لم يدرك أن العالم لم يعد للعسكريين بل للماليين. ورغما عن المؤلّف فالحقيقة التي عرف جيّداً كيف يلاحظها، ويفهمها ويعبّر عنها تتكلّم هنا بصوت أعلى من كلّ النظريات التي يجرّب أن يتمسّك بها، والتي يحاول أن يفرضها علي أبناء عصره. ومن وجهة النظر هذه تبدو المتصّيدة جيّداً كخلاصة، وتركيز لكلّ نتاج بلزاك.

لكن **الملهاة الإنسانية**، هي أيضاً، وربّما بشكل رئيس، «التاريخ المأساوي للشبيبة منذ ثلاثين عاماً»، كما كتب بلزاك في مقدمة **دافيد سيشار**، فهي قصّة هذا الجيل، جيل بلزاك، الذي يطلع على الحياة النشطة في مرحلة سقوط الامبراطورية، والذي يجب، ليتكيّف مع هذا المجتمع الذي غدت فيه قطعة المئة فلس هي الإله المعبود، أن يترك كثيراً من الأوهام، ويتخلّى عن كثير من الطموحات. وهنا أيضاً تقدم **المتصّيدة** قوام هذه المأساة. ففي قماشة الخلفيّة الصراعات، ومرارات الخيبة، وحلاوات النجاح لجميع هؤلاد الشباب الذين يحملون أسماء بيكسيو، وميشيل كريستيان ودرفيل، ودروش، وفينو، وليون جيرو، وغودشال وليون دي لورا، وإيتين لوستو، ودي مارسي، وناتان، وراستينياك، وفوجنس ريدال، وفي المستوى الأول، وكترميز للأصل فيليب وجوزيف بريدو. فحياة فيليب توضح قلق شبيبة أعدّت لقدر غير ذلك الذي حُكم عليها بالعيش فيه، وهكذا تجد نفسها منجرّة إلى جميع الإحباطات، وجميع الشبهات. وكلمة أغات روجه «لولا الحلفاء لما وصل إلى هذا الدرَك» تترجم جيّداً تلك الحالة، ومسيرة جوزيف على النقيض تماماً، تكشف عن الوجه الآخر للمأساة: وضع الشباب الموهوب الذي يصطدم بعدم إدراك المجتمع البورجوازي الذي لا يرى أبعد من طرف مصالحه المالية.

والحال أن جوزيف ينجح، ونجاحه متأخّر سعيد، ثمرة الظروف بقدر ما هو

نتاجُ الرسّام بالذات، هو نجاح يكافىء العمل والشجاعة والإرادة. ويوجد دون شكّ، هنا، في هذه الصفحات المكتوبة في العام ١٨٤٢، في الفترة التي بدأت تظهر فيها **الملهاة الانسانية**، ثمرة خمسة عشر عاماً من جَهْد متواصل، وفي الفترة، أيضاً، التي تمكّن فيها بلزاك أن يتغلب على الأزمة، التي كادت غداة موت السيد هانسكا تؤدي إلى القطيعة مع الغريبة، وبذلك أمكنه أن يأمل الالتحاق بها، والزواج منها؛ انعكاس نفسي لخاتمة سعيدة يحلم بها لنفسه. ولن يُستنتَج من هذه الرواية، كما من كل **الملهاة الانسانية**، أقل من التأكيد على قيمة بمثل صلابة الاعتقاد بإصبع الله: الإيمان بالعمل، وبالارادة التي جعلت، رغم كل شيء، جوزيف سعيداً، فَجَلَت موهبته وحققت ذاته. أما باقي ما مُنِحه فكان زيادة.

هذا المظهر المضاعف من **الملهاة الانسانية** المقترن على أتّمه في **المتصيّدة**، قد يجعلنا نحسهُ عن قرب بالتناقض الرئيس في نتاج بلزاك، ويقودنا إلى قلب هذا النتاج، المبهم غالباً إنّما الجذّاب دائماً. فهناك بلزاك الذي يلاحظ، ويحلّل، ويفكّر، ويتصوّر، وينشىء مؤلّفات ليوضّح أفكاراً، ويعطي نتيجة تحاليله، وملاحظاته. -هذا الذي يصورّ لنا بكل مضاء هذا العالم قيد التحوّل حيث ينتصر المال. -هذا الذي يقصُّ علينا ملحمة ثروةٍ تتنازعها السرقات، والجرائم، والانحطاطات. -وأيضاً هذا الذي يقترح علينا عودة مستحيلة إلى مبادىء بالية.

وهناك بلزاك الذي يحيا بعنفوان، ويعرف جميع الصعوبات التي تعوق ممارسة الحياة بشرف في العالم كما هو معدّ لنا، ويستسلم للموّثات يحدث أن يتصرّف فيها مثل فيليب بريدو، لكنه يعرف مثل جوزيف كيف يصارع لجلاء الموهبة التي يحسُّ بها في كيانه وينجح في تحقيق ذاته بواسطتها، وبها يعطي لحياته معنى. هنا بلزاكان تعاونا بشكل وثيق: أحدهما فكّر، وهيّأ، والآخر غذّى المخطّط المقدّم من الأوّل، بالأكثر عمقاً والأكثر تناقضاً في ذاته. وكانت النتيجة هذه الرواية المتفوّقة التي تعرض لنا حصيلة نتاج لشخصية ومرآة أمينة لها.

رينه غيز.

* * *

الفهرس

ثلاثية العازبون

الرواية الثالثة: المتصيدة

١٥٠٠ ط١ /١١/ ٢٠٠٠

المتصيّدة هي الرواية الثالثة من ثلاثية العازبين، وقد أراد بلزاك أن يبيّن فيها، بادئ ذي بدء، أن قدَر العازب أن يغدو، بعد زمن طال أو قصر، فريسة أولئك الذين يطمعون في ثروته؛ فجان جاك عازب أبله ورث عن أبيه الماجن ثروة طائلة، وخليلة مراهقة فاتنة تتواطأ مع عشيقها الضابط السابق، وزعيم فتيان البلدة - فرسان البطالة - على اختلاس ثروة العازب. غير أنّ لهذا العازب الأبله ورثة شرعيين هم أخته الأرملة أغات بريدو وولداها فيليب وجوزيف وهي ربة بيت مخلصة لكنها متحيّزة لابنها البكر فيليب الوسيم المغامر دون أخيه جوزيف الخجول المتواضع المنصرف إلى تعلّم الرسم. ينخرط فيليب في الجيش ويحيا حياة الضابط اللاهية العابثة، ويُسرَّح ويهاجر إلى أمريكة ويعود خائباً ويبدّد موارد العائلة المحدودة ويسرق أخاه ونسيبة لهم «هاوية ياناصيب» ويتوجه أخيراً ليحصل لوالدته على حقّها من ميراث أبيها فيُقتَل في مبارزة عشيق فلور خليلة خاله الأبله الذي حلّ به المرض ويتزوّجها بعد وفاة الخال ليستأثر بالميراث كاملاً دون أخيه وأمه ويضطهد فُلور حتى الموت ويبدّد الميراث فيعود إلى الجيش متطوعاً في حملة الجزائر ليلقى موتاً رهيباً تحت ضربات «اليطقانات». أمّا جوزيف فيغدو رسّاماً شهيراً ويلقى النجاح المكافئ للعمل والشجاعة والإرادة.



الطباعة وفرز الألوان مطابع وزارة الثقافة

دمشق ٢٠٠٠

سعر النسخة داخل القطر
٢٠٠ ل.س

في الأقطار العربية ما يعادل
٤٠٠ ل.س